جوزيف كامبل

أساطير نحيا بها

ترجمة: أحمد م. أحمد

أساطير نحيا بها

تأليف: جوزيف كامبل

ترجمة: أحمد م. أحمد

الطبعة الأولى: 2019

ISBN: 978_9933_9285_6_8

جميع الحقوق محفوظة ©copyright

تصميم الغلاف: كندة يوسف

العنوان الأصلي للكتاب:

Myths to Live By

by: Joseph Campbell

copyright © 1972, Joseph Campbell Foundation (jcf.org)

"Collected work of Joseph Campbell / Robert Walter, Executive Editier/David Kudler, Managing Editer"

JOSEPH CAMPBELL FOUNDATION

فواصل

اللاذقية، سوريا، هاتف: 2400126/7 (41)963+

البريد الالكتروني: info@darfawasel.com

يمكنكم زيارتنا عبر موقعنا الالكتروني

www.darfawasel.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله، على أي نحو أو بأيّ طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدما.

جوزيف كامبل

أساطير نحيا بها

ترجمة: أحمد م. أحمد

تصدير

تكونت فكرة **جمعية كوبر للنهوض بالعلوم والفنون**، من بين أشياء عديدة عظيمة أخرى، في الذهن المتوقّد لـ بيتر كوبر (1791-1883). المبتكر الثوريّ حرّ الفكر، رجل المال، والسياسي، والمناضل النسوي الحقيقي الأول في نيويورك. ومما أريك كوبر هو افتقاره للتحصيل العلمي وإدراكه أن العلم في زمنه كان وقفاً على الميسورين من الناس دون سواهم. غير أن الفكرتين، وبتحفيز من حركة تشيتاكوا ومآثر متبرعين آخرين مؤمنين بجدوى المشروع، سرعان ما تغيرتا لديه، وقد تجلى إسهامه الأساسي في فكرة المنتدى وتدريس الراشدين، الذي تمخضت عنه أول جامعة لتدريس الراشدين في البلاد.

منذ اليوم الذي ألقى فيه إبراهام لينكولن خطابه وحتى الآن، وقف أكثر من خمسة آلاف مُحاضر وفنان على منصة الصالة الكبيرة، ووصلت أفكارهم جمهوراً تعداده بالملايين: ما يعادل ألفَ إنسان في الليلة، ثلاث ليالٍ في الأسبوع.

واليوم- مع الامتنان لتشجيع السيد سيمور سيغل ومساعدة السيد برنارد باك- فإن الحلقات تُبَثّ عبر إذاعة مدينة نيويورك المحلية إلى مئات آلاف المستمعين الآخرين. إنها بطبيعة الحال أطول سلسلة محاضرات إذاعية في التاريخ؛ ويعود الفضل إلى حد كبير إلى جمعية كوبر في أن مخرج برنامج المحاضرات لصالح المنتدى- الذي أُنيطت به مهمة

فكرية متفردة جليلة تتمثل في استحضار الماضي واستشراف المستقبل. لم تعترض طريقه أو توجّهه أو تتدخل في سير عمله.

كانت إحدى ثوابتي في السنوات الاثنتين والعشرين التي أمضيتها في جمعية كوبر أن كلّ امرئ من بين ما يزيد عن الألفين الذين دعوتُهم للتحدث أو لأداء عرض ما، وشغَلَ مكانه على المنصة، سيصبح صديقاً لي. كذلك الأمر مع كلّ عضو من الجمهور المرئيّ وملايين اللامرئيين من مستمعي الإذاعة. سيكون عسيراً أن تختار متحدثاً بعينه؛ غير أن جوزيف كامبل، مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا، يعبّر على أكمل وجه عن نوعية الخطاب والعقلانية التي تطلّبها المنتدى. لم يستخدم دفتر ملاحظات، بل تحدث بشكل أنيق، وكان متألقاً للغاية؛ وقبل كلّ شيء، مرّر الأفكار التي تجسّرُ الماضي بالمستقبل وعالمَ الشرق بالغرب. وقدّم في المنتدى العديد من البحوث القيّمة وسلاسل المحاضرات، وكانت على الدوام تترك أصداء طيبة وممتعة. وهذا الكتاب، بما هو مستمَدّ من تلك المحاضرات، يختصر عمراً من المعرفة والمبادئ العليا التي سادت منتدى جمعية كوبر. وإني فخور بأن أكون جزءاً من هذا الكتاب الجليل.

جونسون ي. فيرتشايلد

نيويورك

15 تشرين الأول، 1971

مقدمة

من بين مجموعة تقرب الخمس والعشرين محاضرة أُلقيت في القاعة الكبرى التابعة لمنتدى جمعية كوبر، نيويورك سيتي، ما بين 1958 و1971، اخترتُ ورتّبتُ هنا أكثر من دزينة. من حيث أن البحث الرابع مؤلّف من شذرتين تعودان إلى نفس العام. أما الموضوعات والعناوين فأنا مدين لذاكرة د. جونسون ي. فيرتشايلد، مدير المنتدى، الذي أبقتْ حصافتُه المغلفة بالظرافة وعذوبته الشخصية تلك المؤسسة المبهجة قائمة على مدى ربع قرن. لقد استُمدّ بعضٌ من ديمومة سعادتي في أن أُحاضر هناك، بالتأكيد، من الفخامة الأصيلة ذات الطراز العتيق للقاعة الكبيرة ذاتها ومعرفتي أن إبراهام لينكولن قد ألقى خطاباً على نفس المنصة التي وقفتُ عليها (إحساس باطني يقينيّ بالاندماج في المجرى العريض لتاريخ الخطابة الأميركية)؛ بل أيضاً، بعد ذلك مباشرةً، من مزاج وطبيعة الجمهور متفتّح البصر والبصيرة الذي أفلح د. فيرتشايلد في اجتذابه إلى سلسلة المحاضرات وحلقات النقاش الوفيرة والمجانية التي كان يديرها في ذلك المكان الحميم. كانت الساعات التي تطرح فيها الأسئلة عقب المحاضرات، عندما يمشي ببطء ممسكاً بالمايكروفون جيئة وذهاباً في الممرات التي تتخلل مقاعد الجمهور، مفسحاً لكل من رفع يده أن يقول ما يشاء ضمن تعليق أو استفسار أو خطاب مسبق التحضير، قد رفعتْ من تقديري للمرح الشفيف حين التحدث إلى الناس الأليفين بشأن مواضيع من حقل اهتمامي ضمن شروط تلائم اهتماماتهم أكثر من أي

تجربة أخرى في حياتي. وآمل، حتى في أكثر الصياغات المنهجية الواردة في هذا الكتاب، أن تكون ليونة وتلقائية متعتي في إلقاء تلك المحاضرات قد بقيت دون تغيير.

في الواقع أنا مسرور لأن الدكتور فيرتشايلد قد تكرّم بالموافقة على تقديم الكتاب، كما قدّمَ من على المنصة كلّ محاضراته؛ قُدّمتْ آخرها في أول آذار، 1971، (بالمناسبة) في آخر أمسيات ما قبل تقاعده من عمله الطويل كرئيس للمنتدى ومدير إدارة تعليم الراشدين التابع لمنظمة كوبر. أعتبرُ هذه المجموعة بادرةَ امتنانٍ وتقديرٍ منّي له للتشجيع، وللصداقة الحميمة، ودائماً لاقتراحات الموضوعات والعناوين الصائبة التي علمتني أن أفسح المجال لمناقشة الآلهة الجواميس، كيتزالكواتل، بوذا، الملكات الجنيّات، نقاشاً مستنيراً مشتركاً مع مئات من أفراد جمهوره. والعديد منهم بقي مخلصاً لسنوات. الذين كانوا في النهاية الملهمين في هذه المحاضرات. وإليهم كما إلى رئيس منتداهم أتوجّه بشكري.

وأشكر أيضاً تقنيي وموظفيّ إذاعة WNYC لتسجيلات الكاسيت التي اعتمدتُ عليها لإعداد هذه الفصول؛ والآنسة مارشا شيرمان لتنضيدها الدقيق وإعادة تنضيد العديد من المسودات، ليس هذه المحاضرات فحسب، بل المحاضرات غير المتضمّنة هنا؛ وإلى زوجتي، جين إيردمان، في المقام الأول لفكرتها بتحويل هذه الحلقات إلى فصول يجمعها كتاب، وللنقد والاقتراحات، التي أخرجت الكتاب إلى حيّز الوجود.

ج. ك.

نيويورك سيتي

4 تموز، 1971

المحتويات

1. أثر العلم على الأسطورة..... 11
2. ظهور الجنس البشري..... 31
3. أهمية الطقوس..... 57
4. افتراق الشرق والغرب 77
5. مواجهة الشرق والغرب في الدين 103
6. إلهام الفن الشرقي 131
7. الزّن 155
8. ميثولوجيا الحب 179
9. أساطير الحرب والسلم 203
10. الفصام- الرحلة إلى الداخل 239
11. السير على القمر- الرحلة إلى الخارج 277
12. رسول: لم تعد هناك آفاق 297

1
أثر العلم على الأسطورة
(1961)

كنتُ جالساً إلى طاولة مطعم أتناول غداء أستمتع به بشكل خاص، عندما أقبل فتىً في حوالي الثّانية عشرة من عمره يحمل حقيبته المدرسية، واحتلّ الموضع الذي يقع إلى جهتي اليسرى. ثم وصل صبي أصغر سناً، يمسك بيد والدته، وشغلَ هذان الاثنان الكرسيين المجاورين. طلب الجميع وجباتهم، وبينما ينتظرون، قال الصبي الذي إلى جواري، وهو يلتفت نصف التفاتة إلى الأم، "كتَبَ جيمي اليوم بحثاً عن تطور الإنسان، وقال المعلّمُ إنه على خطأ، إذ أن آدم وحواء كانا أول والدَين."

يا إلهي! قلتُ في سري. أيّ مدرّس هذا!

قالت السيدة التي تجلس على بُعد ثلاث كراسٍ، "حسناً، كان المدرّس على حق. والدانا الأولان هما آدم وحواء."

أيّ نوع من الأمهات لولدٍ ينتمي إلى القرن العشرين!

انبرى الفتى قائلاً، "نعم، أعرف، لكنه كان بحثاً علمياً." ومن أجل ذلك، كنتُ مستعداً لترشيحه لنيل ميدالية الخدمة المتميزة من معهد سميثسونيان.

مع ذلك، طلعت الأم برأي آخر. "آه، يا لهؤلاء العلماء!" قالت بغضب. "إنها مجرد نظريات."

وكان متأهباً للرد على هذه أيضاً. "نعم، أعرف،" كان جوابه الرزين والهادئ؛ "لكنها مثبتة بالأدلة على أرض الواقع: لقد وجدوا العظام."

أُحضر الحليب والشطائر، وانتهى الأمر.

إذاً، دعونا نتأمل ملياً في الصورة الكونية المقدسة التي هشّمتها حقائق ونتائج توصل إليها باحثون شبانٌ ينتمون إلى جنسنا البشري من أولئك الذين لا يمكن الوقوف في وجههم.

في ذروة العصور الوسطى، فلنقل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كان هناك مفهومان شهيران ومختلفان للغاية عن الأرض. الأكثر شيوعاً بينهما هو أن الأرض مسطحة، مثل طبق مُحاط وعائم فوق بحر كونيّ بلا حدود، فيه كلّ الوحوش الخطرة على الإنسان. تلك كانت نظرية قديمة للغاية، تعود إلى العصر البرونزي. وتظهر في النصوص المسمارية السومرية التي تعود إلى 2000 ق.م. وهي الصورة المعلّنة في الكتاب المقدس.

مع ذلك، كان المفهوم القروسطي المأخوذ على محمل الجد، هو ذلك الذي يعود إلى الإغريق القدماء، الذين لم تكن الأرض مسطحة برأيهم، بل حيّزاً كروياً مصمتاً وساكناً وسطَ نوع من العلب الصينية ذات الكرات السبع الشفافة الدوارة، في كلٍّ منها يستقر كوكب مرئيّ: القمر، عطارد، الزهرة، ثم الشمس، المريخ، المشتري، ثم زحل، السبعة ذاتها التي حملت أيامُ أسبوعنا أسماءَها. أضف أن نغمات الصوت التي تتركها هذه العناصر السبعة، صنعت موسيقا، "موسيقا الكُرات،" التي تتوافق مع سلّمنا الموسيقي. كان هناك أيضاً معدن مرتبط بكل منها: الفضة، الزئبق، النحاس، الذهب، الحديد، القصدير، والرصاص، بنفس الترتيب. وقد التقطت الروح التي تهبط من السماء كي تولَد على الأرض، لحظة نزولها، خصائص تلك المعادن؛ لذلك فإن أرواحنا وأجسادنا هي مركّباتٌ نفس عناصر الكون بالضبط، وكما يُقال، تُغنّي الأغنية ذاتها.

كان للموسيقا والفنون، وفقاً لهذا الرأي المبكر، أن تضعنا في ذاكرة تلك التناغمات، التي تُلهينا عنها سائرُ أفكار الأرض وشؤونها. وفي العصور الوسطى كانت فروع المعرفة السبعة وفقاً لذلك مرتبطة بتلك الكرات: النحو، المنطق، والخطابة (المعروفة بـ *trivium* الفنون الثلاثة). الحساب، الموسيقا، الهندسة، وعلم الفلك (*quadrivium* العلوم الأربعة). إضافةً إلى ذلك، لم تكن الكرات البلورية نفسها، كالزجاج، من مادة خاملة، بل مزودة بطاقات روحية حية، وتتحكم بها كائنات ملائكية، أو كما قال أفلاطون، بالسيرينات. وفضلاً عن ذلك، كان هناك ذلك العالم السماوي الوضّاء حيث جلس الربّ بجلاله على عرشه الثالوثي؛ لذلك، عند الموت، حين عودة الروح إلى خالقها، فإنها تعبر مرة أخرى من خلال الكرات السبع، وتترك عند كلّ كرة منها خصيصتَها المرتبطة بالكرة فتصل عارية إلى الحساب. يحكم الإمبراطور والبابا الأرض، كما كان يُفترض، بموجب قوانين وإرادة الربّ، ممثّلين مشيئته وسلطانه في العمل ضمن العامة المسيحية المحكومة. وهكذا بصورة إجمالية تشمل المفكرين القروسطيين كان هناك توافق تام بين بنية الكون، وشرائع النظام الاجتماعي، ومصلحة الفرد. ومن خلال طاعة لا جدال فيها، سيضع المسيحي نفسه في حالة انسجام ليس مع مجتمعه فحسب بل أيضاً مع كلّ من مصالحه الداخلية ذات الأولوية ونظام الطبيعة الخارجي. كانت الإمبراطورية المسيحية انعكاساً أرضياً لترتيب السماوات، ومنظمةً بشكل كهنوتي تراتبي، بالأردية والعروش وإجراءات محاكمها الفخمة المستوحاة من الأخيلة السماوية، والأجراس في أبراج كاتدرائياتها وتناغم جوقاتها الكهنوتية في محاكاة تلك الأخيلة، بالحان أرضية، وجمهرات الملائكة العلّويين.

يكشف دانتي في "الكوميديا الإلهية" عن رؤيا للكون تنسجم مع كلا النظريتين: الدينيّة المتّفَق عليها والعلمية المقبولة في زمانه. عندما طُرد الشيطان من السماء بسبب صلفه وعصيانه، كان يُفترض أن يسقط كمذنّبٍ ملتهب، وأن يحفر الأرض حين يصطدم بها إلى أن يصل مركزها.

وتصبح الحفرة المهولة التي أحدثها هوّة نار الجحيم؛ وتصبح الكتلة الضخمة من الأرض المُزاحة إلى الأمام باتجاه القطب المعاكس جبلَ المَطْهَر، الذي أظهره دانتي كأنه ينهض باتجاه السماء تماماً كما القطب الجنوبي. ففي رأيه، كان كلّ الشطر الجنوبي مؤلّفاً من الماء، وهذا الجبل المعلاق ينهض من وسطه، وعلى سفحه يستقر الفردوسُ الأرضي، ومن مركزه ثمة الأنهر الأربعة المباركة تفيض بما يقوله الكتابُ المقدس.

ويظهر الآن أن كولومبوس عندما أبحر عبر ذلك "المحيط الأزرق" الذي اعتقد العديد من جيرانه (وربما بحّارته أيضاً) أنه محيط نهائي يطوّق أرضاً تشبه القرص، قد احتفظ في ذهنه بصورة أقرب ما تكون إلى عالم دانتي. التي يمكننا القراءة عنها في الواقع في صحائفه. هناك نعلم أنه في طريق رحلته الثالثة، عندما بلغ للمرة الأولى ساحل أميركا الشمالية، عابراً بسفينته الهشة مخاطر هائلة بين ترينيداد والبر الرئيسي، ذكر أن مقادير المياه العذبة هناك، الممتزجة بالمالحة (المتدفقة من مصبات أورينوكو) كانت هائلة. فهو دون أن يعلم شيئاً عن القارة في الجانب الآخر، باستثناء ما ترسخ في الذهن من فكر قروسطي، قد تصور أن المياه العذبة ربما كانت قادمة من أحد أنهار الفردوس، لتصب في البحر عند جنوبيّ قاعدة الجبل العظيم نظير القطب. بالإضافة إلى ذلك، عندما انحرف، مبحراً باتجاه الشمال، ولحظ أن سفنه كانت تمخر الماء أسرع مما لو كانت تتجه نحو الجنوب، اعتبر الأمر دليلاً على أنهم يبحرون الآن منحدرين، من سفح الجرف البحري لجبل الفردوس الأسطوري.

يطيب لي أن أعتبر سنة 1492 علامةً النهاية. أو على الأقل بداية النهاية. لسلطة المنظومات الأسطورية القديمة التي قدمت الدعم والإلهام إلى حيوات الناس منذ أمد عصيّ على التذكر. وبعد وقت قصير من رحلة كولومبوس التي شكلت علامة تاريخية فارقة، طاف ماجلان حول الأرض. وقبل ذلك بقليل، أبحر فاسكو دي غاما حول أفريقيا باتجاه الهند. كان استكشاف الأرض قد بدأ على نحو منتظم، وفقدت الجغرافيات

القديمة، الرمزية، والميثولوجية مصداقيتها. وفي محاولته إثبات أن هناك روضاً فردوسياً في مكان ما على الأرض، أعلن القديس توما الأكويني، في نص مكتوب قبل قرنين ونصف القرن من إبحار كولومبوس: "حال الفردوس مغلَق أمام العالم الصالح للسكنى بواسطة الجبال أو البحار، أو بواسطة منطقة حارّة ما يتعذر اجتيازُها؛ ولذلك فإن الناس الذين كتبوا عن طبوغرافيا الأرض لم يذكروه." بعد خمسين سنة من الرحلة الأولى، نشر كوبرنيكوس بحثه عن الكون الذي تقع الشمس في مركزه (1543)؛ وبعد ذلك بستين سنة ونيّف، جاء منظارُ غاليليو الصغير ببرهان ملموس على وجهة النظر الكوبرنيكية. وفي سنة 1616 أُدين غاليليو من قبل محاكم التفتيش. كما أُدين الصبي الذي جلس بقربي على طاولة الغداء، من قبَل والدته بسبب تبنّي، ودراسة، مُعتقَد مناقض للكتاب المقدس. واليوم، بالتأكيد، لدينا تلك المناظير الفلكية الأكبر حجماً بكثير على قمم جبال مثل جبل ويلسون في كاليفورنيا، وجبل بالومار في الولاية ذاتها، وكيت بيك في أريزونا، وهالياكالا في هاواي؛ لذلك فإن وقوع الشمس في وسط مجموعتنا الكوكبية ليس مؤكداً فحسب، بل نعلم أيضاً أنها ليست سوى شمس واحدة من مائتي مليار شمس في مجرة من تلك الكرات السماوية المتوهجة: مجرة تشبه العدسة هائلة الحجم، قطر دائرتها عدة مئات من كوينتليونات[1] الأميال. وليس ذلك فحسب! بل إن تلسكوباتنا تُظهر لنا، بين تلك الشموس المتوهجة، نقاطاً ضوئية محددة أخرى ليست شموساً وإنما مجرات كاملة، كلّ واحدة منها كبيرة ومهولة بشكل لا يُصدق كمجرتنا. التي عرفْنا آلافاً إثر آلاف من أشباهها بطبيعة الحال. لذلك، في الواقع، إن الفرصة لاختبار الخشية أمام معجزة الكون الذي يتكشّف لنا على أيدي علمائنا هي بالتأكيد كشف مدهش يخلب الألباب أكثر بكثير مما استطاع أن يتخيّله عالَمٌ ما قبل العلم. بالمقابل إن صورة غرفة اللعب الصغيرة التي يمثلها الكتاب المقدس بالنسبة إلى

1 Quintillion هو رقم وعلى يمينه 18 صفراً.

الأولاد، أو في واقع الأمر حتى بالنسبة إليهم لن يكون كذلك بعد الآن، ولنحكم على ذلك من كلمات الطالب الصغير الذي جلس إلى الطاولة قربي، الذي، بعبارته "نعم، أعرف، لكنها كانت حلقة بحث علمي". هذه الصورة، قد وجدتْ سبيلاً لإنقاذ ما درّسه من تحت ركام المعمار القروسطي لكنيسة والدته.

ليس لأن سائر المفاهيم الأسطورية القديمة التي اختصت بطبيعة الكون قد تلاشت وحسب، بل أيضاً تلك المتعلقة بأصول وتاريخ الجنس البشري. فبطبيعة الحال، في زمن شكسبير، عندما وصل السير والتر رالي[2] إلى أميركا وشاهد هنا كافة الحيوانات الجديدة غير المعروفة في الجانب الآخر، أدرك كقبطان سفينة بأنه من المستحيل بمكان أن يكون نوح قد تمكن من حشر زوج من كل نوع على الأرض في أيّ فُلْك، مهما بلغت ضخامته. كانت أسطورة الكتاب المقدس عن الطوفان غير صحيحة: نظرية لم يقيض لها أن "تُثبت واقعياً". ونحن اليوم (كي نزيد الطين بلّةً) نُرجعُ تأريخ أولَ ظهور للكائن البشري على وجه هذه الأرض إلى أكثر من مليون سنة قبل أن يؤرخ الكتابُ المقدس خَلْقَ الله للعالم. إذ تعود كهوف العصر الحجري الكبيرة في أوروبا إلى حوالي 30000 ق.م؛ وبداية الزراعة، قرابة 10000 ق.م، وأول بلدات حقيقية كانت في 7000 ق.م. بل إن قابيل ابن آدم، ظهر في سفر التكوين، 4:2 و4:17، بـ "وَكَانَ قَايِينُ عَامِلاً فِي الأَرْضِ" وباني مدينة عُرفت باسم حَنُوك "وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودِ شَرْقِيَّ عَدَنٍ". فـ "نظرية" الكتاب المقدس قد ثبتَ بطلانها مرة أخرى، و"وجدوا *العظام*!"[3]

وجدوا أيضاً المباني- وهذه بدورها لا تقدم سنداً للكتاب المقدس. فعلى سبيل المثال، يفترض أن تكون فترة التاريخ المصري فترة سفر

2 Walter Raleigh

3 أي: عثروا على الدليل.

الخروج- رمسيس الثاني (1301- 1200 ق.م.)، أو ربما مرنبتاح (1234- 1220) أو سيتي الثاني (1220- 1200)- مصوَّرةً بوفرة على البقايا المعمارية والهيروغليفية، لكن ما من ملاحظة في أي مكان عن أي شيء يتعلق بكوارث الكتاب المقدس تلك، ليس ثمة تدوين في أي مكان عمّا يقبل المقارنة. فضلاً عن ذلك، كما تقول المدونات الأخرى، فقد كان البدو العبرانيون، الـ "خبيرو"، يغزون بلاد كنعان إبان حكم أخناتون (1377- 1358)، قبل قرن من عهد رمسيس. خلاصة الأمر بكل بساطة أن النصوص العبرية التي استُمدتْ منها كلّ تلك الحكايات اليهودية الشائعة عن الخلق، وسفر الخروج، والسنوات الأربعين في الصحراء، وغزو كنعان هي نصوص لم يكتبها (الرب) أو حتى شخص آخر يُدعى موسى، وإنما هي نتاج تدوين ومؤلِّفين مختلفين، وجاءت كلّها بعد فترات لاحقة أطول مما كان يُظَن سابقاً. فلم تُجمع الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التوراة) إلا بعد فترة سفْر عزرا (القرن الرابع ق.م). ووثائق ملفّقة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع ق.م (ما سُمّي بنصوص J وE) وصولاً إلى الثاني على وجه التقريب (الـ P، أو الكتابات الكهنوتية). وكما يلاحظ المرء، على سبيل المثال، فإن هناك قصتين للطوفان. من الأولى نتبيّن أن نوحاً أحضر "من كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك" (التكوين 6:19، 6:20؛ post-Ezra, P text)، ومن الثانية، "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ومن البهائم التي ليست بطاهرة" (التكوين 7:2، 7:3، J text, ca.. 800 ق.م/ 50 سنة قبل أو بعد). نجد أيضاً قصتين للخلق، الأسبق هي في سفر التكوين، الإصحاح الثاني، واللاحقة في التكوين، الإصحاح الأول. ورد في الإصحاح الثاني، "غرس الربُّ الإله جنةً في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله"؛ "وجَبَل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء". وأخيراً (كما في حلم) أمّنا حواء "بنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم". وبالمقابل، في الإصحاح الأول

من سفر التكوين، ها هو الله وحيد مع المياه الشاسعة، يقول، "ليكن نور فكان نور" إلخ.. وطوراً إثر طور، يخرج الكون إلى حيّز الوجود: أولاً، الضوء؛ الشمس، بعد ثلاثة أيام؛ ثم، الخضار، الحيوانات، وأخيراً الإنسان، الذكر والأنثى معاً. يرجع الإصحاح 1 من سفر التكوين إلى القرن الرابع ق.م. (عصر أرسطو)، والإصحاح 2، إلى التاسع أو الثامن (زمن هسيودوس).

أثبتت الدراسات الثقافية المقارنة في هذه الأيام بما لا يقبل الشك أنه أمكن العثور على حكايات أسطورية مشابهة في كلّ ربع من ربوع من هذه الأرض. فعندما وصل كورتيز والإسبان الكاثوليك إلى مدن الأزتيك في المكسيك، سرعان ما ميّزوا في الديانة المحلية الكثيرَ من العناصر الموازية لدينهم الحقيقي لدرجة أنه كان من الصعب عليهم تفسير الأمر. كان هناك معابد هرمية شاهقة، تشبه، في مراحل مختلفة، جبل المطهر لدى دانتي، أي درجات تسامي الروح. كانت هناك ثلاث عشرة سماء، لكلّ منها آلهتها أو ملائكتها الخاصة بها؛ وتسع طبقات جحيم، للأرواح المعذبة. وهناك إله عالٍ فوق الكلّ، الذي كان وراء كلّ فكرة وتصوّر بشريين. بل كان هناك مجسّم على شكل بشري يمثل المخلّص Saviour، مع أفعى، الذي وُلد من عذراء، ومات ثم بُعث، وكان الصليب أحد رموزه. ولكي يفسّر القساوسة المرافقون كلّ ذلك، لفّقوا حكايات من بنات أفكارهم. وأولى الحكايات أن القديس توما، الرسول إلى الإنديز، ربما وصل إلى أميركا وبشّر هنا بالكتاب المقدس؛ لكن، ما دامت هذه السواحل خارج تأثير روما، فلا بد للعقيدة أن يعتريها الانحلال. لذلك فإن ما كانوا يشاهدونه حولهم هو ببساطة شكل شنيع الفساد أتى من وحي ذواتهم. والتفسير الثاني، أن الشيطان كان هنا يلقي بشكل مدروس نكاتاً ساخرة عن الدين المسيحي، كي يحبط مساعي الإرسالية التبشيرية.

في مقارنة العلم الحديث المنتظمة التي تناولت أساطير وشعائر البشر، وجد في كل مكان أن هناك حكايات عن عذراوات يلدن أبطالا

يموتون ويُبعثون. فالهند تحفل بمثل هذه الحكايات، ومرة أخرى تمثل معابدها الشاهقة بالغة الشبه بمعابد الأزتيك، جبَلَنا الكونيّ متعدد الطبقات، يرتفع الفردوس على قمته ويقع تحته الجحيم المرعب. كذلك لدى البوذيين والجينيين أفكار مشابهة. وبنظرة إلى ماضي ما قبل المسيحية، نكتشف في مصر أسطورة قتل أوزيريس ثم بعثه؛ وفي بلاد ما بين النهرين، هناك تموز؛ وفي سورية أدونيس، وفي اليونان ديونيسوس؛ وكلّهم نماذج جاهزة أمام المسيحيين الأوائل لأن تكون المسيح.

وفي هذا العصر، تتكبّ شعوب كافة الحضارات العظيمة في كل مكان على تأويل عناصرها الرمزية حرفياً، وبذلك تنظر إلى نفسها بعين الاعتبار على أنها شعوب رفيعة الموهبة، بتماس مباشر مع المطلق. حتى الإغريق والرومان متعددو الآلهة، والهندوس والصينيون، وكلّ الذين تسنى لهم أن ينظروا إلى آلهة وتقاليد الآخرين نظرةً عادلة. رأوا أن آلهتهم وتقاليدهم الخاصة أسمى منزلةً أو، في أسوأ الأحوال، متفوّقة؛ وبين التوحيديين اليهود والمسيحيين والمسلمين، بالطبع، يُنظر إلى آلهة الآخرين على أنها ليست آلهة على الإطلاق، بل شياطينَ، وأن عبَدَتَها كفرة. وقد بقيت مكة وروما والقدس، (وأقلّ منها تشدداً) بينياريس ويكين على مدى قرون، بناء على ذلك السبب، وكلّ منها بطريقتها الخاصة، سرّة العالم، المتصلة بشكل مباشر بمملكة النور أو بالله.

مع ذلك، لم يعد ممكناً في هذه الأيام أن تؤخذ مثل هذه الادعاءات على محمل الجد من قبَل امرئ اقتصر تحصيله العلمي على الحضانة. وفي ذلك يكمن خطر حقيقي. لأنها لم تكن دائماً طريقةَ العامة في ترجمة رموزها الخاصة حرفياً، بل إن صيغاً رمزية مقروءة حرفياً كهذه كانت أبداً، ولا تزال، في الواقع، دعائمَ حضاراتهم، دعائم منظوماتهم الأخلاقية وتلاحمهم وحيويتهم وطاقاتهم الخلاقة. وبخسارة ذلك سيحلّ الشك، ومع الشك الاختلال، من حيث أن الحياة، كما خبرَها نيتشه وإبسن، تتطلب الأوهام الداعمة للحياة؛ وحيث أنها قد تبددتْ، فليس

ثمة ما هو آمن للتشبث به، لا شرائع أخلاقية، وليس هناك ما هو ثابت. وقد رأينا ما حلّ، على سبيل المثال، بالمجتمعات البدائية التي كدّرتْ حضارةُ الإنسان الأبيض حياتَها. ومع تعرّض تابواتها القديمة للانتهاك، سرعان ما تفرقت، وانحلّت، وأصبحت مرتعاً للرذيلة والأمراض.

يحدث الأمر ذاته لنا في هذه الأيام. فمحرّماتنا التي تأسست أسطورياً يشوبها الاضطراب بسبب علومنا الحديثة، ثمة في كل مكان من العالم المتمدن ارتفاع متنام في مدى التردي الأخلاقي والجريمة والاضطرابات العقلية والانتحار والإدمان على المخدرات والبيوت المتصدعة والأولاد الماجنين والعنف وحوادث القتل واليأس. هذه حقائق؛ ولستُ أبتدعها. إنها تبرر دعوات الواعظين إلى التوبة، والهداية والعودة إلى الدين القديم، بل تتحدّى أيضاً المربي الحديث مع الاحترام لمعتقده وولائه المطلق. هل المدرّس ذو الضمير- المعنيّ بالجانب الأخلاقي بالإضافة إلى تدريس الكتب لطلابه- سيوجه ولاءه إلى أساطير حضارتنا الداعمة أم إلى حقائق علومه التي "أثبتت صحتّها"؟ هل الاثنتان متعارضتان بشكل متساوٍ؟ أو أليس هناك درجة من الحكمة وراء تضارب الوهم والحقيقة وعن طريقها يمكن للأنفس أن تتآلف من جديد؟

إن تنشئة الأولاد في هذا الوقت مسألة جوهريّة. وقد تبدّت المشكلة، واقعياً، في الجلوس اليوم قريبي إلى طاولة الغداء. ففي تلك الحالة، كان كلا المعلّم والأهل منحازين إلى جانب وهم عتيق بطبيعة الحال؛ وعموماً- أو هكذا يبدو الأمر لي- فإن لمعظم الأوصياء على المجتمع نزوعاً إلى ذلك الاتجاه، جازمين بأن سلطتهم ليست من أجل البحث عن حقائق مقلقة، بل ضده. حتى إن توجّهاً كهذا قد برز مؤخراً وسط علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيما يخص نقاشات العرْق. ويمكن للمرء أن يتفهم ذلك بسهولة، بل أن يشاركهم قلقَهم إلى هذا الحد أو ذاك، إذ أن الأكاذيب هي ما يعيش عليه العالم، وأولئك الذين يستطيعون مواجهة تحدي الحقيقة وبناء حيواتهم بانسجام ليسوا كثراً، وإنما قلة ضئيلة.

أرى، بنظرة متروّية، أن أفضل إجابة على هذه المشكلة الحساسة ستأتي من خلال نتائج علم النفس، وتحديداً تلك النتائج التي تولي مصدرَ الأسطورة وطبيعتَها الاهتمام. إذ لطالما كان تأسيس النظم الأخلاقية للمجتمعات وقفاً على الأساطير، فقُدستْ الأساطير مثل الدين، وحيث أنّ وقْعَ العلم على الأساطير- الذي لا يمكن تجنبه كما يبدو- يُسفر عن إخلال بالتوازن الأخلاقي، فعلينا أن نتساءل الآن إن كان يتعذر التوصل علمياً إلى نوع من تفهّم طبيعة الأساطير الداعمة للحياة، إذ أننا، في انتقادنا مكوّناتها الرثّة، لسنا نشوّه وننتقص من ضرورتها- أو، كما يقال، نُذهبُ بالصالح (كلّ الصالح) مع الطالح.

تقليدياً، كما سبق وأشرتُ، إن للكائنات والأحداث الأسطورية عموماً مكانتها في أرثوذكسيات المعتقدات المألوفة وتُلقّن بوصفها حقائق؛ وهذا بصورة خاصة في الأوساط اليهودية والمسيحية. كان هناك سفر خروج من مصر؛ كان هناك قيامة مسيح. لكن، تاريخياً، فإن حقائق كهذه قيد التمحيص؛ وكذلك المنظومات الأخلاقية التي تسندها أيضاً.

مع ذلك، عندما تُفسَّر هذه القصص، لا على أنها تقارير عن واقعة تاريخية، بل كمسلسل أحداث متخيّلة أُسقطت على التاريخ، وحين تُدرَك، بالتالي، كنظير للإسقاطات التي عُرضت في مكان آخر، في الصين والهند وبوكاتان، يصبح المعنى واضحاً؛ أعني، رغم أنها زائفة وتستحق الرفض كقيمة في التاريخ المادي، إلا أن رموز الخيال الأسطوري المكرّسة كونياً يجب أن تمثل حقائق العقل: "تتمظهر حقائق العقل في تخيّل الجوهر،" كما لخصت صديقتي الراحلة مايا ديرين اللغز ذات مرة. وفي حين يجب أن تكون مهمة المؤرخ وعالم الآثار وعالم عصور ما قبل التاريخ إبراز أن الأساطير، بما هي وقائع، غير صحيحة. ذلك أن ليس هناك من بشريٍّ اصطفاه الله من بين الناس في هذا العالَم متعدّد الأعراق، ليس هناك من حقيقة مكتشفة يجب أن نركع لها، ليس هناك من كنيسة وحيدة صحيحة دون سواها- فسيكون هناك الكثير الكثير منها، ومع

إلحاح الحاجة، فإن مهمة عالم النفس وعالم الميثولوجيا المقارنة ليست في تمييز وتحليل وشرح "حقائق العقل" المرمَّزة فحسب، بل أيضاً في استنباط أساليب إبقائها صحيحةً معافاة وأيضاً، كما تتبدد تقاليد الماضي الباهت القديمة، في مساعدة الإنسانية على تحصيل المعرفة وتقدير إملاءات الواقع في دواخلنا، كما في ظاهر العالم.

حصل تغيُّر هام في المواقف بين علماء النفس حيال هذا الأمر على مدى ثلاثة أرباع القرن الماضي أو نحوها. فعند قراءة الكتاب العظيم والجدير بالشهرة "الغصن الذهبي" لـ سير جيمس غ. فريزر، الطبعة الأولى التي صدرت في 1890، نؤخَذ بمؤلِّف نموذجي من القرن التاسع عشر آمَنَ بأن خرافات الميثولوجيا سوف تُدحض عن طريق العلم ثم تُنسى إلى الأبد. فقد رأى أن أساس الأسطورة يكمن في السحر، وأساس السحر يكمن في السيكولوجيا. ومع ذلك، لأن سيكولوجيته من نوع عقلاني أساساً، غير مكترثة ما يكفي بالاندفاعات اللاعقلانية، المتجذرة لطبيعتنا، فقد افترض أنه حين يتكشَّف عرَّفٌ أو اعتقاد لا معقول على الملأ، فلن يلبث أن يختفي. أما إلى أي حدٍّ كان على خطأ فذلك ما يمكن إثباته ببساطة لدى الإشارة إلى أي بروفيسور في الفلسفة آثناء لعبه في رواق خلال ممارسة البولينغ؛ راقبه وهو يلتفّ ثم يستدير بعد أن تغادر الكرةُ يدَه، ليودعها مكان الأوتاد الخشبية المنتصبة. كان تفسير فريزر للسحر هو: لأن الأشياء مرتبطة بالذهن، يُعتقد أنها مرتبطة بالواقع. أي أنَّ (شخشيخة) تُصدرُ صوتاً كصوت سقوط المطر، سيؤدي إلى هطول المطر على الفور. أو احتفلْ بطقس اتصال جنسي، وستستجيب لك خصوبة الطبيعة. صورة شبيهة بعدوٍّ بعد معرفة اسمه، تجعل مواجهته ممكنة بتثبيت رأسه بالدبابيس إلخ.، وسيموت العدو. كذلك الأمر مع قطعة من ملابسه، أو خصلة شعر، أو قطعة مقصوصة من ظفر، أو أي عنصر كان قد لامس جسده مما يمكن استخدامه للحصول على نتائج مشابهة. إذاً، إن قانون السحر الأول لدى فريزر يتلخّص في أن "الشبيه

يُنتج الشبيهَ." والمعلول يشبه علَّته؛ والثاني، أن "الأشياء التي كانت ذات مرة في تماس مع بعضها البعض في وقت ما ستستمرّ في تبادل التأثير من بعيد عقبَ انقطاع الاتصال الفيزيائي." تخيَّل فريزر كلا السحر والدين على أنهما موجَّهان في النهاية وبشكل جوهري للتحكم بالطبيعة الخارجية؛ فلا بدَّ للسحر، تلقائياً، من خلال ممارساته الزائفة، وللدين من خلال الصلاة والقربان الموجَّهَين إلى القدرات المؤنسَنة، أن يتحكما بالقوى الطبيعية. ويبدو أنه لم يُحسنّ على الإطلاق تقدير وثاقة صلتهما وأهميتهما في الحياة الباطنية، وبذلك كان موقناً، مع تقدم وارتقاء العلم والتكنولوجيا، بأن كلا السحر والدين سوف يتلاشيان في الختام، وأن النهايتين اللتين كان يُظن أنهما ستخدمان الوجود بشكل أفضل وبثقة أكبر قد أسدى العلْمُ الخدمة إليهما.

بكل الأحوال، وتزامناً مع هذه الكتب التي ألّفها فريزر، كانت سلسلة منشورات لا تقلّ أهمية قد بدأت بالظهور في باريس كتبها طبيب الأمراض العصبية المتميز جان مارتان شاركو، عن معالجته الهستيريا، والحبسة الكلامية، وحالات التنوّم الإيحائي، وما يشبه ذلك؛ مبرهناً أيضاً الصلة الوثيقة ما بين نتائج دراسة الأيقونات وصور القديسين وما بين الفن. وقد أمضى سيغموند فرويد سنة مع معلّمه في 1885، وخلال الربع الأول من القرن العشرين قطع خلالها أشواطا جديدة في دراسة الهستيريا والأحلام والأساطير. إن الأساطير برأي فرويد، هي الباعث السيكولوجي للحلم. فالأساطير، إذا صحّ التعبير، هي أحلامٌ عمومية؛ والأحلام أساطير خصوصية. كلاهما، برأيه، جانب مكبوتٌ من رغبات غشيان المحارم الطفولية، والفرق الأساسي الوحيد بين الدين والعصاب أن الأول أكثر انتشاراً. فالشخص المصاب بالعصاب يشعر بالخجل والوحدة والإقصاء في مرضه، في حين أن الآلهة هي إسقاطات على الشاشة الكونية. كلاهما يتساويان بأنهما مظهر من مظاهر اللاوعي والمخاوف الضاغطة والتضليل. بالإضافة إلى ذلك، فإن كلّ الفنون،

وعلى الأخصّ الفنون الدينية، هي من وجهة نظر فرويد مَرَضية على حدّ سواء؛ وينطبق الأمر على كلّ الفلسفات. كذلك الحضارة ذاتها هي، في الحقيقة، بديل مرَضي لإحباطات اللاوعي الطفولي. وهكذا، كما فريزر، حكَمَ فرويد على عوالم الأسطورة والسحر والدين بالسلب، وبأنها زلاتٌ لا بدّ من تفنيدها وتجاوزها وتنحيتها في نهاية الأمر بواسطة العلم.

ثمة نهج مختلف جملة وتفصيلاً جاء به كارل غوستاف يونغ، وفيه يرى أن لتماثيل وصور الميثولوجيا والدين أثراً إيجابياً، وغايات تخدم الحياة. ويرى تبعاً لطريقة تفكيره، أن لكلّ أعضاء أجسادنا - ليس الخاصة بالجنس والعدوان- أهدافَها ودوافعها، بعضها عرضة لتحكّم الوعي، في حين أن الأخرى ليست كذلك. وقد يفقد شعورنا الموجَّه للخارج بما يخص حاجاتنا اليومية التّماس مع هذه القوى الداخلية؛ والأساطير، كما يقول يونغ، حين تُقرأ بشكل صحيح، هي الوسائل التي تُعيد إلينا المقدرة على التواصل. إنها تطلب منا بلغة الصورة المرتبطة بطاقات النفس أن نكون مُدركين ومندمجين في حيواتنا. وطاقاتنا التي كانت أبداً مألوفة للروح البشرية، والتي تمثّل حكمة النوع البشري، تلك الحكمة التي يهديها اجتاز الألفيتين. بذلك لم ولن تكون عرضة لأن تحلّ محلّها نتائجُ العلم المرتبطةُ بالعالم الخارجي أكثر من ارتباطها بالأعماق التي نبلغها أثناء النوم. ومن خلال محاورة تجري مع هذه القوى الداخلية بواسطة أحلامنا وعبْرَ دراسة الأساطير، يمكننا أن نتعلم كيف ندرك ونسلّم بالأفق الأكبر لذواتنا الداخلية الأكثر عمقاً وحكمة. وبالتوازي مع ذلك، فإن المجتمع الذي يرعى أساطيره ويُبقيها حيّةً سوف ينتذي من الطبقات الأخصب للروح البشرية.

مع ذلك، ينطوي الأمر على بعض الخطر هنا أيضاً؛ أعني، أن تكون مشدوداً بأحلام أحدهم وأساطيره الموروثة خارجَ عالم الوعي الحديث، ومقيّداً بأنماط اعتقاد وفكر بالية لا تتفق والحياة المعاصرة. والمطلوب،

كما يشير يونغ بموجب ذلك، هو الحوار، ليس كتكريس لأحد القطبين؛ وإنما حوار من قبيل استثارة الصيغ الرمزية من الذهن اللاواعي وإدراكها من قبل الواعي ضمْن تفاعل مستمر.

وهكذا، ماذا سيحدث بعد ذلك لأطفال مجتمع رفضَ السماح بنموّ أي تبادل مثل ذاك، بل ببقاء هذا المجتمع متشبثاً بحلمه الموروث بما يخص إثبات الحقيقة المجردة، ونبْذَ مستجدات الوعي، من منطق وعلم وحقائق جديدة؟ هناك تاريخ معروف ربما ينفع ذكره كمبرة وافية.

كما يعلم كلّ تلميذ، تُعزى إلى الإغريق بدايات ما نظن أنه العلم، وقد انتقل كثير من المعارف التي حشدوها وبلغتْ آسيا، عابرةً بلاد فارس إلى الهند بل حتى إلى الصين. لكن كلاً من تلك العوالم الشرقية كان بطبيعة الحال ملتزماً بنمط الفكر الأسطوري الخاص به، صارفاً الذهن عن المواقف والمناهج الموضوعية والواقعية والاستقصائية والتجريبية للإغريق. على سبيل المثال، قارنْ العلمَ في الكتاب المقدس- كتاب مقدس شرقي، تجمّعَ معظمه عقب النبذ المكابيّ[4] للتأثير الإغريقي- بما ورَدَ، مثلاً، لدى أرسطو؛ ناهيك عن أريستارخوس (275 ق.م). الذي كانت الأرض بالنسبة إليه كتلة دائرية ضمن مدار يحيط الشمس. فقد حَسَبَ إراتوستينس (250 ق. م) بشكل صحيح محيط الأرض بمقدار 250000 ستاديوم (ملعب) أو (24662) ميلاً؛ الرقم الاستوائي الدقيق (24902). افترضَ هيبارخوس (240 ق.م) مع خطأ أميال قليلة قُطْر القمر ومتوسط بُعده عن الأرض. الآن فقط حاولوا أن تتخيلوا كم من الدم والعرق والدموع الحقيقية- بسبب من أُحرقَ على الخشبة بدعوى الهرطقة، وسوى ذلك- التي كان يمكن توفيرها، عوضاً عن إغلاق المدارس الإغريقية الوثنية في 529م. ليت أن جوستنيان نشّطها وأزرها! لأن بديلنا عنها، أننا وحضارتنا قد حظينا بسِفْر التكوين 1 و2 وألف عام بالتمام

4 Maccabean

والكمال من التأخّر لا في إنضاج العلم فحسب بل في إنضاج حضارتنا وحضارة العالم بأكمله.

ربما كان أحد أكثر التواريخ إثارة للاهتمام بما يتعلق بنبذ العلم ما قد شهدناه في الإسلام، الذي تلقّى وتقبّل بل ارتقى بالتراث الكلاسيكي في بداية الأمر. لدينا ما ينوف عن خمسة أو ستة قرون من سجلّ إسلامي مثير للإعجاب في الفكر والتجريب والبحث العلمي، خصوصاً في الطب. لكن بعد ذلك، وآسفاه! فإن المرجع لدى عموم المجتمع وهما السنّة والإجماع- ما نصّ النبي محمد على أنهما الصحيحان أبداً- قد ضيّقا الخناق على هذا السجل. فباتت كلمة الله في القرآن المرجعَ الوحيد وأداة الحقيقة. والفكر العلمي يقود إلى "فقدان الإيمان بأصل الخليقة والخالق." وهكذا كان، بالضبط عندما بدأ نور المعرفة اليوناني ينتقل من الإسلام إلى أوروبا- حوالي 1100 فصاعداً- وصل العلم والطب الإسلاميان إلى طريق مسدود وأصيبا بالموات؛ وبذلك أصيب الإسلام ذاته بالموات. لم يكن مشعل العلم وحده الذي لم يُنقَل إلى الغرب المسيحي، بل مشعل التاريخ أيضاً. ومنذ ذلك الحين يمكننا تتبّع التطور الهائل بالتفاصيل، من مطلع القرن الثاني عشر فصاعداً، وعبْرَ تاريخ شمل علماءَ جريئين ومستنيرين لا مثيل لهم لما حققوه من اكتشافات خلال تاريخ البشرية. إن إيفاء أولئك العلماء القلائل جزءاً يسيراً من الدَّين فلن يُتاح لمن لم تطأ أقدامهم أيّ أرض تتجاوز حدود تلك المرحلة الأوروبية. وإن كل تحوّل اجتماعي في ما يسمى بـ "الدول النامية" ليس اليوم، كما كان لقرون خلَتْ، نتاجَ سيرورات متواصلة، بل نتاج الغزوات وتبعاتها. فكلّ جماعة صغيرة رهينةُ أسطورتها الخاصة المتحجرة قديمة العهد، وحدثت التبدلات كنتيجة للتصادم فحسب؛ كما عندما اجتاح المحاربون المسلمون الهندَ ثم مع مرور الزمن كان لا بد من تبادل فكري حتميّ؛ أو عندما وصل البريطانيون وأذنت مرحلة قلقٍ ترافقت مع ولادة ابتكارات مدهشة وغير متوقعة. وفي عالمنا الغربي

الحديث، وبمساعي قلّة من الرجال الشجعان كرماء النفوس راجحي العقول ممّن ينشدون قفزات في سبيل الحقيقة التي لا تحدها حدود، كان هناك استدامة نمو إنتاجي متماسك ذاتياً، في الطبيعة التي تكاد تكون ذات نماء عضوي.

والآن، أخيراً، ماذا تراها تعني كلمة "حقيقة" بالنسبة إلى عالم في العصر الحديث؟ بالتأكيد ليس المعنى الذي تتركه لدى متصوفٍ! فالحقيقة الكبيرة والأساسية التي لا ريب فيها بشأن الكشف العلمي- الحقيقة الأروع والأخطر- أن العلم لا يدّعي ولا يمكنه الادّعاء بأنه "حقيقي" بأي معنى إطلاقيّ. لا يدّعي ولا يمكنه الادعاء بأنه نهائي. إنه منظومة تجريبية مؤقتة مؤلفة من "فرضيات قيد العمل" ("آه، يا لهؤلاء العلماء!" "نعم، أعرف، لكنهم وجدوا *العظام*"/ وجدوا الأدلّة) الذي يبدو في الوقت الراهن أنه يأخذ في الاعتبار كل الوقائع وثيقة الصلة المعروفة الآن.

إذاً، هل هناك من عزم ضمنيّ بأن يركن مقتنعاً بما يشبه هيكلاً نهائياً أو كمّاً كافياً من الحقائق؟

في الواقع، لا! ليس هناك إلا متابعة البحث عن مزيد- من حيث أن العقل يتوق إلى النمو. وذلك النمو، ما دام باقياً، سيكون معيار حياة الإنسان الغربي المعاصر، وإنسان العالم بكلّ وعده بأنه قد واكبَ ولا يزال يواكب الوجود: أعني عالماً من التغيّر والأفكار والأشياء الجديدة والمقادير الجديدة والتحوّل المستمر، وليس تحجراً وتصلّباً وصنفاً من "الحقيقة" الطوباوية مسبقة السّبْك.

ولذلك، لسنا نعلم حقيقة الأمر، ولا حتى علومنا يمكن أن تفيدنا بما نركن إليه؛ إذ أنه، إذا جاز القول، مجرد توق إلى حقائق لا يهم إلى أين تصل بنا جاذبيتها. وهكذا يلوح لي أن لدينا هنا مرة أخرى كشفاً أكبر وأكثر حياةً من أي شيء قدمته لنا أو حتى أوحت به إلينا أديانُنا

القديمة. ذلك أن النصوص القديمة تواسينا بالآفاق التي تفتحها أمام عقولنا. تقول لنا إن آبانا المحب واللطيف والعادل موجود، ينظر إلينا من الأعالي، ومستعد لأن يستقبلنا. وأننا أبداً، مع حيواتنا الفالية علينا في ذهنه. ووفق علومنا، من ناحية أخرى، لا أحد يعرف ماذا يوجد هناك إن كان يوجد "هناك" أصلاً. كلّ ما يمكن قوله إنه يُظهر وجود عرْض display لظاهرة غريبة، تترجمها حواسنا وأدواتها إلى أدمغتنا بحسب طبيعة أدمغتنا. وهناك عرضٌ من نوع مختلف جداً من التصور الجوّانيّ، الذي نختبره على أفضل وجه في الليل، أثناء النوم، لكنه الذي يقتحم حيواتنا النهارية بل حتى يُتلفنا بالجنون. مهما تكن خلفية هذه الصيغ، الخارجية والجوّانية، لا يسعنا إلا التكهن وربما التقدم باتجاهها عبْرَ الفرضيات. ما هو كنهها، أو أين، أو لماذا (ولنسأل كل الأسئلة المعتادة) تبقى لغزاً مطلقاً. الشيء الوحيد المعروف مطلقاً، لأنه مجهول مطلقاً؛ وهذا ما يجب علينا جميعاً الآن التحلي بمقدرة الاعتراف والتسليم به.

لم يعد هناك من "Thou shalt" (يجب عليك!) بعد الآن. ليس هناك ما يجب أن يصدقه المرء، ولا شيء ينبغي عليه فعله. بالمقابل، يمكن للمرء بالطبع، إذا شاء، أن يختار اللعب في لعبة العصور الوسطى العتيقة، أو ما يشبه لعبة شرقية، أو حتى نوعاً من اللعبة البدائية. نحن نعيش في زمن صعب، ومهما يكن الذي يحول بيننا وبين مشفى المجانين يمكننا أن نهلل له على أنه الأفضل- بالنسبة إلى أولئك الذين يفتقرون إلى الجرأة.

عندما كنتُ في الهند شتاءَ 1954، وفي حديث مع شخص هندي في مثل عمري تماماً، سألَ بعد أن تبادلنا شكليات التعارف، "ماذا تقولون يا مثقفيّ الغرب عن تاريخ الفيدا؟"

الفيدا، كما ينبغي أن تعلموا، هي النظائر الهندوسية للتوراة اليهودية. إنها صحائفه المقدسة منذ أقدم العصور ولذلك تكتسب الحالة الأعلى من الكشف.

"حسناً،" أجبتُ، "لقد اختُزل تاريخ الفيدا مؤخراً وأُرجعَ، كما أظن، إلى شيء ما مثل، فلنقل، 1500 ق.م إلى 1000 ق.م وهذا ما أظنك تعرفه." أضفتُ، "لقد وُجدت في الهند نفسها آثار حضارة أبكر من الفيدية."

"نعم." قال الرجل الهندي، ليس بنزق بل بحزم، مع مسحة يقين لا يشوبه الارتباك، "أعلم؛ لكنني كهندوسي ملتزم لا أستطيع الإيمان بأن هناك شيئاً في الكون سبقَ كتبَ الفيدا." وكان يعني ذلك.

قلتُ، "حسناً، فلماذا سألتَ إذاً؟"

مع ذلك، كي لا أقلل من شأن الهند القديمة، سأختتم بنبذة من أسطورة هندوسية تبدو بالنسبة إلي وكأنها التقطت في صورة خصوصية التفرّد المغزى الكليّ لتلك النزعة بينما نواجه في زمننا هذه المرحلة العصيبة من تاريخنا الإنساني العام. إنها تحكي عن زمن في بداية تاريخ الكون عندما كانت الآلهة وزعماء أعدائها المناهضين للآلهة، متورطين في واحدة من حروبهم الأبدية. لقد قرروا هذه المرة أن يتوصلوا إلى هدنة والتعاون معاً لتمخيض المحيط الحليبي- البحر الكونيّ- للحصول على زبدة الخلود منه. فأخذوا الجبل الكونيّ (المعادل الفيدي لجبل المطهر عند دانتي) كذراع تمخيض، ولفّوا الأفعى الكونية حوله كحبل للشدّ. ثم، بينما الآلهة تشد بكل ما أوتيت من جهة الرأس ومناهضو الآلهة يشدون من جهة الذيل، جعلوا الجبل يدور كالدوامة. وتابعوا التمخيض بهذه الطريقة لألف من السنوات حتى جاءت سحابة سوداء مهولة تكونت من دخان لا شك في أنه سامّ وحلّت فوق المحيط، فكان لا بد من إيقاف التمخيض. لقد نفذوا إلى مَعين طاقة لا مثيل له، وما كانوا يختبرونه في بادئ الأمر هو آثاره السلبية والمهلكة. وإذا كان لابدّ للمهمة أن تستمر، فيجب على أحدهم أن يمتص تلك السحابة السامة، وكما أدرك الجميع، لم يكن هناك سوى كائن واحد مؤهل للقيام بفعل كهذا: هو إله اليوغا الأصليّ شيفا، ذو الشكل الشيطاني المرعب. وبالضبط

جذبَ سحابة السم بكاملها إلى طاسته وبجرعة واحدة شربها، محتفظاً بها في بلعومه بواسطة اليوغا، فأحالت كلُّ الحنجرة زرقاء؛ وقد عُرف بـ الحنجرة الزرقاء، نيلاكانثا، منذ ذلك الحين. ثم، عندما أُنجز هذا العمل الرائع، عاد الآلهة ومناهضو الآلهة إلى شغلهم المشترك. مخّضوا ومخّضوا ومضوا في التمخيض دون كلل، ثم ويا للعجب! بدأ عدد من المزايا العجيبة بالخروج من البحر الكونيّ: خرج القمر، الشمس، فيل بثمانية خراطيم، فرس بهية، عقاقير طبية، و.. نعم! أخيراً، وعاء مهول متألق ملي، بالزبدة الشهية.

أوردَ الأسطورة الهندية بمثابة المثَل عن عالمنا المعاصر، بمثابة النصيحة بأن يمضي المرء ويعمل بجد، بعيداً عن الخوف.

2
ظهور الجنس البشري
(1966)

1

من الواضح أن ظهور الأسطورة ترافق مع ظهور البشر. ففي الماضي الأكثر إيغالاً، أعني، بالقدر الذي تسمح به قدراتنا بتتبّع أقدم الأدلة المهشمة والمبعثرة على ظهور جنسنا البشري، نجد أنه عُثر على علامات تدلّ على أن الأغراض والمسائل الميثولوجية صاغت فنون الإنسان العاقل Homo sapiens وعالمه. بالإضافة إلى ذلك، تشي مثل تلك الأدلة، بوحدة جنسنا: من حيث أن الثيمات الأساسية للفكر الميثولوجي قد بقيت ثابتة وشمولية، ليس عبر التاريخ وحسب، بل أيضاً على امتداد المساحة الأرضية التي شغلها الكائن البشري فوق الكوكب. وبشكل طبيعي، عند معالجة تطور وارتقاء الإنسان، يركز العلماء على السمات الجسدية والملامح التشريحية التي تميزنا: القامة المنتصبة، المخ، عدد وترتيب أسناننا، إبهام اليد الفعال، الذي يؤهل أيدينا لاستخدام الأدوات. يُطلق البروفيسور ل. س. ب. ليكي الذي ندين لاكتشافاته في شرق أفريقيا بمعظم ما نعرفه الآن عن بواكير النوع البشري، على معظم البشر من اللقى الأولى- في كاليفورنيا، 1800000 ق.م- اسمَ الإنسان الماهر Homo habilis؛ وتسمية كهذه مناسبة دون شك، من حيث أن الشخص

صغير الحجم ربما كان أوّلَ مُطوِّع للأدوات الخام. لكن حين نتأمل في الخصيصة السيكولوجية لجنسنا البشري، بدلاً من الفيزيولوجية، نجد أن أكثر العلامات الظاهرة تميّزاً تتمثل في أن تنظيم حياته يتمّ في المقام الأول بموجب أهداف وقوانين ميثولوجية، واقتصادية بشكل ثانوي. من الصحيح أن للطعام والشراب والتكاثر وتأسيس المسكن دوراً كبيراً في الحياة لا يقل عن الدور الذي تلعبه هذه الأمور في حياة ذكر الشمبانزي. لكن ماذا عن اقتصاديات الأهرامات، وكاتدرائيات العصور الوسطى، وعن الهندوس الذين يتضورون جوعاً مع وجود قطعان أبقار صالحة للأكل تسرح حولهم، أو تاريخ اليهودية، من زمن شاؤول وحتى اليوم؟ إن كان هناك عنصر مخالف يمكن الإشارة إليه بشأن تفريق السيكولوجية البشرية عن الحيوانية، فلا بدّ أنه يتجلى في دنيا البشر بتبعية الاقتصاديات ذاتها للميثولوجيا. وعلى المرء أن يتساءل لماذا أو كيف هُيّض لاندفاعة وهمية كهذه أن تصبح مهيمنةً على تنظيم الحياة المادية، والجواب يكمن في دماغنا البشري المدهش هذا الذي أشرق بفهم غير معهود لدى الرئيسات primates. إنه ذلك الفرد الواعي لذاته في ذاته، ومدرك أنه، وكلّ من يعنيه أمرهم، سيموتون ذات يوم.

كان التعرف إلى حقيقة الموت والشرط المطلوب لتجاوزه المحفزَ الكبير الأول للميثولوجيا. وإلى جانب ذلك ثمة وعي آخر؛ أي العصبة الاجتماعية التي نُقل إليها الفرد، التي تعاضده وتحميه، وبالمقابل عليه هو نفسه، في الشطر الأكبر من حياته، أن يعاضدها ويحميها، إذ كانت قائمة لأمد بعيد قبل مولده وستبقى بعد رحيله. أعني أن الفرد العضو في جنسنا، الواعي لنفسه بأنه كذلك، لا يواجه الموت فحسب، بل يكابد أيضاً ضرورة تطويع نفسه لكلّ نظام حياة يحدث أن تتبناه الجماعة التي وُلد فيها. فهذا نظام حياة يفوق نظامه، إنها كائن جماعي عضوي خارق superorganism يجب أن يترك (الفردُ) نفسه تتحلّ في هذا الكائن، ومن خلال مشاركته فيه سيصل إلى معرفة الحياة التي تتجاوز الموت.

وفي كلّ الأنساق الميثولوجية التي شاعت في شتى مناطق هذه الأرض، على امتداد المسار الطويل للتاريخ وما قبل التاريخ، اندمجَ هذان الإدراكان الأساسيان رمزياً. حتمية موت الفرد وتبنّي النظام الاجتماعي. فشكّلا القوّة النووية (من النواة) البنّاءة للأعراف، وبالتالي للمجتمع.

في كل الأحوال، سيتعيّن على حديث السن الذي ينشأ في مجتمع صيد بدائي التكيف مع نظام اجتماعي مختلف كل الاختلاف عن فتىً كالذي يعيش في بلاد صناعية مثل بلادنا؛ وبين هذين القطبين المتباينين من الحياة الاجتماعية الراسخة تبرز أنماط أخرى لا تُعد ولا تُحصى. فنتيجة لذلك، في الوحدة النووية الثنائية التي ذُكرتْ للتو، هناك ما يجب تمييزه، ليس العامل الممثل لوحدة جنسنا وحسب، بل أيضاً عامل التفاضُل. وليس الأمر أن الجنس البشري يواجه الموت، بل شعوب العالم العديدة تواجه الموت بطرق مختلفة للغاية. بناء على ذلك، فإن مسحاً عابراً للثقافات يشمل أساطير البشر، لا يجب أن يأخذ بالاعتبار المسلّمات وحسب بل أيضاً تحولات تلك الثيمات المشتركة في نطاقات حدوثها.

وهناك عامل ثالث إضافي، أضفى تأثيراً واسع الانتشار على صوغ الأساطير في كل مكان، هو النطاق والمحتوى الثالث النابع من التجربة الإنسانية بخاصّة، أي التجربة التي يصبح فيها الفرد النامي لا محالة واعياً وتتضح مقدراته وتأملاته الذهنية، ومراقبته الكون، أو البيئة الطبيعية حيث يعيش، ولغز علاقة هذه البيئة بوجوده الخاص؛ حجمها، تشكلاتها المتغايرة، وأيضاً، من خلال ذلك، الشعور بانتظام الأشياء. لقد انقلب فهم البشر للكون بشكل جذري في الألفيتين المنصرمتين. خصوصاً منذ عهد قريب، كما تطورت وسائلنا البحثية. لكن حدثت تغيرات كبيرة أيضاً في الماضي: مثلاً، في زمن نهوض المدينة. الدولة السومرية المبكرة، بملكيها الكهنة راصديّ الدرب المقدسة؛ أو بالفيزيائيين والفلكيين الإسكندرانيين، وفكرتهم عن الكرة الأرضية بأنها محصورة داخل سبع طبقات سماوية.

لذلك علينا أن نميز في تحليلنا للأساطير والخرافات وشعائر جنسنا البشري بعامّة، بالإضافة إلى ثيمات ومبادئ ومتغيرات معينة ثابتة، ليس ما يختصّ بالتنوع الكبير للمنظومات الاجتماعية التي ازدهرت على هذا الكوكب وحسب، بل أيضاً بتشكلات الطبيعة. المعرفة التي رافقت الألفيتين في صياغتها وإعادة صياغتها انطباعَ الإنسان عن عالمه.

يبقى هناك أمر آخر: من الواضح على ضوء نتائج علم الآثار أنه خلال المراحل البدائية الأولى من تاريخ جنسنا البشري كانت هناك حركة نابذة للناس نحو الخارج، إلى كل الاتجاهات، ومع الفرز المطّرد الواقع على السكان، طوّرَ كلٌ ممارساته وتأويلاته الخاصة للدوافع الكونية المشتركة؛ وحيث أننا الآن نلتمّ ونتجمع من جديد في هذه الحقبة الراهنة العملاقة بمواصلاتها واتصالاتها العالمية، فإن تلك الفوارق في طريقها إلى التلاشي. وتصبح الفوارق القديمة التي تميّز نظاماً عن آخر أقلّ ثم أقلّ أهمية، أقلّ ثم أقلّ سهولة في أن يلمس المرءُ أثرَها. وبالمقابل، فإن ما يصبح أكثر ثم أكثر أهمية هو ضرورة أن نتعلّم كيفية تبيّن كافة الفوارق للثيمات المشتركة التي كانت ماثلة طوال الوقت، والتي انوجدتْ مع ظهور السلف البشري الآتي من المراتب الحيوانية، والذي لا يزال معنا.

ثمة رأي إضافي آخر، قبيل الانتقال إلى موضوعنا التالي: حقيقة أن الناس في زمننا - على الأقل في مراكز الإبداع الثقافي الحديثة الرائدة - بدؤوا يأخذون مسألة وجود نظُمهم الاجتماعية الداعمة على أنها من البديهيات، وبدلاً من التوجه إلى صون سلامة المجتمع والمحافظة عليه بدأوا يصبّون جلّ اهتمامهم على تنمية وحماية الفرد - الفرد، ليس كعضو في الدولة بل كفاية وككيان بحدّ ذاته. هذا يشير إلى نقلة بالغة الأهمية وغير مسبوقة على أرضية المضامين التي ينبغي أن نأخذ الآن مستقبلَ مجرياتها في الأسطورة بعين الاعتبار.

فلنتمعّن أولاً في بعض الفروقات البارزة ضمن وجهات النظر التقليدية التي أسستْ لظهور التأويلات المعاكسة للأساطير المشتركة.

2

فيما يتعلق بأسفار وإصحاحات الكتاب المقدس الأولى، درجت العادة لدى كلّ من اليهود والمسيحيين أن يؤمنوا بالقصص إيماناً حَرْفيّاً، وكأنها روايات ذات مصداقية عن منشأ العالم وأحداث عصر ما قبل التاريخ الحقيقية. فقد افتُرِض وأُمليَ بأن ذلك قد حدثَ، وبكل تشدّد، ثمة خلْقٌ للعالم في سبعة أيام من قِبَل إله معروف لليهود فحسب؛ وكانت هناك في مكان ما على هذه الأرض الجديدة الشاسعة جنة عدن وفيها أفعى تستطيع الكلام؛ وأن المرأة الأولى، حواء، قد خُلقتْ من ضلع الرجل الأول، وأن الأفعى الشريرة أخبرتها عن خصائص فاكهة شجرة معينة من تلك الأشجار التي حُظِّر على الزوجين تناولها؛ وأنه نجم عن أكلهما تلك الفاكهة أن "سقطَ" كلّ الجنس البشري، وحلّ الموت بالعالم، وأُقصي الاثنان من الجنة. ولأنه كان في الجنة شجرة ثانية، الفاكهة التي تمنحهما الحياة الأبدية؛ وخالقهما الخائف من أن يقطفا الآن ويأكلا ثمرة من تلك أيضاً، ويصيبا المعرفة والخلود مثله هو، لعنهما، وطردهما، "وأقام شرقي جنة عدن الكاروبيمَ ولهيب سيف منقلب لحراسة طريق شجرة الحياة[5]."

يبدو هذا مستحيلاً في هذه الأيام، لكن ظل الناس في الواقع يصدقون كل ذلك حتى وقت يقارب نصف القرن: رجال دين، وفلاسفة، وموظفون حكوميون، والجميع. مع أننا اليوم نعلم. حقّ العلم. أنه لم يكن هناك شيء من ذلك: لا جنة عدن في أي مكان على الأرض، لم يحدث أن تكلمت

5 التكوين/ 24

الأفعى، ولا "سقوط" في زمن ما قبل التاريخ، ولا سقوط من الجنة، لا طوفان شامل، ولا سفينة نوح. كلّ التاريخ الذي نشأت فيه دياناتنا الغربية الرئيسية هو مختارات من الروايات الخيالية. لكنها روايات من النوع الذي يحظى بشعبية واسعة كما الأساطير المؤسِّسة الخاصة بالأديان الأخرى أيضاً. فنُسَخُها المطابقة قد ظهرت في كل مكان. ومع ذلك، لم يحدث أن وُجدتْ تلك الجنة أو الأفعى أو الشجرة أو الطوفان.

كيف نفسّر تلك الطفرات؟ مَن يخترع هذه الحكايات مستحيلة الحدوث؟ من أين تأتي تخيلاتهم؟ ولماذا. رغم وضوح سذاجتها. يؤمنون بها بمنتهى التبجيل في كل الأصقاع؟

ما أودّ الإشارة إليه أنه لدى مقارنة عدد من أجزاء مختلفة من العالم وتقاليد مختلفة، يمكن أن يتوصل المرء إلى فهم لقوّتها، لمصدرها ولمعنى محتمل لها. إذ أنها ليست تاريخية. إلى هذا الحد الأمر واضح. لذلك تتحدث ليس عن وقائع خارجية بل عن ثيمات من نسج الخيال. وحيث أنها تعرض ملامح هي حقاً شمولية، فيجب بمعنى ما أن تستعرض ملامح من خيالنا العرقي العام، ملامح دائمة تخص الروح الإنسانية. أو، كما نقول في هذه الأيام، تخص النفس. إنها تقول لنا، بناء على ذلك، أموراً جوهرية عن أنفسنا، تتجشم حمل مبادئ أساسية عما هو خيّر كي نتعلمه؛ وعما سيكون من الضروري لنا أن نعرفه فيما إذا كانت عقولنا الواعية ستبقى على تماس مع أعماقنا المحرِّضة الأكثر عمقاً. باختصار، تلك الحكايات المقدسة ورموزها هي رسائل إلى العقل الواعي من مكامن الروح غير المنسجمة مع الوعي في وضح النهار، وإذا قُرئت بالطريقة التي تُعزى بها الأحداث في مجال الفضاء والزمن- سواء كان المستقبل أو الحاضر أو الماضي- فإنها ستُقرأ بطريقة خاطئة وينحرف تأثيرها، كأن هناك شيئاً ما ثانوياً تبنّى حينذاك مرجعية الرمز، شيئاً ما مقدساً، قد يكون عصا، حجراً، أو حيواناً، شخصاً، واقعة، مدينةً، أو عصبة اجتماعية.

دعونا نتأمل بصورة أقرب بعض الشيء في رمز الجنة ضمن الكتاب المقدس.

اسمها، "عدن"، يعني في اللغة العبرية "البهجة، مكان البهجة،" وكلمتنا الإنكليزية، Paradise/ الفردوس، التي جاءت من الكلمة الفارسية -pai ri، "حول"، daeza، "سور،" وتعني بالضبط (دغلاً مسوّراً). بالتالي فإن "عدن"، بكل وضوح، هي حديقة البهجة المسورة، وفي مركزها تنتصب الشجرة العظيمة؛ أو بالأحرى، في مركزها تنتصب شجرتان، الأولى شجرة معرفة الخير والشر، والأخرى شجرة الحياة الأبدية. بالإضافة إلى ذلك، تنبع أربعة أنهار داخلها كأنها من مَعيْن لا ينضب، لتروي العالم بجهاته الأربع. وحين أكل والدانا الأولان الفاكهة وطُردا، تمركز اثنان من الكاروبيم cherubim، كما سمعنا، عند بوابتها الشرقية، لحراسة طريق العودة.

لأنها لا تشير إلى أي مسرح جغرافي، بل إلى مشهد للروح، فلا بدّ أن تكون جنة عدن في داخلنا. مع ذلك فإن عقولنا المدركة عاجزة عن دخولها والتمتع هناك بطعم الحياة الأبدية، فقد تذوّقنا بطبيعة الحال معرفة الخير والشر. ذلك يعني، في حقيقة الأمر، أن المعرفة لا بد قد ألقت بنا خارج الجنة، نبذتنا خارجاً من "مركزنا" الخاص، وبسبب ذلك نحاكم الآن الأشياء بتلك التعابير ونختبر الخير والشر فحسب بدلاً من الحياة الأبدية، والتي، من حيث أن الحديقة مسورة في داخلنا، لا بد أنها ملك لنا بطبيعة الحال، حتى لو كانت مجهولة بالنسبة إلى شخصياتنا الواعية. ذلك ما يبدو معنى الأسطورة عند قراءتها، ليس كـ "ما قبل تاريخ"، بل كإشارة إلى حالة الإنسان الداخلية الروحية.

فلنتحول عن حكاية الكتاب المقدس هذه، التي افتُتن بها الغرب، إلى الحكاية الهندية، عن بوذا، التي سحرت الشرق بأكمله؛ آذ أن الرمز الأسطوري لشجرة الحياة الأبدية المخفورة بحارسين مرعبين حاضر

هناك أيضا . تلك الشجرة التي كان سدهارتا يجلس تحتها، ووجهه إلى الشرق، وهو متيقّظ على ضوء خلوده الذاتي في الحقيقة، ومنذ ذلك الحين عُرف باسم بوذا، المتيقظ. هناك أفعى أيضاً في تلك الحكاية، لكن بدلاً من أن توصم بالشر، يُنظَر إليها كرمز لطاقة الحياة الأبدية المقيمة على الأرض. فالأفعى تتخلص من جلدها، كي تولد من جديد، إذا جاز التعبير، وتُشبّه في الشرق بالروح المتقمصة التي تتلبّس وتنضو الأجساد مثل إنسان يرتدي ويخلع الملابس. في أسطورة هندية هناك كوبرا كبيرة مُتخيلة تبدو كأنها توازن الأرض الشبيهة بطاولة على رأسها؛ ورأسها بالتأكيد متمركز في النقطة الحيوية، بالضبط تحت شجرة العالم. وبحسب أسطورة بوذا، عندما حصّل *المبارك* المعرفة الكليّة، لبث عدة أيام مستغرقاً في تأمل مطلق، وأصبح مهدداً بعاصفة مهولة هبّت في العالم من حوله، أما تلك الأفعى الأعجوبة، وقد خرجت من باطن الأرض، فقد لفّتْ نفسها حول بوذا لتحميه، وغطت رأسه بجزئها العُلوي.

وهكذا، في حين أن وظيفة الأفعى قد استُبعدتْ في إحدى هاتين الأسطورتين عن الشجرة ولُعن الحيوان ذاته، فقد قُبلَتْ في الأسطورة الأخرى. وفي الاثنتين، كانت الأفعى مرتبطة بطريقة ما بالشجرة ولا بدّ أنها تمتعت بثمارها، إذ كانت تستطيع التخلص من جلدها والعيش من جديد؛ لكن في أسطورة الكتاب المقدس يُنبَذ والدانا الأولان من جنة تلك الشجرة، في حين أننا في التقليد البوذي مدعوون جميعاً إليها. هكذا تتوازى الشجرةُ التي جلس بوذا تحتها مع الثانية في جنة عدن، التي، كما سلف وقيل، يُنظَر إليها لا من حيث موقعها الجغرافي بل كجنة للروح. وعندئذ، ماذا يمنعنا من العودة إليها والجلوس تحتها مثل بوذا؟ مَن أو ماذا يكون هذان الملاكان Cherubim؟ هل يعرف البوذيون شيئاً يشبه هذا الثنائي؟

تُعتبَر مدينة نارا المقدسة في اليابان إحدى أهم المراكز البوذية في

العالم الآن، حيث يوجد معبد هائل يحتوي على صورة برونزية مذهلة بارتفاع 53 و½ قدماً، تمثل بوذا جالساً متصالب الساقين على زهرة لوتس كبيرة، رافعاً يده اليمنى إلى الأعلى بوضعية الـ "لا خوف"؛ وحين يدنو المرء من باحات هذا المعبد، سيعبر من بوابة مخفورة بحارسين، من اليسار واليمين، وهناك تشكيل لسيفين حربيين عملاقين مزخرفين يلقيان الرهبة بطريقة عجيبة. هذان هما نظيرا الملاكين المتمركزين على جانبي يهوه عند بوابة الجنة. مع ذلك، لن نكون هنا مُكرَهين وعرضة للصدّ. سيكون الخوف من الموت والرغبة في الحياة التي يثيرها فينا هذان الحارسان المتوعّدان منسيَّين حالما نمرّ بينهما.

بكلمة أخرى، تقول الفكرة البوذية، إن ما يبقينا خارج الجنة ليست ضغينة وغضب أيّ من الآلهة، بل ارتباطنا الغريزي بما نعتبره حياتنا. فحواسنا، المتوجّهة خارجاً إلى عالم المكان والزمان، ربطتنا إلى ذلك العالم وإلى أجسادنا الفانية فيه. نحن نكره أن نُقلع عما نعتبره من طيبات ومتع هذه الحياة المادية، وهذا الرابط هو الحقيقة العظيمة، الحال العظيم للسور، ذلك الذي يبقينا خارج الجنة. إنه، دون سواه، ما يمنعنا من الاعتراف في قرارة أنفسنا بأن الوعي الأزلي والكونيّ الذي نُستمَد منه أحاسيسنا المادية، المتوجّهة إلى الخارج، ليس إلا أدواتٍ وسيطة.

بحسب هذه التعاليم، ليس ثمة داعٍ لملاك صغير بسيف ملتهب كي يبقينا خارجَ جنتنا الداخلية، لأننا نبقّي أنفسنا في الخارج، من خلال تهافتنا على العالم الخارجي، والمظاهر الزائلة لأنفسنا ودنيانا. وما يُرمز إليه بمرورنا عبر البوابة المخفورة هو تخلّينا عن كلّ من العالم المعروف للغاية، وأنفسنا المعروفة للغاية في داخله: المظهر الاستثنائي المجرد للأشياء التي تُرى بما هي مولودة وميتة، وتُختبَر إن كانت خيّرة أو شريرة، ويُنظر إليها، بناء على ذلك بعين الاعتبار، برغبة أو بخوف. أما الملاكان البوذيان، فأحدهما فمه مفتوح، والآخر فمه مطبق. (كما

قيل لي) كرمز لطريقتنا في اختبار الأشياء في العالم الدنيوي، فيما يتعلق دائماً بالثنائيات المتضادة. والمرور ما بينها، يعني أن نترك تفكيراً مثل هذا وراءنا.

لكن أليس ذلك هو الدرس، في النهاية، لقصة الكتاب المقدس أيضاً؟ أكلت حواء، ومن بعدها آدم ثمرة معرفة الخير والشر، أي، الثنائيات المتضادة، وفي الحال واجها نفسيهما كمختلفَين كلٌ عن الآخر وشعرا بالخجل. بناء على ذلك، لم يفعل الربّ أكثر من أنه عزّز ما كان منجَزاً عندما طردهما من الجنة ليختبرا آلام الموت والولادة والكدح لنيل حاجات الدنيا. ومن ناحية أخرى، كانا يختبران الله ذاته بما هو الآن "آخر" بشكل كليّ، غاضب ومهدّد لغاياتهما، وكانت الملائكة على بوابة الجنة مفوضة بطريقتهما الآن، طريقة اختبار الله ونفسيهما. لكن كما علمّنا أيضاً في حكاية الكتاب المقدس، كان من الممكن لـ آدم أن "يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد." وفي التصور المسيحي للفادي المصلوب أن ذلك بالضبط ما طُلب منّا أن نقوم به. فالتعاليم هنا تخلص إلى أن المسيح قد استعاد خلود الإنسان. وكان صليبه خلال القرون الوسطى معادلاً لشجرة الحياة الأبدية؛ وكانت ثمرة تلك الشجرة هي المخلّص المصلوب ذاته، الذي قدّم لحمه ودمه "أَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ"[6]. فقد مشى هو نفسه بجسارة، أي، مباشرة عبر البوابة المخفورة دون وجلٍ من الملاك و"لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة". وبالضبط، كما حدث قبل خمسمائة عام أن ترك بوذا وراءه كلّ الرغبات والمخاوف الذاتية لكي يصل إلى معرفة نفسه كفضاء نقيّ وأبديّ، كذلك ترك المخلّص الغربي جسده مسمّراً إلى الشجرة وعبَرَ روحياً إلى الكفارة، مع الأب: كي نُتبعه بأنفسنا الآن.

تتناظر التشابيه الرمزية من الناحية الشكلية في كلا الإرثين، بالرغم

6 يوحنا 6:55

من أن وجهات نظر الاثنين قد تكون عصية على التوفيق بينهما. ففي العهدين القديم والجديد، نجد أن الله والإنسان ليسا واحداً، بل اثنين متعارضَين، وطرد الإنسان من الجنة يعود إلى عصيانه خالقه. وبسبب ذلك لم تكن التضحية على الصليب مشابهة إلى حد بعيد كي تُنجِزَ الكفارة بما هي كفارةُ توبة. أما على الجانب البوذي، بالمقابل، فتجب قراءة انفصال الإنسان عن مصدر وجوده وفق الشروط السيكولوجية، كنتيجة لشعور مضلِّل، جاهل بمكمنه ومصدره، الذي يعزو الحقيقة النهائية إلى مجرد ظهورات غير اعتيادية. وفي حين أن مستوى الإرشاد المستعرَض في حكاية الكتاب المقدس يمثل، إلى حد بعيد، قصةً تُروى في دار الحضانة عن مخالفة الأهل والعقاب، لتغرس في الذهن سلوكاً من الاعتماد على الغير والرهبة والتفاني الدال على الاحترام. ومثلما نظن أن امراً ما ملائمٌ لطفل في علاقته مع والديه، فإن التعاليم البوذية بالمقابل هي للراشدين المسؤولين عن أنفسهم. مع ذلك، فإن التخييل المشترك بين الاثنتين هو في نهاية الأمر أقدم بكثير من أيٍّ منهما، أقدم من العهد القديم، أقدم من البوذية، بل أقدم من الهند. إذ نجد بالفعل رمزية الأفعى والشجرة وجنة الخلود في النصوص المسمارية المبكرة، مرسومة على أختام السومريين الأوائل الأسطوانية، بل ظهرتْ حتى في فنون وطقوس مجتمعات القرى البدائية في كل أنحاء العالم.

كما أنه ليس ذا أهمية من وجهة نظر الدراسة المقارنة للأشكال الرمزية ما إذا كان يسوع أو بوذا قد عاشا أصلاً واجترحا المعجزات المرتبطة بتعاليمهما. فأدبيات العالم الدينية تفيض بأشباه هاتين الحياتين الرفيعتين. ويمكن للمرء أن يكتسب منها جميعاً في نهاية الأمر، أن المخلّص، البطل، الفادي، هو الشخص الذي تعلّم كيف يخترق الجدار الوقائي لتلك المخاوف في الداخل، التي تُقصي البقية منّا، عموماً، في وضح النهار بل حتى في ما يراودنا ضمن أحلامنا الليلية، من خلال مجمل تجربتنا الخاصة و*أرض العالم الإلهية*. تنقل سير هؤلاء المخلّصين

المؤسطَرة رسائلَ حكمتهم العالمية المتسامية عن طريق رموز عالمية متسامية. التي، ويا لسخرية القدر، أُعيدتْ ترجمتها بشكل عام لاحقاً إلى أفكار شفهية شيّدت الجدران الداخلية في المقام الأول. سمعتُ قساوسة مسيحيين طيبين ينصحون الشركاء الشباب بذلك خلال مراسم زواجهم أن يعيشوا هذه الحياة معاً إذ أنهم قد يحظون بالحياة الأبدية في العالم الذي سيأتي؛ وقلتُ في سرّي، وا أسفاه! إنه النصح الميثولوجي الأنسب، إذاً، أن يعيشوا زواجهم في هذا العالم لعلهم يَلقون الحياة الأبدية. هناك في الحقيقة حياة أبدية، ويُعَدّ للقيَم الإنسانية الثابتة يلازم فعلُ الحياة ذاته، في التجربة والتعبير المتزامنين اللذين عاش الإنسان ومات خلالهما. كلّنا ننتظم ضمن ذلك دون وعي منّا، وليس الوجود على اتساعه سوى أولئك الذين تيقّظوا على معرفتهم. كما يلمح قول منسوب للمسيح في الإنجيل الغنوصي وفقاً لـ توما: "مملكة الأب مفروشة على الأرض ولا يراها الناس."

قد تبدو الأساطير في تلك الإضاءة كتعابير شعرية لمجرد رؤية سامية كهذه؛ وإذا اتخذنا بمثابة الدليل عراقة أشكال أسطورية أساسية معيّنة. أعني الله، والشجرة المقدسة، مثلاً. بدايات لما ندعوه اليومَ وحياً باطنياً فذلك لأنه معروف بالتأكيد على الأقلّ لمجموعة صغيرة من الناس، حتى لمعلّميّ عرّفنا البدائيين، منذ البدء.

3

ما هي، إذن، أقدم الأدلة على التفكير الأسطوري لدى الجنس البشري؟

كما ألمحنا من قبل، من بين أقدم الأدلة التي يمكننا أن نستشهد بها اليوم عن الكائنات الشبيهة بالإنسان الطارئة على هذه الأرض هي بقايا قديمة تمّ الكشف عنها مؤخراً في مضيق أولدوفاي، شرق أفريقيا، على يد الدكتور ل. س. ب. ليكي: لا شكّ أن الفكوك والجماجم ذات الهيئة البشرية المكتشفة في طبقات الأرض تعود إلى 1800000 سنة. تلك سقطة طويلة، طويلة في الماضي. ومنذ تلك الحقبة فصاعداً، حتى ظهور فنون زراعة الحبوب وتدجين الحيوان في الشرق الأدنى، كان الإنسان لا يزال معتمداً كلّياً في تأمين غذائه على جمع الجذور والفاكهة وعلى الصيد البري والمائي. من ناحية أخرى، في تلك الآلاف من السنين سكَن الإنسان وترحّل في مجموعات صغيرة كأقلية على هذه الأرض. والآن نحن الأكثرية العظمى، والأعداء الذين نواجههم هم من جنسنا البشري. إذاً، من جهة أخرى، كانت الحيوانات تشكل الأكثرية العظمى، وكانت أيضاً "الشاغل القديم" للأرض، الراسخة والواثقة بطرقها الخاصة، في موطنها هنا، والكثير منها كان شديد الخطر. بشكل نسبي. فلّما كانت تحصل مواجهات بين جماعة بشرية وأخرى أو تعاملات معها. بل كانت مواجهتهم اليائسة تحدث في العادة مع الحيوانات. وكما نجابه في هذه الأيام جيراننا البشر بشكل مختلف من الخوف أو الوجل أو النفور أو العاطفة أو اللامبالاة، كذلك إذاً. على مدى تلك الآلاف من القرون. كان الجيرانُ من الحيوانات هم الذين تقع المواجهة معهم في العادة. من ناحية أخرى، كما أنّ لدينا في هذه الأيام تفاهماتنا مع جيراننا. أو على الأقل نتخيّل أنها لدينا. كذلك بدا أن للبشر. القردة الأوائل نوعاً من التفاهمات المتبادلة التي اشتركوا بها مع عالم الحيوان.

تُستمدّ أدلّتنا المادية الأولى عن التفكير الميثولوجي من حقبة إنسان نياندرتال، التي استمرت من 250000 إلى 50000 ق.م على وجه التقريب؛ وهذه تتضمّن، أولاً، المدافن مع مؤونة الطعام، أمتعة القبر، الأدوات، الحيوانات الأضاحي، وما شابه ذلك؛ وثانياً، عدداً من المعابد في كهوف الجبال العالية، حيث حُفظت جماجم دببة الكهوف، المرتّبة شعائرياً بطريقة عرض رمزية. توحي المدافن بفكرة الخلود، التي إن لم تكن مكتملة فعلى الأقل تعد بحياة ستأتي؛ كما تُظهِر ملاذاتُ الجبال العالية المقدسة التي تكاد تستعصي على الاكتشاف دون شك طقوسَ عبادة الدب، الشخصية كثيفة الشَّعر المنتصبة، شبيهة الإنسان. ولا يزال الدب مبجلاً من قِبَل البشر صيّادي البر والبحر من سكان أقاصي الشمال، في أوروبا وسيبيريا وفي أوساط قبائل هنود أميركا الشمالية؛ ولدينا معطيات عن مقدار كبير من رؤوس وجماجم الحيوانات المعبودة التي حُفظتْ على أكمل وجه كما تلك المبكرة في كهوف إنسان نياندرتال.

يسود النموذج التوجيهي وحسن التوثيق بشكل خاص لعبادة الدب لدى الـ آينو Ainu اليابانيين، وهي سلالة قوقازية دخلت واستقرت في اليابان قبل قرون من اليابانيين المنغوليين، الذين اقتصر سُكناهم الآن على الجزر الشمالية، هوكايدو وساخالين. والأخيرة تحت الحكم الروسي الآن طبعاً. فلدى هؤلاء الناس غريبي الأطوار فكرة معقولة تفيد بأن هذا العالم أكثر فتنةً من الذي يليه، وأن تلك الكائنات الإلهية المقيمة في العالم الآخر، بالتالي، اقتتمت بضرورة أن تقوم بزيارات إلينا. وقد وصلتْ على هيئة حيوانات، لكن، ما إن ترتدي لباسها الحيواني، حتى تصبح عاجزة عن العودة إلى الموطن دون مساعدة الإنسان. لذلك يقوم الـ آينو Ainu بالمساعدة. بقتلها، بإزالة وأكل الكساء، ثم يُطلقون بشكل احتفالي سراح الضيوف ويبشرونهم بـ رحلة سعيدة *bon voyage*.

لدينا عدد من القصص المفصّلة عن الطقوس، وحتى في هذه الأيام قد يتسنى لسعيد الحظ أن يشهد مناسبة كهذه. تؤخَذ الدببة وهي لا

تزال جراء صغيرة لتُربّى كحيوانات مدللة لدى عائلة صيّادها، تلقى الرعاية والتنشئة بكل حنان من قبل إناث العائلة ويُترَك لها أن تهرول وتتعثر مع الصغار. مع ذلك، عندما تصبح أكبر وأصلب عوداً بقليل من ذي قبل، يُحتَفَظ بها رهينة في قفص، وعندما يصبح الضيف الصغير في عمر أربع سنوات تقريباً، بحين وقت إرساله إلى موطنه. سيحضُرُه ربُّ الأسرة، التي عاش في كنفها، للمناسبة بتقديم النصح له بأنه ربما يجد الاحتفال قاسياً بعضَ الشيء، لكن لا مفر من ذلك وأن النيّة كانت أن يتم الأمر على نحو لطيف. سيُقال لـ "المعبود الصغير،" الكائن الصغير حبيس القفص في خطبة على الملأ، "نوشك على إرسالك إلى موطنك، وفي حال لم تكن قد جربتَ إحدى هذه الاحتفالات من قبلُ، فيجدر بك أخذ العلم أننا مضطرون لإجرائها بهذه الطريقة. نريدك أن تعود إلى الموطن وتخبر ذويك كم كانت معاملتنا لك طيبة على الأرض. وإن استمتعتَ بحياتك بيننا وشئتَ أن تشرفنا بزيارتك مرة أخرى، فنحن بدورنا سنشرفك بترتيب احتفالية دبٍّ أخرى من هذا النوع." ثم يُبعَث الكائن الصغير بخفّة ومهارة. يُفصَل جلده مع الرأس والبراثن وتوضع على رفّ كي تبدو حيّةً. تُحضَر مأدبة يكون فيها الحساء ولحمه الطبقَ الرئيسي، يوضَع صحن سخيّ مما كان يُفترض أن يُترك أمام خطمه كعشاء أخير له في هذا العالم؛ ويلي ذلك عدد من الهبات الوداعية التي سترافقه، فلا بدّ أن يكون راضياً مرضيّاً حين عودته إلى الموطن.

إن الثيمة الرئيسية الآن، التي أودّ لفت الانتباه إليها هنا، هي تلك المتعلقة بدعوة الدب للعودة إلى الأرض. هذا يوحي بأن لا وجود لشيء اسمه الموت لدى الـ آينو. وقد وجدنا نفس الفكرة جليّةً في الإرشادات الختامية التي قيلت للمغادر في طقوس الدفن لدى الـ آينو. الموتى لن يعودوا كأشباح متاوية أو أرواح متملّكة، بل من خلال مسار طبيعي لائق فحسب، مثل الأطفال. أيضاً، وحيث أن الموت وحده لن يكون عقاباً للـ آينو، فإن عقوبتهم القصوى للجرائم الخطيرة هي التعذيب حتى الموت.

ثمة فكرة أساسية ثانية هي أن الدب بصفته ضيفاً إلهياً، ينبغي أن "يفنى" جسده الحيواني (كما يقولون) لتحريره من أجل عودته إلى موطنه في العالم الآخر. يُعتقَد بأن العديد من النباتات الصالحة للأكل، بالإضافة إلى الحيوانات المَصيدة، قد تكون ضيوفاً من مثل هذا النوع؛ لذلك فإن الـ آينو، يقومون بقتلها وأكلها، دون أن يتسببوا بأذىً لها، بل في الواقع يُسدون إليها معروفاً كبيراً. هناك دفاع سيكولوجي واضح ضد الشعور بالذنب ومخاوف الانتقام لدى البشر ممتهنيّ الصيد البدائي البري والمائي والذين يتوقف وجودهم برمّته على ممارسة القتل المتواصل عديم الرحمة. فيُنظر إلى الحيوانات المقتولة والنباتات المستهلَكة على أنها ترغب بأن تكون أضحيات؛ لذلك يجب أن يكون العرفان، وليس الحقد، ردّ فعل أرواحها المحرَّرة على "إفناء وأكل" أجسادها المادية المؤقتة.

هناك أسطورة عن آينو الـ كوشيرو (على ساحل هوكايدو الجنوبي الشرقي) تدّعي أنها تفسر التبجيل العالي الذي يحظى به الدب. إنها تحكي عن زوجة شابة اعتادت الذهاب كلّ يوم مع طفلها إلى الجبال بحثاً عن جذور الزنبق وما يصلح للطعام؛ وحين تجمع كفايتها، كان عليها أن تمضي باتجاه جدول الماء لتغسل الجذور، فتزيح الطفل عن ظهرها وتتركه ملفوفاً بملابسها على الضفة، ثم تنزل عارية إلى المياه. وهكذا، ذات يوم، وبينما هي في الجدول بدأت تغني أغنية عذبة، وعندما خوّضت متجهة إلى الشاطئ، ولا تزال تغني، شرعت بالرقص على إيقاع الأغنية، مأخوذة بكل معنى الكلمة برقصها وأغنيتها ذاهلةً عما يحيطها، حتى سمعت على حين غرة صوتاً مفزعاً، وحين تطلعت إلى مصدره، كان هناك الدبّ الإله مقبلاً باتجاهها. فرّتْ مذعورةً كما هي. وحين شاهد الدب الإلهُ الطفلَ المهجور قرب الجدول، قال في نفسه: جئتُ مأخوذاً بتلك الأغنية الجميلة، أخطو بهدوء كي لا يند عني صوت. لكن ويا للأسف! كانت موسيقاها جميلة للغاية لدرجة أنها حرّكت داخلي حتى النشوة ودون قصدٍ مني أثرتُ الضجيج.

ومع شروع الطفل بالبكاء، دسّ الدبّ الإلهُ لسانه في فم الطفل كي يطعمه ويهدئه، ولأيام عديدة، استمر في رعايته بهذه الطريقة، دون أن يفارقه، وقد تدبّر أمر إبقائه حياً. وعندما اقتربت مجموعة من صيادي القرية، انصرف الدب وبلغ القرويون الطفلَ المهجور وهو حيّ، وأدركوا أن الدب قد رعاه، وبدهشة خاطب كلٌ الآخرَ: "لقد اعتنى بالطفل الضائع. الدب خيّرٌ. إنه معبود عظيم، وبالتأكيد يستحق أن نعبده." لذلك سعوا خلفه فأردوه بسهامهم، وعادوا به إلى قريتهم، أقاموا احتفال الدب، وقدموا الطعام والنبيذ الطيب لروحه، ثم حشوه بالأصنام، وأرسلوه إلى موطنه بكل الوفرة والسعادة".

حيث أن الدبَّ، وهو العنصر الرئيس في pantheon/ مجمّع الآلهة لدى الآينو، موضعُ تقدير بصفته إله جبال، فقد اقترح عدد من العلماء رأياً قد يكون وجيها يتعلق باختيار كهوف جبلية عالية كي تكون معابد لطائفة دبّ النياندرتال. وقد حفظ الـ آينو جماجم الدببة التي قدموها كأضحيات. كما لوحظت آثار لمواقد نار في معابد النياندرتال المرتفعة؛ وخلال أداء الـ آينو لطقسهم تُستدعى إلهة النار فوجي لتنال حصتها من قربان الدب ضمن وليمة تُقام من لحمه. كان يفترض أن يتجاذب الاثنان، إلهة النار وإله الجبال، أطراف الحديث بينما يقوم مضيفوهما من رجال ونساء الـ آينو بإمتاعهما بالأغاني طوال الليل، وبالطعام والشراب. لا يسعنا، بالتأكيد، التثبّت فيما إذا كان للنياندرتال منذ مائتي ألف سنة أفكار مثل هذه. يشكك عدد من العلماء الموثوقين بجدية في صحة تأويل بقايا ما قبل التاريخ استناداً إلى عادات الشعوب البدائية الجديدة. ومع ذلك، في المثال الحالي، تبقى المقارنات لافتة للنظر حقاً. بل لوحظ في كلتا الحالتين أن عدد فقرات العنق التي بقيت متصلة بالجماجم المقطوعة هي على العموم اثنتان. لكن بكل الأحوال، يمكننا بالتأكيد

7 1. Carl Etter, *Ainu Folklore: Traditions and Culture of the Vanishing Aborigines of Japan* (Chicago: Wilcox and Follett, 1949), pp. 56-57.

القول دون شك كبير إن الدب في الحالتين حيوان مقدس، ذلك أن طاقاته تصعد في وجه الموت وتبقى فعالة في جمجمته المحفوظة، وأن الطقوس تساعد في ربط تلك الطاقات بتطلّعات الجماعة البشرية، وأن طاقة النار في بعض الحالات متلازمة مع الشعائر.

تعود أقدم الأدلة المعروفة عن تطويع النار إلى فترة تبعدُ عن فترة إنسان نياندرتال بُعْدَ زمانه المبهم عن زماننا، وأعني، حقبة الـ Pithecan-thropus/ إنسان جاوة، الإنسان القردي المنتصب، منذ حوالي خمسمائة ألف سنة[8]، في أوكار أكل لحوم البشر الهمجي المفترس المعروف بإنسان بكين، الذي كان على وجه الخصوص شغوفاً، كما يبدو، بالأدمغة على الطريقة الطبيعية وبلتهم جماجم فُلعتْ لتوّها. لم يكن استخدامه للنار بغرض الطهو. وكذلك لم تكن نار النياندرتال. فلماذا كانت إذاً؟ أمن أجل التدفئة؟ جائز! ولكن من الجائز، أيضاً، أن تكون بمثابة فَتَش[9] يسحر الآخرين، تُبقى مشتعلة في موقدها وكأنها فوق المذبح. وهذا التقدير هو الأكثر احتمالاً على ضوء الظهور اللاحق للنار المطوّعة لخدمة البشر، ليس في ملاذات الدببة النياندرتالية فحسب بل أيضاً في سياق احتفالات دببة آينو، حيث أن ذلك مثبت صراحةً مع ظهور الإلهة. فالنار إذاً، ربما كانت أول لاهوت حُفظتْ قدسيته لإنسان ما قبل التاريخ. للنار خاصيّة تكمن في أن قيمتها تبقى عند مشاركتها، بل ترتفع. النار وضّاءة، كالشمس والبرق، الشيء الفريد من نوعه على الأرض. وهي أيضاً حيّةٌ: في دفء الجسد البشري هي الحياة بذاتها، التي تغادر عندما يبرد الجسد. إنها كما الأعجوبة في البراكين، وكما نعرف من خلال اطّلاعنا على العديد من التقاليد البدائية، فقد كانت تُعرَف بين حين وآخر بـ شيطانة البراكين، التي تترأس الآخرة حيث

8 الأبحاث الجديدة تعيد زمن تطويع النار إلى مليون سنة.

9 Fetish: تميمة، تعويذة، وثن، شيء كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه. (م)

يتمتع الموتى بالرقص الأبدي في النيران البركانية المتراقصة كأعجوبة.

اندثر العرق الخشن ونمط حياة إنسان نياندرتال، بل امّحى من الذاكرة مع نهاية العصور الجليدية، منذ حوالي أربعين ألف سنة؛ وظهر بعد ذلك، بشكل مفاجئ إلى حدّ ما، عرق بشري متفوّق بشكل ملحوظ، هو الإنسان العاقل[10] الأصيل، الذي تحدرنا منه مباشرةً. بهذا الإنسان ارتبطت، بشكل ملحوظ، رسومات الكهوف الجميلة بجبال البيرينيه الفرنسية، والدوردونيي الفرنسية، والهضاب الكانتابرية الإسبانية وكذلك تماثيل الإناث الحجرية الصغيرة تلك، أو عظام الماموث وعاجه، التي أهدتنا، على سبيل الإمتاع، تماثيل فينوس العصر الحجري القديم وهي، دون أدنى شك، أولى الأعمال التي أنتجها الفن البشري قاطبةً. لا تُعتبر 'جمجمةُ العبادة' العائدة لدبٍّ كهفيّ عملاً فنياً، ولا المدفنُ، أو الأداة المسننة، بالمعنى الذي أستخدم به المصطلح هنا، بل التماثيل الصغيرة المنحوتة من دون أقدام، لأنها كانت مُعَدّة لأن تُركن على الأرض، وتُنصب في معابد البيوت.

وأرى من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه في حين ظهرت الرموز المذكرة في الرسومات الجدارية لنفس العصر مكسوةً دائماً بنوع ما من اللباس، كانت التماثيل المؤنثة عارية تماماً، ببساطة واقفة، دون أية زينة. ذلك يشي بشيء ما عن القيم السيكولوجية وبالتالي الميثولوجية المتعلقة على التوالي بالحضور الذكري والأنثوي. المرأة في ذاتها تمتلك مسحة أسطورية بشكل مباشر وعريقة في ذلك، ليس كمنبع وكمانح للحياة فحسب، بل أيضاً لسحر لمستها وحضورها. كما أن توافق دوراتها مع دورات القمر مسألة محيرة أيضاً. بينما الذكر، في لباسه، هو مَن اكتسب قدراته ومثّل شيئاً من دور أو وظيفة اجتماعية محدودة خاصة. في الطفولة. كما بيّن كلّ من فرويد ويونغ. تُعتبر الأم خيرة بما هي سلطةً

10 Homo sapiens

الطبيعة والأبُ بما هو سلطة المجتمع. الأم قد ولدت الطفل، أمدته بالغذاء، وفي خيال الرضيع ربما تبدو (مثل ساحرة هانسل وغريتل) كأم مستهلكة، تتوعد لكي تعيد ازدراد غلّتها. ثم الأب، المبادر، لا يلقي بالولدَ إلى وظيفته الاجتماعية وحسب، بل أيضاً، أثناء شرحه لابنته تجربتها الأولى والرئيسية عن شخصية الذكر، ينبهها على وظيفتها الاجتماعية كأنثى مقابل رجل. وُجدت فينوسات العصر الحجري القديم دائماً في مناطق المواقد الأهلية. في حين ظهرت رسومات الذكور المكسوين باللباس داخل الكهوف المعابد المطلية العميقة، وسط أشكال الحيوانات المرسومة بمنتهى الروعة. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يشبهون في زيّهم ووضعيتهم الجسدية كهنةَ قبائلنا البدائية اللاحقة. وكانوا من دون شك مرتبطين بطقوس الصيد وتكريس الشعائر.

دعوني أستعرض هنا أسطورة من قبيلة القدم السوداء الأميركية الشمالية كنتُ قد سردتُها في كتابي *أقنعة الله، الجزء الأول، الميثولوجيا البدائية*[11]؛ لأنها موحية أكثر من أيّ أسطورة أخرى أعرفها بما يخص الطريقة التي نقل فيها صيادو- فنانو العصر الحجري القديم طقوسَ كهوفهم/ المعابد المرسومة بشكل مبهم. تحكي أسطورة القدم السوداء عن فصل وجد فيه الهنود أنفسهم، مع اقتراب الشتاء، غير قادرين على ادّخار مؤونة من لحم الجاموس، إذ أن الحيوانات كانت ترفض التفرّق والفرار مذعورةً لدى سقوط الجاموس. وعندما تُساق نحو حافة الجرف، فإنها تنحرف عند الحافة يميناً أو يساراً وتعدو هاربةً. حدث ذات صباح باكر، عندما خرجت امرأة شابة من القرية الجائعة التي أقامت خيامها أسفل الجرف المرتفع لتجلب ماء إلى خيمة عائلتها، وبينما تتطلع إلى أعلى، لمحت قطيعاً يرعى على المرج في الأعلى، عند حافة الجرف، هتفت مُعلنة أنهم لو قفزوا إلى الحظيرة في الأسفل فسوف تتزوج واحداً منهم. عندئذٍ، ويالله العجب! بدأت الحيوانات تجري صوبها،

11 The Masks of God, Primitive Mythology. Joseph Campbell

تتعثر وتتساقط فتلقى حتفها. بالطبع كانت في حالة ذهول وإثارة، لكن بعد ذلك، حين اجتاز ثورٌ كبير سياج الحظيرة بقفزة واحدة وأقبل مهرولاً باتجاهها، أصيبت بالذعر. "تعالي!" قال. "آه، لا!" ردّت عليه وهي تتراجع إلى الوراء. لكنه كان يصر على نَيل ما وعدتْ به، واقتادها إلى أعلى الجرف، فوق المرعى، ثم نحو البعيد.

كان الثورُ روحَ القطيع النابضة، رمزاً أسطورياً أكثر مما هو حضور مادّي. ونجد نسَخَه المماثلة في كل مكان من حكايات الصيادين البدائيين: شخوص شامانية نصف بشرية، نصف حيوانية (مثل أفعى عدن)، يصعب وصفها سواء كانت حيوانية أم بشرية: بل إننا نتقبل تفاصيلها بشكل طبيعي.

عندما فرغ أهل القرية السعداء من ذبح ما ألقاه الحظ إليهم، انتبهوا إلى اختفاء الصبيّة. لاحظ والدها وهو يبحث عن آثار خطاها خطىً لجاموس، عاد لإحضار قوسه وجعبته، وتبع الأثر صعوداً حتى سفح الجرف ثم إلى السهل. كان الطريق الذي قطعه طويلاً قبل أن يصل مرّاغةً[12] جواميس، بعد مسافة قصيرة، لمح قطيعاً. ولأنه تعبٌ، قعد ليستريح، وبينما يفكر بما سيفعله، شاهد عقعقاً[13] يطير، ويهبط إلى المراغة قريباً منه ويبدأ بالتقاط قوّته عن الأرض.

"ها!" صاح الرجل. "أيها الطائر الجميل! خلال طيرانك في الجوار، لا بد أن تشاهد ابنتي، هل يمكن أن تخبرها، من فضلك، أن والدها هنا، ينتظرها عند المرّاغة؟"

حلّق الطائر الأسود والأبيض الجميل ذو الذيل اللطيف بعيداً باتجاه القطيع مباشرةً، وحين رأى امرأة جميلة هناك صفّق بجناحيه فربها وتابع التقاط قوته، وهو يدير رأسه من جهة إلى أخرى، حتى بات قريباً جداً منها، وهمس، "والدك ينتظرك عند المرّاغة."

12 مرّاغة: Wallow بقعة يتمرغ فيها الحيوان.

13 Magpie غراب مبقّع بالأسود والأبيض.

كانت خائفة فتطلعتْ متفحصة المكان من حولها. كان الثور، زوجها، نائماً في موضع قريب منها. "هـ سـ سـ س! ارجع إلى هناك،" همست قائلة، "وقلْ لوالدي أن ينتظر."

عاد الطائر بالرسالة إلى المراغة، وفي هذه اللحظة استفاق الثور الكبير.

"اذهبي وآتني ببعض الماء،" قال الثور الكبير، فنهضت الصبية، تناولت قرناً من رأس زوجها وسارت باتجاه المراغة، حيث قبض والدها على ساعدها بقوة. "لا، لا!" قالت محذّرة له. "سيتبعوننا ويقتلوننا سويةً. علينا الانتظار حتى يعود إلى النوم، عندها سأعود وسنتسلل هاربين."

ملأتْ القرن بالماء وحملته عائدة إلى زوجها، فشرب جرعة واحدة وتشمّمَها. "هناك شخص في الجوار،" قال. شرب وتشمم من جديد؛ ثم نهض وخارَ. ويا له من صوت مفزع!

نهضت كلّ الثيران. أشرعت ذيولها القصيرة ولوّحت بها، هزّت رؤوسها الضخمة، وردّت على خواره؛ ثم ضربت الأرض بحوافرها، اندفعت في كل الاتجاهات، وأخيراً، وهي تيمم وجهها شطر المراغة، داستْ وسحقت ذلك الهندي المسكين الذي أتى باحثاً عن ابنته؛ صادته بقرونها ومرة أخرى داسته بحوافرها، حتى لم تعد تُرى نتفةٌ من جسده. كانت الصبية تصرخ، "آه يا أبي، يا أبي!" والدموع تتدحرج على وجنتيها.

قال الثور بشيء من الاستغراب، "هكذا إذاً، تندبين والدك! وهكذا الآن، ربما، ستفهمين كيف نشعر وكيف كنا نشعر أبداً. شهدّنا أمهاتنا وآباءنا وأقرباءنا يُقتلون ويُقصّبون من قبل أهل قبيلتك. مع ذلك سأشفق عليك وأعطيك فرصة واحدة. إن استطعت إعادة والدك إلى الحياة، فستتمكنين أنت وهو من العودة إلى قبيلتك."

التفتت الصبية الحزينة إلى العقمق، توسلت إليه أن يبحث في التراب

الذي داسته الجواميس عن جزء صغير من جسد والدها؛ وقد فعل ذلك، وبدأ ينقر في رمل المراغة حتى أخرج منقاره الطويل بفقرة من عمود الرجل الفقري. وضعت الصبية العظم على الأرض بعناية، غطتها برداءها، غنّت أغنيةً خاصة. وبعد فترة وجيزة، وكان يمكن تمييز أن ثمة إنساناً تحت الثوب. رفعت طرفه. كان والدها، لم يكن حياً بعد. أعادت طرف الثوب، أكملت أغنيتها، وحين أزاحت الثوب من جديد كان يتنفس. نهض والدها، وابتهج العقمق، حلّق في المكان وهو يثير جلبة هائلة. كانت الجواميس في حالة انشداه.

"لقد رأينا أشياء غريبة اليوم،" خاطب الثور الكبير الآخرين في قطيعه. "الرجل الذي دُيِّسَ حتى الموت عاد إلى الحياة. إن قدرات البشر خارقة."

التفتَ إلى الصبيّة. "الآن، قبل أن تذهبي ووالدك، علينا أن نعلّمكما رقصتنا وأغنيتنا الخاصتين، اللتين لن تنسياهما قطّ." لأنها الوسائل السحرية الكفيلة بإعادة الجواميس التي قُتلتْ على يد البشر إلى الحياة في المستقبل، كما بُعث الرجل الذي قتلته الجواميس.

رقصت كلّ الجواميس؛ وفي حين كان الرقص متناسباً مع حجوم حيوانات ضخمة كهذه، كانت الأغنية بطيئة ورصينة، والنقلة ثقيلة ومتأنية. وحين انتهت الرقصة، قال الثور الكبير، "الآن اذهبا إلى موطنكما ولا تنسيا ما رأيتما. علّما هذه الرقصة وهذه الأغنية لأهلكما. فالقصد المقدس لهذا الطقس أن يكون رأس الثور ورداء الجواميس: كلّ من يرقص رقصة الثيران يجب أن يتقلّدَ رأسَ الثور ويأتزر برداء الجواميس حين يغنّي[14]."

14 George Bird Grinnell, *Blackfoot Lodge Tales* (New York: Charles Scribner's Sons, 1916), pp. 104-112. Joseph Campbell, *The Masks of God*, Vol. I, *Primitive Mythology* (New York: The Viking Press, 1959), pp. 282-286.

مدهش كمّ من الرموز المرسومة في كهوف العصر الحجري تتخذ شكل الحياة المعاصرة لتلك الفترة عندما تُستعرَض على ضوء حكايات كتلك الحكايات الأخيرة عن السلالات الصيادة. بالطبع، لا يمكن للمرء التأكد من أن كلّ الإحالات المقترحة صحيحة. مع ذلك، أن تكون الأفكار الرئيسية متشابهة للغاية فهذا صحيح بالتأكيد. ومن بين هذه الأفكار يمكننا أن نميّز منها ما الحيوانات التي قُتلت كأضحيات طوعية، وما المراسم الابتهالية عند تقديم العهد الباطني بين عالَميّ الحيوان والإنسان، وما الأغنية والرقص اللذان استُخدما كواسطة نقل للقوة السحرية لمثل تلك المراسم؛ من ناحية أخرى، ثمة المفهوم القائل بأن كل نوع في عالم الحيوان هو صنف من فرد متكاثر، كأن بذاره أو "جوهرّه الفرْد" شبْهُ إنسان، شبهُ حيوان، *الحيوان الأوليّ* سحري الفحولة؛ والفكرة المرتبطة بهذا، أن ليس هناك من شيء يشبه الموت، أجساد مادية هي ببساطة أثوابٌ تُلبَس من قِبَل كينونات "جوهرانية فردانية" لامرئية من نوع آخر، ويمكنها المرور جيئة وذهاباً من عالم آخرَ لامرئيّ إلى عالمنا هذا، كأنها تعبر من خلال جدار لا تدركه الحواس؛ كذلك المفاهيم عن الزيجات بين البشر وبين الحيوانات، عن التواصل والمحاورة بين البهائم والإنسان في الأزمنة القديمة، وعن وقائع تبادل مواثيق معيّنة في تلك الأزمنة التي جاءت منها الطقوس والعادات؛ ومفهوم المقدرة السحرية لمثل تلك الطقوس، وفكرة أنهم، كي يحتفظوا بمقدرتهم، يجب أن يكونوا مخلصين لتشكّلهم الأول والمؤسِّس. حتى أوهى انحراف مدمّر لسحرهم.

ثمة الكثير مما يتعلق بعالم الصيادين البدائيين الأسطوري إذاً. كانت الإقامة بشكل رئيسي على أراضي المراعي الشاسعة، حيث جمهور الطبيعة من أرض تنبسط فسيحةً ومغطاة بقبة لازوردية تتلاقى مع آفاق بعيدة كما أن صورة الحياة الغالبة هي من مجتمعات حيوانية تتنقل في تلك المساحة متسعة الأرجاء، وعلى العموم اكتسبت القبائل البدوية، التي تعيش على القتل، شخصية المحارب، مدعَّمة ومحمية بمهارات

الصيد وشجاعة ذكورها القتالية، إنها محكومة بالضرورة بسيكولوجية ذكورية، وأساطير موجّهة للذكور، وتقدير للبسالة الفردية.

من ناحية أخرى، يسود في الغابات الاستوائية نظام مختلف كلياً للطبيعة، وبالتالي، للسيكولوجية والأسطورة أيضاً. يتشكل الجمهور الغالب هناك مما تولّده الحياة النباتية في حين أن كلّ ما سوى ذلك غائب أكثر مما هو باد للعيان. في الأعلى هناك عالمٌ فوقيّ مورق مسكون بالطيور المجنحة الصيّاحة؛ في الأسفل، غطاء ورقيّ كثيف، تحته الأفاعي والعقارب والعديد من الأخطار القاتلة المخفية. ليس هناك أفق بعيد صاف، بل تشابك لا ينتهي من جذوع وأوراق في كل الاتجاهات حيث المجازفة الفردية محفوفة بالخطر. مجمع القرية مستقر نسبياً، مرتبط بالأرض، يتغذى على الأطعمة النباتية التي جمّعتها أو زرعتها النساء بشكل رئيسي؛ وهكذا تكون طبيعة الذكر النفسية في حالة سيئة. فحتى المهمة السيكولوجية الأولية للذكر الشاب في تحقيق التحرر من الاعتماد على الأم بالكاد يمكن التوصل إليه في عالم حيث كل الأعمال الأساسية تقوم بها، في كلّ مكان، الإناث الماهرات.

ولذلك نشأت المؤسسة العجيبة بين القبائل الاستوائية في مجتمع الرجال السريّ، حيث لا يسمح بتواجد النساء، وحيث الألعاب الرمزية الغريبة تداعب الأهواء الذكورية في سبيل بلوغ أقصى ما يمكن التمتع به بأمان، بعيداً عن أعين النسوة المهيمنات. أضف إلى ذلك أن المشهد العادي في تلك المناطق للنباتات المتعفنة التي تتسبب بنموّ براعم جديدة خضراء يبدو وكأنه استلهم ميثولوجيا الموت بما هو واهب الحياة؛ وحيث أن الفكرة السيئة المعتمَدة تقضي بأن طريقة زيادة الحياة تتمثل في زيادة الموت. كانت النتيجة، على مدى آلاف السنوات، سعاراً من الأضاحي شملت كافة أرجاء النطاق الاستوائي من كوكبنا، على العكس تماماً من المراسم الصبيانية المقابلة لها في عبادة الحيوان واسترضاء صياديّ السهوب الكبيرة؛ بشريّ متوحش إضافةً إلى قرابين حيوانية، بالغة

الرمزية في التفاصيل؛ كانت القرابين أيضاً فاكهة الحقول، من البواكير الزراعية، من الأرامل على قبور أزواجهن، وأخيراً كلّ الممالك بملوكها. أصبحت الثيمة الأسطورية لـ *الأضحية الطوعية* مرتبطة هنا بصورة كائن بدائي قدّمَ نفسه في البدء كذبيحة، تُقطّع أوصاله ويُدفن؛ ثم من أعضائه الدفينة تنمو نباتات الطعام التي عن طريقها تستمر حياة الناس.

هناك في جزر كوك البولينيزية شكل مختلف محلي ظريف لهذه الميثولوجيا الشائعة يتجلى في أسطورة عذراء اسمها هينا Hina (القمر) التي كانت تستمتع بالاستحمام في حوض سباحة ما. ذات يوم سبح أنقليس كبير قربها ولمسها. حدث الأمر مرة ثانية، يوماً إثر يوم، إلى أن نضا عنه في مناسبة ما حلّةَ الأنقليس ليقف أمامها "تي تونا"، الشاب الوسيم الذي قبلتْ به كحبيب لها. منذ ذلك الحين وهو يزورها بهيئته الآدمية، لكنه يتحول إلى أنقليس حين يسبح مبتعداً، حتى أعلن لها ذات يوم بأنه حان وقت مغادرته للأبد. سيقوم بزيارة إضافية واحدة، يصل بهيئته الأنقليسية مع فيضان مائي كبير، وحينذاك سيتعين عليها أن تقطع رأسه وتدفنه. وفي واقع الأمر هذا سبب مجيئه. وفعلت "هينا" بالضبط ما أُمرت به. وكلّ يوم بعد ذلك كانت تزور موضع الرأس المدفون، حتى ظهر برعم أخضر نما وأصبح شجرة جميلة وبمرور الوقت أعطت الثمار. كانت تلك أولى ثمرات جوز الهند؛ ولا تزال كل جوزة، حين تُقشَّر، تُظهر عينيّ ووجه حبيب "هينا"[15].

15 William Wyatt Gill, *Myths and Songs from the South Pacific* (London: Henry S. King and Company, 1876), pp. 77-79; cited in *The Masks of God*, Vol. I, pp. 198-199.

3
أهمية الطقوس
(1964)

تكمن وظيفة الطقس، كما أفهمها، في إضفاء شكل على الحياة الإنسانية، ليس بمعنى ترتيب المظهر الخارجي فحسب، بل في العمق أيضاً. ففي الأزمنة القديمة كانت كلّ مناسبة اجتماعية تُنظّم على نحو طقسيّ وكان إحساس العمق متوافراً من خلال الحفاظ على الطابع الديني. بالمقابل، أصبح هذا الطابع الديني في أيامنا يُدّخَر للمناسبات الاستثنائية، الخاصة جداً، و"المقدسة". وحتى في أساليب حياتنا العلمانية، بقيت الطقوس على قيد الحياة. ويمكن تمييزها ليس في مجاملة الصالونات وقوانين الحياة العسكرية فحسب، بل أيضاً في عادات الناس أثناء جلوسهم معاً إلى طاولات الموائد.

الحياة بأكملها معمارٌ. وفي المحيط الحيوي، كلما كان الهيكل أكثر تفصيلاً، كلما ارتقى أسلوب الحياة. إن الهيكل الذي تنطوي عليه مقدرات نجم البحر أكثر تعقيداً بما لا يقارَن من الأميبا؛ ومع الارتفاع بالسلّم السلالي، إلى الشمبانزي مثلاً، يزداد التعقيد. والأمر ذاته في ميدان الثقافة البشرية: فقد دُحِضَ المفهوم الفجّ بإمكانية استبدال أو تعويض السلطة والقوة بهجر الهياكل أو تحطيمها عبْرَ كلّ ما نعرفه من تطوّر وتاريخ الحياة.

والآن تتلازمُ العناصرُ الهيكلية للسلوك الحيواني مع النظم العصبية الموروثة للنوع الحيواني؛ وما يُسمى بالميكانيزمات الفطرية المحرِّرة التي تتميز بها تلك النظم هي نمطية في الغالب. تتألف الاستجابات ضمن النوع من حيوان إلى حيوان. أضف إلى أن تعقيد بعض عناصر السلوك الثابتة مذهل: بناء الأعشاش لأنواع محددة من الطيور- الطائر الصافر، مثلاً، في تزيينه عشّه الدقيق المعلّق؛ أو بين الحشرات والعنكبوتيات، كمعجزة نسج شبكة العنكبوت. لسنا معتادين ما يكفي على أشياء كهذه، يجب أن نكون راضخين مع دهشة وعدم تصديق لمرأى مدى الدقة الحسابية والتوازن لشبكة عنكبوت متلألئة وهي معلقة بإتقان بين أغصان صغيرة منتقاة في جانب درب يعبر الغابات، واعين ومدركين (كما ينبغي أن نقول عن أي عمل بشري مماثل) الجدوى كلّيّة الصحة لقوة المواد، والإحكام، والتوازن، وسوى ذلك. إن كلّ الأعاجيب المعمارية المشابهة- مثل خلايا النحل، كثبان النمل، قواقع النوتي البحري، ومثيلاتها- إنما نتجتْ بموجب مهارات موروثة متأصلة في الخلايا والأجهزة العصبية للنوع.

من ناحية أخرى، يتميز جنسنا البشري بحقيقة أن ميكانيزمات تحرير النشاط الخاصة بجهازه العصبي المركزي ليست في الغالب "نمطية" بل "مفتوحة." وبذلك تكون عرضة لتأثير التطبّع من المجتمع الذي ينمو فيه الفرد. مع الأخذ بالاعتبار أن الطفل البشري يولد- كافتراض بيولوجي- أبكرَ حوالي عشرة أو اثني عشرة عاماً. إنه يحظى بشخصيته البشرية، وقامته المنتصبة، ومقدرته على التحدث، وحصيلة تفكيره اللغوية تحت تأثير ثقافة معيّنة، وملامح ما قد انطبع، إن جاز التعبير، في أعصابه؛ لذلك فإن التنميط البنيويّ الموروث بيولوجياً في عالم الحيوان يتوافق في النوع البشري عموماً مع الصيغ المتناقلة اجتماعياً، التي انطبعتْ خلال ما عُرف منذ زمن طويل بـ "سنوات التأثّر،" وكانت الشعائرُ الوسائلَ المعترف بها لمثل هذا التطبُّع. إن الأساطير هي الدعامات الذهنية للطقوس؛ والطقوس هي التشريعات المادية للأساطير. وبتمثُّل أساطير

زمرته الاجتماعية والمشاركة في شعائرها، يكون الفتى قد (تهيكل) على الانسجام مع بيئته الاجتماعية بالإضافة إلى الطبيعية، وتحولَ من نتاج طبيعي غير متبلور، مولود قبل أوانه، إلى عضو متمايز وكفؤ في نظام اجتماعي متمايز يؤدي دوره بكفاءة.

هذا (خداج) استثنائي بكل معنى الكلمة في ولادة الطفل البشري، لذلك وعلى امتداد فترة طفولته المبكرة يعتمد على والديه، ما دفع علماء البيولوجيا والسيكولوجيا إلى مقارنة حالتنا بحالة الجُرابيات: الكنغر، على سبيل المثال، الذي تلد أنثاه بعد ثلاثة أسابيع من الحمل. تزحف الكائنات بالغة الصغر غير المؤهلة بشكل غريزيّ على بطن الأم قاصدةً جرابها، حيث تلصق نفسها- دون إرشاد- إلى الحلمات وتبقى كذلك حتى تصبح مؤهلة للحياة، وافرة الصحة وآمنة في ما يمكننا أن نسميه الرحم الثاني. يشتمل التطور ما بعد تلك المرحلة لدى الثدييات على ابتكار بيولوجي هو المشيمة، التي تمكّن الجنين من البقاء داخل الأم إلى أن يصبح شبهَ جاهز للاستقلالية؛ لذلك يمكن للثدييات عموماً الاعتناء بنفسها بعد أن تولَد، أو على الأقل في غضون أيام أو أسابيع قليلة. في النوع البشري، بما يتطلبه دماغه الكبير من سنوات طويلة حتى يبلغ النضج، يأتي المواليد الجدد بشكل مبكر للغاية، وبدلاً من الجراب يكون لديه المسكن، الذي يُعتبر مرة أخرى رحماً ثانياً خارجياً.

والآن، في هذه المرحلة من الحياة في البيت، تتولّد ملامح التطبّع الاجتماعي الأساسية. إنها على أية حال متوافقة مع وضعية من استقلال ينبغي استكماله قبل أن يتحقق النضوج السيكولوجي. يستجيب المولود البشري لتحديات بيئته بالعودة إلى والديه من أجل النصح والدعم والحماية؛ وقبل أن يحظى بالثقة كراشد، لا بد أن يتغير هذا التنميط. وعليه، فإن أولى وظائف طقوس الرشد ضمن المجتمعات البدائية بما يتعلق بالمعرفة في كل مكان، تمثلتْ أبداً في تحويل نظم استجابة المراهقين من الاتكال إلى المسؤولية- وهو ليس تحوّلاً يمكن بلوغه بسهولة. وبإطالة

أمد فترة الاتكال في حضارتنا إلى منتصف أو حتى أواخر العشرينيات من العمر، يصبح التحدي اليوم أكثر تهديداً من ذي قبل، وتتبدى حالات فشلنا بشكل متزايد.

على ضوء ذلك يمكن تمييز العصابيّ على أنه شخص أخفق تماماً في تجاوز العتبة الحرجة لـ "الولادة الثانية" في سنّ يُفاعته. إن المحفّزات التي يجب أن تستثير فيه الأفكار والتصرفات المسؤولة تستثير بدلاً من ذلك أفكارَ وسلوكيات اللوذ بالحماية، والخوف من العقاب، والحاجة إلى النصح، وما شابه ذلك. كما يتعين عليه باستمرار أن يصحح تلقائياً أنماط استجاباته، ومثل طفل، سيميل إلى تحميل مسؤولية إخفاقاته ومتاعبه إما إلى والديه أو إلى أقرب بديل لوالديه، أي الهيئة الرسمية والاجتماعية التي تحميه وتدعمه. وفي حال دعتْ حاجة الراشد الأولى إلى أن يتحمل مسؤولية إخفاقاته طوال حياته، لما قام به، في سياق الأحوال الراهنة للعالم الذي يعيش فيه، فذلك يعني ببساطة حقيقةً سيكولوجية أولية مفادها أن لا أحد سيتطور إلى هذه الحالة إن كان يظن باستمرار أن الشيء العظيم الذي سيحظى به ليس إلا أن تكون أحوال حياته مختلفة: والدان لا يهتمان لحاجاته، مجتمع أقلّ جوراً، أو عالم مرتّب بطريقة أخرى. فالمطلب الأول لأي مجتمع أن يدرك أعضاؤه الراشدون ويتمثّلوا حقيقة أنهم يشكّلون روحه ووجوده. وبالتالي يجب أن تكون أول وظيفة من طقوس الرشد ترسيخ منظومة ميول في الفرد- منظومة تتلاءم مع المجتمع الذي يعيش فيه، وعلى ما يعتمد عليه ذلك المجتمع لصون وجوده.

برزت تعقيدات إضافية في العالم الغربي الحديث؛ لأننا نطالب الراشد بشيء لا يزال أكثر من أن يسلّم به دون نقد شخصيّ أو إطلاق أحكام على العادات والتقاليد الموروثة لوسطه الاجتماعي المحليّ. نطالب ونحن نتوقع، إلى حد ما، أن يُظهر ما أسماه سيغموند فرويد "دور الحقيقة": مَلَكة الفرد المتيقظ، المفكر، حرّ التصرف الذي يستطيع تقييم الأمور

دون تحامل مسبق على إمكانيات بيئته وعلى نفسه وهو ابنُ هذه البيئة، الناقد والخلاق، الذي لا يتعين عليه أن يعيد إنتاج أنماط الفكر والنشاط الموروثة، بل من يصبح هو نفسُه مركز ابتكار، مركزاً فاعلاً وخلاقاً في سيرورة الحياة.

بمعنى آخر، إن مثالنا الأعلى للمجتمع ليس ذلك الذي يُفترض أن يكون هيئةً جامدة، تأسست في عهد الأسلاف كي تبقى دون تبدّل على مرّ الأزمان. بل إنه سيرورة تتحرك باتجاه بلوغ الإمكانيات التي لمّا تُدرك بعد؛ وفي هذه السيرورة الفاعلة، ينبغي على الكل أن يكون بؤرة مجدّدة ومنسجمة. بنتيجة ذلك، ستواجهنا مشكلة عويصة نسبياً في تربية صغارنا وهي ببساطة ألا ننشئهم على تبنّي أنماط الماضي دون أن ينتقدوها، بل على أن يعوا ويصقلوا إمكاناتهم الخلاقة؛ ليس أن يبقوا على مستوىً ما سابق تكرّسَ بيولوجياً واجتماعياً، وإنما أن يمثلوا حركة الجنس البشري إلى الأمام. وتلكم هي، على وجه الخصوص، المسؤولية المباشرة لكل الذين يعيشون اليوم كغربيين معاصرين؛ لأنها الحضارة الغربية التي كانت، منذ منتصف القرن الثالث عشر- بمعنى الكلمة- الحضارةَ المجدّدة الوحيدة في العالم.

مع ذلك، لا يسع المرء إلا التعقيب أنه منذ عام 1914 تقريباً بات من الواضح في عالمنا المتقدم أن ثمة تجاهلاً، بل ازدراءً متصاعداً لتلك المظاهر الطقسية التي تمخضت مرةً، ولا تزال حتى الآن، عن تلك الحضارة المتنامية الغنية والمثمرة بلا حدود. ثمة نزعة عاطفية مبتذلة وساذجة تترافق مع قوة قاهرة متصاعدة تتسلم زمام الأمور. وتعود بداياتها إلى جان جاك روسو في القرن الثامن عشر، بما تضمن هذا القرن من حركات 'العودة إلى الطبيعة' المتكلّفة وتصوراته عن 'الهمجي النبيل'. كان الأميركيون في الخارج، منذ مارك توين وحتى الآن، نماذج سيئة لهذه الفكرة، إذ تبنوا بأقصى ما لديهم من السفور المعتقدَ البريء ذاته الذي حتّمَ على الأوروبيين والآسيويين، المقيمين في بيئات أقدم

وأكثر اكتظاظاً، أن يستعيدوا قواهم ويتنبهوا لبراءتهم الطبيعية بسبب القسوة المفرطة لمنتّج 'بلاد الله'، تراب أميركتنا الحلو، و'ميثاق حقوقنا'. ففي ألمانيا، بين الحربين، كان هناك المتجولون المتسكعون Wandervögel، بحقائبهم الظهرية وغيتاراتهم، وفيما بعد 'شبيبة هتلر'، هم ممثلو هذه النزعة الرجعية ضمن الحياة العصرية. والآن، هنا في 'بلاد الله' ذاتها، ثمة المشاهد الشاعرية الرعوية لـ "هنود" وبيض وسود عراة الأقدام يعسكرون على أرصفتنا مصطحبين طبولهم وفرشاتهم النقالة وأطلالهم/ المشاهد الواعدة بتحويل قطاعات بأكملها من مدننا إلى حقول بحث أنثروبولوجي. لأنه، كما في كلّ المجتمعات، وكذلك في هذه المجتمعات، هناك أزياء وطقوس عبادة ومعتقدات متأصلة وغيرها. مع ذلك، إنها هنا، رجعية ومنقوصة بكل سفور، كأنما الفرد قد نكص في نسق التطور البيولوجي من حالة الشمبانزي إلى حالة سمكة نجمة البحر أو حتى الأميبا. إن تعقيد التنميط الاجتماعي مجتزأ ومرفوض، وبالتالي، لم نفزْ بحرية ومنعة الحياة وإنما فقدناها.

نلمس في ميادين الفن أن الأثر المختزل للحياة، أثر الافتقار إلى أيّ معنى للشكل هو الأكثر إقلاقاً اليوم؛ إذ أن طاقات الناس الخلاقة في فنونهم ظاهرة للعيان على أكمل وجه ويمكن بلوغها بمنتهى اليسر. ولا يسع المرء إلا مقارنة الحالة اليومّ بحالة الفنون في روما القديمة. ما السبب في أن آثار العمارة والنحت الرومانيين، بكلّ جبروتهما وبراعتهما، أقلّ إدهاشاً، وأقلّ تأثيراً في النفس، وأقلّ شأناً على المستوى الشكلي من الإغريقية؟ لقد فكر الكثيرون بتلك المسألة، وذات ليلة بدَرَ الجواب في ذهني ضمنَ رؤيا سأوردها الآن على سبيل الإضاءة. هي ذي الفكرة المتخيَّلة: في مجتمع صغير مثل أثينا تكون علاقة الفنان المبدع بالمرشدين الاجتماعيين المحليين صريحةً ومباشرة، لأن كلاً منهم سيكون قد عرف الآخر منذ عهد الصبا؛ في حين أنه في مجتمع مثل مجتمعنا في نيويورك المعاصرة أو لندن أو باريس، فإن على الفنان الذي سيكون مشهوراً أن

يرتاد حفلات الكوكتيل لكي يحظى بفرص العمل، والذين يحظون بها ليسوا ممن يلازمون محترَفاتهم الفنية وإنما ممن يحضرون الحفلات، ويلتقون بالناس المناسبين ويظهرون في الأماكن المناسبة. لم ينخرطوا بما فيه الكفاية في معاناة الإنجاز الإبداعي المنعزل كي يشقوا طريقهم إلى ما يتجاوز الأساليب والتقنيات الرائجة. والحصيلة التالية هي "فنّ تحت الطلب،" حيث ثمة شخص ما ذكي يتمتع بأقل قدر من المعاناة الشكلية يقدّم شيئاً ما غير متوقَّع- شيء يتناوله النقد ثم إما يُعلَن عنه أو يُطمَس من قِبَل أسرة صحيفة، من المحبين المناصرين أو المعادين، أولئك الذين لديهم هم بدورهم الكثير من محافل الصداقات كي يحضروها، ثم، لعدم امتلاكهم وقتاً كافياً لإجراء دراسة أو تجربة غير نمطية، يجدون أنفسهم مرتبكين في مواجهة كلّ ما هو حقاً مركّب أو بالغ الحداثة.

أتذكر بمنتهى الاشمئزاز المراجعات التي ظهرت حول 'يقظة فينيغان'[16] في سنة 1939. لم يكن الأمر أن عملاً حقيقياً يؤرخ لمرحلة قد انتُبذ بحجة أنه مبهَم فحسب؛ بل انتُبذ بازدراء شديد على أنه نوع من احتيال رديء وتبديد لوقت الناس؛ في حين أن كتاب ثورنتون وايلدر، 'جلد أسناننا' المبنيّ كلّياً، من ألفه إلى يائه، على إيحاء وأفكار وشخصيات وعناصر الحبكة، وحتى بتفاصيله العارضة المأخوذة بشكل مباشر، وبوضوح، ودون حياء من رواية الايرلندي العظيمة 'يقظة فينيغان'، قد فاز بجائزة بوليتزر الصحافية كأعظم مسرحية أميركية في ذلك الموسم المبارك. عملياً، دون استثناء، وجد العمل الإبداعي العصري الهام صعوبة بالغة في جذب الاهتمام الشعبي في المقام الأول، وفي المقام الثاني، فيما لو فيض له الظهور، فإن مَن يسمون نقاداً سوف يُجهزون عليه بشكل شبه مؤكد. أليس من المشوّق، على سبيل المثال (لدى العودة إلى تاريخ جيمس جويس)، أن نابغة قرننا الأدبيّ لم ينلْ على امتداد سيرته الأدبية جائزة نوبل؟ أو أليس مما يبعث على الدهشة أنه حتى هذه اللحظة ليس

16 رواية لـ جيمس جويس.

لدينا عمل إبداعي على الإطلاق يتفق مع متطلبات ومآلات هذه الفترة المذهلة من زمننا - ما بعد الحرب العالمية الثانية- التي ربما تُعَدّ أكبر تحوّل روحيّ في تاريخ الجنس البشري؟ هذا الإخفاق هو الأشد كارثيةً، من حيث أنه مستمَدّ فقط من نباهة متنبّئيه وفنانيه المبدعين الخاصين به الذين استمدّ منهم كلُ شعب من الشعوب أساطيرَه وشعائره المناسبة التي تُنضج وترفد حياته.

دعوني أُذكّر في هذا المقام بمقولات نيتشه حول الفن الكلاسيكي والرومانتيكي. لقد ميّز نموذجين أو نسقين من كلّ منهما. فهناك رومانتيكية الطاقة الأصلية التي تحطم الأشكال المعاصرة فتمضي إلى ما ورائها باتجاه أشكال جديدة؛ وبالمقابل، هناك الرومانتيكية العاجزة عن تحقيق أيّ شكل على الإطلاق، ولذلك تلجأ إلى سحق هذه الأشكال عبر العنف. وفي فهمه للكلاسيكية بدورها، فهناك الكلاسيكية التي تجدُ إنجازَ الأشكال المعترَف بها سهلاً وقابلاً للتطويع بحسب الإرادة، مستخلصةً من خلال تلك الأشكال أغراضها (أغراض الكلاسيكية) بغنىً وحيوية؛ وهناك الكلاسيكية التي تستميت بالتشبث بالشكل دون كلل، الجافة والمتشددة، الاستبدادية وعديمة الرحمة. والرأي الذي أريد التوصّل إليه- والذي أظن أن نيتشه قد تبناه- هو أن الشكل هو الواسطة، المركّبة، التي تصبح الحياة من خلالها جليّةً في أسلوبها الجليل، وبيّنة ومفخّمة، وأن التحطيم المجرد للشكل بالنسبة إلى حياة الإنسان كما إلى حياة الحيوان كارثة، بما أن الطقس ritual واللباقة decorum هما الشكلان الناظمان لمجمل الحضارة.

بحسب تجربتي الخاصة، حدث أنني نظرتُ بعين الاحترام وبكل الحماس إلى المبالغة في أداء الطقوس عندما دُعيتُ في اليابان، منذ سنوات مضت، في مراسم الشاي التي اشتُهر المضيفُ فيها بلقب 'الماستر'. والآن إن كان هناك شيء في العالم أكثر تطلباً للانضباط الرسمي من إجراءات مراسم الشاي اليابانية، فإنني أودّ أن أعلم ما هو وأين يكون. لقد قيل

لي إن أناساً في اليابان درسوا ومارسوا مراسم الشاي طوال حياتهم دون أن يبلغوا الكمال، فقواعدها شديدة الحساسية. وغنيٌ عن القول إنني في منهى الشاي كنتُ أنا نفسي متهوراً كمثل ثور في متجر خزف. وفي حقيقة الأمر، يتلخص مجمل التجربة المتفردة الرائعة للأجنبي في اليابان أنه لن يكون أبداً على صواب بشكل تام. فلم يتربَّ على التقيّد بالشكليات؛ حتى إن تكوين جسده غير مطواع لذلك. ومراسم الشاي- وهي الخلاصة الجوهرية لكل الأعجوبة التقليدية لتلك الحضارة المفرطة في تقليديتها- تبلغ ذروة تقليديتها الخاصة، بعد عدد من الأدوار التمهيدية الطقسية، في الأداء المنمّط لـ 'ماستر' الشاي وهو يحرّك ويقدم شايه لعدد ضئيل من الضيوف. لن أخوض في التفاصيل، وفي الحقيقة لن أستطيع حتى لو أردتُ ذلك. يكفي القول إن كلّ إيماءة بل ولفتة رأس موجّهةٌ ومضبوطة؛ ومع ذلك، عندما تحدثتُ لاحقاً مع الضيوف الآخرين، أسهبوا بمديح عفوية 'الماستر'. كان تعبير المقارنة الوحيد الذي خطر لي حينذاك هو الفنّ الشعريّ للسوناتا؛ لأن هناك أيضاً شكلاً متطلباً؛ بل إن الشاعر يكتسب داخل الشكل طاقةً ومدىً من التعبير لم يكن لينالهما من دونه، وبالتالي نسَقاً جديداً من الحرية. حظيتُ في اليابان بفرصة مراقبة نماذج لعدد من 'ماسترات' الشاي وتعلمت مشاهدة كيف كان كلٌ منهم بالفعل مسترخياً ومتحرراً في الأداء. لقد أصبحت طقوس الحضارة مسألةً عضوية، إن صحّ التعبير، لدى الماستر، فكان يستطيع التحرك بطريقة تلقائية باسترسال معبّر. كان الانطباع، بما فيه من خصوصية، مثل الانطباع الذي تتركه حديقة يابانية جميلة، حيث تندمج الطبيعة والفن ضمن بوح مشترك يؤلّف بين الاثنين ويعبّر عنهما.

فهل لدينا شيء من هذا القبيل في حضارتنا الأميركية الشمالية الراهنة؟

في المساء التالي فتحتُ تلفازي فوقعتُ مصادفةً على سباق جرّي في لوس أنجلوس. كان السباق الأول الذي شاهدته منذ كنتُ أنا نفسي متسابقاً في منتصف العشرينيات. أي بعد غياب قرابة أربعين عاماً، لم

أول خلالها تلك الرياضة أدنى اهتمام، لسبب رئيسي هو أنها حقّرت لدي كمّاً أكبرَ من المشاعر التي ينبغي عليَّ ضبطها. كان ما وقعتُ عليه سباق الميل الواحد بين ستة عدّائين متألّقين، سباق رائع بكل معنى الكلمة. ولكن حين انتهى، أعلن المعلّق التلفزيوني أنه كان مخيّباً. كنتُ مشدوهاً. فالسباق قد انتهى في أربع دقائق وستّ ثوانٍ، ومتسابقان اثنان يليان الفائز بفاصل ثانيتين؛ في حين أن سباقَ الميل الأسرع الذي حدث في أيامي كان أقلّ من أربع دقائق وخمس عشرة ثانية، ولا أزال أتذكر الانفعال الذي أعقب هذا الإنجاز. والجدير بالذكر أنالرقم القياسي الآن أقل من أربع دقائق. وأحسب أنه يعني: جيّد! حيث أن السباق جرى بطريقة بالغة الجدية، ولم يتضمن حفلات كوكتيل وما يشبهها، بل خيضَ التحدي مباشرةً وبنزاهة على أرض الميدان. فلا يزال لدينا شكل، وقد شاهدناه ضمن أسلوب رفيع! يعرّف أوزوالد اشبنغلر في كتابه *سقوط الغرب* "الثقافة" على أنها حالة مجتمع "في شكله الأنسب" بالمعنى الذي ينطوي على أن اللاعب الرياضي هو "في شكله الأنسب". في الطريقة التي يمسك بها المرءُ ذراعَ الآخر، والزاوية التي يندفع بها الجسم: كل تفصيل من وضع الرياضي يقوم بدَور أداة مُعَزِّزة لازدهار لحظة من حياة قيدَ الإنجاز. وكذلك الأمر أيضاً في نمط مجتمع "في وضع مناسب." اللياقة الاجتماعية لبشر متحضرين يندمجون معاً "في وضع مناسب." إن تحطيم الشكل لن يُنتج فائزاً في ميدان سباق الميل الواحد أو في ميدان الثقافة؛ وبما أن هذا العالم، في المحصلة، عالم صارم، فإن الحياة المتحضرة ستستمر حيث ينوجد الشكل الأعلى فحسب. وليس عندما يخفق سباق، يمكن تكراره على الدوام.

لذلك اسمحوا لي أن أوردَ الآن مثالاً تجلى به الدَّور الرفيع للمجتمع، في مهابة المناسبة بالغة الجلال التي جاءت لاحقاً، في واشنطن العاصمة، أي اغتيال الرئيس كينيدي. كانت تلك احتفالية (تُطَقْسَنُ) مطلباً اجتماعياً رفيع القدر. فقد مُنيت الأمة برمّتها بخسارة صادمة، خسارة لم يزل

صداها يتردد في عمق الوجدان- في الضمير الجمعي. لا يهم ماذا كانت آراء الناس وميولهم السياسية، فالرئيس الشاب الرائع يمثل كلّ مجتمعنا، الكائن الحيّ الاجتماعي الذي تشكل فيه أنفسُنا الأعضاءَ، انتُزِعَ وهو في أوج أدائه لمهامه، في لحظة من حياته الجذلة. فجأة أتى الموت، ثم الفوضى المرعبة التي أعقبت الحدث: كلّ ذلك استدعى طقوساً تعويضيةً كي يعيد الاعتبار لمعنى تماسك الأمة، ليس كمناسبة تخصنا وحسب، هنا، داخلَ الأمة، بل أيضاً كبيان إلى العالم، عن سلطاننا وكرامتنا كدولة عصرية متحضرة. أقدّرُ أن أداء مؤسسات الإذاعة والتلفزيون المتميز في ذلك الوقت العصيب أسهم بشطر متكامل من الشعائر التي اتحدث عنها: الشطر الذي كان واحداً من المظاهر الحية والعفوية في المناسبة. فهنا كانت الأمة الهائلة؛ بل تحولت خلال تلك الأيام الأربعة إلى جماعة منسجمة، حيث كنا جميعاً نشارك بالطريقة ذاتها، معاً، في واقعة رمزيّة واحدة. وبحسب علمي، كان ذلك الشيء الأول والوحيد من نوعه الذي منحني الشعور بأنني عضوٌ في كلّ هذه الجماعة الوطنية، عضو منخرطٌ بكل ما أوتيَ من قوة في احتفالية طقس بالغ الجلال. لم يكن مما يناسب ذوق العصر في السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية أن ترفع العلم الأميركي. فقد كان ذلك بمثابة تصنيف يضعك في خانة جون بيرش المحفوفة بالمخاطرة، بل كان هنا في المحصلة مناسبةً حيث سيصعب على أحد ألا يستشعر فخامةَ حياته وشخصيته الخاصتين من خلال مشاركته حياةَ الأمة ومصيرَها. كان نسق المشاعر الأساسية لبقائنا كوحدة عضوية قد استعاد حيويته بشكل مؤثر وسَرَتْ فيه الحياة، عاطفياً وبصدق وقُدّم إلينا وبالنيابة عنّا، خلال نهاية الأسبوع تلك التي حفلت بالتأمل الجماعي.

لكن بالإضافة إلى ذلك جالَ في خاطري، وأنا أشاهد شعائر الدفن تلك واضحةً أمام الأعين، أفكار إضافية معيّنة ذات إحالة أوضح بعض الشيء، خاصةً فيما يتعلق برمزية عربة المدفع وقد حملت نعشاً مغطّى

بالعلم، تجرّها سبعة أحصنة شهباء تصدر قعقعة بحوافرَ لُوِّنت بالأسود، وحصان آخر يخبّ ببطء إلى جوارها يحمل سرجاً فارغاً بركائبَ معكوسة، أيضاً بحوافر لوِّنت بالأسود ويقودها جميعاً سائس عسكري. شعرتُ وكأنني رأيتُ أمامي أشباحَ جياد إلـه الموت الأشهب، يأتي إلى هنا ليرشد البطل الشاب الصريعَ خلال رحلته السماوية الأخيرة، عابراً بشكل رمزيّ إلى الأعلى نحو طبقات السماوات السبع ليستقر في مقعده السماوي، من حيث نزَلَ في وقت مضى. إن أسطورة الطبقات السبع ورحلة الروح من موطنها السماوي نزولاً إلى حياتها على الأرض، ثم مع نهاية تلك الحياة، الصعود من جديد عبر الطبقات السبع، هي مسألة قديمة قدَمَ الحضارة نفسها. فالحصان مع السرج بلا فارس، والركائب المعكوسة، والخبب إلى جانب المحارب الشاب القتيل، كان سيُضحى به في العصور السالفة، ويُحرق مع جثة سيده في محرقة عظيمة ترمز إلى باب الشمس المتقدة الذهبية، الباب الذي من خلاله ستذهب روح البطل العابر إلى مقعده في قاعة الشرف للمحاربين الموتى الخالدين. لأن جواداً كهذا، أيضاً بصورة رمزية، يمثل الجسد وحياته، والفارس هو بصيرته؛ إنهما واحد، كما الجسد والعقل. وبينما أرقب ذلك الجواد الأصيل بلا فارس في الموكب الجنائزي بحوافره السوداء، طافت في ذهني أسطورة الأمير الآريّ الشاب غوتاما شاكياموني وحصانه الأصيل كانتاكا. فعندما امتطاه فارسه، زاهداً من العالم، ناشياً بنفسه ولائذاً بالغابة كي يصبح هناك بوذا، عادتْ مطيّتُه إلى القصر بلا فارس وبكلّ الحزن أسلمت الروح.

بالتأكيد، لم تكن تلك الثيمات والأساطير معروفة لدى الكثيرين من ملايين المعاصرين الذين شاهدوا وسمعوا، في مراسم دفن بطلهم الشاب الميت، حوافرَ الجياد الرمادية السبعة تقعقع في المدينة الصامتة ورأوا الجواد الأصيل بلا فارس يخبّ قرب الموكب بركائبه معكوسة الاتجاه. ورغم ذلك لم تكن تلك الثيمات والأساطير مجرد خلفية: كانت الحضور

في تلك الطقوس العسكرية، وقد آتى حضورها أُكُلَه، كما أفترضُ. أضف إلى ذلك، أنهم أعادوا ذكريات لحظة أخرى من تاريخنا الأميركي: عربات مدافع الحرب الأهلية وتشييع لينكولن، الذي اغتيل بدوره وحُمِلَ إلى الأبدية بنفس هذا الأسلوب بالضبط. كانت قوة مفعول الشعائر المعاصرة قد تعززت للغاية بنغمات الجواب الرمزية هذه التي ربما لا تُسمع بالآذان الخارجية، لكن في الداخلية ميّزها الكلّ. على وقع الطبول العسكرية الهادئ والمهيب وقعقعة الحوافر السوداء لخيول ملك الموت على امتداد المدينة الغارقة في الصمت.

لكن في هذا المقام جالت في ذهني أفكار أخرى، بينما أتابع تلك الشعائر وهي تردد رجْعَ موضوعات قديمة بالإضافة إلى المعاصرة، وحيثيات الطبيعة المنفتحة للذهن البشري، الذي يمكنه إيجاد نماذج لمواساته في تلك الألاعيب المكللة بالغموض مثل محاكاة معبَر الروح من الأرض في أمداء السماوات السبع. لقد مضت سنوات عديدة قبل أن أخوض تقييماً ومداولةً في أعمال المؤرخ الثقافي الكبير ليو فروبينيوس عما أسماه الطاقات "الضاغطة" أو البيداغوجية (التربوية) التي حكم بها واستلهم منها الإنسانُ الحيوانُ غير المتشكّل، غير المؤكّد الذي لا تكون الآليات المُحرّرة في جملته العصبية نمطية بل قابلة للتطبُع. صياغة ثقافاته عبْر التاريخ. ففي العصور البدائية، كما في أوساط البدائيين في هذه الأيام، كان معلّمو الإنسان هم من الحيوان والنبات. وفيما بعد، أصبحت الأجرام السماوية السبع هي المعلّم. إنها ميزة هامة لجنسنا غير المتشكّل أننا نعيش ونصوغ حيواتنا من خلال أفعال التظاهر والادّعاء. كما يرمح شابٌ ما فوق حصان برّي على الطريق بحيوية وشخصية متجددة، وابنة تقلّد أمّها؛ وابن يقلّد أباه.

في ألفيات عصر الطرائد الكبيرة الحجري التي لفّها النسيان منذ أمد طويل، حين كانت الحيوانات بمختلف أنواعها جيران الإنسان المنتشرة في كل مكان، لعبت تلك الحيوانات دور المعلم له، ترسم له

بطرائق حياتها طاقات وأطوارَ الطبيعة. وقد تولّى أفراد القبائل تسمية الحيوانات، وفي طقوسهم تقلّدوا الأقنعة الحيوانية. من جهة أخرى، من بين أولئك الساكنين في بيئات الأدغال الاستوائية، كان مشهد الطبيعة الغالب يتألف من النباتات، وبدلاً من ذلك كانت الطريدة المُعادلة لدى الإنسان هي من عالم الخضراوات، وكما رأينا، فإن الأسطورة الأساسية كانت عن ربٍّ وهَبَ جسده كي يُذبَح ويقطَّع ويُدفَن، من حيث أن النباتات الغذائية إنما وُجدتْ كي تكون طعامَ البشر. ففي شعائر القربان البشري المشتركة لدى كلّ الثقافات الزراعية، ثمة هذا المشهد الميثولوجي البدئيّ المعادل حرْفياً ولدرجة مملّة: لأنه، كما في عالم الخضار تنبت الحياة من الموت وينمو الأخضر النضير من البقايا المتحللة، يجب أن يكون الحال في عالم الإنسان. إذ يُدفَن الميتُ كي يولد من جديد، وتصبح دوراتُ العالم النباتي نماذجَ لأساطير وطقوس الجنس البشري.

في المرحلة العظيمة والحرجة من نهوض بلاد ما بين النهرين، منذ قرابة 3500 ق. م. ونشوء أقدم حضارات المدينة- الدولة، تحوّلَ مركز الجذب والأنموذج القدوة للمجتمع من الأرض وممالك الحيوان والنبات، إلى السماء، عندما اكتشف راصدو السماء من الكهنة أن القوى السماوية السبع- الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية- تتحرك بمعدلات قابلة للحساب رياضياً عبْرَ المجموعات النجمية الثابتة. حينها تشكّلَ وعي جديد بأعجوبة هذا الكون تجلى في مفهوم النظام الكوني، الذي سرعان ما أصبح القدوة السماوية للمجتمع الصالح على الأرض: يتبوّأ الملكُ العرشَ، يُتوَّج كالقمر أو الشمس، وتتوج الملكةُ كالإلهة- الكوكب فينوس، ويلعب أصحاب المقام الرفيع من البلاط دور الأضواء السماوية المختلفة. وفي البلاط المذهل لبيزنطة المسيحية، في وقت متأخر ما بين القرن الخامس والقرن الثالث عشر ب. م.، كان التاج الملكي محاطاً بكل صنوف المشاهد البديعة والمدهشة: أسودٌ من الذهب تهز أذيالها وتزأر؛

طيور من معادن وجواهر نفيسة تتهادى على أشجار مرصعة بالأحجار الكريمة. وعندما يكون هناك رسولٌ من قبيلة ما غير متمدنة قد عبر الأروقة الرخامية الباهرة تزامناً مع وصول الصفوف الطويلة من حرس القصر والقادة والأساقفة قبل وصول شخص العاهل الجليل والساكن والصامت مكللاً بالشمس على عرشه النوراني، فسيلقي الضيف بنفسه في سجدة صادقة خاشعة أمام جلالته. وأثناء مثوله هناك، وهو مطرق للأسفل، سترفع 'ماكينةٌ' ما العرش للأعلى بشكل يدعو للعجب، وحين ينهض الضيف المشدوه من سجوده أخيراً سيجد أن مليكه في ردائه الكهنوتي المختلف كلياً ينظر إليه من علٍ، كما الربُ من سمائه المتلألئة. وقد خاطب كيرلس الأولُ بابا الإسكندرية في مراسلاته الإمبراطورَ بـ صورة الله على الأرض. ربما كان في الأمر شيء من المغالاة، لكن لا يكاد يختلف كثيراً عن التمثيل الإيمائي pantomime داخل بلاط إمبراطوري في هذه الأيام، أو عن القداس البابوي.

لا تزال الاعيب خبيثة من هذا النوع تؤدي وظيفتها. إنها بمثابة إسقاط على الحياة اليومية- على هيئة جسد بشري، وزيّ احتفالي، وتكوين حجري معماري- ما يشبه الرسوم الأسطورية المتخيّلة غير المشتقة من أيّة تجربة حياة يومية واقعية، بل من عمق ما نسميه الآن باللاوعي. وبناء على ذلك فإن الأثر النوعيّ للثيمات والمحفّزات الأسطورية التي تترجَم إلى طقس، يتجلى في أنها تصلُ الفردَ بأغراض وقوىً عابرة للفرد. وبطبيعة الحال لاحظ دارسو السلوك الحيواني في المحيط الحيوي أنه حيثما تتركز اهتمامات النّوع الحيواني ينتقل النموذجُ المسيطر- كما في حالات المغازلة أو الإيغال في المغازلة- للسلوك المولّب والمطقسَن إلى الكائنات مختلفة الطباع وفقاً لأوامر نشاط مبرمجة ومألوفة لدى النوع. وعلى غرار ذلك، في كل مناطق التواصل الاجتماعي الإنساني، ثمة إجراءات مُطقسنة تسحق أدوار الأبطال، تستطلعهم أو تنتزعهم من ذواتهم، ولذلك فإن قيادَهم الآن ليس في

أيديهم وإنما مرهون بالنوع أو المجتمع أو التراتبية الطبقية والطائفية أو المهنية. من هنا، على سبيل المثال، طقوس تنصيب القضاة، أو مأموريّ الدولة: فعلى أولئك المنصّبين بتلك الطريقة أن يقوموا بأدوارهم، ليس كأفراد منفصلين بل كوكلاء للمثُل والقوانين المشتركة. وحتى في مجال التبادلات التجارية الخاصة، فإن مراعاة العقود والاتفاقيات، المساومات والتلويح بالاحتكام إلى القانون تشكّل القواعد الطقسية لـ (لعبة) متعارف عليها، تجنباً للتعرض- إلى درجة محدودة، على الأقل- لحدة النبرة الشخصية. ومن دون (قواعد لعبة) كهذه لن يكون هناك مجتمع؛ ولن يتسنى لأي فرد أن يمتلك أدنى فكرة عن الطريقة التي يتصرف بها. وسيكون فقط من محاسن قواعد اللعبة الخاصة بزمرته الاجتماعية أنّ إنسانية أيّ امرئ ستبرز للعيان من فراغ الاحتمالات غير المعروفة (المحدودة زمانياً ومكانياً ومزاجياً) لمُنجَزه الأول والوحيد الذي يدعى الحياة.

لذلك دعونا نتساءل الآن عن ماهية مصدر الهيبة بالنسبة إلى الجنس البشري في هذا العصر. فكما أشار فوربينيوس، كان عالم الحيوان أولاً، بأنواع كائناته المختلفة، التي انطبعت في ذهن البشر على أنها لغز، وبالتالي، في خصيصة جاره الحاليّ، ما حرض النزوع إلى التشابه معه عن طريق المحاكاة. بعد ذلك، كان عالم النبات ومعجزة الأرض المثمرة، حيث يتحول الموت إلى حياة. وأخيراً، مع ظهور الشرق الأدنى القديم ذي الحضارات المتقدمة، تحوّل الاهتمام إلى رياضيات الأنوار الكونية السبعة المتحركة، والتي أعطتنا تلك الخيول الرمادية السبعة لموكب ملك الموت ثم البعث. مع ذلك، كما لاحظ 'مؤرّخو الأثير' أيضاً، أن جارنا التالي الأكثر غموضاً اليومَ ليس الحيوان أو النبات؛ ولم يعد القبة السماوية بأضوائها العجائبية المتحركة. إذ يشير فوربينيوس إلى أننا جردناها من محتواها الأسطوري عبر معارفنا العلمية، وإلى أن مركز الغموض الآن هو الإنسان ذاته: الإنسان كـ "أنتَ"، جار المرء،

ليس كما "أنا" أثناء أن يكون، أو أتخيل أنني أعرفه وتصلني به قرابة ما، بل كما هو في ذاته، ككينونة تحفل بالغموض والدهشة.

يجد المرء في التراجيديات الإغريقية أقدم اعتراف وتقديس لمركز الهيبة الجديد الذي جاء مباشرةً، وهو الإنسان. كانت طقوس كافة الشعوب الأخرى في زمنهم موجهة إلى الحيوان، والنبات، والكونيات، والنظم الخارقة للطبيعة؛ لكن في اليونان، أيامَ هوميروس، باتَ العالمُ عالمَ الإنسان. وفي تراجيديات شعراء القرن الخامس الكبار كانت ذروة تلك الدلالات الروحية في إعادتها التركيز على ذلك الهمّ قد أعلنت حضورها وظهورها أمام الملأ. حدّد جيمس جويس في 'صورة الفنان في شبابه' باختصار مفيد الخصائص الأساسية للتراجيديا الإغريقية التي انفتحت من خلالها الطرق إلى بُعْد صوفيٍّ ينطوي أساساً على الروحانية الإنسانية humanistic. ومستشهداً بـ 'فنّ الشعر' لـ أرسطو، يذكّرنا بـ "عاطفتين تراجيديتين" معروفتين كلاسيكياً، هما الشفقة والخوف، مبيّناً أيضاً أن أرسطو، مع ذلك، لم يعرّفهما. "لم يعرّف أرسطو الشفقة والخوف،" يقول بطله[1]، ستيفن ديدالوس، "لكنني فعلتُ." ويستطرد: "الشفقة هي الشعور الذي يكبح العقل بوجود كلّ ما هو غامض ومتأصل في الآلام الإنسانية ويوحّدها بالمعذَّب الإنساني. والخوف هو الشعور الذي يكبح العقل بوجود كلّ ما هو غامض ومتأصل في آلام الإنسانية ويوحّدها بالعلّة الخفيّة." العلة الخفية لكل الآلام هي، بالتأكيد، 'الفناء' ذاته، الذي هو الشرط المسبقُ الرئيسُ للحياة، وبالضرورة "الغامض والمتأصّل"، الذي لا سبيل إلى ردّه حتى ولو كانت الحياة أكيدة. مع ذلك، مجاراةً لهذا الشرط المسبق، هناك الشفقة تجاه الإنسان المعذّب، الذي هو بطبيعة الحال نظيرٌ، في هذا السياق، لحالته هو ذاته.

---

1 بطل (صورة الفنان في شبابه).

في شعائر التشييع تلك التي تحدثتُ لتوي عنها، تجلّتْ نبرة التوكيد الغريبة، الكلاسيكية والحديثة، على الغاية الإنسانية والتي وسمتْ المناسبةَ أكثر من سواها؛ وهذا ما لن نجده في أي حدث شرقي تقليدي يوازيه في الأهمية. فهناك ستكون الإحالة بواسطة الكائن البشري إلى ظرف كوزمولوجي مفترَض. ولا بدّ أن كلّ من عاش تجربة حضور طقوس شرقية مشابهة قد لاحظ أن المعذَّبَ الإنساني هو فردٌ طمسته المراسم في واقع الأمر، في حين أن كل شيء في هذا المثال قد أُقيمَ كي يُبرز قيمة الفرد. لقد احتوت الدنان القديمةُ نبيذاً جديداً، نبيذ الشخصية الفردانية، وبالطبع، بشكل أكثر تحديداً، تلك التي تخصّ شاباً بالغ الخصوصية وما يمثّله هذا الشاب، ليس في الجولات السرمدية المؤلفة من أشواط أزلية ومتواترة، بل في الزمن التاريخي الجاري. على الرغم من أن شيئاً من رمزية ذلك النسق الأقدم قد بقي حاضراً ومؤثراً في تلك الأحصنة السبعة المجلجلة لعربة المدفع وإلى جوارها الجواد بلا فارس. إن المجازات القديمة تتبنى الآن نشيداً جديداً. عن المعذَّب البشري الفذ والمتفرد والذي لن يتكرر؛ وبالمقابل لا يزال ماثلاً معنى "الغامض والمتأصّل" في العذاب البشري، بالإضافة إلى التلميح المقدس لـ "العلة الخفيّة" غير القابلة للدحض، التي من دونها سيفقد الطقس بُعْدَ عمقه وقدرته على التعافي.

وختاماً، دعوني أستحضر إلى بؤرة الاهتمام احتمالَ التساؤل غير المفهوم الذي نُوجِّهُنا إليه وتوحّدنا إزاءه كلُّ الأساطير والطقوس. فيما يتعلق بالشعر والفن العظيمين. باقتباس أبيات بليغة من قصيدة قصيرة المعنى بعمق عندما قرأتها للمرة الأولى منذ حوالي أربعين عاماً، والتي رسّخت نفسي بتفكيري منذ ذلك الحين. إنها قصيدة للشاعر الكاليفورني روبنسون جيفرز، وأُرسلت إلينا من برج المراقبة على ساحل المحيط الهادي، حيث كان يراقب طيران البجع بينما يشق الهواء باتجاه الشط، ويسمع عواء الفقمات، ومن ورائه خرخرة

المحركات العديدة الآخذة بالتصاعد والتي تنتهك حرمة المكان. عنوان قصيدته:

موسيقا طبيعية

الصوت القديم للمحيط، هدرُ الطيور عن الأنهار الصغيرة،

(وقد أعطاها الشتاءُ ذهباً مقابلَ الفضة

كي تلوّنَ مياهها وحزّزَ الأخضرَ مقابلَ البنّيّ كي ترسم حدودَ ضفافها)

من حناجرَ مختلفة تترتّل لغةً واحدة.

حتى لأوقن أننا لو كنا أقوياءَ ما يكفي

كي نصغي دون انقسامات الرغبة والخوف

إلى عصْفِ الأمم السقيمة،

غضب المدن المبتلية بالجوع،

لوجد المرء أيضاً أن تلك الأصوات

نقيةٌ كأصوات الأطفال؛ أو كأنفاس فتاةٍ ما

ترقص وحيدةً

على شاطئ المحيط،

حالمةً بالعشاق[18].

18 Robinson Jeffers, *Roan Stallion, Tamar, and Other Poems* (New York: Horace Liveright, 1925), p. 232.

4
افتراق الشرق والغرب
(1961)

1

ليس من السهل على الغربيين استيعاب أن الأفكار التي ظهرت مؤخراً في عالم الغرب، عن الفرد وذاتيته وحقوقه وحريته، لا معنى لها بأي حال من الأحوال في الشرق. كما لا معنى لها بالنسبة إلى الإنسان البدائي. ولن تعني شيئاً بالنسبة إلى شعوب حضارات ما بين النهرين والفراعنة والصين والهند. فهي في حقيقة الأمر منافية لقيَم وتطلّعات ونُظم حياة معظم شعوب الأرض. مع ذلك. وهنا ملاحظتي الثانية. فإنها في واقع الأمر "الشيء الجديد" العظيم حقاً الذي نمثّله للعالم وذلك ما يشكّل جهرَنا الغربي بالمثال الأعلى الإنساني الروحي على أكمل وجه، الصحيح إلى أقصى إمكانية جنسنا البشري. أرسم الخط الرئيسي الذي يفصل الشرق عن الغرب عمودياً عبر إيران، على امتداد خطّ طول يبعد 60 درجة شرقي غرينتش. ويمكن تصوّر ذلك على أنه خطّ فاصلٌ نهائيٌ. وإلى الشرق من ذلك الخط هناك مصفوفتان ثقافيتان عاليتان وخلاقتان: الهند والشرق الأقصى (الصين واليابان)؛ وإذا اتّجهنا غرباً، أيضاً، هناك اثنتان: (المشرق) بلاد الشام أو الشرق الأدنى، وأوروبا. فهي، في أساطيرها وأديانها وفلسفاتها ومثُلها العليا، ليست أقلّ مما هي

عليه في أنماط حياتها وأزيائها وفنونها، إنها أربعة ميادين لم تزل بارزة المعالم على مرّ تواريخها. ومع ذلك اندمجتْ بشكل ملحوظ في نسقين مؤلَّفين من عنصرين: الهند والشرق الأقصى من جهة، المشرق (بلاد الشام) وأوروبا من جهة أخرى.

على مدى ألوف السنين، باتت المراكز الشرقية التي تفصلها الآن المجاهل الجبلية الكبيرة عن الغرب وعن بعضها الآخر معزولةً إلى حدّ كبير، وبالتالي محافظة بشكل عميق للغاية. كان المشرق وأوروبا، على العكس من ذلك، في أخذ وردّ مثمرَين فيما بينهما، مع انفتاح ليس أمام غزوات الجيوش الجرارة فحسب بل أيضاً أمام عمليات تبادل السلع والأفكار النادرة. فالروحانياتُ المعجزةُ بالإضافة إلى التقلبات المادية للعنف العارض تنجم إلى حد كبير عن واقع أن الأسوار العازلة في كل من الهند والشرق الأقصى لم تُخرَق فحسب بل أُزيلت من حيّز الوجود؛ ويواجه العالمُ بشكل فعليّ الإشكاليات المتمثلة ميثولوجياً ضمن خرافة الكتاب المقدس ببنّائي برج بابل، عندما بلبل الربُّ ألسنةَ الناس حتى إنهم اضطروا للتخلي عن بناء مدينتهم الأرضية، وكما جاء في الكتاب المقدس، "فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ[19]." لكن في هذه الأيام ليس هناك من 'حيّز' يمكننا أن نتفرق فيه لوذاً من بعضنا؛ بل هناك، بالطبع، العقبة الكأداء خصوصية الطابع المتعلقة بزمننا الراهن لا أكثر.

بذلك تكون شخصيةُ بابل الأسطوريةُ ملائمة على نحو مضاعف، من حيث أنها كانت أولى المدن. الدول في بلاد ما بين النهرين، حوالي 3500 ق.م، حين أُرسيتْ الأسسُ الأصلية للحضارات الأرقى (المتعلمة والمؤثرة) قاطبةً، ولذلك كانت من المشرق، وبشكل أكثر تحديداً، تلك المدن. المعابد المبكرة التي بُنيت فيها الزقورات الشاهقة، والتي انبثقت

19 سفر التكوين 8:11

من سائر فروع شجرتها الواحدة العظيمة أقانيم الحضارة الأربعة. أضف إلى ذلك أن أشكالاً من الهيئات الاجتماعية ظهرت إلى الوجود والتي، بسببها، لا يزال الفرد في الشرق حتى اليوم مُلزَماً ومكبوحاً أمام تحقيق الحياة الشخصية والفردية الحقّة. أما في المجتمعات البدائية الأقدم المؤلفة من صائديّ الطرائد وجامعي الثمار، وملتقطي الغذاء، وصيادي الأسماك، فلم تكن الوحدات الاجتماعية البدوية الرحّالة كبيرة ومعقدة للغاية. كانت أقسام العمل موزعة بحسب العمر والجنس، وكان كل رجل وامرأة وحتى فتى يتحكمون إلى حد كبير بكامل التراث الثقافي. كلّ بالغ في محيط كهذا يستطيع، على الأقل فيما يتعلق بالنموذج الثقافي المحلي، أن يصبح إنساناً مكتملاً في ذاته. وحيث أنه مع ارتفاع وتيرة النمو في الشرق الأدنى القديم، بعد 7500 ق.م تقريباً، ذي التجمعات المستقرة والموسوعة نسبياً، والمعتمدة على زراعة الحبوب وتربية الماشية، باتت الحياة أكثر تعقيداً بكثير؛ ومع التزايد التدريجي لتلك التجمعات في العدد والحجم، أصبحت فروع المعرفة والمهارات الحرَفية عالية التخصص أكثرَ أهمية. وبحلول عام 4500 ق.م. كانت هناك مجموعات من القرى المكتفية ذاتياً على امتداد الشرق الأدنى، وفي 3500 ق.م. بدأت تلك القرى في أدنى وادي دجلة- الفرات تتحول إلى مدن- المدن الأولى في تاريخ العالم. وهناك كان يمكن تمييز طبقات حاكمة ونافذة بشكل واضح، ومهنيين مهرة مختصين بشكل لافت، وطقوس كهنوتية، وتجار، وما شابه؛ لذلك لن يتسنى لأحد أن يحلم الآن بأن يصبح إنساناً مكتملاً في ذاته. لم يكن كلٌ منهم إلا إنساناً/ جزءاً. وهكذا سرعان ما ظهرت في الفنون التزيينية لتلك الفترة بوادرُ محاولة جليّة لترميز فكرة لمّ شمل الأجزاء المختلفة بما هي كُلٌ لا يتجزأ.

وبطبيعة الحال، ظهرتْ في النماذج الفخارية التي تعود إلى منتصف الألفية الخامسة ق.م. على سبيل المثال، تشكيلات لحقول دائرية متوازنة هندسياً، مع رمز معقود في المركز يشير إلى مبدأ الاندماج: وردة أو

نجمة أو صليب أو صليب معقوف. ويُشغَلُ الموضع المركزي في التكوينات الرمزية برسم أحد الآلهة. وفي المدينة- الدولة الأكثر قدماً تجسّد المعبود نفسه على شكل ملك؛ وفي مصر، على شكل فرعون. أيضاً، ليس الملك فحسب، بل كل أعضاء بلاطه قد لعبوا في حيواتهم أدواراً رمزية، لم تحددها أمنياتهم الشخصية بل حددتها قواعد لعبة إيماء شعائري على سبيل التماهي في الأجسام السماوية المقدسة. إلى حد كبير مع تحوّل الشعائر في المراحل البدائية المبكرة للطفرة البشرية الثقافية إلى محاكاة للنوع الحيواني أو لدورات الحياة والموت في عالم النبات.

وكما أشرنا في الفصل الأسبق، كان المتنبئون الكهنة في مجمعات المعابد الأولى للمدن-الدول السومرية القديمة، حوالي 3500 ق.م.، أولَ من أدرك أن القمر والشمس والكواكب الخمسة المرئية تتحرك ضمن المجموعات النجمية وفق معدلات رياضية يمكن احتسابها. ثم حدث، كما أسلفنا، أنّ تكوّنت الفكرة الجليلة عن النظام الكونيّ المقدس، الذي لا بد أن يتمظهر كنظام اجتماعي. ففي ارتدائهم تيجاناً رمزية وفي أزيائهم الاحتفالية، ضاعفَ الملك والملكة وحاشيتهما ضمن إيماء أرضيّ مشهدَ الأنوار السماوية. وعظمة اضطلاعهم بمهامهم التي بالكاد كانت ستلقى الاهتمام اليوم، لولا الأدلة الخارقة التي فيض لها أن ترى النور على يد الراحل سير ليونارد وُوْلي والآتية من "الأضرحة الملكية" لمدينة إله القمر القديمة المقدسة "أور".

كان سير ليونارد، كما يروي، ينقب عن الآثار في مقبرة الأضرحة وسطَ المدينة القديمة التي افتُرض فيما مضى أن النبي إبراهيم ربما بدأ رحلته منها، عندما اصطدمت مجارف رجاله بمجموعة مذهلة من القبور تحتوي على أعداد مضاعفة من الموتى، بعضها يضم خمسة وستين فرداً تمددوا ميتين ضمن ترتيب أنيق. وكانت الجثة المحفوظة على أفضل حال تعود لامرأة اسمها شبعاد، دفنت مع زهاء خمسة وعشرين من أعضاء بلاطها مباشرة فوق قبر شخص مذكر اسمه

أبارجي، الذي مُددتْ قرابة خمس وستّون جثة إلى جواره. أُحضرتْ شبعاد المكتسية بحلة مترفة إلى مدفنها على مزلقة تجرها الحمير؛ وأحضر أبارجي، الذي يُظن أنه زوجها، على عربة تجرها الثيران. دُفن كلّ من الحيوانات والبشر في القبر الضخم أحياءً: تمددت نساء البلاط بسلام ضمن صفوف، في شعاراتهن الملكية، مرتديات أشرطتهن المرصعة بالفضة والذهب، وعباءاتهن الحمراء ذات الأكمام المثبّتة المزينة بالخرز، وأقراطهن الهلالية الكبيرة، وقلائدهن الكثيرة المصنوعة من اللازورد والذهب. ولم تزل أيادي الهياكل العظمية لفتيات القيثارات تستريح على أوتار القيثارات، أو حيث كانت الأوتار. والآلات الموسيقية نفسها تبرز على شكل جسم ثور، برأس الثور الذهبي الجميل المنتهي بلحية لازوردية. ذلك كان ثوراً أسطورياً: الثور الهلالي المقدس الذي استدعت أنشودةُ قدَرِه هذين الرفيقين الطوعيين. أولهما الملك المدفون، ثم امرأته- إلى الانبعاث من خلال الموت. ونعرف اسم الإله الذي كان الثورُ حيوانَ مركبته. كان ابن الشرق الأدنى، الملك- الإله العظيم الخرافي والمنقذ الكلّيّ تموز (دوموزي السومريّ)، الذي حُددّت تواريخ احتفالات موته وانبعاثه السنوية على تقويمنا الأسطوري والشعائري في الكنيس اليهودي بعيد الفصح اليهودي، وفي الكنيسة بالجمعة العظيمة وعيد الفصح.

لسنا ندري ماذا كانت بالضبط واقعةُ دفن هذين الملكين. إلا أن عدة حوادث دفن مشابهة وردَ ذكرها، في كل الحضارات البائدة. فقد اكتُشفت أضرحة في مصر والصين تضم ما يقارب ثمانمائة دفين، بل إن لفراعنة السلالات الأولى الحاكمة حالتين تشريحيتين مشابهتين، إحداهما في أبيدوس، صعيد مصر، والأخرى في ممفيس، جنوب مصر: في قصر ريفي وآخر في المدينة، كما بلغنا، وفي كلّ منهما أربعمائة هيكل عظمي أو أكثر.

والآن، يجدر بي أن أتساءل: أين الفرد في سياق كهذا؟ أو بالأحرى، في عالم كهذا، لا شيء كهذا يشكل حياة الفرد، بل ثمة قانون كوني عظيم وحده دون سواه يهدّبه تُضبَط كلّ الأشياء في مواضعها. يُعرف

هذا القانون بالمصرية القديمة بـ 'ماعْتْ'، وبالسومرية بـ 'مي'، وبالصينية بـ 'التاو'، وبالسنسكريتية بـ 'دارما'[20]. لن يكون هناك اختيار أو مشيئة أو حتى تفكير فردي؛ ليس من مناسبة يخلو المرء فيها إلى نفسه ليتساءل، "ما الذي أتمنى فعلَه الآن دون سواه؟ ماذا أتمنى أن أكونَ؟" إن مولد المرء يحدد ماذا سيكونَ عليه، بالإضافة إلى ما يفكر به وما يفعله. والملاحظة الأهم التي أحرص جداً على الوصول إليها هي أن هذا المفهوم الخاص بالعصر البرونزي القديم للنظام الكوني الظاهر، الذي يجب أن يرضخ له كلّ فرد دون تمحيص إن كان يشكل شيئاً ما بالمطلق، هو- بشكل أو بآخر- المفهوم الأساسيّ في الشرق حتى يومنا هذا.

يلفظ المضارع المستمر للإناث في فعل الكون (verb to be) السنسكريتي issati، "suttee"، ويشير إلى شخصية الزوجة الهندوسية الفاضلة التي تقدم نفسها قرباناً على محرقة جثة زوجها. في هذا الفعل الفيريّ، والطائش والوفيّ، المنجز الذي يكلل دورها الاجتماعي، تكون قد أصبحت شيئاً ما أبدياً، بشرعية وحياة أزليتين، لا تتزعزعان: أي، زوجة. وأيّ زوجة هندية ترفض أن تنجز دورها حتى النهاية ستكون a-sati، أي "non-being"- 'لا وجود'، محض 'لا شيء'؛ لأن حياة المرء، معنى المرء، المغزى الكامل لوجود المرء على هذه الأرض كامنٌ في تشريع وممارسة المرء لدوره الاجتماعي. وحده الفرد مطلَقُ الكمال في إنجازه مَن يمكن أن يُقال عنه بكل صدق "أن يكون to be". وحين نعيد النظر الآن في ذلك القبر الثنائي متعدد الجثث في مقبرة 'أور' الملكية القديمة- نجد أن مثل هذه الزوجة قد وُجدتْ حقاً.

Dharma 20: مصطلح يشير إلى الترتيب الخفي أو ما يدعى الطبيعة والحياة الإنسانية وسلوك المخلوقات والحياة التي تسير وفقا لهذا النظام والترتيب. المصطلح هو أساسا ما يدعى بالديانات الدارمية. اخلاقيا تعني الدارما الطريقة الصحيحة في العيش أو التواصل الصحيح خصوصا ضمن مفهوم ديني وروحاني. بالنسبة للروحانية والمدارس الصوفية فإن الدارما يمكن اعتبارها طريق الحقيقة العليا. تشكل الدارما المصطلح الأساسي ضمن الديانات الدارمية الناشئة في شبه الجزيرة الهندية بما فيها الهندوسية (سانتانا دارما) والبوذية (بوذادارما) والجينية (جينا دارما) وكذلك السيخية. جميع هذه الأديان تؤكد على الدارما (الفهم الصحيح للطبيعة) في تعاليمها.

لكن أبارجي نفسه، قد نُحرَ بطريقة طقوسية كما يبدو. فثمة دلائل لا يرقى إليها الشك عن عرف قديم يتعلق بالقتل الطقوسي للملك انتشر في جزء كبير من الأرض. وحين تُقلّبون أي صفحة تقريباً من صفحات كتاب سير جيمس فريزر 'الفصن الذهبي' ستجدون مثالاً على ذلك. كان أوائل الملوك الآلهة يُنحرون شعائرياً كلّ ستّ سنوات، أو ثماني سنوات، أو اثنتي عشر سنة، بحسب كل طقس من الطقوس المحلية المختلفة؛ ومعهم أصحاب المقام الرفيع من حاشيتهم، والكل سينضو عنه جسده لكي يولد من جديد. إنه مثالٌ خيالي ونبيل ومدهش حدّ الغرابة، مثال الفرد الذي هو لا أحد' على الإطلاق إن لم يكن التجسيدَ، حتى الموت، للقانون الأبدي الواحد، والكونيّ المتجرّد كلياً.

وعلى النقيض من هذا، يجب أن يُنظَر إلى مثال الفرد الغربي، أو فلأكن أكثر تخصيصاً، الفرد الأوروبي الحديث.

2

بناء على ذلك، دعوني أنتقل الآن مباشرةً إلى مسألة الفرد الأوروبي؛ وبدايةً، اقتبس من ملاحظات عالم النفس السويسري كارل غ. يونغ، الذي استخدم في كل موضع من أعماله مصطلح "التفرّدية"[21] كتسمية للعملية السيكولوجية في بلوغ الكمال الفردي. يشير يونغ إلى أننا في عيشنا حياتنا يُلزمُ المجتمعُ كلاً منّا أن يقوم بدور اجتماعي مخصص ما. ولكي نؤدي وظيفتنا في العالم فإننا نقوم باستمرار بدور الأجزاء؛ وهذه الأجزاء يسميها يونغ *personae* الشخصيات في التمثيلية. من الكلمة اللاتينية *persona*، التي تعني "القناع، الوجه المزيف." القناع الذي يرتديه

Individuation 21: التفرد، "أو العملية التي يصبح بها المرءُ شخصيةً، أو يصبح على وعي بأنه شخصية...". (موسوعة علم النفس والتحليل النفسي) ج٢- د. عبد المنعم الحفني. مكتبة مدبولي 1978. (يفضل مترجم هذا الكتاب كلمة "الفردية").

الممثل على خشبة المسرح الروماني، ومن خلاله "يعلن" (per- sonare, "to sound through"). وعلى المرء أن يظهر بقناع أو بآخر إذا كان أساساً ينشد القيام بدوره اجتماعياً؛ وحتى أولئك الذين يختارون رفض أقنعة كتلك لن يكون أمامهم إلا ارتداء أقنعة أخرى، مدّعين الرفض، "اللعنة، كلا!" أو شيئاً من هذا القبيل. والعديد من الأقنعة هزلية، انتهازية، سطحية، لكن الأخرى توغل عميقاً، عميقاً للغاية، أعمق بكثير مما يمكننا أن نعرف. وبالضبط، كما يمتلك أي شخص رأساً وذراعين وجذعاً وساقين، إلخ.. كذلك يمتلك أي شخص حي، من بين ملامح أخرى، الشخصية *persona* المطبوعة فيه والتي من خلالها بات معروفاً لنفسه بقدر لا يقل أهمية عن الآخرين، والتي من دونها لن يقيض له أن 'يكون'. وبالتالي، فمن السذاجة القول، على سبيل المثال، "دعونا ننزع أقنعتنا ولنكن طبيعيين!" ومع ذلك، يبقى هناك المزيد من الأقنعة. هناك أقنعة الشباب، أقنعة العمر، أقنعة الأدوار الاجتماعية المختلفة، وأيضاً الأقنعة التي نسقطها على الآخرين عفوياً، والتي تشوشهم، والتي نتفاعل معها فيما بعد.

لنفترض على سبيل المثال، أنك كنت تتجاذب أطراف الحديث بكل ارتياح مع السيد المجهول الذي يجلس إلى جوارك على مقعد الطائرة، وبعد قليل تتوقف مضيفة وتخاطبه باحترام كـ "سيناتور". وحين تنصرف المضيفة، ستجد أنك تتحدث إليه بمشاعر مختلفة عن تلك التي كانت لديك من قبل، ولم يعد إحساسك بالارتياح كما كان. لقد أصبح بالنسبة إليك ما اصطلح يونغ على تسميته بـ "mana-personality". فقد شُحنَ المرء بسحر قناع اجتماعي مهيب، وأنت الآن لا تتحدث إلى شخص ببساطة، بل إلى شخصية بارزة، إلى 'حضور'. ثم ها قد وجدتَ أنك أصبحتَ، أنت الآخر، شخصيةً مرؤوسة أو حضوراً: مواطناً أميركياً محترماً يتحدث إلى سيناتور. وستتغير الشخصية التمثيلية personae في المشهد الصغير- على الأقل من طرفك في الحوار. وما دام السيناتور

معنياً بالأمر، فسيبقى الرجلُ الذي كان عليه من قبل؛ وإذا كان يتصرف كإنسان عادي حينها، فسيبقى يتصرف كإنسان عادي الآن.

لكي يصبح المرء متفرداً individuated-بحسب مصطلحات يونغ- ولكي يعيش كفرد منعتق، فعليه أن يعرف كيف ومتى يرتدي وينزع أقنعة أدوار حياته المتنوعة. "عندما تكون في روما، افعل ما يفعله أهل روما." وعندما تكون في البيت، لا تُبقِ قناع الدّور الذي تلعبه في قاعة مجلس الشيوخ. لكن هذا، بالنتيجة، ليس سهلاً، من حيث أن بعض الأقنعة تترك جروحاً بليغة. فهي تنطوي على أحكام وتقييمات أخلاقية. تنطوي على كبرياء المرء وطموحه ومآثره. تنطوي على مكامن شغفه. إنه أمر شائع أن يكون المرء مسرفاً بوقوعه تحت تأثير الأقنعة وتعلقه بها، سواء كان قناعاً ما يمتلكه المرء أو أقنعة آخرين (mana) تبطن طاقة من نوع ما. بكل الأحوال، يتطلب عمل 'التفرد' ألا يكون المرء متكلفاً بهذه الطريقة إلى حدّ الإلزام. ففرض 'التفرد' يتطلب أن يتحرى الشخصُ ثم يتعلم كيف يعيش خارجَ مركزه هو، متحكّماً بمواقفه المعيّة والضدية. ولا يمكن بلوغ ذلك بتمثيل دور ما والاستجابة لأيّ تنكّر سائد أو أدوار مرسّخة. فكما قال يونغ: "في التحليل النهائي، إن أيّ حياة هي وعي الكلّ، وعي الذات التي بسببها يمكن أن يُدعى هذا الوعي بـ 'التفرّد'. الحياة بمجملها مرتبطة بالحاملين الأفراد الذين يدركونها، وببساطة لا يمكن تصوّرها من دونهم. لكن كلّ حاملٍ موكّلٌ بمصير وغاية فرديين، وحده وعيُ هذا الأمر يجعل الحياة ذات معنى[22]."

ذلك الذي يقع بالضبط موقع الضد من المثال الأعلى المفروض على الجميع- حتى على أهم القديسين والحكماء- في عموم الشرق، حيث الفكرة الوحيدة هي تلك التي ينبغي أن تؤدّى، قطعاً، بقناع أو دور

22 C. G. Jung, *Psychology and Alchemy, Collected Works*, Vol. 12 (Princeton: Prince ton, University Press, second ed, 1968), p. 222.

مخصصين لموقع المرء الاجتماعي، وبعد أن تؤدّى كلّ الواجبات المخصصة على أكمل وجه، يزيل نفسه كليّاً، منزلقاً (كما في الصورة المشهورة) مثل قطرة ندى إلى البحر. لأن بؤرة الاهتمام هناك- على النقيض من مجمل الفكرة الأوروبية الغربية عن القدر والشخصية الكامنة في كلّ شخص منّا، لكي تُدرَك في حياتنا الواحدة وفق "معناها" و"أدائها"- ليست الشخص بل النظام الاجتماعي القائم (كما في الدول الشيوعية الاستبدادية الحديثة): ليس الفرد الخلاق النادر- الذي يُعتبر هناك بمثابة مصدر تهديد- بل إخضاعه عبْر تماثله مع نسخة أصلية اجتماعية محلية، وفي نفس الآن، قمع كل دافع في داخله ينشد الحياة الفردية. إن التعليم تلقينٌ، أو كما يوصف اليوم، غسل أدمغة. أي أن يكون البرهمي برهمياً؛ والحدّاد حدّاداً، والمحاربُ محارباً؛ والزوجةُ زوجةً: لا شيء آخر، لا أقلّ ولا أكثر.

في ظلّ إقصاء كهذا لن يتوصل الفرد إلى معرفة نفسه على أنها 'أي شيء' يتجاوز كونَه ممثلاً كفؤاً يؤدي دوراً نمطياً. مهما تكن إشارات الشخصية واعدة في الطفولة المبكرة فإنها في غضون سنوات وجيزة سوف تتلاشى، لتُستبدل بملامح النسخة الأصلية الاجتماعية، قناع نموذجي عام، شخصية وهمية، أو- كما ينبغي أن نقول عن مثل هذه الشخصية في أيامنا- مدّع، ومتعجرف، ومحافظ. إن الطالب المثالي في مجتمع كهذا هو ذاك الذي يتقبل التعليم دون اعتراض، ومُباركاً بهبة الإيمان الكامل بأستاذه المفوّض، يصبح الشّرهَ ليس لتمثّل معلوماته المدوّنة والمصنّفة وحسب بل أيضاً تَكلّفه ونمطيته، ومعايير أحكامه، وكذلك الصورة الكليّة للشخصية التي سيصبح الطالبُ عليها- وحين أقول "يصبح،" فذلك ما أعنيه؛ إذ لن يبقى هناك شيء آخر، لن تكون هناك (أنا) في إحساسنا الغربيّ على الإطلاق، بالآراء الشخصية، والمرغوب، والمكروه، والأفكار والغايات الفريدة والمبتكرة.

من المثير ملاحظة أن الرحالة الحالمَ على امتداد 'الكوميديا الإلهية' العظيمة التي كتبها دانتي، يستطيع عبر الجحيم والمطهر والفردوس تمييز

أصدقائه الموتى والتحدث إليهم عن حيواتهم. وكذلك الأمر في عوالم ما بعد الموت الكلاسيكية ضمن الأوديسة والإنياذة. فأوديسيوس وإينياس يتعرفان ويتحدثان بسهولة إلى أولئك الذين ماتوا مؤخراً. أما في الشرق، بالمقابل، في جحيم وفردوس كلّ من الهندوسية والبوذية والجينية، فليس هناك من استمرارية لخصائصَ شخصية يمكن تمييزها؛ لأن قناعَ الدّور الدنيويّ يُهمَل في الموت ليُستبدَل بقناعٍ ما بعد الحياة. كما تتمظهر الكائنات التي تسكن في الجحيم بأشكال شيطانية؛ وأولئك الذين يقطنون الجنات، يتبدون في لبوس إلهي. وحين يعود *اللاشيء* المستنسَخ ثانيةً إلى هذه الأرض، فإنه سينقلّد قناعاً آخر، دون ذاكرة واعية لأي لحظة من الماضي. وفي حين أن مركز الاهتمام في الميدان الأوروبي- سواء في الملاحم والتراجيديات الكلاسيكية، مثل الكوميديا الإلهية لـ دانتي، أو سيكولوجية "التفرّدية" لـ يونغ- هو الفرد، الذي يولد مرة واحدة، ويعيش مرة واحدة، وهو متمايز في إرادته وتفكيره وفعله عن أيّ كائن آخر؛ أما في سائر الشرق الكبير، الهند والتيبت والصين وكوريا واليابان فيعامَلُ *الكيان الحيّ* (عكس *اللاشيء*) على أنه عابرٌ متقمّصٌ لا مادّي يسمو ويخلع عنه الأجساد. أنت لستَ جسدك. أنتَ لستَ 'أناكَ/ your ego'. عليك أن تفكر بهذه المسائل على أنها وهمٌ. وهذا الفارق الجذري بين المفاهيم الشرقية ومفاهيمنا الغربية المعتادة عن الفرد يمسّ في مضامينه كلّ مظاهر الفكر الاجتماعية والأخلاقية إضافةً إلى السيكولوجية والكونية والميتافيزيقية. فعلى سبيل المثال، قرأتُ في كتاب سنسكريتي مقدس: "هذا الكون المتجرّد، هو قطعاً وهميّ. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الذات، رقعة الحياة التي هي، كما خبرْنا، مجرد رمشة عين... كُفّ إذاً عن مشاكلة نفسك بهذه الكتلة من اللحم، الجسد الجلف، وبالأنا، الجسد الرقيق، وكلاهما من اختلاق الذهن... دمّر هذه الأثَرة، عدوّك، بسيف البصيرة البتّار، تمتّع بالحريّة ثم في الحال بنعيم إمبراطوريتك الموثوقة، وهي جلالة النفس Self التي هي (الكلّ في الكلّ[23])."

23 Shankaracharya, *Vivekachudamani* 293, 296, 307.

يتصف الكون الذي نتوق إلى الانعتاق داخله بأنه إيهامٌ كالحلم، أبديٌ- وـ زائل، متنام ومتهاوٍ في دورات متكررة. ومع اكتسابه تلك الصفات ومع تَعلُّم المرء كيف يلعب دورَ أحد آخر داخلَ هذا الكون دون أي إحساس بالـ أنا، وبالرغبات والأمنيات والمخاوف، يتحقق الانعتاق من الجولات الدائمة للتناسخات عديمة الجدوى. كما تغرب الشمس وتشرق عندما يجب وكما يجب، والقمر يصبح بدراً أو يدخل المحاق، والحيوانات تسلك بحسب عادات أنواعها، كذلك يتعيّن عليك وعليَّ أن نسلك بحسب العادات الملائمة لمَنشئنا. ويُفترض، كنتيجة للسلوك في الحيوات السابقة، أن نكون قد وُلدنا بالضبط حيث كان منشؤنا وليس في مكان آخر، ولا لزوم لإلهة قضاء تبتُّ في أن يكون أحدهم هنا أو هناك. الكلّ مفصول في أمره تلقائياً بحسب الثقالة الروحية للهيولى المستنسخة (كما يقال). ذلك وحده ما يحدد مستوى خانة المرء الاجتماعية، وقواعد الحياة التي تنتظره، وفيما إذا كان سيعيش في عذاب أم نعيم.

نجدُ في كتب التشريع السنسكريتية القديمة، شرائع مانو، قوانين فيشنو وغيرهما، إسهاباً في تفصيل أنواع الدراسة المخصصة لكل طبقة اجتماعية، وصنوف الطعام المناسبة للأكل، ومواصفات الشخص المناسب للزواج، ومتى يصلّي المرء، ومتى يستحم، وإلى أي جهة يستدير حين يعطس أو يتثاءب، وكيف يغسل الفم بعد كلّ وجبة، وهكذا إلى ما لا نهاية. والعقوبات المخصصة جزّاء مخالفة ذلك عسيرة. وفي الشرق الأقصى أيضاً، على الرغم من أن منحى أو نهج الطبيعة قد وُصف بتعابير ليست مطابقة تماماً لتلك التي في الهند، إلا أنها تُعادل إلى حدّ كبير حجم اهتمام المرء بإدارة حياته. فهناك أيضاً نظام كونيّ مُعلَنٌ عبْر التراتبية الاجتماعية إلى حيث يجب أن يكون فريضة على المرء، بالإضافة إلى طبيعة المرء، كي يعمل بموجبها. وهناك أيضاً ما يُسمى بالقوانين الإنفاقية التي تنصّ بتفصيل دقيق كيف يعيش كل امرئ على وجه التحديد: ما مساحة الغرفة التي ينام فيها (بحسب مكانته

الاجتماعية) وما المواد التي تُصنع منها فرشتُه، وكم ينبغي أن يكون طول أكمام وأردان ثوبه ومما يُصنع حذاؤه، وكم كأس شاي يجب أن يحتسي المرء في الصباح، وسوى ذلك. فكلّ تفصيل حياتيّ محكومٌ بوصفة بالغة الدقة، وهناك الكثير مما يجب على المرء القيام به لدرجة أن ليس من فرصة لديه كي يتردد ويتساءل، "ما الذي أحبُ القيام به؟"

باختصار، إن مبادئ الـ أنا، والفكر الحرّ، والإرادة الحرة، والعمل الذاتي المسؤول في تلك المجتمعات مكروهةٌ ومرفوضة بدعوى أنها مناقضة لكل ما هو طبيعي وخيّر وحقيقي؛ لذلك فإن مثال التفردية، التي تُعتبر برأي يونغ مثال الصحة النفسية واكتمال حياة الرشد، غائب بكل بساطة في الشرق. دعوني أقتبس مثالاً واحداً لا أكثر، نصاً من قوانين مانو الهندية، عن قواعد الحياة الكاملة للزوجة الهندوسية التقليدية:

> لا شيء يمكن أن تفعله بنت أو صبيّة أو حتى امرأة كبيرة بشكل مستقل، حتى في بيتها. الأنثى في طفولتها تابعة لأبيها؛ في نضوجها لزوجها؛ وحين يموت مالك أمرها، تصبح رهن مشيئة أبنائها. لا يجب أن تكون المرأة مستقلة. لا يجب أن تحاول تحرير نفسها من أبيها أو زوجها أو أبنائها. وإذا غادرتهم، فهذا يعني أن تُوصَم عائلة ذويها وعائلة زوجها بالخزي. يجب أن تكون دائماً مسرورة، وذكية في تدبير شؤون منزلها، وحذرة في تنظيف محتوياته، ومقتصدة في الإنفاق. يجب أن تكون مطيعة لوالدها ما دام على قيد الحياة (أو لأخيها بعد إذن الأب) وللشخص الذي أعطاها والدُها له؛ وحين يموت، عليها ألا تُسيءَ إلى ذكراه... حتى لو كان زوجاً بلا فضائل، بلا صفات نبيلة على الإطلاق، وساعياً وراء ملذاته في مكان آخر، فيجب أن يُعبَد بلا كلل مثل إله... ومكافأةٌ لها على صنيع كهذا،

فإن الأنثى التي تتحكم بأفكارها وكلامها وأفعالها، ستنال في هذه الحياة السمعة الحسنة وفي الحياة التالية موضعاً لصق زوجها[24].

صنّفَ المعلْمون المحليّون فلسفات الهند ضمن أربع فئات، بحسب غايات الحياة التي تختصّ بها، أي، الغايات الأربع التي يسعى لأجلها الناس في هذا العالم. الأولى هي *الدارما dharma*، "الواجب، الفضيلة،" التي تحدثتُ عنها للتوّ، والتي، كما رأينا، تُخصّص لكلّ امرئ بحسب موقعه من النسق الاجتماعي. الثانية والثالثة عن الطبيعة والغايات التي تندفع نحوها كل الكائنات الحية: النجاح أو الإنجاز، تعزيز الذات، التي تُسمى بالسنسكريتية 'المعنى' أو *الجوهر' artha*؛ واللذة الجسدية أو *المتعة*، المسماة بـ *askama*. هذان الاثنان الأخيران يشاكلان الغايات التي أسماها فرويد الـ "هو". إنها إفصاح عن الدوافع الحيوية الأساسية للنفس، الـ "أنا أريدُ" البسيطة المعبرة عن طبيعة المرء الحيوانية؛ في حين أن مبدأ الدارما، المترسّخ في شخص ما بواسطة مجتمعه، يشاكل ما أسماه فرويد الـ "أنا الأعلى"، superego، الـ "يجب عليك!"[25] الثقافية. إن المتع والنجاحات التي يصبو إليها الإنسان في المجتمع الهندي هي، كما يقال، تحت سقف دارما المرء: الـ "يجب عليك!" التي تراقب الـ "أنا أريدُ!". وعند بلوغ منتصف العمر، تكون كل واجبات الحياة قد أُنجزت، ويغادر الشخص (إذا كان ذكراً) إلى صومعة ما في الغابة، كي يمحو باليوغا آخر أثر ضئيل من الـ "أنا أريد!" وإلى جانب ذلك، أدنى صدى من الـ "يجب عليك!" وهكذا فإن الهدف الرابع، المآل الرابع والأخير من الحياة، سيكون قد بلغ منتهاه، وهو المعروف بـ *moksha*، *'الانعتاق'* المطلق أو *'الحرية'*: لكنها ليست "الحرية" التي نفكر بها في الغرب، حرية

24 *Manavadharmashastra* 5. 147-151, 154 and 166.

25 Thou shalt!

الفرد في أن يكون ما يشاء، أو أن يفعل ما يشاء. بل على العكس من ذلك، فإن "الحرية" بمعنى الـ موكشا[26] تعني الحرية من كل دافع للوجود.

"يجب عليك!" ضد "أنا أريد!" ومن ثم، "الفناء!" من وجهة نظرنا الغربية المعاصرة، سيُنظَر إلى الحالة التي قُدمتْ في الفئتين الأوليين اللتين هما موضوع التجاذب على أنها تليق بدار حضانة أكثر مما تليق بالراشدين، بينما في الشرق تُفرض الحالة حتى على حياة الراشدين. ولا يوجد شرط أو ترخيص من أي نوع لما يُنظر إليه في الغرب على أنه نضج الـ أنا ego-maturation. وبالنتيجة- بصريح العبارة وبكل بساطة- لم يميّز الشرق قطّ الأنا عن الهوية.

تستدعي كلمة "I"، بالسنسكريتية *aham*، لدى الفيلسوف الشرقي التمني، الحاجة، الرغبة، الخوف، التملّك، أي دوافع ما اصطلح عليه فرويد بـ الهوية التي تعمل تحت ضغط مبدأ اللذة. والأنا، من جهة اخرى (أيضاً كما يعرّفها فرويد)، هي الملكة السيكولوجية التي تربطنا موضوعياً بـ "الواقع" الخارجي، التجريبيّ: أي بعالم الحقيقة، هنا والآن، وفي احتمالاته الراهنة، المشهودة والمدركة والمفصول فيها والمقوّمة على نحو موضوعيّ؛ وبنا نحن، المُختَبَرون والمفصول في أمرنا، ضمن العالم ذاته. إن سلوكاً متأنياً استهلّته الأنا الواعية، المسؤولة، هو أمر مختلف للغاية عن نشاط هوية متكالبة ووحشية: مختلف، أيضاً، عن فعاليات محكومة بالطاعة العمياء لقانون موروث منذ أمد طويل- الذي لا يمكن ان يكون إلا منافياً للحياة المعاصرة أو حتى لأي عارضٍ اجتماعي أو شخصي غير متوقّع.

إذاً، إن فضيلة الشرقيين قابلة للمقارنة مع تلك التي يتصف بها الجندي الصالح، المطيع للأوامر، المسؤول شخصياً ليس عن تصرفاته

26 Moksha تعني الحرية والخلاص من (سامسارا)، وهي دورة الموت وإعادة الانبعاث. أما حسب مفاهيم علم النفس ونظرية المعرفة فإن موكشا تعني الحرية ومعرفة الذات.

بل أيضاً عن ضبطها وتطبيقها. وحيث أن كافة القوانين التي يلتزم بها ستكون قد انتقلت من ماضٍ لا نهائي، فلن يكون هناك في أي مكان مَن هو مسؤول شخصياً عن الأشياء التي يقوم هو بها. بل في الواقع، لم ينوجد أبداً امرؤ كان مسؤولاً بشكل شخصي، مُذ استُنبطتْ القوانين. أو على الأقل افتُرِضَ أنها استُنبطتْ. من النظام الكوني ذاته. وحيث أنه عند منشأ هذا النظام الكوني لم يوجد إله شخصاني أو كينونة مُواتية، بل مجرد قرة أو فراغ لا شخصاني بالمطلق، ما وراء الفكر، ما وراء الكينونة، سابق على التصنيف والدرجات، فلم يكن هناك من أحد في أي مكان مسؤول عن أي شيء. الآلهة ذاتها مجرد شغّيلة أُجراء في مشكال دوّار متغاير الألوان لظهورات وغيابات خادعة، في كون بلا نهاية.

3

وقد يسأل سائلٌ متى وكيف حدثت الانعطافة التاريخية مما وصفتُه للتو بالرؤية 'الشرقية' نحو ما نعرفه جميعاً بالرؤية الغربية عن علاقة الفرد بالكون من حوله؟ ظهرت الإشارات الموثوقة الأقدم لتلك الانعطافة في نصوص بلاد ما بين النهرين حوالي 2000 ق.م. حيث بدأ التمييز بين الملك كإنسان مجرد وبين مخدومه الإله في ذلك الحين. فلم يعد يُدعى الملكُ الإلهُ كما فراعنة مصر. إنه الآن 'المُزارع المستأجر' من الله. ومدينة نفوذه هي أملاك الله الأرضية وهو نفسه المولى الوكيل أو الإنسان المسؤول. أيضاً، في ذلك الزمان بدأ ظهور أساطير ما بين النهرين عن البشر الذين خلقتهم الآلهة ليكونوا عبيداً لها. لقد أصبح البشرُ الخدمَ الخالصين؛ وأصبحت الآلهةُ السادةَ المطلَقين. لم يعد الإنسان بأي معنى من المعاني تجسيداً للحياة الإلهية، بل لطبيعة أخرى مختلفة بشكل جذري، طبيعة أرضية فانية. والأرض ذاتها باتت الآن من صلصال. بدأت المادة بالانفصال عن الروح. أسمّي هذه الحالة بـ

"الانفكاك الميثولوجي،" وأجد أنها بالدرجة الأولى خصيصة من خصائص الأديان التي ستأتي في شرق المتوسط، ومن بينها الأكثر أهمية في هذه الأيام، وهي، بالطبع، اليهودية والمسيحية والإسلام.

وعلى سبيل إيضاح أثر أسطورة الانعطافة العقلية التي حرّرت من السحر والوهم، سأُورد مثال الطوفان. فبحسب العديد من الأساطير التي لا تزال مزدهرة في الشرق، يحدث طوفان عالمي حتماً مع انقضاء كلّ دهر aeon. ويُظنُّ في الهند أن عدد سنوات الدهر، الذي يسمى بـ نهار براهما، تبلغ 4320000000؛ ويعقبها ليل براهما، عندما ينتهي كل شيء إلى الذوبان في البحر الكوني لـ 4320000000 سنة أخرى، ما يبلغ مجموع سنواته دورةً كونيةً كاملة وبالتالي 8640000000 سنة. يُحكى في الملاحم الشعرية الإيسلندية أنه يوجد في قاعة القتلى Valhall 540 باباً وأنه عبْر كل منها سيذهب إلى نهاية العالم 800 من المحاربين المدرّبين لخوض الحرب ضد أعداء الربّ. لكن حاصل ضرب 800 بـ 540^{27} هو 432000. لذلك يبدو أن هناك ثيمةً أسطورية سابقة ومشتركة، وهنا تشترك بها أوروبا الوثنية مع الشرق القديم. وفي الحقيقة الاحظ بنظرة سريعة إلى ساعتي، أن كل ساعة تتألف من 60 دقيقة وكل دقيقة من ستين ثانية. وذلك يعادل في يومنا الحاضر المؤلف من 24 ساعة 86400 ثانية؛ وفي بحر هذا اليوم، سيعقبُ الليلُ النهارَ تلقائياً، ثم يأتي الصباح، الفجر يلي الظلمة. ليس هناك من شك أن ثمة قصاصاً أو تهمةً انطوت عليها أسطورة النهارات والليالي الكونية التي تنتمي إلى هذا النوع. فكل شيء تلقائيٌ ويسير وفْق الطبيعة العذبة للأشياء بمعنى الكلمة.

أما الآن، فلنتقدم بضع خطوات للأمام: وفقاً للكاهن الكلداني العالم بيروسوس، الذي أسهم في بدايات القرن الثالث ق.م. بالتعريف بالميثولوجيا البابلية، هناك 432000 سنة تفصل ما بين تتويج أول ملك

27 *Grimnismol* 23.

سومريّ وبين ابتداع قصة الطوفان، وهناك عشرة ملوك ممن عمّروا طويلاً قد تبوّؤا سدة الحكم خلال تلك الحقبة. ومن ثم نلاحظ أن الكتاب المقدس يرجع مضيّ 1656 سنة ما بين خلق آدم وحدوث طوفان نوح، وخلال تلك الفترة عاش عشرة بطاركة ممن عمروا طويلاً جداً. وإذا وثقتْ بنتائج أبحاث عالم يهودي متميز متخصص بالتاريخ الآشوري عاش في القرن الماضي، هو يوليوي أوبرت (1825- 1906)، فإن عدد أسابيع الأيام السبعة خلال 1656 سنة هو 86400[28] أسبوعاً.

على هذا المنوال رُتّبَ نموذج دورات بلاد ما بين النهرين المتكررة لظهور وزوال العالم، وكلّ منها انتهى بطوفان، حتى في الكتاب المقدس. مع ذلك، كما نعلم جميعاً حقّ العلم، فإن أكثر التفسيرات انتشاراً ووضوحاً لطوفان نوح الوارد في هذا الكتاب يفيد بأن يهوه أرسله كعقاب على خطايا الإنسان. وهي الفكرة المختلفة كلياً، في توكيدها على الإرادة الحرة بدل ما سبق ذكره، الغائبة الآن كلياً عن الدورة المتجردة من الغرض الخالية من الشوائب كما تعاقبُ الليل والنهار أو تعاقب السنين. والأمثلة السابقة الباقية لطريقة القراءة الثانية هذه لأسطورة الطوفان تظهر في نصين مسماريين سومريين نُقشا بين 2000 و1750 ق.م. وفيهما كان إنليل هو اسم الإله الغاضب، وكان الرجل الذي يبني السفينة هو ملك مدينة الزقورات العاشر، أي مدينة كيش[29]، ويعود تاريخ الألواح كما هو مذكور بطبيعة الحال إلى نفس فترة تسمية ملوك ما بين النهرين القدامى بحسب مهامهم بـ "المزارعين المستأجرين"، والتلميحات التي تدل على تغيّر الرؤية كبيرة للغاية. ففي المقام الأول، زال حجم العجّب تجاه الكون. ولم يعد لغزاً إلهياً نورانياً يفوق الخيال، وفيه كل الآلهة والشياطين أجزاء تؤدي أدواراً ليست بأقلّ مما تؤديه النباتات والحيوانات ومدائن

28 Julius Oppert, "Die Daten der Genesis," *Königliche Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, Nachrichten, No. 10 (May 1877), pp. 201-223.

29 هي مدينة تلّ الأحيمر الآن، وتبعد عن بابل 12 كم. (م)

البشر. كما نُحّيَت الصبغة الإلهية من الأرض إلى مرتبة الغيبيات، ومنها يديرُ الآلهة، المختصون بالنورانية، الشؤونَ الأرضية.

لكن، من جهة أخرى، بالإضافة، وكنتيجة لفقدان التوحد الأساسي في الكون الإلهي العضوي للكون الحيّ، استمدّ الإنسان، أو بالأحرى انتزع لنفسه، الانعتاقَ إلى وجود خاص به، منعْم بحرية الإرادة الأكيدة. وبذلك أُقحم في علاقة بمعبود، منفصل عنه، يتمتع هو الآخر بالإرادة الحرة. أما آلهة الشرق الكبير، كممثلين للدورة الزمنية، فهم بالكاد أكثر من مشرفين، يجسدون ويديرون عمليات دورة زمنية لم يُطلقوها ولم يديروها - لكن، كما الآن، عندما نحظى بمعبود يستطيع، على العكس من ذلك، أن يقرر بنفسه إنزال طوفان بالبشر الذين خلقهم لأنهم قد أصبحوا فاسدين، وبنفسه يُصدر الشرائع، ويحكم، ويدير شؤون العقاب، نصبح في وضع جديد كلياً. ثمة نقلة وعي جذرية غسلت الكون وبات كلّ ما فيه ضوءاً جديداً، أكثر إشراقاً. مثل ضوء الشمس، يطمس القمر والكواكب وأضواء النجوم الأخرى. وهذا الضوء الجديد، في القرون التي تلتْ ذلك الزمان، اخترق وغيّر أحوال العالم كلّه غربي إيران.

لم تعد الآلهة والبشر تُعرف على أنها مجرد جوانب من كينونة لا شخصية لكائنات تتجاوز كل الأسماء والأشكال. فقد تمايزَ في الطبيعة أحدُها عن الآخر، بل وقف بعضها موقف الضد من الآخر، ومن المرؤوس البشري التابع. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك الربّ الفردُ الجالس الآن ما وراء قوانين الكون وليس أمامَها. في حين أن الإله، كما رأينا في الافتراض الأسبق، هو ببساطة نوع من موظف كوني في ديوان حكومي، وقوانين الكون الطبيعية العظيمة تحكم كلّ ما يكوّنُه وما يفعله وما سيفعله. فإنّ لدينا الآن إلهاً يقرر بنفسه ما يجب أن تُسيّره القوانين؛ وهو الذي "يقول للشيء كنْ فيكون!"[30]. وبالتالي، هناك توكيد على 'الشخصية'

30 "Let such-and-such come to pass!" and it comes to pass.

وعلى الهوى' بدلاً من القانون النافذ غير القابل للدحض. يمكن للإله أن يغير رأيه، كما يفعل باستمرار؛ وهذا يقاربُ استحضارَ الروح الشرقية إلى نهج قريب من الفردانية المحلية الأوروبية كما يبدو. مع ذلك، ثمة فرق لا بدّ من الإشارة إليه.

لأن التوكيد في المشرق ينصبّ على الطاعة، طاعة الإنسان لإرادة الله، ولو كانت تلك الإرادة متقلبة ومتلونة، فإنّ الفكرة الأساسية من أن الله قد أنزلَ الوحي، الذي دُوِّنَ في كتاب، هي أنه يجب على البشر قراءته وإجلاله، وألا يتجرؤوا على انتقاده، بل عليهم قبوله والسير في هديه. أولئك الذين لا يعرفون هذا الكتاب المقدس، أو الذين سيرفضونه، سيكونون في منأىً عن رحمة خالقهم. وبذلك، في واقع كهذا، تصبح العديد من الأمم الكبيرة والصغيرة، حتى القارات، كافرة. في الحقيقة، تتمثل الفكرة المهيمنة في معظم الأديان الآتية من هذه المنطقة- الزرادشتية، واليهودية، والإسلام- في أن ليس هناك إلا شعباً واحداً على الأرض قد تلقى كلمة الله، شعب مقدس واحد ذو سنّة واحدة، وأن أعضاءه، بالتالي، هم أعضاء كيان تاريخي واحد- ليس الكيانُ الكونيّ، الطبيعي الشبيه بتلك الأساطير الأقدم (والآن الشرقية)، بل كياناً مقدساً اجتماعياً خارقاً بتشريعاته الملفّقة بقسوة في معظم الأحيان. وبسبب من ذلك، فإن البطل الأساسي في المشرق ليس الفرد وإنما شعب الله المختار أو الكنيسة. اللذان لا يتجاوز الفردُ فيهما كونه مجرد عضو مشارك. فالمسيحي، مثلاً، مبارَك بأنه عضوٌ معمَّد في الكنيسة. واليهودي بأنه يتذكر أبداً عهدَه مع يهوه، بعصمة أحجية مولده لأم يهودية. وعند نهاية العالم، وحدهم أولئك المخلصون لـ العهد- أو، لدى الآخر المسيحي، الذين عُمِّدوا بشكل لائق، الذين سيموتون في "النعمة"- سوف يُبعثون في حضرة الرب، ليشتركوا في وجبات لحوم اللوياثان والبهيموث والزيز الطائر[31] الفردوسية الأبدية.

31 Leviathan, Behemoth, Ziz.

ثمة إشارة لافتة إلى الصعوبة البالغة التي برزت لدى الأوروبيين في استيعاب هذه الفكرة المشرقية المشتركة بين الإغريق والرومان المحليين. ويمكن لمس شعور السّلْت والجرمان بقيمة الفرد في العقيدة الرومانية الكاثوليكية من خلال حكمين يتعيّن على الروح اختبارهما في الآخرة: الأول، "حكم خاص،" بعد الموت مباشرة، عندما ينال كلٌّ ثوابَه أو عقابه الأبدي؛ والثاني، عند نهاية العالم، الحكم الكلّيّ" الهائل، حين يتوجب على كلّ الذين عاشوا وماتوا على الأرض أن يتجمّعوا ليُحكم عليهم أمام الملأ. لذلك فإن العناية الإلهية (التي ربما تركت الطيبين يعانون والأشرارَ في ازدهار) قد تتجلى في النهاية لكل الناس كي تُحقّ الحقّ إلى أبد الآبدين.

4

بناءً على ما تقدم، أسرد الآن، ختاماً، ثلاث نسخ من أسطورة واحدة قديمة، كما حُفظت كلٌّ على حدتها في الهند، والشرق الأدنى، واليونان، لكي أوضح بطريقة عصيّة على النسيان التباينَ بين الرؤى الشرقية عموماً وبين الرؤيتين الغربيتين المختلفتين بما يتعلق بالشخصية والسُمة العليا لدى الفرد.

أولاً، الأسطورة الهندية، كما دُوِّنت في كتاب ديني هو Brihadaranya-ka Upanishad الذي يعود إلى القرن الثامن ق.م.

تحكي عن زمن قبل بدء الزمن، عندما لم يكن هذا العالم أكثر من "الذات" على هيئة إنسان. وتلك الذات، كما قرأنا، "تلفتتْ حولها فلم تجد هناك إلا نفسها، ومن ثم كانت الصرخة الأولى، إنها أنا أنا!؛ من حيث نشأ مفهوم أنا'." وحين أصبحت تلك الذات واعيةً لنفسها كـ "أنا،"/ "ذات' شعرت بالخوف. لكنها قلّبت الأمر وتفكّرت، "حيث أن لا أحد هنا إلا نفسي، فما الذي أخافه؟" ومن ثم تبدد الخوف.

مع ذلك، كما عرفنا تالياً، فإن تلك الذات "لا تزال تفتقد إلى المسرّة وتتمنى لو كان هناك أحد آخر." فتورّمتْ، انشقّتْ من المنتصف، أصبحت ذكراً وأنثى. عانقَ الذكرُ الأنثى، ومن ذلك نشأت سلالة البشر. لكنها فكّرتْ، "كيف يستطيع أن يتّحد بي، وأنا من مادته الصميمة؟ عليّ أن أتوارى! إذاً!" تحولت إلى بقرة، وهو إلى ثور واتحد بها، ومن ذلك نشأت الأبقار؛ ثم هي مهرة، وهو حصان... وهكذا، نزولاً إلى النمل. بعد ذلك أدركَت، "حقاً، أنا- أكونُ- *الخلق*؛ فقد أجريتُ منّي كلَّ هذا." ومن هنا نشأ مفهوم "الخلق" (بالسنسكريتية srishtih كلّ ما يُصَبُّ). "كلّ امرئٍ يفهم ذلك يصبح، حقاً، هو نفسُه خالقاً في تلك الخليقة."

هكذا هي النسخة السنسكريتية من أسطورتنا. والتالية هي المشرقية، التي تعود إلى نفس التاريخ، كما حُفظت في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: تلك الحكاية الكئيبة، أي حكاية سلفنا الساذج آدم، الذي جبله خالقُه من صلصال "... *ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها*". لكن الرجل كان وحيداً، فـ "*جَبَلَ الربُّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ... فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره... فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً ... وبنى الرب الإلهُ الضلعَ التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم... فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت... لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً ... وكانا كلاهما عريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان..*"[32] ونعلم ما جرى بعد ذلك. وها نحن جميعاً، في *وادي البكاء*[33].

32 من سفر التكوين، الإصحاح الثاني.

33 vale of tears

أما الآن، فيُرجى الانتباه! ففي هذه النسخة الثانية من الأسطورة المشتركة لم يكن الإله هو مَن انشقّ إلى نصفين، بل خادمه المخلوق. لم يصبح الإله ذكراً وأنثى ثم يُعدّ نفسه كي يصبح كلّ هذا. بقيَ أوّحدَ ومن مادة مختلفة. ولدينا مثل هذه الحكاية الواحدة في نسختين منفصلتين كلياً. ومضموناهما وثيقا الصلة بمثُل وسلوك الحياة الدينية، فهُما، بناءً على ذلك، مختلفان أيضاً. يتلخص المثال التوجيهي الأعلى في الشرق بأن على كلّ فرد أن يدرك بأنه هو نفسه وسائر الآخرين من المادة الواحدة للوجود الكوني للكائنات- المادة التي هي، في الواقع، الذات *Self* نفسها أولاً وأخيراً. ولذلك تتمثل غاية الدين الشرقي في ضرورة أن يجرب المرء ويعيَ في الحياة هويتَه مع تلك الكينونة؛ بينما في الغرب، مجاراةً لكتابنا المقدس، فإن المثل الأعلى، هو في أن يصبح، إلى حدّ ما، مرتبطاً بـ علاقة مع ذلك الذي هو قطعاً الـ أُقنوم الآخر 'صانع' المرء، منفرداً و"وفي مكان ما out there"، داخلَ الذات الأكثر إيغالاً للمرء.

لذلك أمضي إلى النسخة الإغريقية من الأسطورة، التي ستكون أشبهَ بتعاليم أخرى. يبدو- كما ستتذكرون- في محاورة أفلاطون **الندوة**، والتي تنسب إلى أريستوفانيس؛ وتماشياً مع المزاج اللطيف لأرواح رفقاء أفلاطون، اقتُرحَ أن تكون مجازاً للغز الحب أكثر مما هي تقييم يؤخذ على محمل الجد للأصل الحقيقي للإنسان.

تبدأ الفانتازيا بوجود مسبَق للعِرْق البشري، أو بالأحرى لثلاثة عروق بشرية: أحدها مذكّر بالكامل، مكان إقامته الشمس؛ آخر مؤنث، هنا على الأرض؛ والثالث، مذكر ومؤنث متّحدان، ومأواهما بالطبع القمر. وكان الكلُّ ضخماً بحجم بشريَّين اثنين من أبناء هذه الأيام. ولكل منهم أربع أياد وأربع أقدام، وخاصرات وظهور تشكل دائرة، رأس بوجهين، وبقية الأعضاء تشبه ما نحن عليه الآن. ولأن الآلهة كانت خائفة من قوتهم، شطرهم زيوس وأبولو إلى اثنين، "كتفاحتين قُطعتا لغرض التخليل"، أو كما قد تقسم بيضة بشعرة." لكن تلك الأجزاء المقطّعة،

وكلٌ يرغب بالآخر، التَمّتْ وتآلفت معاً، وكان من الممكن أن تهلك جوعاً لو لم تفصل الآلهة ما بينهما. الدرس الذي ينبغي تعلّمه هنا أن "بنية البشر كانت بالأصل واحدة وكنا مكتملين، والسعي وراء الاكتمال يسمى الحب... وإذا كنا مقربين من الله وأصلحنا ما بيننا وبينه فسيجد كلٌ منا حبَّه الحقيقي، الذي قلّما يحدث في هذا العالم"؛ في حين أننا، "إذا لم نكن مطيعين للآلهة فهناك خطر أن ننشطر من جديد وننتهي إلى مجرد نحتٍ غائر[34]."

الأمر هنا، كما ورد في نسخة الكتاب المقدس، أن حالة انشطار الكائن إلى نصفين ليست اللاهوت النهائي. ومن جديد ها نحن في الغرب بكل أمان، حيث الله والإنسان منفصلان، والمشكلة، مرة أخرى، هي مشكلة الانتماء. مع ذلك، لم تكن آلهة الإغريق هي خالقة الجنس البشري كما كان يهوه. لقد تكونوا من تلقاء أنفسهم، كأناس جاؤوا من حضن إلهة الأرض، وكانوا أخوةَ الإنسان الكبارَ والأقوياءَ بدلَ أن يكونوا الخالقين له. بالإضافة إلى ذلك، وفقاً للنسخة الإغريقية الشاعرية والطريفة من الأساطير القديمة، فإن الآلهة، قبل أن تقسمهم إلى شطرين، كانت خائفة من البشر الأوائل. فقوتهم كانت مهولة وكان مكنونُ البابهم عظيم القدر. وقد تجرؤوا ذات مرة على مهاجمة الآلهة، وهم يرتقون السماء، ففرق مجمع الآلهة في الارتباك والفوضى؛ ولو أبادت الآلهةُ البشرَ بصواعقها، لكان ذلك نهايةَ الأضحية، وسيكون الأرباب أنفسهم قد تخلوا عن حاجتهم لأن يكونوا معبودين. ولذلك استقروا على فكرة شطر البشر إلى نصفين، وربما لا يزال من الممكن المضيّ فيها أبعد من ذلك.

على سبيل المثال، وقف الإغريق، إلى جانب الإنسان، قلباً وقالباً؛ أما اليهود، فعلى النقيض، وقفوا إلى جانب الرب. فلم نسمع أبداً من شخص يونانيٍ مفردات أيوب، مثل تلك الكلمات "الطاهر المستقيم" المهزومة

34 أي نصبح في المستقبل شخوصاً ورموزاً دقيقة في المنحوتات الغائرة، غير المجسّمة. (م)

حتى الوجع، الموجهة إلى الإله الذي "حطّمَ هذا الشخصَ دون سبب" والذي جاءه بعدّها في زوبعةٍ وهو يتفاخر بقدرته.

" *فأجاب أيوبُ الربَّ فقال... قد علمت أنك تستطيع كل شيء، ولا يعسر عليك أمر... فمن ذا الذي يخفي القضاء بلا معرفة؟ ولكني قد نطقت بما لم أفهم. بعجائب فوقي لم أعرفها ... اسمع الآن وأنا أتكلم. أسألك فتعلمني... بسمع الأذن قد سمعت عنك، والآن رأتك عيني... لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد*[35]"

ندم! لمَ الندم؟

على النقيض من ذلك، يقول معاصره الكاتب المسرحي اليوناني العظيم إسخيلوس، من نفس الفترة في القرن الخامس التي ظهر فيها المؤلف المجهول لـ سفر أيوب. على لسان شخصية بروميثيوس ضمن إحدى مسرحياته. الذي اضطُهد بدوره من قبَل إله كان يستطيع أن يصطاد "لوياثاناً بشصٍ... يضغط لسانه بحبل... يلعب معه كالعصفور... يملأ جلده حرابا ..". الكلمات المدهشة التالية؛ "إنه وحش... إن مبالاتي بزيوس أقل من لا شيء. فاتركه يفعل ما يشاء."

واليومَ نسلّم بذلك في قلوبنا، ولو أن ألسنتنا قد تعلّمتْ أن تلهج سعيدةً بذكر أيوب.

35 أيوب. الإصحاح 42

5
مواجهة الشرق والغرب في الدين
(1970)

لم يكن ليخطر لي، عندما كنتُ طالباً في العشرينيات، أنه سيبقى هناك أناس أذكياء في السبعينيات يودّون أن يصغوا إلى مسائل الدين ويفكروا بها. كنا جميعاً في تلك الأيام موقنين تمام اليقين بأن العالم قد بلغ أقصاه مع الدين. وأن الصدارة الآن للعلم والمنطق. كانت الحرب العالمية قد حُسمت (أقصد الأولى)، وباتت الأرض ممهدة لسيادة العقلانية والديمقراطية. كان ألدوس هكسلي في مرحلته الأولى، من نقطة مقابل نقطة[36]، بطلَنا الأدبي؛ وكذلك برنارد شو و هـ. ج. ويلز وبقية الكتّاب الجيدين من تلك المرتبة. لكن فيما بعد، وسط كلّ هذا التفاؤل بشأن المنطق والديمقراطية والاشتراكية وما يشبهها، ظهر كتاب مدلخل: سقوط الغرب لـ أوزوالد شبنغلر. وكانت كتابات أخرى ذات أهمية ولافتة للانتباه تظهر في سنوات الرغد تلك، ومن جهات غير متوقعة: الجبل السحري لـ توماس مان، يوليسيس لـ جيمس جويس، البحث عن الزمن المفقود لـ مارسيل بروست[37]، والأرض الييباب لـ ت.

---

36 رواية نقطة مقابل نقطة. ألدوس هكسلي؛ ترجمة نظمي لوقا. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1985

37 البحث عن الزمن المفقود. In search of lost time. بالفرنسية (À la recherch du temps perdu). ترجمت في البداية إلى الإنكليزية بـ Remembrance of things past.

س. إليوت. من الناحية الأدبية، حقاً كانت تلك السنوات عظيمة. لكن ما هو مؤكد بشأن مؤلِّفيها بدا وكأنه ينبئنا، رغم انتصاراتنا العقلانية وإنجازاتنا السياسية التقدمية، وما أضاءته من أقطار الأرض الظلماء وسوى ذلك، أن هناك شيئاً ما يبدأ يتفتت قلب حضارتنا الغربية ذاتها. كل هذه العبَر والتصريحات، كانت هي الأكثر إقلاقاً بالنسبة إلى شبنغلر. فقد قامت على مفهوم النمط العضوي في مضمار الحياة لحضارة محددة، لمورفولوجيا تاريخ بعينه: فكرة أن لكلّ ثقافة شبابَها، والفترةَ التي تبلغ فيها الأوج، ومن ثم تأتي السنوات التي تبدأ خلالها بالتداعي بفعل العمر رغم مساعيها لحفظ كيانها عن طريق التخطيط والمشاريع والمؤسسات العقلانية، لكي تنتهي أخيراً إلى التفكك، والتحجّر، ما أسماه شبنغلر الدَّرَك "التلاحي"[38]. ثم لا حياة بعد ذلك. بالإضافة إلى أننا، بحسب وجهة نظر شبنغلر هذه، كنا في الحاضر نعيش مرحلة العبور مما أسماه عهد "الثقافة نحو الحضارة"، أي، من عهود إبداعنا الفني والعضوي والمدهش إلى عهود الشك والقلق، والبرامج المختلقة، وبداية النهاية. وعندما بحث عن شبيهاتها في العالم الكلاسيكي، التي تنعجم مع زمننا الراهن، وجدَ، لغاية أواخر القرن الثاني ق.م.، زمن الحروب القرطاجية، أنه انحدار ثقافة. عالَم اليونان إلى الهيلينية، وصعود دولة روما العسكرية، القيصرية، وما وصفه بـ "التدين الثاني"، أي السياسات القائمة على تأمين الخبز ومدرّجات السيرك الرومانية هائلة الضخامة المخصصة للدهماء، والنزوع العام إلى العنف والقسوة في الفنون ومناحي ترفيه الناس.

حسناً، بوسعي أن أخبركم، أنه توفر لدي ما يكفي من الخبرة في الحياة لأن أشهد تحقق كلّ جزء من نبوءة شبنغلر إلى حد كبير وبشكل غير تدريجي في هذا العالم. يمكنني أن أتذكر كيف اعتدنا الجلوس لنناقش هذا الاحتمال القريب، ونحاول تخيّل سبل مواجهته،

38 fellaheenism

ونجهد في تخمين ما قد تكون ملامحه الإيجابية لهذه الفترة والفترة الانتقالية من الأزمة. لقد أكّد شبنغلر ذلك في فترات تشبه فتراتنا، في إحدى فقرات "من الثقافة إلى الحضارة"، أن هناك إقصاءً لأشكال الثقافة: وفي الحقيقة، أواجه في حياتي التدريسية الكثير والكثير من الطلاب الذين يصرحون بأنهم وجدوا أن كلّ تاريخ ثقافتنا الغربية "خارج السياق". ذلك هو مصطلح الرفض القاطع الذي يستخدمونه. يبدو أن "الأولاد" (كما يحبون أن يسموا أنفسهم) تعوزهم القدرة على الإحاطة بمجمل الأمر ثم متابعة السير إلى الأمام. الأمر يشبه أن يلحظ المرء، أو على الأقل يشتبه أحياناً، بمشكلة ما. لكنه يعد ذلك، يتجاوزها ويضع في الاعتبار مشاكل جديدة لاحقة لا مناص من مواجهتها، وحقائق وتأثيرات يجب استيعابها على وجه السرعة. ثم قد يخلص هذا الفرد إلى أن طاقاته ربما كانت تتصبّ على حاضر متضخم ومستقبل مثير للجدل، وبما يتفق ومفهوم شبنغلر، يصل إلى حقيقة أن الإنسان الغربي في هذه المرحلة لا يقصي الأشكال الماضوية للثقافة فحسب بل يصوغ أشكال الحضارة التي من شأنها بناء ودعم مستقبل جبار متعدد الثقافات.

أتذكر في هذا المقام ذلك الأثر التنبُّئي للشاعر الإيرلندي العظيم وليام بتلر ييتس، بعنوان "رؤيا"، الذي كتبه على الأغلب في الأعوام العشرين ما بين 1917 إلى 1936، والتي عرف خلالها تجاذبات يقينية من حدسه الخاص تتفق وتلك التي وردت ضمن وجهة نظر شبنغلر المورفولوجية. هناك يقدم ييتس لحظتنا الراهنة على أنها الطور الأخير من الدورة المسيحية العظيمة أو "دوامة" الألفي سنة: يكتبُ، "ألحظُ أنه حين يُقترَب من الحدّ أو يُعبَر، حين تحلّ لحظة الاستسلام، حين تبدأ الدوامة الجديدة بالدوران، تغمرني الإثارة[39]."

39 W. B. Yeats, *A Vision* (New York: The Macmillan Company; First Collier Books Edition, 1966), p. 300.

وحول فكرتها كتب ونشر في 1920 القصيدة الأكثر إدهاشاً والمستوحاة من القدر:

المجيء الثاني

وهو يدور ويدور في الدوامة الآخذة بالاتساع
لا يستطيع البازُ سماعَ البازدار[40]؛
يتداعى كلُّ شيء؛ وليس بوسع الوسط الصمود؛
فوضى خالصة قد انفلتت فوق العالم،
مَدٌّ عَتَمَه الدمُ قد انفلت، وفي كلِّ مكان
غرقَ طقسُ الطهارة؛
الصالحون يعوزهم كلُّ الإيمان، والطالحون
مفعمون بسَورةٍ متّقدة.

لا ريب أن شيئاً من تَجَلٍّ باتَ وشيكاً؛
لا ريب أن *المجيء الثاني* بات وشيكاً.
المجيء الثاني! ما إنْ لُفظتْ تلك الكلمات
حتى طلعتْ صورةٌ مهولة من 'روح العالم'[41]
لتكدِّرَ المشهد أمامي: في موضع ما بين رمال الصحراء

40 مربي الباز أو الصقر.

41 Spiritus Mundi

ثمة تكوينٌ بجسم أسَدٍ ورأسِ آدميٍّ،
حملقة خلْوٍ من المعنى والرحمة كما الشمس،
ينقُلُ فخذيه المتباطئتين، وحولَه
تتمايل ظلال الطيور الصحراوية الساخطة.
ينسدل الظلام من جديد؛ غير أني الآن أعرفُ
أن عشرين قرناً من السُّبات الحجري
عكّرَ صفوَه كابوسُ مهدٍ هزّاز،
فأيّ وحش عاصف، أزفَتْ أخيراً ساعتُه،
يدبُّ مترنّحاً صوبَ بيت لحم كي يُوْلَد من جديد؟[42]

هناك مؤرخ ثقافي ألماني آخر يكتب في أيامنا هذه، هو ليو فروبينيوس الذي، كما شبنغلر وييتس، تصوّرَ الثقافة والحضارة بالمصطلحات المورفولوجية نوعاً من سيرورة عضوية تكشف عن حتمية مبرمة. مع ذلك، كان أنثروبولوجياً مختصاً بالثقافات الأفريقية، وبذلك لم يشمل مجالُه الحضارات الأحدث فقط بل أيضاً البدائية، إذ اشتمل مفهومه الرئيسي على ثلاث مراحل مستقلة كبيرة من التطور الإجمالي لتاريخ الثقافة البشرية. أحاطت المرحلة الأولى بملتقطي الغذاء والصيادين والقرويين المزارعين البدائيين، غير الكتابيين، بالغنيّ التنوع، وتمتد من الفترة الزمنية التي تعود إلى بدايات ظهور جنسنا البشري على هذه الأرض وصولاً (في بعض البقاع) إلى يومنا الحاضر. الثانية، بدأت منذ قرابة 3500 ق.م.، وتميزت بـ "ثقافات ذات معالم ضخمة،" وبأنها غير أمية ومركّبة. بداية من بلاد ما بين النهرين ومصر، ثم اليونان وروما والهند

42 *The Collected Poems of W. B. Yeats* (New York: The Macmillan Company, 1956), pp. 184-185.

والصين واليابان ثم أواسط وجنوب أميركا والمشرق[43] المجوسي- العربي، وأوروبا القوطية وصولاً إلى الحديثة. وختاماً تأتي المرحلة الثالثة، وهي مرحلة العصر العالمي المُشرق، والواعد إلى أقصى الحدود، الذي نظر إليه فروبينيوس على أنه قد يكون الطورَ الختاميَّ لمجمل تاريخ الثقافة البشرية، لكن الذي ربما قد يدوم ليضع عشرات آلاف السنين. وهذا يعني أن ما رأى فيه كلٌ من شبنغلر وبيتس نهايةَ دورة الثقافة الغربية وجد فيه فروبينيوس إمكانيةً تحمل من الرحابة ما يكفي لافتتاح عصر جديد يؤذن بآفاق لا حدود لها. وفي الحقيقة، إن هذا الزمن الراهن- زمن "مجيء" الكلّ معاً من عوالم الثقافات المتفرقة قد لا يمثل نهاية هيمنة الغرب فحسب، بل بداية عصر الجنس البشري، متّحداً ومدعّماً بعطايا الغرب العظيمة من العلم والآلة. اللذين لم يتسنّ لعصرٍ كعصرنا أن يظهر إلى حيّز الوجود من دونهما.

غير أن رؤيا شبنغلر الأكثر قتامةً تتنبأ بالخراب هنا أيضاً. من حيث أن العلم والآلة يعبّران في نظره عن عقلية الإنسان الغربي، التي تمّ الاستحواذ عليهما من قِبَل شعوب غير غربية لمجرد أن تصبح وسائل لتفكيك وتدمير الغرب. وحين يُستكمَل الإجهاز على الأوزة التي تضع البيض الذهبيّ، لن يكون هناك مزيد من التطور على صعيد العلم أو الصناعة فحسب، بل فقدان كفاءتهما وحتى الاهتمام بهما، مع ما يترتب على ذلك من الهبوط في التكنولوجيا وعودة شعوب مختلفة إلى أنماطها المحليّة؛ بذلك فإن عصر أوروبا الراهن العظيم وبشائره للعالم ما هو إلا حلم محطَّم. من جهة أخرى، رأى فروبينيوس، كما نيتشه من قبله، أن الحاضرَ هو عهدُ تطوّر لا رجعة فيه ضمن مسار الحياة الواحدة للجنس البشري برمّته، عابراً هنا من مراحل نموّه الثقافي الغضّة المحدودة محليّاً إلى مستقبل جديد وشموليّ حافل بالمدارك والإنجازات الخلاقة غير المتوقّعة. لكن عليّ الاعتراف أنني بينما أميلُ في تفكيري

43 Levant

الخاص إلى وجهة النظر الأخيرة، لا أستطيع إقصاء الأخرى، أي وجهة نظر شبنغلر، عن ذهني.

مهما يكن الأمر، فإن ما ندركه جميعاً اليوم آنئذ- بطريقة أو بأخرى- ندخل عصراً جديداً، يتطلب حكمة جديدة: حكمة كهذه، أيضاً، تنتمي إلى العمر المتقدم الحافل بالخبرة أكثر مما تنتمي إلى الشباب الحالم بطريقة شاعريّة، والتي على كل فرد منّا، شاب أو كهل، أن يتمثلها بشكل أو بآخر. ومن جهة أخرى، عندما نتحول بأفكارنا إلى الدين، فإن الحقيقة الأولى والأكثر وضوحاً هي أن كلّ تقليد من التقاليد العظيمة يمر اليوم بفوضى عميقة. ويبدو أن ما قد خبرناه عن الحقائق الأساسية (للتقاليد الدينية) لم يعد قابلاً للصمود بعد الآن.

ورغم اتساع رقعة الحماسة والهيجان الدينيين ليس في أوساط الشباب وحسب بل لدى المسنين ومتوسطي الأعمار أيضاً، فإن هذه الحماسة تتخذ توجّهاً صوفياً، والمعلمون الذين يبدو أنهم المثل الأعلى بالنسبة إلى الكثيرين هم أولئك الذين قدموا إلينا من عالم كان يُعتبر فيما مضى من مخلفات الماضي في خضمّ الاندفاعة العظيمة للحضارة الحديثة، ليقدموا طرائقَ تفكيرٍ قديمةً أكل الدهر عليها وشرب. فلدينا كُتُب الغورو من الهند؛ والروشي من اليابان؛ واللاما من التيبت. وكتب الوحي الصينية التي تفوق في مبيعاتها كتبَ فلاسفة بلداننا.

غير أنها لا تفوق مبيعات أفضل علماء النفس لدينا. وليس هذا مما يبعث على الدهشة في نهاية الأمر؛ لأن السرّ الأقصى في جاذبية الشرق يكمن في أن نُظُمَه وضوابطه نفسية صوفية وتتوجه إلى الداخل.

أجدُ تشابهاً صريحاً لحالتنا الدينية الراهنة مع حالة قبائل هنود أميركا الشمالية، على مشارف القرن التاسع عشر، في عقدي الـ 1870 و1880، عندما كانت أعداد الجواميس آخذة بالتناقص. ولم يكن قد مضى قرنٌ بعدُ على مدّ السكك الحديدية عبر السهوب، حتى كان

مستكشفوّ الجواميس قد خرجوا ليبيدوا القطعان ويشقوا الطريق لعالَم الأحصنة الحديدية الجديد ولقطّاع يسكنه مستوطنون من مزارعي القمح الذين انتقلوا من ميسيسبي. كان الغرض الثاني من وراء إبادة الجواميس حرمان صيادي الجاموس الهنود من مورد غذائهم، وبذلك يرضخون للعيش في المحميات. ولاحقاً لهذه التطورات (الكارثية بالنسبة إليهم) فإن ديناً جديداً قائماً على تجارب باطنية رؤيوية قد أصبح رائجاً في كافة أصقاع الغرب الهندي.

وينطبق حال سائر الشعوب الصيّادة البدائية، على حال قبائل السهوب هذه. فقد كانت علاقة الإنسان بالمجموعة الحيوانية التي تمدّه بالغذاء هي الشأن المركزي والمحوريّ للنظام الاجتماعي المصون دينياً. وحيث أن الجاموس قد زال، فإن الرمز الملزم قد زال. وفي غضون عقد من السنوات باتت الديانةُ قديمةَ العهد وباطلة: فحلّت بعدها عبادة البيوط peyote، وعبادة المسكال mescal، من المكسيك، على امتداد السهوب، كنوع من الخلاص النفسيّ. ونُشرت تقارير كثيرة عن تجارب المشاركين: كيف يتجمعون في محافل خاصة ليقيموا الصلاة، ولينشدوا تراتيلهم، ويتناولوا براعم الـ البيوط، ثم لكي يعيش كلٌ منهم الرؤى، ولكي يجدوا في داخلهم ما افتقدوه في مجتمعهم، أي أخيلة القداسة، وليسبغوا العمق، والأمان النفسي، والمعنى الجليّ على حياتهم.

وفي هذه الآونة، يتمثل أول وأهم تأثير للرمز الميثولوجي الحيّ في إيقاظ وتوجيه طاقات الحياة. إنه إشارة إطلاق وتوجيه الطاقة، الذي لا يكتفي بأن "يشغّلك turns you on"، كما يقولون في هذه الأيام، بل يشغّلك في مسار محدد، يجعلك تؤدي وظيفتك بطريقة محددة. الذي سيكون العامل المساعد الوحيد لمشاركتك في حياة وتطلعات فئة اجتماعية فاعلة. وبكل الأحوال، عندما لا تعود الرموز التي تنصّ عليها الفئة الاجتماعية صالحة للعمل، ولا تعود الرموز التي تعمل منتميةً إلى المجموعة، يتصدع الفرد، يصبح متفككاً وتائهاً، ونواجه ما يُسمى بـ باثولوجيا الرمز.

وصفَ الدكتور جون و. بيري، الأستاذ الجامعي المتميّز المتخصص بالطب النفسي في جامعة كاليفورنيا، الرمزَ الأسطوري الحي بأنه "صورة وجدان". إنه الصورة التي تصيب المرء في الموضع الذي يُعتمَدُ عليه. فهي صورة لا تتوجه أولاً إلى الدماغ، حيث تُفسَّر وتُقوَّم. بل على العكس، إذا كان ذلك هو الموضع حيث يجب أن تُقرأ. فالرمز ميت بطبيعة الحال. لأن "صورة الوجدان" تتوجه بخطابها مباشرةً إلى منظومة المشاعر وسرعان ما تستثير الاستجابة، التي قد يأتي بعدها الدماغ بتعقيباته المثيرة. هناك شيء من رجْع رنين في الداخل، كاستجابة للصورة المعروضة، مثل جواب وتر آلة موسيقية لآخر متناغم الضبط (الدوزنة). وبذلك عندما توقظ الرموزُ الحيوية لأية فئة اجتماعية في أعضائها استجابات من هذا النوع، فإن نوعاً من الانسجام السحري يوحّد أعضاءها ككائن معنويّ حيّ واحد، ويؤدي وظيفته من خلال الأعضاء الذين، على الرغم من تشتتهم في الحيّز المكاني، لا يزالون 'واحداً' في الوجود والمعتقَد.

ولنتساءل الآن: ماذا عن رمزية الكتاب المقدس؟ استناداً إلى الرصد الفلكي في المملكة السومرية القديمة الذي يعود إلى خمسة أو ستة آلاف سنة مضت وأنثروبولوجيا فاقدة الصلاحية، فمن غير المناسب أن تقنع أحداً بها في هذه الأيام. وفي الحقيقة، إن الصراع الشهير بين العلم والدين لا علاقة له بالدين، بل إنه ببساطة مكوّن من معرفتين اثنتين: معرفة تعود لـ 4000 سنة ق.م. ومعرفة 2000 سنة ب.م. أليست مفارقة أنه يجب على حضارتنا الغربية العظيمة، التي فتحت أمام عقول كل البشر عجائب لامتناهية لكون يضمّ ما لا يُعَدّ من مليارات المجرات وما لا يُعَدّ من مليارات السنين، أن تُرهَق في طفولتها المبكرة بدينٍ محصور في أضيق صورة كونية مصغرة مألوفة لأي إنسان على الأرض؟ سيكون تبرير تقويم المايا القديم بحقَب الـ 64000000 سنة الدوريّة أكثر سهولة بكثير؛ وكذلك الـ kalpas (الحقب) الهندوسية المؤلفة من 4320000000 سنة. من ناحية أخرى، في تلك المنظومات الأكثر مهابةً لا تصبح السلطة

الإلهية الكليّة ذكورية ولا أنثوية بل متسامية على كل الفئات؛ ليست شخصية ذكورية "نُصِّبَتْ هناك،" بل سلطة باطنية في كل شيء؛ أي، أن مخالفتها لصورة المعرفة الحديثة لم تبلغ حد أنها فقدت صلاحيتها في أن تكون قيد التداول.

ببساطة، إن تصور الكتاب المقدس للكون لن يضيف شيئاً؛ كما لن يفعل المفهوم الإنجيلي عن أبناء الرب (إشعياء 49: 22-23؛ 61: 5-6؛ إلخ)؛ ومن جديد لن تضيف فكرةُ مجموعة القوانين المنزلة من السماوات شيئاً ولن تكون صالحة لكل الأزمان. ليست مشاكل العالم الاجتماعية في يومنا هذا مشاكلَ شطرٍ من المشرق القديم، كالقرن السادس ق.م. مثلاً. فليست المجتمعات ساكنة static؛ كما لا يمكن لقوانين مجتمع أن تخدم مجتمعاً آخر. ومشاكل عالمنا لا تُمكن مقاربتها حتى بتلك الوصايا العشر التي نعتلها كمتاع لنا والتي بقيت في حقيقة الأمر مهملةً في النص المبارك نفسه، بين طيات إصحاح واحد بعد إعلانها (سفر الخروج 21: 12-17، بعد 13:20). وكما أن المفهوم الغربي المعاصر للتشريع القانوني لا يحتّم أنه قائمة مستمَدّة من المراسيم الإلهية الحصينة وإنما تجميع للقوانين متجددٌ ومستنبَط بعقلانية، صاغه بشرٌ غير معصومين بالتشاور فيما بينهم، لكي يحققوا بصورة عقلانية أهدافاً اجتماعية (وبالتالي زمنية) معترَفاً بها. نعلم أن قوانيننا ليست مفروضة إلهياً؛ كذلك نعلم أنه لم تأت قوانين لأي شعبٍ على الأرض من تلقاء ذاتها. وبذلك نعلم أيضاً - سواء تجرأنا على الاعتراف أم لا - أنّ رجال أديانا لم يعودوا يمتلكون حق ادّعاء سلطتهم المنيعة لقاء قانونهم الأخلاقي كبديل عن معرفتهم. وأخيراً، حتى في دَورهم الودّي بتقديم النصح الروحي، فإن الأطباء النفسيين العلميين تخطّوا رجالَ الدين حقاً، لدرجة أن العديد من رجال الدين يتحولون إلى علماء نفس لكي يتعلموا أفضل السبل لأداء مهمتهم الكهنوتية. فلم يعد سحْرُ رموزهم التقليدية مجدياً للشفاء بل مثيراً للتشويش لا أكثر.

باختصار: كما اختفى الجاموس فجأةً من السهوب الأميركية الشمالية، تاركاً الهنود محرومين ليس من رمز أسطوري أساسي فحسب بل من أسلوب الحياة الصميم الذي مثّله الرمز من قبل، كذلك هي الحال في عالمنا الجميل. لم يقتصر الأمر على أن رموزنا الدينية الشعبية خسرت أحقيتها بالسلطة وزالت، بل إن طرُقَ الحياة التي دعمتْها قد اختفت هي الأخرى؛ وكما يمم الهنود وجههم شطر الداخل فيما بعد، كذلك يفعل كثيرون في عالمنا المضطرب. وغالباً بالتوجّه شرقاً، وليس غريباً، في هذه المغامرة الطائشة التي يُحتمل أنها محفوفة بالمخاطر، باحثين في تضاعيفها عن الصور الوجدانية التي لن يستطيع نظامُنا الاجتماعي العلماني بمؤسساته الدينية القديمة المتنافرة إلى استخلاصها سبيلا.

دعوني أسرد ثلاث حكايات شخصية لألقي الضوء على الخلفية وأشير إلى بعض إشكاليات هذه المواجهة في الدين بين الشرق والغرب.

الأولى: في منتصف الخمسينيات، عندما كان د. مارتن بوبر يحاضر في نيويورك، حظيتُ بشرف أن أكون من بين عدد من المدعوين للاستماع إليه في مجموعة محاضرات جرت في قاعة صغيرة، خاصة للغاية في جامعة كولومبيا. وهناك عقد هذا الرجل الصغير طلق اللسان - لأنه كان في الواقع صغير الحجم بشكل لافت، لكنه موهوب بحضوره الطاغي، متسلحاً بتلك الطاقة العصبية على الفهم المعروفة في هذه الأيام بالـ "كاريزما" - خمس أو ستّ جلسات أسبوعية تميزت بطلاقة استثنائية. وفي الحقيقة، بتلك الإنكليزية التي لم تكن لغته الأولى بل الثانية، كانت طلاقته وسلاسة بيانه مدهشتين. لكن، وهو يمضي في محاضراته قدماً، أدركتُ بالتدريج، في منتصف المحاضرة الثالثة، أن هناك كلمة كرر الدكتور استخدامها دون أن أتوصل إلى فهمها. كانت محاضراته حول تاريخ الشعب المقدس في العهد القديم، مع إشارات إضافية إلى نهايات عصرنا الحديث؛ وكانت الكلمة التي لم أستطع فهمها هي "God." فقد بدت أحياناً كأنها تشير إلى الخالق الفرْد المتخيَّل لهذا الكون والمهول

الحجم الذي تُظهره لنا العلوم. وأحياناً كان من الواضح أنها إشارة إلى يهوه الإله في العهد القديم بكل بساطة، في واحدة أو أكثر من مراحل تطوره. ثم مرة أخرى، بدا كأن أحداً آخر سبق أن خاض معه الدكتور بوبر نفسه أكثر من نقاش. فأثناء إحدى المحاضرات، مثلاً، توقف عن الحديث، وبعد هنيهة ارتباك، هزّ رأسه وخاطبنا بهدوء، "يؤلمني أن أتحدث عن الله بضمير الغائب." عندما نقلتُ ذلك للدكتور غيرشوم شولم (وهو في الأراضي الفلسطينية الآن)، ضحك وأجاب مازحاً، "إنه يبالغ أحياناً!"

لذلك، مع هذه الكلمة الزئبقية التي تتأرجح بين أكثر من معنى، رفعتُ يدي بحذر. توقف المحاضر عن الحديث وسألني بأناة، "ما الأمر؟"

قلتُ "د. بوبر، هناك كلمة واحدة ترددت هنا في هذه الأمسية ولم أفهمها."

"ما هي تلك الكلمة؟"

أجبتُ "الله."

اتسعتْ عيناه وأومأ برأسه ووجهه الملتحي قليلاً. "ألا تعرف ماذا تعني كلمة 'الله'!"

قلتُ "لا أعرف ماذا تعني *أنت* بـ 'الله'. لقد قلتَ لنا هذا المساء إن الله في الحاضر قد أخفى وجهه ولم يعد يُظهر نفسه للإنسان. مع أني عدتُ منذ أمد قريب من الهند (وفي الحقيقة كنتُ هناك قبل ذلك بسنة)، حيث وجدتُ أن الناس يعيّشون الله طوال الوقت."

تراجع فجأة إلى الوراء، مشرعاً كلتا يديه، وراحتاه تتجهان إلى الأعلى، "هل تعني.. أن نقارن..." لكن المشرف على المناسبة، د. جاكوب توبيس، تدخل بسرعة: "لا يا دكتور!" (عرفنا جميعاً ما كان يُقال على وجه

التقريب، وكنتُ فقط أنتظر أن أسمع ما هو التالي.) أكملَ د. توبيس، "السيد كامبل طلب معرفة ما تعنيه *أنت* بـ 'الله' لا أكثر."

سرعان ما استجمع المعلّم أفكاره، ثم خاطبني بطريقة مَن يتخلص من شيء مقحَم على الموضوع، "على كل امرئ أن يخرج من منفاه بطريقته الخاصة."

كان ذلك جواباً جيداً بما فيه الكفاية من وجهة نظر د. بوبر، لكنه لم يكن مناسباً تماماً من وجهة نظر أخرى، حيث أن أهل الشرق ليسوا في منفى عن ربهم. فاللغز الإلهي المطبق هناك حاضر بشكل راسخ في داخل الكلّ. إنه ليس "بعيداً *هناك*" في مكان ما. إنه في داخلك. ولم يُقتطَعْ من أحد قطّ. غير أن الصعوبة الوحيدة ببساطة تكمن في أن بعض الناس لا يعرفون كيف ينظرون في دواخلهم. الخطأ ليس خطأ أحد، ما لم يكن خاصاً به وحده. كما أن المشكلة ليست مشكلة سقطة أولى لـ "الإنسان الأول." منذ عدة آلاف من السنوات، ومشكلة منفى وكفارة. المشكلة سيكولوجية. وهي قابلة للحل.

تلك كانت أولى حكاياتي الشخصية الثلاث.

الثانية هي حادثة وقعت بعد حوالي ثلاث سنوات من الأولى، عندما جاء شاب هندوسي لمقابلتي، وقد أثبت أنه شاب ورع للغاية: من عبدة فيشنو، يعمل موظفاً أو سكرتيراً لأحد المفوضين الهنود في الأمم المتحدة. كان يقرأ كتابات هاينريش زيمر عن الفن والدين والفلسفة الهندية، تلك الكتابات التي قمتُ بتحريرها قبل ذلك بسنوات عديدة، والتي كان يريد مناقشتها. لكن هناك شيء آخر كان يودّ التحدث فيه أيضاً.

"أنت تعرف"، قال بعد أن بدأنا نشعر بالألفة بيننا، "عندما أزور بلداً أجنبياً، أحب أن أحيطَ بديانته؛ لذلك اشتريتُ نسخة من الكتاب المقدس وأطالعه من بدايته على مدى الأشهر الماضية؛ لكن، أنت تعلم..." وهنا توقف، ليتأملني في حيرة، ثم قال، "لا أستطيع إيجاد أيّ دين فيه!"

أليس ذلك نظيراً مناسباً لكلمة د. بوبر التي لم تُقلْ؟ فالذي كان بالنسبة لأحدهما ديناً، كان بالنسبة للآخر "لادينياً" على الإطلاق.

وبما أنني تربيتُ على قراءة الكتاب المقدس طبعاً، ودرستُ الهندوسية: فكرتُ بأنني قد أقدم بعض العون. "حسناً،" قلتُ، "أستطيع أن أتبين كيف يكون ذلك، إذا لم تتح لك فرصة معرفة أنه يُنظَر إلى قراءة تاريخ السلالة اليهودية هنا على أنها ممارسة دينية، سيكون ذلك، فيما أرى، كماً شحيحاً للغاية من الدين بالنسبة إليك على مدار الشطر الأكبر من الكتاب المقدس."

فكرتُ فيما بعد أنه ربما كان يجدر بي أن أحيله إلى المزامير؛ لكني عندما انكببتُ على قراءة جديدة لها وكانت الهندوسية ماثلة في ذهني، سعدتُ أنني لم أفعل ذلك؛ لأن الفكرة الرئيسية غالباً ما تكون إما فكرة المنشد، المحمي بإلهه، الذي سوف "يضرب أعداءه على الخد" و"يهشم أسنان الأشرار"؛ أو، من ناحية أخرى، "الشكوى من أن الله لم يمنح عونه بعدُ لخادمه الصالح؛ وكلّما تحول كلياً بين ما قد تعلمه هندوسي مثقف وبين أن يرى فيه وجداناً دينياً.

وفي الشرق يُلتَمَسُ اللغز الإلهي الأقصى فيما هو أبعد من كل مقولات الفكر والمشاعر البشرية، وراء الأسماء والصيغ، وبالتأكيد أبعد من أي مفهوم مثل الشخصية الحكيمة أو الحانقة، التي تختار شعباً دون آخر، تسبغ النعم على القوم المصلّين، وتدمّر أولئك غير المصلين. إن مثل الإحالات التشبيهية anthropomorphic attributions للعواطف والأفكار البشرية إلى لغزٍ وراءَ الفكر هي- من وجهة نظر الفكر الهندي- أنموذج دينٍ للأولاد. في حين أن المعنى النهائي لكل تعاليم الراشدين يصل مرتبة اللغز المتعالي على الفئات والتسميات والصيغ، والعواطف والفكر، مُدركاً باعتباره أرضيةَ الوجود الصميم للفرد.

ذلك هو الفهم المستنبَط من كلمات الكاهن الهندوسي آروني المشهورة

إلى ابنه، والمدوّنة في الـ شاندويا الأبانيشاد Chhandogya Upanishad التي تعود إلى القرن الثامن ق.م. "أنتَ You، يا عزيزي شفيتاكيتو، أنت هو It/ أنتَ هو ذاك يا شفيتاكو."[44]

الـ you "أنت" المقصودة هنا ليست الـ you التي يمكن أن (تحدّد)، الـ you التي يعرفها أصدقاء المرء ويراعونها، فذلك الشخص وُلدَ ذات يوم وسوف يموت. تلك الـ "you" ليست الـ "It"، "Neti neti، ليست تلك، ليست تلك". فقط عندما يزيل ذلك "you" البشري الفاني كلَّ ما يحبه عن نفسه ويتمسك به، فإن الـ "you" سوف توصل إلى حافة اختبار الهوية identity مع ذلك الوجود Being الذي ليس بعدُ الوجودَ ما وراء عدم nonbeing كلّ الأشياء. كما أنه ليس أي شيء مما عرفتَه أبداً، عيّنتَه/ حدّدتَه أبداً، أو حتى فكرتَ به في هذا العالم: إنها ليست الآلهة أو أيّ إله، مثلاً، وقد تجسّدَ، أو تأنسنَ، في العبادة. كما قرأنا في الـ بريهادارانياكا أوبانيشاد العظيمة (التي يقدر عمرها بعمر الـ شاندويا):

> هذا ما يقوله الناس: "اعبد هذا الإله! اعبد ذاك الإله!- إله بعد إله! كلّ هذا من خلقه حقّاً! وهو نفسه كلُ الأرباب...
>
> إنه مندمج في الكون حتى رؤوس أظافرنا، مثل موس حلاقة في جرابه، أو كالنار في الحطب. لا تدركه أعين أولئك الناس، فإذْ يُرى، يُرى لا مكتملاً. حين التنفس، يصبح "النَفَس" بالاسم؛ حين التكلّم، يصبح "الصوت"؛ حين الرؤية، يصبح "العين"؛ حين السمع، يصبح "الأذن"؛ حين التفكير، يكون "الذهن": هذه ليست سوى أسماء أفعاله. ومَن يتعبد واحداً أو آخرَ من هذه- ليس بعالم؛ إذ أنه ليس مكتملاً في واحد أو آخرَ منها.

44 *Chhandogya Upanishad* 6.9-16.

على المرء أن يتعبد وفي داخله فكرة أنه ذات هذا المرء،
ففيها تصبح كلها واحداً. هذه الذات هي آثارُ كلِّ ذلك،
فعن طريقها يدرك المرءُ الكلَّ- بالضبط، دون ريب، كما
باقتفاء آثار أقدام يعثر المرء على بقرة مفقودة...[45]

أتذكر المحادثة النابضة بالحياة مع فيلسوف الزِّنْ الياباني الدكتور دايستز ت. سوزوكي، التي استُهلتْ بالاختلاف الذي لا يمكن تجاهله بين الفهم الغربي والشرقي للغز الله- الإنسان- الطبيعة. وفي تعقيبه أولاً على الرؤية التوراتية لحال الإنسان عقب السقوط من عدن، يقول، "الإنسان في مواجهة الله، الطبيعة في مواجهة الله، وكلٌّ من الإنسان والطبيعة في مواجهة الآخر. إن شبيه الله (الإنسان)، وإبداع الله (الطبيعة) والله ذاته- الثلاثة كلّهم في حالة حرب."[46] ثم، يشرح الرؤية الشرقية قائلاً، "الطبيعة هي الحضن الذي منه أتينا وإليه نعود."[47] و"الطبيعة تلد الإنسان منها؛ الإنسان لا يستطيع أن يكون خارج الطبيعة."[48] "أنا في الطبيعة والطبيعة فيَّ."[49] ينبغي فهم الألوهة بما هي كينونة أعلى،" واستطرد، "كما هي قبل الخلق، الذي لم يكن قد أوجد فيه لا إنسان ولا طبيعةً بعْدُ." "وما إن يتخذ اسماً، حتى تتوقف الألوهة عن كونها ألوهة. ويتجلى الإنسان والطبيعة ونصبح أسرى متاهة مفردات المفاهيم المجردة."[50]

أما نحن في الغرب، فقد أطلقنا اسماً على ربّنا؛ أو بالأحرى، جعلنا الألوهة تتخذ اسماً من أجلنا في كتاب يعود لزمان ومكان ليسا زماننا

45 *Brihadaranyaka Upanishad* 1.4.6 and 7, in part.

46. Daisetz T. Suzuki, "The Role of Nature in Zen Buddhism," in Olga Fröbe Kapteyn, ed.,*Eranos Jahrbuch 1953* (Zurich: Rhein-Verlag, 1954), p. 294.

47 Ibid, p. 319.

48 Ibid, pp. 298-299.

49 Ibid, p. 303.

50 Ibid, p. 308.

ومكاننا. وتعلمنا أن نؤمن ليس بالوجود المطلق لقصصه الغيبية فحسب، بل أيضاً بعلاقته الوثيقة بتكوين حيواتنا. أما في الشرق العظيم، بالمقابل، فإن التوكيد ينصبّ على التجربة: على تجربة المرء الخاصة، وليس الإيمان بتجربة أحد آخر. وهناك سبُلٌ للاختصاصات المتنوعة التي تُكتسَب أن تتمّم تجاربَ لا تحتمل الخطأ- أبداً أعمق، أبداً أوسع- نابعةً من هوية المرء بكل ما قد يعرفه على أنه "إلهي": الهوية، ومن ثم، بعد ذلك، يأتي التعالي transcendence.

تعني كلمة بوذا Buddha ببساطة، "اليقظ أو المتيقظ، شخص موقَظ، أو "الشخص الموقَظ." وقد جاءت من جذر الفعل الستسكريتي budh، "أن يسبر الغور، أن يتغلغل في الشيء حتى القاع"؛ أيضاً، "أن يفهم، أن يعرف، أن يثوب إلى رشده، أن يفيق." الـ بوذا هو مَن أفاق على هوية لا ترتبط بالجسد وإنما بـ "العارف" بالجسد، ليس بالفكر بل بالعارف بالأفكار، أي، بالإضافة إلى ذلك، يوعي، وبمعرفة أن قيمته مستمَدة من قدرته على الإشعاع بالوعي. كما تأتي قيمة المصباح الكهربائي من إمكانية إشعاعه بالضوء. المهم في المصابيح ليس السلكُ الشَّعريّ أو الزجاج بل الضوء الذي تُصدّره؛ وما هو مهم لدى كلٍّ منّا ليس الجسد وجملته العصبية بل الوعي الذي يشع منها. وعندما يعيش فردٌ من أجل ذلك، بدلاً من العيش من أجل حماية المصباح، فإن هذا هو الإنسان الحقّ في وعي بوذا.

هل لدينا مثل هذه التعاليم في الغرب؟ ليس من ضمن ما نعرفه تعاليمنا الدينية. ذلك أن الله، وفْقَ كتابنا المقدس، خلق العالَم، وخلق الإنسان، ولا يجب تصوُّر الله ومخلوقاته على أنها متماثلة بأي معنى من المعاني. بل في واقع الأمر، إن الوعظ بالتماثل في رأينا المعروف على نطاق واسع هو منتهى الهرطقة. عندما قال يسوع، "أنا والأب واحد،"[51]

51 يوحنا 30:10

صُلب لتجديفه؛ وعندما قال الحلاج المسلم الصوفي الشيء ذاته بعد تسعة قرون، (صُلبَ) هو الآخر. حيث أن ذلك بالتحديد هو أعلى ما يُلقّن كدينٍ في أنحاء الشرق.

إذن، ما الذي تُلقّنه أديانُنا في واقع الأمر؟ إنها لا تلقّن الطريقة لتجربة التماهي مع الألوهية، فذلك، كما أسلفنا، هو منتهى الهرطقة؛ وما الطريقة والوسيلة لتأسيس وصون علاقة مع إله معيّن، وكيف السبيل لتحقيق علاقة كهذه؟ لا يتم ذلك غالباً من خلال عضوية فئة اجتماعية معينة موهوبة بشكل خارق، ومفضلة بشكل متفرد. فقد كان لربّ العهد القديم ميثاق مع شعب تاريخي معيّن، السلالة المقدسة الوحيدة. الشيء الوحيد المقدس، في الواقع، على الأرض. وكيف يتسنى للمرء أن يحظى بالعضوية؟ كان آخر جواب تقليدي (10 آذار 1970) في تكريس (إسرائيل) احتلالها للأراضي الفلسطينية مع تحديد الشروط الأساسية لنيل الجنسية الكاملة في تلك (الدولة) المستلهَمة من الأسطورة: بأن يكون المرء مولوداً لأم يهودية. وأما وجهة النظر المسيحية فمن أيّ طريق يمكن تطبيقها؟ يمكن ذلك بمزية تجسّد يسوع المسيح، الذي يُعرف بأنه الربّ الحقيقي والإنسان الحقيقي (الذي، بحسب وجهة النظر المسيحية، يُعد معجزة، في حين أنه في الشرق، ومن جهة أخرى، يُعرف كل شخص على أنه إله حقيقي وإنسان حقيقي، رغم أن القلائل قد تنبهوا إلى مفعول تلك الأعجوبة في دواخلهم). فمن خلال ناسوتنا نرتبط بالمسيح؛ ومن خلال لاهوته يصلنا هو بالله. وكيف نؤكد في الحياة علاقتنا بذلك الإله. الإنسان الواحد الأحد؟ بالمعمودية، وبها يصبح المرء عضواً روحياً في كنيسته: أي، مرة أخرى من خلال مؤسسة اجتماعية.

وقد استُمدّتْ مقدمتا الكاملة للصورة، والنماذج الأصلية، والرموز الدلالية المعروفة عالمياً الخاصة بكشف الغوامض الروحية من طريق دعاوي هاتين الفئتين الاجتماعيتين التاريخيتين المقدستين ذاتياً. ودعاوي الجماعتين قد باتت اليوم فاقدة المصداقية. تاريخياً وفلكياً وبيولوجياً،

وكلّ ما سوى ذلك. ويدرك الجميعُ الأمر. فلا عجب أن رجال الدين لدينا يبدون قلقين، وأن محافلهم يعتريها الاضطراب!

وهكذا، ماذا بشأن كُنُسنا وكنائسنا؟ لقد تحول كثير من الكنائس، كما لاحظتُ، إلى مسارح؛ وتحولت أخرى إلى قاعات محاضرات، حيث تُدرّس الأخلاق والسياسة وعلم الاجتماع في أيام الآحاد بنبرة جهورية وبذلك التهدج اللاهوتي الذي يعبّر عن إرادة الله. لكن هل ينبغي عليهم أن يتنازلوا بهذه الطريقة؟ ألا يستطيعون القيام بوظيفتهم المناسبة على نحو أفضل من ذلك؟

يبدو لي أن الجواب الواضح هو أنهم بالتأكيد يستطيعون القيام بها. أو بالأحرى، كانوا استطاعوا. لو عرف كهنتهم أين يكمن سحرُ الرموز التي يحوزتهم. يستطيعون القيام بذلك ببساطة عن طريق إبرازها بطريقة مؤثّرة كما ينبغي أن تكون. لأن الشعيرة، والطقس ومجازهما، هما ما يُعتدّ به في الدين، وحيثما يغيب ذلك، فإن الكلمات التي هي الحامل المجرد للمفاهيم ربما يقيّض لها، أو لا يقيّض، أن تحقق مدلولاً معاصراً. فالطقس هو منظومة من الرموز الميثولوجية؛ وبالإسهام في دراما الشعيرة يتحقق تواصلُ المرء المباشرُ معها، ليس بوصفها تقارير شفهية عن الوقائع التاريخية، أو عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل، بل مكاشفات، في اللحظة الراهنة، لما هو دائم وأبديّ. والموضع الذي تخطئ فيه الكنائس والكُنُس هو بقول ما "تعنيه" رموزها. إذ تتمثل قيمة الطقس في أنه يترك المرء لأفكاره الخاصة، التي لا تفعل العقيدة والتفاسير أكثر من تشويهها. إن العقيدة والتفاسير المنصوص عليها عقلانياً هي عوائق، وليست عَوناً، في التبصّر الديني، إذ لا يمكن لإدراك المرء وجودَ الله أن يتعدى كونه التزاماً تابعاً من طاقته الروحية. ومع تحديد أكثر خفايا حياتك حميميةً وعمقاً لك، وهي صورة لله، بتعابيرَ دبّجها مجمَعٌ أساقفة ما، في القرن الخامس أو ما يقرب ذلك يرد السؤال: ما الجدوى من ذلك؟ لكن التأمّل في الصّلب يجدي؛ وفي رائحة البخور

يجدي؛ وكذلك الأمر مع الملابس الكهنوتية، وأنغام الترانيم الغريغورية حسنة الإنشاد، والألحان الافتتاحية المؤدّاة ترتيلاً ودندنةً، والابتهالات، وصلوات التكريس المسموعة وغير المسموعة. ما يحقق "الجدوى المرجوّة" من عجائب ضمن هذا النوع يتعلق بتفسيرات المجالس الكنسية، أو فيما إذا كان قد لامس المعنى الدقيق لكلمات مثل Oramus te, Domine, per merita Sanctorum tuorum؟ إذا كنا نعنى لأمر المعاني، فإنها مترجَمة في العمود الآخر من كرّاس الصلاة. لكن إنْ غاب سحْرُ الطقس.....!

فلأدلِ ببعض الاقتراحات. ولأقدم بدايةً بعض الأفكار من التراث الهندي؛ ثم فكرة من التراث الياباني؛ وختاماً، اقتراحاً لأمرٍ قد نحتاجه كغربيين وليس بوسع الشرق أن يقدمه لنا.

النصّ الأساسي في التقاليد الهندوسية هو بالتأكيد البهاغافادا غيتا؛ وهناك الشروحات لفلسفات اليوغا الأربع. تشيرُ كلمة يوغا ذاتها، التي تعود إلى الجذر السنسكريتي yuj، والتي تعني أن "تتّصل/ تتشدّ"، أن تربط شيئاً بآخر."-تشير إلى فعل الارتباط/ الاتصال بالذهن حتى أصل الذهن، بالوعي حتى أصل الوعي؛ وإلى المضمون الذي ربما يُفسّر تعريفه على أكمل وجه ضمن نظام سلوكي معروف بـ يوغا المعرفة، أو بعبارة أخرى، يوغا التمييز بين العارف والمعروف، بين الذات والموضوع في ممارسة معرفيّة، ووعي المرء لذاته، ثم للموضوع. "أعرف جسدي. جسدي الذات. أنا الشاهد، العارف للذات." ثم، "أعرف أفكاري؛ أنا لستُ أفكاري." وهكذا حتى: "أعرف أحاسيسي؛ أنا لستُ أحاسيسي." وبتلك الطريقة يمكنك أن تنأى بنفسك خارج المدى. بعد ذلك يسارع بوذا إلى الرد: "لستَ الشاهدَ أيضاً. ليس من شاهد." إذاً أين أنت الآن؟ أين موقعك ما بين فكرتين؟ تلك هي الطريقة المعروفة بـ *يوغا جْنانا* *jnana yoga*، طريقة المعرفة الصافية.

النظام الثاني هو ذلك المعروف بـ *يوغا راجا* *raja*، اليوغا الملكية،

الجليلة، أو السامية، وهي التي تتبادر إلى الذهن عندما تُذكر كلمة يوغا. وهذه يمكننا وصفها بأنها نوع من رياضة جمباز تتضمن وضعيات جسدية وذهنية دقيقة: الجلوس في "حالة اللوتس،" الشهيق العميق والزفير بمقادير معينة وبطرق معينة؛ شهيق من فتحة الأنف اليمنى، حبس النفَس، زفير من الفتحة اليسرى؛ شهيق من فتحة الأنف اليسرى، حبس النفَس، زفير من اليمنى. وهكذا دواليك: تأملات مختلفة تماماً. والنتيجةُ تحوّلاتٌ سيكولوجية فعلية. التأوُج (بلوغ الأوج) عبر تجربة منتشية من استنارة الوعي كليّة الصفاء، المنعتقة من القيود والمؤثرات الشرطية.

الطريقة الثالثة، بالمعروفة بـ *يوغا بهاكتي* *bhakti*، التعبدية، هي الأقرب من بين النُظُم إلى ما نسميه في التقليد الغربي بـ "العبادة،" أو "الدين." فهي تختصّ بمنح حياة الشخص منتهى التفاني في نكران الذات تجاه كائن أو شيء محبوب، الذي يصبح بذلك في واقع الأمر "إلهاً مختاراً لهذا الشخص." هناك قصة أسرة رواها القديس الهندي العظيم في القرن التاسع عشر راماكريشنا. فقد قصدتْه سيدة بسبب غمٍّ ألمّ بها إذ أدركت أنها لم تعد تحبّ الله وتعبده حقاً. سألها، "إذاً، أليس هناك من شيء تحبينه؟"؛ وحين أجابت أنها تحب ابنَ أخيها الصغيرَ، قال، "هذا هو، هذا هو كريشنا الخاص بك، محبوبك. وبتفانيك في سبيله، فإنك تخدمين الله." وحقاً أن كريشنا نفسه، كما بلغَنا من إحدى حكاياته، عندما كان يعيش في طفولته وسط قبيلة من رعاة الأبقار البسطاء، قد ارشد وأوصى هؤلاء الناس بالعبادة، لا أن يعبدوا رباً مجرداً في الأعلى، بل أبقارَهم. "إلى هنا حيث يجب أن تتوجه تقواكم، وحيث تكمن بركات الربّ، اعبدوا أبقاركم." فكللوا الأبقار، وقدموا لها التبجيل. الأمثولة واضحة، وليست محدودة كتعاليم اللاهوتي المسيحي بول تيليش الأخيرة، التي تصل حدّ أن "الربّ غايتكم العليا."

أخيراً، النظام الرابع، والنمط الأساسي لليوغا المشروح في الـ بهاغافاد غيتا هو المعروف بـ يوغا الممارسة action، يوغا الكارما. أُعِدتُ بالضبط

على منوال النموذج الشهير: ميدان المعركة في افتتاحية حكاية الحرب العظمى لأبناء الهند، أواخرَ العصر الفروسي الفيديّ- الآريّ، عندما أُبيد كاملُ إقطاع الأرض الأرستقراطي ذاتيّاً في حمّام تذابح دموي. ففي افتتاحية المشهد- النذير، ها هو الأمير الشاب أرجونا، على وشك أن يُقدم على أكبر فعلٍ في ميدانه، ويراود جرّارَ عربته، الإله الشاب كريشنا، صديقه الجليل، كي ينتشله من بين خطّيّ المعركة الحاشدَين، فأنّى تلفّتَ، يساراً أو يميناً، يتبيّن في كلا الجيشين العديدَ من الأقارب والأصدقاء، القادة النبلاء وأبطال الفضائل، فأخفضَ قوسَه، وقد غلبته الرأفة والغم العظيم، خاطب الله، سائقَه، "تخونني أطرافي، وفمي جافّ، وشَعري ينتصب حتى أقصاه. يجدر بي أن أموت هنا على أن أشرع في خوض هذه المعركة. لن أقتلَ أحداً كي أحكم العالم: ما هو أقلّ شيء تقدمه كي تحكم الأرض؟" والذي أجاب عليه الإله الشاب بالكلمات التالية: "أهذا الجبن الوضيع؟" وبذلك ابتدأ التقليد الروحي العظيم:

> *إلى مَن وُلد، الموت أكيد؛ إلى مَن مات، الولادة أكيدة:*
> *لا تقنطن من المحتوم. وكامرئٍ نبيل مهمّته صون العدالة،*
> *ويأبى خوضَ هذه الحرب العادلة، فإنك ستخسر كلا*
> *الفضيلة والشرف. إن غايتك الحقّة ممارسةُ واجبك،*
> *وليست ثمرات الممارسة. فأزِلْ عنك إذاً كلّ رغبةٍ وخوف*
> *على الثمار، وأدِّ واجبك.*

بُعيدَ ذلك الحديث البليغ، أشاحَ الربُّ الغمامةَ عن عينيّ أرجونا، ورأى الشابُ مذهولاً صديقَه في أقصى تجلّيه- مع سطوع ألف شمس، وكثير العيون والوجوه الوضّاءة، كثير الأيدي ترفع السلاح، كثير الرؤوس، وكثير الأفواه بأنياب تلتمع. فتأمّل! كان هذان الحشدان المهولان من كلا الفريقين يتدفقان، طائرَين باتجاه تلك الأنياب المريعة، المهلكة؛ وحلَّ الوحش بكلّ أشداقه. "يا إلهي! مَن أنت؟" صرخ أرجونا، وقد انتصبت

كلُّ شعرة في بدنه. ثم طرق أذنيه الجوابُ ممن كان صديقه، ربّ العالم: "أنا *الزمان الأسود*، إني هنا لإهلاك هذي الحشود. ولو دون عونك، فإن أولئك الموشكين على الموت سوف لن يعيشوا. فادلُ بدلوك الآن إذاً! ولتبْدُ كمن يقتل أولئك الذين سبقَ لي أن أرديتُهم. أدِّ واجبك ولا تكدرنّك مسحةٌ من رهبة."

"أدِّ واجبك،" تعني في الهند، "بدون تردد قم بواجبك الذي حددته لك طبقتك." كان أرجونا من النبلاء: كان واجبه أن يقاتل. أما نحن في الغرب فلم نعد نفكر بهذه الطريقة؛ ولذلك فإن المفهوم الشرقي للمعلّم/ المرشد الروحي المنزّه عن الخطأ، الغورو، لم يعد ذا قيمة يُعتد بها هنا. لا عمل له، ولا يمكن أن يكون ذا جدوى. لأن فهمنا هو عن الفرد الراشد وليس عن الشخص الذي يتقبل ببساطة دون مراجعة أو نقد الضوابط والقيَم الراهنة لفئته الاجتماعية، بينما يتقبل الولد وينبغي أن يتقبل أوامر الأهل. ومثلنا الأعلى، بدلاً من ذلك، الشخص الذي، من خلال تجربته الخاصة ومحاكمته المتأنية (وأقصد المحاكمة الناتجة عن الخبرة، وليست التقليد الببغائي لصفٍّ من الطلاب المبتدئين في علم الاجتماع يسرد فيه بروفيسور عجوز ما برنامجه عن الكون)- تكوّنتْ لديه محاكمة خلال حياته الخاصة، وحصّلتْ نوعاً من وجهات النظر المعلَّلة والمنطقية وسوف يقوم بدوره الآن لا كخادم مطيع لسلطة منيعة بل من خلال قرارات يتحمل مسؤوليتها. وبالتالي فإن الواجب هنا لا يعني أبداً ما يعنيه على امتداد الشرق. لا يعني التسليم كما يفعل طفل تلقى تعليمه بطريقة متسلّطة. ذلك يعني التفكير والتقييم، وتنمية الأنا: أي ملَكة الملاحظة المستقلة والنقد العقلاني، المؤهل لتفسير بيئته بالإضافة إلى تقدير قدراتها فيما يتعلق بالظرف؛ وبرسم مسارات المبادرة، وحينها، لن يكون ذلك متعلّقاً بمثُل الماضي العليا، بل باحتمالات الحاضر. غير أن ذلك بالضبط هو الأمر المحظور في الشرق.

لقد بدأ العديد من أصدقائي الأساتذة الجامعيين يلمحون إلى أن

طلبتنا في هذه الأيام لا يبحثون عن مدرّسين بل عن معلّمين روحيين gurus. في الشرق يسلّم الغورو بالمسؤولية فيما يخص الحياة الأخلاقية لطلابه، وغاية الطالب، مقابل ذلك، يجب أن تتماهى مع الغورو وتصبح، ما أمكن، متماهيةً معه تماماً. ولكن بحسب ما أستطيع تبيّنه. وهذا ما أقوله لأقراني الأكاديميين. فإن طلبتنا هؤلاء يفتقرون إلى الفضيلة الأولى لطالب مثله، الفضيلة الشرقية، وهي بالضبط الإيمان *shraddha*. "الإيمان المكتمل" لدى الغورو مطلق الوقار. من جهة أخرى، فإن النقد والمحاكمة المسؤولة هما ما كنا نأمل تقليدياً في تطويرهما لدى الطلبة، وقد نجحنا في معظم الأحيان. أو ربما، بالحصيلة الحالية، نجحنا إلى حدّ ما لدرجة أنهم، وبالكاد تخلصوا من الحفاضات، باتوا جاهزين لتعليم المعلّم، وهو أمر يفوق الجيد بكثير. لن أحاول الإشارة إلى أن ما قد يتعلّمونه من الشرق، الذي يسعى الكثيرون للاقتداء به، لا يتجاوز الخطوة الأولى من طريقة صوفية باطنية تتوجه إلى ذواتهم؛ وفيما لو تتبعناها دون فقد التّماس مع أحوال الحياة المعاصرة، فقد توصل في حالات غير قليلة إلى عمق وثراء جديدين في الفكر الخلاق وتحقيق إنجاز في الحياة والآداب والفنون.

بذلك، أصل حكايتي الشخصية الثالثة، والتي ستكون مرة أخرى عن المجابهة في الدين بين الشرق والغرب؛ لكن الآن مع تلميح إلى الطريقة التي يحوّل الشرق بها السحرَ أو الدين إلى فنون. هذه الحكاية عن حدث وقع في صيف 1958، عندما كنت في اليابان لحضور المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ الأديان. أحد فلاسفة علم الاجتماع النيويوركيين الرئيسيين، الذي كان مفوضاً بارزاً إلى ذلك التجمّع الاستثنائي المفعم بالحياة. رجلٌ علاّمة، ودود، وساحر، مع أنه اكتسب، وربما لم يكتسب، خبرة سابقة سواء عن الشرق أو الدين (في الواقع عجبتُ لمعجزة وجوده هناك). قد رافق البقية منا في زياراتنا لعدد من أضرحة الشنتو والمعابد البوذية الجميلة، وفي نهاية الأمر أصبح مستعداً لطرح جملة أسئلة لافتة.

كان هناك بعض أعضاء المؤتمر اليابانيين، وبينهم عدد غير قليل من كهنة الشنتو، وفي المناسبة التي أقيمت فيها حفلة كبيرة في الهواء الطلق على أطراف حديقة يابانية باذخة، بادر صديقنا بالحديث، "أتعرفون، لقد حضرتُ حتى الآن العديد من الاحتفاليات وشاهدتُ عدداً كبيراً من الأضرحة، لكنني لا أعرف المذهب؛ لا أعرف لاهوتكم."

لعلكم تعلمون أن اليابانيين لا يحبون أن يحبطوا الزوار، وهذا السيد اللطيف احترمَ، كما يبدو، سؤال الباحث الأجنبي العويص، صمت وكأنه في تفكير عميق، ومن ثم عض على شفتيه، هز رأسه ببطء. وقال: "أظن أن لا مذهب لدينا." "لا لاهوت لدينا. إننا نرقص."

كان ذلك بالنسبة إليّ درسَ المؤتمر. وما قيل مفاده أنه في اليابان، في ديانة الشنتو المحلية التي تختص بالأرض، حيث الشعائر مهيبة وموسوقة وجديرة بالاحترام إلى أقصى الحدود، لم تبدر أية محاولات لتقليص "صورتهم الوجدانية" إلى كلمات. لقد تُركوا ليتحدثوا مع أنفسهم. كممارسة للشعائر، كأعمال فنية. من خلال العيون إلى القلوب المصغية. وأودّ القول إن في ذلك، ضمن طقوسنا الدينية، هو خير ما يفعله المرء أيضاً. اسأل فناناً ماذا "تعني" لوحته، ولن يقيض لك أن تسأل سؤالاً كهذا مرة أخرى في أمد قريب. فاللوحات الهامة تُقدّم رؤىً تتجاوز الكلام، تتجاوز الأنواع التي يحددها كلام المعاني. وإذا لم يتحدثوا إليك، فذلك لأنك لستَ مؤهلاً بالنسبة إليهم، وستفيد الكلمات بأن تجعلك تظن أنك فهمتَ، والنتيجة بالتالي هي عزلك بشكل كليّ. أنتم لا تسألون ماذا تعني رقصة ما، إنما تستمتعون بها. ولا تسألون ماذا يعني العالم، إنما تستمتعون به. ولا تسألون ماذا أنتَ تعني، إنما تستمتع بنفسك؛ أو على الأقل، تستمتع عندما تقوم بفعل التنفّس.

لكن لكي تستمتع فإن العالم يتطلب شيئاً يتجاوز مجرد الصحة الجيدة والمعنويات الجيدة؛ لأن هذا العالم مريعٌ كما نعلم الآن جميعاً.

يقول بوذا، "الحياة بأكملها محزنة"؛ وهي، في واقع الأمر، كذلك. الحياة تستنفد الحياة: ذلك جوهر وجودها، وهو أبداً صيرورة. وقال بوذا، "العالم نارٌ مستعرة أبداً." وهي كذلك. وهذا ما ينبغي على المرء أن يتثبت منه، بـ نعم!، برقصة! برقصة مميزة احتفالية جليلة من رقصات نعيم صوفي يتجاوز الألم الذي هو لبّ كلّ طقس أسطوري.

وختاماً، دعوني أسرد الآن حكاية هندوسية باللغة الإدهاش بمعنى الكلمة وبما يخدم هذا الموضوع، وهي من الأساطير ذات الثراء اللا نهائي للإله شيفا وإلهة عالمه الجليلة بارفاتي. كانت حادثة في زمن قبل هذه الألوهة العظيمة جاء فيه شيطان طائش أطاح للتوّ بالآلهة التي حكمت العالم وها هو يوشك على مجابهة الأكبر بينها بمطلب غير قابل للردّ، أعني أن على الإله تسليم ربّته للشيطان. حسناً، ما فعله شيفا على سبيل الردّ أنه فتح عينه الصوفية الثالثة في منتصف جبهته، و، بفف! صاعقة ضربت الأرض، ثم على حين غرة ظهر شيطان آخر، أكبر من الشيطان الأول. كان شيئاً معروقاً كبيراً برأس شبيه برأس الأسد، يتموج شعره على أقطار الدنيا، وكان من طبيعته أن يبقى جائعاً. فقد خُلق لكي يأكل الأولَ، ومن الجليّ أنه كان مهيّأً لفعل ذلك. فكّر الأول: "فماذا أفعل الآن إذاً؟" وبقرار صائب للغاية أسلم نفسه إلى رحمة شيفا.

إنها قاعدة لاهوتية دائمة الصيت عندما تُسلم نفسك إلى رحمة إله لن يرفض حمايتك؛ وهكذا تحتّم على شيفا أن يرعى ويحمي الشيطان الأول من الثاني. مما ترك الثاني، على أية حال، من دون لحم يهدئ من جوعه فسأل شيفا متألماً، "فمن آكلُ إذاً؟" السؤال الذي أجاب عليه شيفا، "حسناً، دعنا نفكّر: لماذا لا تأكل نفسك؟"

وبذلك، لم يكد ينهي القول حتى شرع يأكل نفسه بادئاً بقدميه، الأسنان تنهش اللحم، وتابعت تلك الظاهرة المثيرة للاشمئزاز طريقها صعوداً، من بطنه، ثم صدره وعنقه، حتى لم يبقَ إلا الوجه. وكان الإله

مأخوذاً بذلك. أخيراً اكتملت صورة شاملة لذلك الشيء المريع الذي يسمى الحياة، وهي تقتات من نفسها. وإلى ذلك القناع الشمسي، الذي كان كل ما تبقى من نظرة الجوع، توجّه شيفا قائلاً بابتهاج، "يجب أن أسميك 'وجه المجد'، Kirttimukha، ويجب أن تشعّ فوق كل أبواب معابدي. ولن يتوصل إلى معرفتي أبداً مَن يرفض تبجيلك وعبادتك."[52]

يتجلى الدرس من كل ذلك أن الخطوة الأولى في معرفة أن الرمز الألوهي الأسمى لمعجزة وسرّ الحياة في الطبيعة المريعة للحياة ومجدها يكمن في تلك الشخصية: إدراك أن الحال هو ما هو عليه، ولن يكتب له التغيّر. وأولئك، واسمهم الحشد، الذين يحسبون أنهم يعرفون كيف يمكن أن يكون الكون أفضل مما هو عليه، كيف سيكون وهُمْ قد خلقوه، دون ألم، دون حزن، دون وقت، دون حياة، هم غير مؤهلين للتنوير. أو أولئك الذين يفكرون. كما يفعل كثيرون. بطريقة "دعوني أصلح المجتمع أولاً، ثم ألتفت إلى نفسي" هم مقصيّون حتى عن البوابة الخارجية للسلام الإلهي. كلّ المجتمعات شريرة، وكئيبة، وجائرة؛ وهكذا ستبقى أبداً. لهذا إذا أردتَ حقاً تقديم العون إلى هذا العالم، فإن ما ينبغي عليك أن تعلّمَه للآخرين هو كيفية العيش فيه. وذلك ما لا يتسنى لأحد القيام به ما لم يتعلّم هو نفسه كيف يعيش فيه الكآبةَ السارّة والسرورَ الكئيب للمعرفة الحياتية كما هي عليه. ذلك هو معنى الـ كيرتيموخا المريعة، "وجه المجد،" على مداخل مزارات إله اليوغا، الذي له عروس تسمى ربة الحياة. لا أحد يستطيع معرفة هذا الإله والإلهة اللذين لن ينحنيا خاشعَين لذلك القناع ثم يعبران بكل تواضع.

52 *Skanda Purana*, Vol. II, *Vishnukanda, Karttikimasa Mahatmya*, Ch. 17; cf. Heinrich Zimmer, *Myths and Symbols in Indian Art and Civilization*, Joseph Campbell, ed, Bollingen Series VI (New York: Pantheon Books, 1946), pp. 175 ff.

6
إلهام الفن الشرقي
(1968)

يمكن أن نميز في مناهج علم الجمال المدرسية الهندية أربعة نماذج من الموضوعات تُعرَف بأنها صالحة للمعالجة الفنية. الموضوع الأول هو الفضائل المجردة، مثل الأصالة، الحقيقة، الجمال، وما يشبهها؛ الثاني، نماذج النشاط والطبع (ذبح الأعداء أو الوحوش، الظفر بالحبيب، طبائع السوداوية والهناء وما إلى ذلك)؛ الثالث، السمات الإنسانية (البراهمة، المتسولون، الأمراء الورعون أو الأشرار، التجار، الخدم، العشاق، المنبوذون، المجرمون، إلخ.)؛ وأخيراً، الآلهة. وجميعها مجردة كما نلاحظ. إذ لا يوجد في الشرق اهتمام بفرد على هذه الشاكلة، أو بالحقائق والوقائع الفريدة غير المسبوقة. وبذلك فإن ما يقدمه المشهدُ المتألق للفن الشرقي بشكل رئيسي هو التكرار، مرةً تلو أخرى، لثيمات وأفكار محددة مجربة وراسخة. ولدى مقارنتها بمنجزات عصر النهضة وما بعد عصر النهضة الأوروبية، فإن ما قد يصدمنا أكثر من سواه في التقاليد الشرقية هو غياب أي فن تصويري يُعتدّ به. ولدى مراجعة أعمال رامبرانت وتيتيان: نلحظ أن الاهتمام منصبٌ فيها على ما نسميه خاصيّة، وشخصية، وتميّز الوجود الفرديّ، مادياً وروحياً في نفس الآن. وهذا الانشغال بما لا يدوم ويصمد يتناقض كلياً مع روح الفن الشرقي

النابضة بالحياة. إننا نولي التقدير للفرد كظاهرة فريدة، ليس بما هو رهين خاصيّاته، بل بكونه مفطوراً ومنذوراً للإنجاز بوصفه هبَةً للعالم لم يسبق لها مثيل على الأرض من قبل، ولن يقيض لها الظهور مرة أخرى، ومناقضة، قطعاً، ليس لروح الفن الشرقي فحسب بل أيضاً للحياة الشرقية. وتمشياً مع منعطف العقل هذا، لا يُنتَظَر من الفرد أن يبتكر ويخترع، بل أن يتمّم نفسه في المعرفة واتباع الأصول.

وفقَ ذلك، لا يتعين على الفنان الشرقي أن يتوجه إلى الثيمات المعيارية فحسب، بل فوق ذلك الا يولي الاهتمام لأمور نفهمها من خلال التعبير عن النفس، كالقصص التي تحفل بها السيَرُ الذاتية للمعلّمين الغربيين، حول آلام عزلة الفنان في بحثه الدؤوب عن لغته الخاصة بقصد نقل رسالته الشخصية، والتي علينا البحث عنها طويلاً دون طائل في سجلات الفن الشرقي. إن التفكيرَ المنصبّ على الأنا دخيلٌ كلياً على الحياة والفكر والتديُن الشرقي. هذه العناصر الثلاثة التي تعني، على العكس، وبالضبط، بإخماد الأنا ego وبأدنى نزوع إلى هذا الشيء الزائل الذي لا يتعدى "أنا / I" في حلم عابر.

وعلى الجانب السلبي، أدّت ثقافة إغفال الهوية هذه إلى إنتاج مشهد لا نهاية له من القوالب النمطية الأكاديمية. وهي، بكل حال، ليست إلى جانب موضوعنا الذي أحب الخوض فيه. وتنحو فكرتي إلى مقاربة المراتب والروائع الفنية المكتملة التي تقدّم للأعين الفانية معرفةً ذات حضور أبديّ في كل شيء. فوقع الأغنية على مسامع تفكير المرء حين قراءة الـ 'بها غافاد غيتا'، عن تلك الروح السرمدية التي لم تولد أبداً، ولن تموت أبداً، بل تحيا في كل الأشياء التي وُلدت كي تموت بينما يضفي عليها التجلي الفعليّ لوجودها الظاهريّ وإشراقته البهاء. هذه الأغنية هي الأغنية الكونية التي لا ينشدها الفن الهندي وحسب بل أيضاً الحياة بأكملها في الشرق الأقصى؛ وعلى إيقاعها سوف أضبطُ أغنيتي الحالية.

بداية، (نستهلّ بالهند ثم ننتقل إلى الشرق الأقصى)، إن الفن الهندي

هو يوغا يسمى معلّمُها *yogi* اليوغانيّ. وبعد أن يكون قد أنجز على مدى سنوات عديدة واجبات التدريب الدؤوب، ونال أخيراً الاعتراف بجدارته كمعلّم، يوكَل إليه، مثلاً، إنشاء معبد، أو تصميم لوحة مقدسة، وسيستغرق المعلّم في التأمل، ليضع نصْبَ عينه الداخلية صورة المبنى الرمزي الذي يزمع رسمَ مخططه، أو الإله الذي سيُنذَر له. هناك في الواقع، نقوشُ لمدينة بأكملها صُوِّرتْ على هذه الشاكلة: على هيئة مليك قدّيس حلمَ بأنه شاهدَ، كما لو كان وحياً، تكوينَ كامل المعبد أو المدينة التي يُراد بناؤها. وأتساءل إذا لم يكن ذلك هو السبب في أن المرء يشعر وسطَ مدنٍ شرقية محددة، حتى في هذه الأيام، بأنه يتحرك في حلم: فالمدينة شبيهة الحلم لأن الحلم ألمحَ إليها منذ نشوئها بالفعل، هذا الحلم الذي أُحيلَ إلى حجر.

سيكون الحرفيّ الفنان الذي يوشك على تشكيل صورة الإله. ولنقُلْ، صورة فيشنو. قد درس كل النصوص ذات الصلة، ليرسخ في الذهن ما يتفق مع تشريعات العقيدة من الإشارات والوضعيات والنّسَب لمظهر الإله الذي سيُنذَر العمل له. ثم سيستقر ويستكين، مردداً في سره مقطعاً صوتياً من اسم المعبود، وإذا كان محظوظاً فسيتجلى في خياله، في الوقت المناسب، الشكلُ المكتمل الذي يريد تقديمه، وبالتالي سيشكل النموذجَ لعمله الفنيّ. وهكذا كانت الأعمال العظيمة التي رافقت أعظم عهود الهند إلهاماً في واقع الأمر؛ ولتقدير قيمتها بصورة صحيحة بما هي إلهام غير مستمد مما يُفترَض أنها كائنات خارقة، بل من طاقة الطبيعة الكامنة في نفوسنا والتي تتطلب أن نسلّم بها كي يُصار إلى تحقيقها في حياتنا. فسنحتاج فقط إلى الانكباب على ذلك الكتاب التعليمي النفسي الخارق، *وأوصاف المراكز الجسدية الستة للطاقة المتشعبة لدى الأفعى (الشاكرات الستّ[5] Shatchakra- nirupanam)*، والمتوفرة منذ ستين

(5) الشاكرات الست: شاكرا الجذر (Root Chakra)، شاكرا العجز (Sacral Chakra)، شاكرا الضفيرة الشمسية (Solar Plexus Chakra)، شاكرا القلب (Heart Chakra)، شاكرا الحنجرة (Throat Chakra)، شاكرا الحاجب أو العين الثالثة (Third Eye Chakra). وهناك الشاكرا الإضافية السابعة: شاكرا التاج (Crown Chakra). (م).

عاماً الآن بالترجمة المتميزة للسير جون وودروف، منشورات دار جانيش وشركاه، مدراس، الهند[54].

تتمثل الأطروحة الرئيسية لما يسمى نظام Kundalini yoga المشروح بين طيات هذا العمل التأسيسي في أن هناك ستة مراكز نفسية+ واحد، (سبعة!)، موزعة في الجسد، من قاعدته وحتى أعلى الرأس، والتي يمكن، من خلال اليوغا، تنشيطها بنجاح وبالتالي إطلاق الإدراكات المتصاعدة؟ للوعي والغبطة الروحيين. وتُعرَف هذه بـ "اللوتسات" أو الـ padmas، أو الشاكرات، "العجَلات" ويُنظَرُ إليها عادةً على أنها كامنة في حالة ارتخاء. لكنها، حين تُلمس وتُنشَّط من قِبَل طاقة روحية متعالية تسمى الـ كونداليني Kundalini، ويمكن دفعها إلى الصعود عبر مسرَب باطني إلى أن تبلغ منتصف العمود الفقري، حيث تدبّ الحياة في هذه الشاكرات وتتألق. يعني اسم طاقة الـ كونداليني هذه، "الملتفة the coiled one"، وهو اسم سنسكريتي مؤنث، يشير في هذا المقام إلى الأفعى الملتفّة، والتي يُعتقَد أنها هاجعة في الدرك الأسفل من مراكز الجسد السبعة، ترمز الأفعى في أساطير الشرق عموماً إلى الطاقة الحيوية التي تتحرر من الموت، كما تسلخ الأفاعي عنها جلدَها، أي، (إذا جاز القول)، تُولَد من جديد. ويُنظَر إلى هذه الطاقة في الهند على أنها مؤنثة... أي القوّة المؤنثة، الداعمة، ومُنشئة الهيئة، ومانحة الحياة التي وُهِبَ العالمُ وكائناته الحيويةَ من خلالها. وهي، بنومها ملتفّةً في أسفلَ مراكز الجسد السبعة، تترك الستة الأخرى مثبطةً. فيكون غرض هذه اليوغا إذن هو إيقاظ الأفعى، بدفعها لرفع رأسها، واستثارتها باتجاه المسرب الجواني الباطن للعمود الفقري الذي يُعرف باسم الـ سوشومنا Sushumna، "جزلة الغبطة،" التي تبصر في كل أطوار ارتقائها الأخاذ زهرةَ اللوتس المتوضعة هناك. سيكون اليوغانيّ، في قعوده متصلب الساقين، مستقيماً، محتفظاً

54. Arthur Avalon (Sir John Woodroffe), *The Serpent Power* (Madras: Ganesh and Co, 1913, 1924, 1931, etc.), pp. 317-478.

في ذهنه بأفكار محددة ومتمتماً بمعانٍ صوفية. ينشغل أولاً بتنظيم إيقاع أنفاسه، يأخذ نفساً عميقاً، يحبس النفَس، ثم يُفلتُه كي يركّز على العدّ: شهيق من فتحة الأنف اليمنى، زفير من اليسرى، إلخ.. وبذلك تجتاح "الأنفاس" كاملَ الجسد بـ "روح spiritus" متفائلة هي تنفّس الحياة، إلى أن تتحرك الأفعى في تلك اللحظة ويبدأ سير العملية.

يُقال إنه عندما تستقر الأفعى الملتفّة، هاجعةً، في مركز زهرة اللوتس الأول، فإن شخصية المرء تتصف بالفتور الروحي، ويكون عالَمُه عالمَ وعي تفتقر صحوتُه إلى البهجة؛ ومع ذلك فإنه متشبث بشراهة بهذا الوجود فاقد الروح، غير راغب في التخلي عنه، لكنه عالقٌ فيه لا أكثر. أفكر دائماً في علاقة ما رُوِيَ عن عادات التناسُل: كيف تخزّن وتحرس الأشياء في مغاورها. إن ما تخزنه وتحرسه بهذه الطريقة هنّ الفتيات الجميلات وكنوز الذهب. وليس لها من استعمال مناسب لأيٍّ منهما، ومع ذلك، بالتأكيد، فإنهما يُستبقيان هناك أبداً. ويسمّى أناس كهؤلاء في الحياة "مثيريّ العثيان،" ويعلم الله أنهم كثيرون بما فيه الكفاية. تسمى هذه اللوتس الأولى بالـ Muladhara، أي "قاعدة الجذر." عنصرها هو الأرض، ولها أربع بتلات قرمزية، ويقع مركزها ما بين الأعضاء التناسلية والشرج.

بعد ذلك، المركز الثاني، وهو عند مستوى الأعضاء التناسلية، وتبعاً لذلك، فإن أيّ فرد ارتفعت طاقاتُه إلى هذه المرحلة يتمتع بسيكولوجية فرويدية بامتياز. كلّ شيء بالنسبة إليه يعني الجنس بشكل أو بآخر، كما كان يعني بالنسبة إلى فرويد نفسه، الذي كان موقناً أن ليس من أمر آخر يعيش لأجله البشر؛ بل إن لدينا الآن مدرسة عظيمة لمفكّرين يدعون أنفسهم فلاسفةً، ممن يؤولون مسار التاريخ والفكر والفن الإنساني بحسب الجنس. المكبوت، أو المحبَط، أو المتسامي، أو الناجز. وتُدعى هذه المحطة بالـ Svadhishthana، أي، "مأواها المفضّل." إنها لوتس البتلات الستّ الزّنجفْرية[55]، وعنصرها هو الماء.

55 Vermilion

اللوتس الثالثة تقع عند مستوى السّرّة. تسمى بالـ Manipura، أي "مدينة الجوهرة المتألّقة." وهي لوتس بعشر بتلات بلون سُحُب العاصفة شديدة الكثافة؛ عنصرها النار؛ والغاية المهيمنة لأيّ امرئ قد باتت الطاقةُ المتفتّحة لأفعاهُ راسخةً عند هذا المستوى، وتتجلى في أن المرء يستهلك ويُكره ويحوّل الكلّ إلى مادّته الخاصة به، أو يرغم الكلّ على التكيّف مع طريقة تفكيره. تنتمي سيكولوجيته، وقد حكمها نزوعٌ نهمٌ للسلطة، إلى النمط الإدلريّ. وهكذا يمكن القول إن فرويد وإدلر وأتباعهما قد أوّلوا ظاهراتيةَ phenomenology الروح بما يتفق حصراً مع الشاكرا الثانية والثالثة. ما يكفي لتفسير عجزهم عن إضفاء الاهتمام إلى أمر ما سواءَ من رموز البشر الميثولوجية أو من غايات الطموح الإنسانيّ.

ولأنه عند مستوى الشاكرا *الرابعة* على وجه الخصوص تصبح أهداف ودوافع البشر، تمييزاً لهم عن الحيوانات المتسامية، مرئية ومتيقظة؛ ووفق وجهة النظر الهندية، تُعزى الرموز الدينية والمجازات الفنية ومسائل الفلسفة، بجدارة، إلى هذا المستوى وما يليه (ليس ثمة ما يمتّ بصلة إلى أغراض الشاكرا الأولى والثانية والثالثة). يقع لوتس هذا المركز في مركز القلب؛ عنصره الهواء؛ وفيه اثنتا عشرة بتلةً بدرجة اللون البرتقالي الضارب إلى الأحمر (لون زهرة الباندهوكا، من فصيلة Pentapoetes Phoenicea)، ويحمل اسماً طريفاً هو Anahata، "لا يُقرَع"، الذي يعني بعد تفسيره بالكامل، "الصوت الذي لن يصدر جراء احتكاك أيّ شيئين ببعضهما." فكل الأصوات التي نسمعها في عالم الزمان والمكان هذا إنما صدرت عن شيئين يصطدمان في الآن ذاته: وقْع صوتي أنا، مثلاً، بسبب أن نفَسي يحتكّ بحبالي الصوتية. وكذلك الأمر، كلّ صوت مسموع آخر يعود لأشياء يمسّ بعضُها الآخرَ، سواء كانت مرئية أم لم تكن. وهكذا، ما هو إذاً الصوت الذي لم يُحدَث بتلك الطريقة؟

الجواب الحصري، إن الصوت الذي لا يصدر عن اصطدام أيّ شيئين إنما ينجم عن الطاقة الأولية التي يُعَدّ الكون نفسه من تجلياتها. وبذلك

فهو سابق للأشياء. وقد يخيّل للمرء أنه مشابه لصوت أزيز محطة توليد كهربائية؛ أو كطنين بروتونات ونيوترونات الذرة غير المسموع في الظروف الاعتيادية: أعني، الصوت الداخليّ لتلك الطاقة الأولية، أو الاهتزاز، الذي نُعتبَر نحن وكلّ ما نعرفه ونراه من تمظهراته. ويقولون عنه حين يُسمع، إن أقرب ما يشبه وقْعَه حرفا كلمة OM.

يقال إن هذا اللفظ الهندي المقدس الذي يلازم الصلاة والتأمل قد صيغ من أربعة عناصر رمزية. الأول، بما أن الـ O في السنسكريتية يُعتبَر مزجاً لصوتين، صوت الـ A وصوت الـ U، يمكن كتابة وسماع اللفظ المقدس كـ AUM، وعند معاينتها بصرياً، ستكون ثلاثةً من عناصرها بادية للعيان. الرابع، إذاً، هو الصمت الذي يحيق باللفظ المنظور للغاية، والذي يتبدى من تضاعيفه، عَوداً إلى الذي يسّاقط، والذي يشيله كأرضية لحضوره.

والآن عندما تتم تهجئته، تُسمَع A في كلمة الـ AUM آتيةً من آخر الفم. تتقدم إلى الأمام بالـ U، وتملأ كتلة الهواء الرنانة كاملَ جوف الفم؛ ومع الـ M تنغلق الشفتان. يقولون إنه عندما يُنطَق المقطع اللفظيّ هكذا، فإنه سيحتوي أصوات كافة الأحرف الصوتية vowels في الكلام. وحيث أن الأحرف الساكنة consonants ليست إلا مقاطعة لهذه الأصوات، فإن المقطع الصوتي يتضمن في ذاته، عندما يُنطَق على نحو صحيح، بذرةَ أصوات كلّ الكلمات وبالتالي أسماء كل الأشياء والعلاقات.

هناك الـ أبانيشاد، والماندوكا المثيرتان والمهمتان للغاية، وفيهما فُسّرتْ العناصر الأربعة الرمزية للمقطع اللفظي- الـ A، الـ U، والـ M بالإضافة إلى الصمت- على نحو مجازي يُحيلُ إلى مستويات، أو درجات، أو أنساق الوعي الأربعة. فيُقال إن الـ A، الذي يدوي من آخر الفم، إنما يمثل الوعي المتيقّظ. وهنا تُعامَل ذوات وموضوعات معرفته على أنها منفصلة بعضها عن الآخر. فالأجسام من مادة جسيمة، ليست مضيئة في ذاتها

وتُبدّل هيئاتها ببطء. يسوّد المنطق الأرسطي القائل: الـ *a* ليست الـ لا *a*[56] [*مبدأ عدم التناقض*]. وطبيعة الفكر عند هذا المستوى هي طبيعة العلم الميكانيكي، والمنطق الوضعيّ، وغايات الحياة فيه هي كما سلف تصوّره في الشاكرات الأولى والثانية والثالثة.

التالي، مع الـ U، حيث كتلة الصوت، تتحرك نحو الأمام، تملأ الرأس بأكمله إذا صحّ التعبير، تقرن الأبانيشاد الحلم بالوعي؛ فهنا ثمة الذات والموضوع، الحالم وحلمه، وعلى الرغم من أنهما يبدوان منفصلَين، إلا أنهما واحدٌ في واقع الأمر، لأن الصور تابعة من إرادة الحالم الخاصة. أضف أنهما من جوهر سام، مضيء بذاته، ومن تكوين سريع التغيّر. إنهما من طبيعة الآلهة: وبالفعل، كل الآلهة والشياطين، الجنة والجحيم، هي في الحقيقة النظائر الكونية للحلم. وأيضاً، بما أن الرائيّ والمرئي على هذا المستوى السامي هما واحد، فإن الأمر ينطبق على كل الأرباب والشياطين. الجنة والجحيم في دواخلنا؛ إنهما ذواتنا. انظر في داخلك إذاً، إن كنتَ تبحث عن نموذجك لصورة الإله. وبذلك، تصبح تجارب هذا المستوى من الوعي مرئيةً في الفن الشرقي.

العنصر الثالث، M، من المقطع اللفظي، وفيه ينقطع ترنيم هذا الصوت القدسي فُدُماً، عند الشفتين المطبقتين، وتندمج الأبانيشاد بنوم عميق يخلو من الحلم. وفي هذا المقام ليس هناك من موضوع مرئي أو ذات رائية، وإنما هناك اللاوعي. أو بالأحرى، الوعي الكامن، الممكن، اللامتمايز، المغلّف بالظلمة. تُعرف هذه الحالة ميثولوجياً بأنها حالة الكون بين الدورات، عندما يكون الكلّ قد نكصَ إلى الليل الكوني، رحم الأم الكونية: "الهيولى[57]" بلغة الإغريق، أو سفْر التكوين، في البدء "كَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ[58]" ليس ثمة وعي لأيّ

56 *a* is not *not-a*

57 الهيولى. (م): Chaos

58 سفْر التكوين 1:2 (م)

من الموضوعات objects إنْ في الصحو أو أثناء الحلم، بل محض وعي consciousness غير مبنيّ أو مصرَّف uninflected. في حالته البدئية غير المنضبطة- متبدد كيفما اتّفق في الظلماء.

بذلك وحسبُ يتسنى لغاية اليوغا النهائية دخول هذا القطاع متيقّظةً: أي أن "تربط" أو أن "تُقْرن yoke" (جذر الفعل السنسكريتي *yuj*، ومنه الاسم يوغا) الوعيَ المتيقظ للمرء إلى منبعه في الوعي بحدّ ذاته، دون أن تركز على أيّ موضوع object أو تنطوي على أي ذات sub-ject للعالم المتيقظ أو للهجوع، باستثناء الكلّيّ، اللامعيَّن، واللامحدود. ونظراً لأن كلّ الكلمات تشير إلى أفكار أو آراء متّصلة بالموضوع أو بالذات، فإننا نَعْدَمُ أيما كلمة أو كلمات تُحيط بتجربة هذه الحالة الرابعة. حتى كلمات مثل "الصمت" أو "العماء[59]" لا يمكن أن تُفهَم إلا بإحالتها إلى صوت أو أشياء- باعتبار أن ليس هناك من صوت، وأن ليس هناك من أشياء. ومع مقاربتنا *الصمتَ* الأول السابق للصوت، الذي ينطوي على احتمال الصوت، و*العماءَ* السابق للأشياء، الذي ينطوي على احتمال مُطْلَق الزَّمَكان[60] ومجرّاته: نجدُ أن ما من كلمة تقول ما يشي الصمتُ بأنه شموليّ وفي دواخلنا. هذا الصمت الذي ليس بصمت بل يُسمَع مجلجلاً من خلال كل الأشياء، سواء في اليقظة، أو الحلم، أو الليل الخلو من الحلم. كأنما يكتنفُ ويسند ويخضّب المقطع اللفظيّ AUM.

اصغ إلى صوت المدينة. اصغ إلى صوت الجيران، الأوز البريّ يصيح في السماء. اصغ إلى مُطْلَق أي صوت أو صمت دون تفسيره، وستُسمَع الـ أناهاتا من العماء الذي هو أرضية الكينونة، والعالم الذي هو جسدُ الكينونة، *الصمتُ واللفظ*. وأيضاً، لحظةً يصبح هذا الصوت "مسموعاً،" إذا جاز القول، بما هو صوت وكينونة قلب شخص ما وقلب الحياة كلّها، يسكن المرء فيداخله السلام؛ ليس ثمة داعٍ للبحث أكثر من ذلك،

59 Void، أو الفراغ. (م)

60 Space-time، الزمكان، كما في النسبية. (م)

فهو هنا، وهو هناك، وفي كل مكان. والمهمة الأعلى للفن الشرقي في البوح بأن الأمر هو حقاً على هذه الحال؛ أو، كما قال شاعرنا الغربي غيرهارد هوبتمان عن غاية كلّ الشعر الحقيقي: "أن تُترك الكلمةُ لتُسمّعَ مجلجلةً وراء الكلمات." وعبّر الصوفي مايستر إيكهارت عن الفكرة ذاتها بمصطلحات صوفية عندما خاطب تجمّعَه الديني: "أيّ برغوث كما هو في الله لأنبل في ذاته من أرفع الملائكة. الأشياء في الله تتساوى: إنها الله ذاته."[61] وذلك، باختصار، هو الـ أناهاتا، عند مستوى الشاكرا الرابعة، عندما لا تُخفي الأشياء حقيقتها بعد الآن، بل إن الأعجوبة قد باتت معيشة في ما تراءى لـ بليك عندما كتبَ، "إذا تطهرتْ أبوابُ الوعي فسيتبدى كلّ شيء للإنسان كما هو، بلا حدود."[62]

وماذا إذاً بشأن الشاكرا الخامسة؟

الشاكرا الخامسة هي في مستوى الحنجرة وتُسمى فيشودها -Vishud dha، "التطهّر." وهي لوتس من ست عشرة بتلة بمسحة من اللون الأرجواني الأدخن، وعنصرها 'الأثير' ether، الفضاء. عند هذا المركز يخلف اليوغاني وراءه الفنَّ والدين والفلسفة وحتى الفكر؛ إذ، كما في مَطْهَر العقيدة المسيحية، تكون الروح قد تطهرت من أدران وشائجها بالأرض تمهيداً لتجربة رؤيا الرب المبهجة. وبالتالي فإن الغاية في موضع التطهّر الهندي هذا تتجلى بنزع كلّ تدخلات الدنيا بين ذات المرء وقرب سماع الـ AUM، أو، بتعبير المصطلحات الرؤيوية، بين ذات المرء ورؤيا الله. إن القدوة والأتباع في هذه المرحلة هما صومعة الراهب والمعبد بدلَ الفن والحياة المتحضرة: ليس الجماليّ بل الزّهْديّ. وفي النهاية، عندما يحظى بعد ذلك بمستوى المركز السادس، تنفتح العين الداخلية الباطنة

61 Sermons and Collations, xcvi; translation by C. de B. Evans, from Franz Pfeiffer, *Meister Eckhart*, Vol. I (London: John M. Watkins, 1924,1947), p. 240.

62 William Blake, *The Marriage of Heaven and Hell*, in Geoffrey Keynes, *Poetry and Prose of William Blake* (New York: Random House, 1927), p. 197.

كلياً، بالإضافة إلى الأذن الداخلية الباطنة. ومن ثم، ويفعل قوة مباغتة، يخضع المرء لرؤية وصوت الربّ الذي صورتُه هي صورة الصّوَر والذي تعمّ إشراقته. اسم اللوتس هنا آجنا Ajna، وتعني "السلطة، السطوة." وعدد بتلاتها اثنتان، لونها الأبيض زاهي الجمال. عنصرها العقل، ومكانها المشهور، أعلى قليلاً من نقطة ما بين الحاجبين. المرء هنا في الملأ الأعلى، والروح تبلّغ موضوعها الأسمى، الله.

ويبقى أن هناك حاجزاً واحداً أخيراً؛ كما قال القديس والمعلّم الهندي العظيم راماكريشنا، من القرن المنصرم، لمحبّيه، وهو إن اليوغانيّ عندما يبلغ رؤيا معشوقه على هذا النحو، سيبقى هناك جدار زجاجي لامرئي، إذا جاز القول، بينه وبين ذلك الآخَر الذي فيه سيعرف الهجوع الأبدي. لأن غايته ليست نعيم هذه المرحلة السادسة، بل حالة مطلقة، لامثنوية بعيدة عن أيّ تصنيفات وتخيلات وأهواء وأفكار ومشاعر مهما يكن نوعها، والتي تنتمي إلى اللوتس السابعة والأخيرة، الـ ساهاسرارا -Sahas rara، "ذات الألف بتلة،" عند قمة الرأس.

فلنسحب الزجاجَ إذاً. ثمة الاثنان، الروح وإلهها، العين الداخلية وموضوعها، وقد ذابا معاً وعلى حدّ سواء. والآن ليس هناك من موضوع ولا ذات، ولا ما يمكن أن يُعرَف أو يُسمى، سوى أن الصمت وحده هو العنصر الأساسي الرابع والأخير، مذ سُمِعَ ذات مرة، ولم يعد يُسمع الآن، اللفظ AUM.

وهنا، بالطبع، يجد المرء نفسه خارج نطاق الفن؛ حتى خارج الفن الهندي. وأودّ القول إن الفن الهندي يُعنى بإيحاء ونقل التجارب القريبة من تجارب مراكز اللوتس الرابع والخامس والسادس: في الرابع، موضوعات وكائنات هذا العالم كما هي عليه (ولنستخدم عبارة إيكهارت مرة أخرى) "في الله"؛ وفي الخامس، المظاهر المرعبة والمدمّرة للطاقات الكونية في أدوارها المهشّمة للأنا، متجسّدة على هيئة شياطين مهتاجة

وكريهة ورهيبة؛ والسادس، أشكالها التي تشيح الخوف، والمدهشة، والمسالمة، والبطولية. وهكذا يتأمل المرء أبداً في تلك التحف الخيالية المهيبة سواء الكائنات التي تمثل مظهر الأبدية، أو التجسيد الأسطوري لمظاهر الأبدية المعروفة لدى الإنسان.

بالنتيجة، هناك نَذرٌ يسير للغاية من الواقع اليومي التجريبي في الفن الهندي، المتعلق بالعالم كما هو معروف لأعين البشر العاديين. فالاهتمام ينصب بدرجة كبيرة على الآلهة والمشاهد الأسطورية. وعندما يقترب المرء من المعابد الهندية، من أي حقبة أو طراز، يلوح هناك شيء ما مميز للغاية حول الطريقة التي تتبدى بها إن من حيث بروزها من قلب المشهد الطبيعي أو إشرافها عليه من الأعلى. ما يتناقض تماماً مع جنائن المعابد الجميلة في الشرق الأقصى. فقد نهضت من تحت الأرض وكأنها ثَوران منظر طبيعي جوفيّ، أو كأنها هبطت لمجرد أن تستقرّ على الأرض مثل عربة حرب قديمة أو قصر سحريّ لإله من السماء. وفي الواقع، عند دخولنا أي معبد من المعابد الكهفية الكثيرة بالغة الإدهاش، المنحوتة، إذا صحّ القول، من قِبَل حرَفيين مهرة، عميقاً في جنبات الجبال، لا نترك وراءنا عالم التجربة الإنسانية الاعتيادية لمجرد أن نلجَ إحدى المغارات الأرضية المسكونة بالغاريت، بل أيضاً لنخلف فهمنا الاعتيادي للواقع ولنجد أن تلك التكوينات أكثر حقيقيةً، أكثر واقعيةً، وأكثر حميميةً. بمعنى ما- من إلهامات حيواتنا المألوفة في عالمنا الخفيف. فالفن الهندي، بعبارة أخرى، هو الفن المهتم بتجاوز تجاربنا الحياتية العادية ثنائية العينين، المعنيّ بأن يفتح هذه العين الثالثة في منتصف الجبهة، عين لوتس السطوة command، وبالتالي يكشف لنا، حتى في يقظتنا، رؤيا عالم متخيَّل لفردوس أو جحيم يؤولان حجراً.

يختلف كلّ ذلك جذرياً عن نبرة فنون الشطر الآخر من الشرق، الصين وكوريا واليابان. فقد نشأت بوذية تلك الأصقاع، بالتأكيد، في الهند ووصلت إلى الصين في القرن الأول الميلادي، وإلى اليابان قادمة من

كوريا في القرن السادس. ومع البوذية جيءَ، بشكل فعليّ، بالفن الهندي البديع الذي يصور طاقات كلّ الجنان في الأعلى وكلّ مراتب الجحيم أسفل هذا المستوى من الأرض. غير أن التوجّه الطبيعي لذهنية الشرق الأقصى ينحو لأن يكون أرضياً أكثر من الهندي، أكثر واقعيةً وانشغالاً بمظاهر الوجود البصرية والزمنية والعملية. لقد أشار الفيلسوف البوذي الياباني المرموق دايسيتز ت. سوزوكي في العديد من كتاباته عن تاريخ المذهب، إلى ثراء المخيلة الهندية، المبهرة في ترحالها الشاعريّ، دون أن تلتفت إلى خاصيات الزمن، معلّقةً بكلّ يسْر في ميادين ودهور تُقاس حصراً بمصطلحات اللانهاية، ما يتعارض بمجمله مع أحوال الفكر في الصين على وجه الخصوص، حيث يُعبَّر عن ضخامة الكون بـ "عالم العشرة آلاف شيء." وذلك رقم كاف للعين والذهن المنشغلَين بالزمن بدل الأبدية: الزمن في عبوره العمليّ، والفضاء في المعيار الأرضي، والذي لا يستقرّ إلى ما وراء مدى الرؤية. وبالتالي، حتى في فنون الشرق الأقصى البوذية هناك عموماً انزياح جليّ يتمثل بالاهتمام بنقل الشاكرا السادسة إلى مستوى الشاكرا الرابعة؛ من لوتس ضوء القمر ذات البتلتين، حيث تطالُ الأبصارُ الألوهةَ وقد نضتْ عنها كلّ الأشياء، إلى الحديقة الغنّاء لهذا العالم الجميل بعينه، حيث الأشياء الرخيّة في مواضعها قد تُدرَك بأنها ذاتها إلهية في خواصها اللصيقة بها. إذ، كما سمعتُ، أنه "في شعرة واحدة، يوجد ألف أسد ذهبي."

بذلك يمكن بسهولة تمييز مرتبتين في فنون الشرق الأقصى. أحدهما مرتبة الأيقونة البوذية، التي تمتد إلى أقصى ما أمكن من روح الإلهام الرؤيوي الهندي، الذي اختُصر إلى مستوى الشاكرا الرابعة. والآخر هو الأكثر تمثيلاً في التقليد غير المسبوق للتصوير الزيتي للمناظر الطبيعية الصينية واليابانية. وهي أعمال تتصف بروح مختلفة كلياً، في تقديمها فلسفةَ الشرق الأقصى المحلية، فلسفة التاو Tao. وهي كلمة صينية تُترجَم عموماً بـ " الطريق، طريق الطبيعة." وطريق الطبيعة هذا هو

الطريق الذي تخرج فيه كل الأشياء إلى حيّز الوجود من الظلمة إلى الضوء، ثم يغيب الضوء ليعود إلى الظلمة، والمبدآن- الضوء والظلمة- في تفاعلهما المستمر، وضمن تركيبات مختلفة التغاير، يشكلان كل عالم الـ "عشرة آلاف شيء" هذا.

يُسمى ضوءٌ وظلمةُ نظام الفكر هذا على التوالي بالـ يانغ *Yang* والـ يِن *yin*، وهما كلمتان تشيران إلى جانبي النهر المشمس والمظلل. يانغ هو الجانب المشمس؛ يِنْ، المظلل. على المشمس ثمة الضوء، والدفء، وحرارة الشمس الجافة. في الظل، هناك، بدلاً من ذلك، برودة الأرض، والأرض رطبة. مظلمة، باردة، ورطبة؛ و، مضيئة، حارة، جافّة: الأرض والشمس في حالة تَعَارض. ومن ناحية أخرى، هما في حالة ترابُط مع الأنثى والذكر كمبدئين: سلبيّ وإيجابي. ثمة حكم متعمّد هنا؛ لا مبدأ "أفضل" من الآخر، ولا مبدأ "أقوى" من الآخر. الاثنان مبدآن فعّالان وأساسيان بالتساوي وعليهما يستقر العالم، وفي تفاعلهما يُعلنان ويشكلان ويُحللان كل الأشياء. والآن، بينما تمسَحُ أعيننا مشهداً ريفياً، مثلاً، جبالاً، شلالات، بحيرات، فإن ما نراه هو الضوء والظلمة. الضوء والظلمة: بكل تحولاتهما، ستكون الانثناءات ودرجات الضوء والظلمة هي ما سوف نراه. وبالتالي يمكن للفنان بفرشاته رسمُ الأسود على الأبيض، ليقدم مشهداً كهذا. ومجرد ذلك، في حقيقة الأمر، سيكون المبدأ الأول في مجمل تأهيله: الطريقة التي يرسم بها، باستخدام الضوء والظلمة، الأشكالَ التي في جوهرها، كما في مظهرها، هي طاقة الضوء والظلمة، اليانغ واليِنْ. فينبغي أن يكون الشكلُ الخارجيّ، الضوء والظلمة، بمثابة بيان لما في الداخل. لذلك فإن هذا الفنان، بفرشاته، يتلاعب بألوان نفس المبدئين اللذين يشكلان أساس الطبيعة بكلّ ما فيها. وهكذا يُظهر الأثرُ الفني ويُشهر أساس العالم بحد ذاته، ذلك الأساس بما هو تفاعل هذين الاثنين، اليانغ واليِنْ، عبرَ ما لا نهاية له من الضبط والمعايرة. ومتعة تأمّل هذا التفاعل هي متعة الإنسان الذي لا يتمنى

الخرق والنفاذ إلى ما وراء الجدران التي تحمل لوحةَ عَرض العالم world display بغية البقاء فيه، ليشغل نفسه باحتمالات هذه الثنائية الكونية أبدية ودائمة التبدّل.

إن عينيّ الفنان في الصين واليابان مفتحتان على العالم. هل في نيّته رسم الخيزران؟ دعه يتمثّلْ إيقاع اليانغ واليِنْ في الخيزران، يتعرّف الخيزران، يعشْ مع الخيزران، يتأمله، يتحسسه، بل ويأكله. سنتعرف في الصين إلى ما يسمى بالقواعد الستّ، المبادئ الستة، لفنّ الرسم الكلاسيكي؛ وهي تنطبق على اليابان أيضاً. أولى تلك القواعد هي الإيقاع. فعند معاينة الخيزران، يستشعر المرءُ إيقاعَ الخيزران؛ وعند معاينة الطائر، يستشعر إيقاعات حياته، ونقْلَته، وتوازنه، وتحليقه كطائر. ولكي يقدّم أحدٌ شيئاً ما، فإن الحاجة الأولى تتمثل في معرفة ومعايشة إيقاع ذلك الشيء. وهكذا يكون ذلك الإيقاع المبدأ الأول في القواعد، ومركبةَ الفنّ الأولى التي لا غنى عنها. والمبدأ الثاني هو *الشكل العضوي*، أي أن الناظم، ينبغي أن يكون ناظماً موثوقاً ومتصلاً نابضاً بالحياة: عضوياً في ذاته وليس مجرد محاكاة لشيء حيّ. لكن، بالطبع، يجب أن يتبنى في حياته إيقاع الموضوع المرسوم. والقاعدة الثالثة هي الأمانة للطبيعة. فعين الفنان لا تُحيد. إنها تتمسّك بالطبيعة. الأمر الذي لا يعني بالضرورة أن الأثر الفني فوتوغرافيٌّ. ومن أجل إيقاع حياة الموضوع يتعين على الفنان أن يبقى أميناً. فإذا كانت الصورة لطائر، يجب أن يكون الطائرُ شبيهاً بالطيور؛ وإذا جثم الطائر على الخيزران، يجب أن تحضر طبيعتا الطائر والخيزران على حدّ سواء. ثم المبدأ الرابع وهو *اللون*، الذي يحتوي كلّ التقاليد الخفيّة للضوء والظلّ، الضوء والظلمة، في استخلاصهما جوهرَ الطاقة والعطالة. يأتي خامساً. وهو، كما لاحظتُ، مبدأ يحظى بتقدير مدهش في الفن الفوتوغرافي الياباني. إبداع الموضوع في المجال، (أو الحيّز أو الفضاء). ففي اليابان، مثلاً، نوع من اللوحات الزيتية تسمى بـ "اللوحة أحادية الزاوية." حيث يوجد موضع

صغير نسبياً ضمن فراغ كبير (قارب صيد في الضباب على سبيل المثال) في زاوية العمل الفني، تمّت (مركزتُه) بحيث ينعكس تأثير الرسم وبيت الحياة في مجمل المشهد. وأخيراً هناك مسألة الأسلوب، والمقتضيات التي يرتكز عليها الأسلوب- الشدة، والخشونة، التهذيب وضربات الفرشاة، إلخ.. الأسلوب الذي يجب أن يتّسقَ مع إيقاع الموضوع.

والآن، بالطبع، لكي يستوعب الفنان ما هو قائم أمامه، فإن عليه في المقام الأول أن 'ينظر'؛ و'النظر'، في النهاية، فعاليةٌ غير عدوانية. فالمرء لا يخاطب عينيّ الآخر، "اخرجا وافعلا شيئاً ما تجاه ذلك الشيء هناك." المرء ينظر، ينظر مليّاً، فيدخل العالمُ. هناك مصطلح صيني هام، wu-wei، "لا يفعل"، التي تعني أنه "لا يفعل شيئاً،" لكنه "لا يُكره." سوف تتفرج الأشياء من تلقاء ذاتها، بحسب طبيعتها. وهكذا، بالضبط كما قد يكشف إله ما نفسه أمام فنان هندي في تأمله، يكشف العالم نفسه بصورته الباطنية لأعين أبناء الشرق الأقصى. "التاو في المتناول، مع ذلك يبحث عنه الناس بعيداً." هو قول قديم للفيلسوف الصيني منسيوس، ففكرة الكون التي تتحقق من تلقائيتها الخاصة، والتي هي بالمجمل، في نهاية الأمر، بالإضافة إلى تلقائية طبيعة الفنان، ثم تلقائية فرشاته بينما تقدّم بالأسوَد فوق الأبيض تاوَ الأشياء، هي الفكرة كليّةُ الأهمية لهذه الرؤية التاوية.

هناك مفردتان صينيتان متعارضتان لكلمة قانون، معرّفتان ومشروحتان في الجزء الثاني من كتاب جوزيف نيدهام *العلم والحضارة في الصين*: مفردة *li*، ومفردة *ise*. يُعتقَد أن مفردة *li* كانت تشير في الأصل إلى العلامات الطبيعية على قطعة اليشم، العروق في اليشم، وبالتالي البذرة الطبيعية للحياة؛ بينما يبدو في الأصل أن ثمة للمفردة الثانية، ise، إحالةً إلى العلامات المرسومة بالقلم على قدّر الطعام، علامات خطّها الإنسان، ومرجعها وفقاً لذلك هي القوانين الاجتماعية المفروضة والمستنبَطة، مقابل الطبيعية؛ القوانين التي ابتكرها العقل

مقابل تلك المُعيشة على أنها نموذج طبق الأصل للطبيعة. لكن وظيفة الفن هي استكشاف وكشف الأخيرة، القوانين والنماذج، أي الطبيعة والطريقة التي تتحرك وفقها. ولمعرفة ذلك، لا يمكن للفنان فرض مراميه عليها. هذا هو حال العمل الدقيق المتعلق بتنسيق مفهومه الخاص عنها، مفهومه للمهمة المراد تحقيقها ومناهجه في الأداء، مع نماذج الطبيعة المفترضة، إذ أن التوازن بين الفعل وعدم الفعل الذي حقق ذلك يثمر الأثرَ الفنيّ المكتمل.

من ناحية أخرى، فإن مبدأ العمل بعدم الإكراه ينبّه إلى كلّ مسلك في الشرق الأقصى ذي صلة بالأداء المثمر. في آخر زياراتي لليابان، وكانت تجري مباريات بطولة مصارعة السومو في طوكيو، مسابقات الأشخاص السّمان ضخام الأجساد- وهم ضخام حقاً: كما قال أحدهم، إنهم يعبرون عن قانون البقاء للأسمَن[61]. وخلال الجزء الأكبر من المباراة، اتّخذ الاثنان وضعية القرفصاء، وأخذ كلٌ منهما يتفحّص الآخر. يتصنّعان تلك الحالة، ويبقيان عليها لبعض الوقت، ثم يخرقانها، يتجه كلّ منهما إلى جانب الحلبة، يتناولان حفنة من الملح، يرشانها كيفما اتّفق على الأرض، ويعودان إلى مركزيهما من جديد. يكرران الفعل ذاته لمرات عديدة، وأثناء ذلك يعيش الجمهور الياباني نشوة عارمة، يصيح، مترقّباً تلك اللحظة المباغتة- مع فرقعة الضربة العنيفة! وإمساك أحدهما بالآخر ليرتطم أحد الاثنين بالسجادة. ثم تنتهي المباراة. فماذا إذاً كانا يفعلانه في كل جولات ادّعاء الوقفة التمهيدية تلك؟ كان كلّ منهما يتفحص الآخر ويكتشف مركزاً في نقطة السكون تلك ضمن الآخر والتي سينطلق منها مجملُ الأداء، كلٌ منهما يعيش توازناً في علاقته بالآخر، بنوع من تواصل الينّ- يانغ؛ والذي أُمسِكَ به خارج المركز كان هو الخاسر.

رُوِيَ لي أنه في سالف الأيام كان هناك فتىً يرغب أن يتعلم المبارزة

61 Survival of the fattest تلاعب لفظي بكلمة من عبارة لـ داروين في (أصل الأنواع، "Survival of the fittest" التي تعني: البقاء للأصلح. (م)

في اليابان وكان معلّمُه يتركه في معظم الأحيان لبعض الوقت دون رقيب، لينجز أعمال المدرسة الرتيبة، ويغسل الأطباق، وسوى ذلك؛ وبين حين وآخر ينبثُ السيد بنفسه من مكان ما ويوجّه إليه ضربة بالعصا. بعد مضيّ فصل على هذا النحو، بدأت الضحية بالاستعداد للأمر. لكن ذلك كان من دون جدوى بالنسبة إليه أيضاً؛ إذ حين يكون مستعداً لتلقي الضربة من جهة مثلاً، كان يتلقاها من جهة أخرى؛ والضربة التالية من لامكان على الإطلاق. أخيراً يصل الشاب المحتار إلى يقين أنه سيفعل ما بوسعه لكي لا يهيئ نفسه لأي اتجاه محدد، لأنه إذا كان للمرء فكرة أين مكمن الخطر، فسيكون متيقظاً للمكان الخطأ. والحماية الوحيدة آذاً أن يكون في حالة دائمة من مركزة الاحتراس غير الموجّه، كلّ ما فيه مستعد للهجوم المباغت وللاستجابة الفورية.

هناك حكاية مسلية عن معلّم ما من هذا النوع الذي قال لفتيان مدرسته أنه سينحني بنفسه أمام مَن يستطيع مباغتته بأية طريقة من الطرق. مرت الأيام، ولم يُمسَك المعلّم. فقد كان أبداً متيقظاً. لكن فيما بعد، ذات يوم بعد عودته من ظهيرة قضاها في البستان، التمس بعض الماء ليغسل قدميه، وقد أحضره إليه طفل في العاشرة من عمره. كان الماء بارداً بعض الشيء. طلب من الفتى أن يسخنه. عاد الصغير به ساخناً، ودون تفكير، وضع المعلّم قدميه في الوعاء، ثم سحبهما بسرعة خارجه، ثم ارتمى على ركبتيه بانحناءة مديدة أمام الصبي الأصغر في المدرسة.

خطيئة الغفلة، عدم التنبّه، عدم التيقظ، هي خطيئة إضاعة لحظة الحياة؛ في حين أن كلّ فن *اللافعل* الذي هو في الحقيقة *فعل*، (*wu-wei*)، يتمثل بالتيقظ المتواصل. وبذلك يكون المرء واعياً طوال الوقت، وحيث أن الحياة تعبير عن الوعي، فإن الحياة تُعاش بحدّ ذاتها، إذا صحّ القول. لا حاجة لإرشادها أو توجيهها. فهي تتقدم بحد ذاتها. تعيش بذاتها. وتحكي وتتصرف بحد ذاتها.

كذلك هو الأمر في سائر أنحاء العالم المشرقيّ. في الهند كما في الصين واليابان، إذ لم يكن مَثَلُ الفن الأعلى. كما كان طاغياً لدينا في السنوات الأخيرة. مرتبطاً بنشاط منفصل عن الحياة، محصوراً في محترَفات النحت أو التصوير الزيتي أو الرقص أو الموسيقا أو التمثيل. كان الفن في الشرق القديم فنّ الحياة. وعلى حدّ تعبير الدكتور أ. ك. كوماراسوامي، الذي كان منذ قرابة ثلاثين عاماً مدير متحف بوسطن للفنون الجميلة، "لم يكن الفنان في العالم القديم نوعاً خاصاً من الإنسان، لكن كلّ إنسان هو نوع خاص من الفنانين." في كلّ مناحي العيش والعمل، كما في كلّ الحرَف، تمثّل الهدف الأعلى، والغاية المنشودة في إتقان العمل. الذي هو النقيض الدقيق (أليس كذلك؟) لمفهوم الاتحاد العمالي المعاصر عن كم من الأجر يتقاضى المرءُ لقاء العمل وكم ستتقلّص ساعاته. كتب د. كوماراسوامي في أحد حواراته عن الموضوع، "على العامل الراشد ان يشعر بالعار، إذا كان أي شيء مما يصنعه أقلّ من مستوى التحفة الفنية." وبالفعل، عليّ القول إن انطباعي الخاص، وأنا أتابع أبحاثي على مدى سنوات في أعمال الأقدمين الفنية. سواء في مصر أو الرافدين، أو اليونان، أو الشرق الكبير. غالباً ما شعرتُ أن حرفيي تلك النتاجات الأخاذة كانوا إما من الجان أو من الملائكة؛ بالتأكيد، بكل الأحوال، ليس كما نحن عليه في هذه الأيام. مع أني أظن أيضاً أننا حتى لو استطعنا اليومَ اكتسابَ موهبة الاعتصام بالوعي غير المشتت ما بين استراحات القهوة، فقد نجد بدورنا أننا تملّكنا مواهبَ وطاقاتٍ ومهارات ملائكية.

الآن، وكما أسلفتُ، بينما يميل العقل الهندي والفنون الهندية إلى التحليق في الخيال خارج عالم العشرة آلاف شيء، فإن فنون وفناني التاو الصينيين يفضلون البقاء مع الطبيعة، متناغمين مع عجائبها. وكما تُبيّنُنا النصوص القديمة عن الحكماء الصينيين التاويين القدامى، أن أولئك الحكماء كانوا عشاقاً للتلال ومجاري الأنهار. ويوصَفون عموماً بأنهم ممن هجروا حياة المدينة ليعتزلوا وحيدين في البراري، ويقيموا

هناك في حالة انسجام مع الطبيعة. غير أن ذلك لا يمكن أن يتحقق في اليابان. لأن هناك كثرة من الناس في كل مكان لدرجة أنك لا تستطيع أن تكون وحيداً مع الطبيعة- على الأقل ليس لفترة طويلة. تسلّقْ حتى تبلغ رأس قمة يكاد يتعذر الوصول إليها وستجد مجموعة نزهات مرحة قد وصلت قبلك. لا متنفَّس هناك من البشر. لا متنفَّس من المجتمع. لذلك، رغم أن الإيديوغرامات[64] اليابانية والصينية لمفهوم "الحرية" (jiyu في اليابانية، وفي الصينية zu-yu) هي ذاتها بالضبط من حيث الشكل، إلا أنها في الصينية تعني ضمناً التحرر من الرابطة البشرية، وفي اليابانية، تجاوباً مع الأمر ذاته عبر التفرّغ الطوعيّ للنشاطات الزمنية[65]، وهي: من جهة، الحرية بعيداً عن المجتمع، تحت قبة السماء العظيمة، على قمة جبل يلفه الضباب، وقطف القطر ("حيث لا أحد يعرف أين أكون!")؛ ومن جهة أخرى، الحرية داخل روابط العالم الراهن، والنظام الاجتماعي الذي فيه، وحتى أقاصيه، حيث نشأ المرء. وفي مكوث الفرد داخل ذلك الحيّز، سيبقى يجرب ويُنجز "الحرية" بأن يرفدها بقبول وطاقة نوايا المرء الطيبة: وفي النتيجة، إن الحياة التي وُجدتْ على سفح الجبل تعيش داخل قلب الإنسان عندما يكون ضمن المجتمع أيضاً.

هناك تعبير غريب ومثير للغاية في اليابانية يشير إلى نمط خاص جداً من الخطاب الأرستقراطي اللطيف المعروف بـ "لغة اللهو،" *aso-base kotoba*، والذي بواسطته، بدلاً من مخاطبة شخص، على سبيل المثال، "أرى أنك قد جئتَ إلى طوكيو،" يمكن للمرء التعبير عن ملاحظته بالقول، "أرى أنك تلهو بوجودك في طوكيو،". الفكرة أن الشخص المخاطَب

64 إشارة مفهومة عالمياً؛ صُورَةٌ تُستَعمَلُ في نظامٍ كتابيّ؛ وحدة كتابية في بعض اللغات تمثل شيئاً أو فكرة. Ideograms

65 Hajime Nakamura, "The Vitality of Religion in Asia," in *Cultural Freedom in Asia:* Proceedings of a Conference Held at Rangoon, Burma, Feb. 17-20, 1955, Convened by the Congress for Cultural Freedom (Rutland, Vt.: Charles E. Tuttle, 1956), p. 56.

يمتلك ذلك النوع من السيطرة على حياته وقدراته لدرجة أن كلّ شيء بالنسبة إليه هو تسلية ولعبة. ولديه المقدرة على الدخول في الحياة كما يدخل المرء في لعبة، بكلّ حريّة ويسْر. وقد تمّ تبنّي هذه الفكرة إلى حدّ أنك بدل أن تقول لشخص، "سمعتُ أن والدك قد مات،" تقول له، "سمعتُ أن والدك آل إلى اللهوِ بالموت."[66] والآن، أسلّم بأن هذا ضربٌ من النبل، وطريقة رائعة في مقاربة الحياة. فما ينبغي القيام به قد طرأ عليه شيء من الإرادة حتى إن المرءَ يصبح في أدائه "ضمنَ لعبة" بمعنى الكلمة. ذلك هو الموقف الذي عرّفه نيتشه بـ Amor fati، أي: حبّ المرء لمصيره. وهو ما أشار إليه سينيكا ابن الإمبراطورية الرومانية القديمة بقوله الذي طالما اقتُبِس: Ducunt volentem fata, nolentem trahunt، "الأقدار تدفع الراغبين، وتسحب الرافضين.". ماذا يسعك أن تفعل إزاء مصيرك المحتوم؟ ذلك هو تحدي سؤال هاملت المقلق. إذ تكمن الطبيعة النهائية لتجربة الحياة في أن الكدح والمتعة، الحزن والفرح، مختلطة فيه بشكل لا يقبل الفكاك. والإرادة الصميمة للحياة التي جاءتْ بالإنسان إلى الضوء كانت على أية حال إرادة بالمجيء إلى العالم ولو عبْر الألم؛ ولم يفيْض لشخص آخر الوصول إلى هنا. وتلك هي النظرية المؤسِّسة لفكرة التناسخ الشرقية. فحيث أنك وُلدتَ في هذا العالم وفي هذا الزمان، وهذا المكان، وفي ظلال هذا القدَر، فذلك ما أردتَه وطلبتَه من أجل إشراقتك السامية. كان أمراً عظيماً ورائعاً أنه بذلك قد جيء بك لكي تُعبِّر: ليست الـ "أنت you" بالطبع، التي تفترضها الآن على أنها نفسك، بل الـ "أنت" التي كانت بالفعل هناك قبل أن تولد والتي، حتى الآن، تجعل قلبك يخفق ورئتيك تتنفسان وتفعل لأجلك كل تلك الأشياء المعقدة في تضاعيف ما يشكّل حياتَك. لا يجدر بك الآن أن تفقد السيطرة على نفسك! امضِ معها والعب لعبتك الخاصة بأقصى ما لديك!

66 J. Huizinga,*Homo Ludens: A Study of the Play-Element in Culture* (London: Routledge and Kegan Paul, 1949), pp. 34-35.

وبالتأكيد، كما يعرف كلُ مَن لعب في مباريات، فإن المباريات الأكثر مرحاً- سواء خسرتها أو ربحتها- هي المباريات الأكثر صعوبة، والحافلة بما يجب إنجازه من المهمات الأكثر تعقيداً، بل الأكثر خطورة، وهكذا فإن الفنانين عموماً ليسوا راضين، سواء في الشرق أو في الغرب، بإنجازهم أشياءً بسيطة- والعسير سرعان ما يصبح بسيطاً بالنسبة إلى فنان يُعتبر بالنسبة إلينا صعباً. فالفنان يبحث عن التحدي، عن إنجاز الشيء الصعب؛ لأن نهجه في الحياة ليس العمل بل اللعب.

وأخيراً، فإن هذا الموقف تجاه الفن كجانب من لعبة الحياة، والحياة ذاتها كفنٍ لعب، هو نهج جذلٌ ومحفِّز بشكل مدهش نحو نعمة الوجود الثرية- ما يناقض تماماً نهج غربنا المسيحي، القائم على أسطورة الخطيئة الكونية. في البدء كان ذلك *السقوط* من جنة عدن، ما جعلنا جميعاً خطاةً بالفطرة منذ ذلك الحين. فكلّ فعل من أفعال الطبيعة فعلُ خطيئة، مصحوبٌ بمعرفة الإثم. بينما في الشرق هناك فكرة طهر الطبيعة الفطري، حتى في ما قد يبدو لأعيننا ومشاعرنا البشرية قسوةً منها. فالعالم، كما يقولون في الهند، هو "لعبُ" الإله. إنه لعبٌ رائع وطائش: لعب أرعن، بل الأكثر رعونة، الأكثر فظاظة، الأكثر خطورة، والأكثر عسراً، دون رادع. ويبدو غالباً أنه أفضل من يخسر وأسوأ من يفوز. لكن الفوز، في النهاية، ليس الغاية المنشودة؛ لأنه كما خبرنا سابقاً في ارتقاء طريق كونداليني "الحافل بالمسرّة"، فإن الفوز والخسارة بالمعنى الدارج هما مجرد تجربتين للشاكرات السفلى. والغاية من الأفعى الصاعدة هي بلورة وزيادة نور الوعي في الداخل، والخطوة الأولى لقطف ثمار هذه الهبة- كما ذُكر في البهاغافاد غيتا، والعديد من نصوص الحكمة- أن نُقصيَ بشكل باتّ أدنى اهتمام بثمار فاكهة العمل، سواء في هذا العالم أو في ما يليه. كما قال الإله كريشنا وهو على أرض المعركة مخاطباً الأمير أرجونا، "قد انتُدبتَ للعمل فحسب، وليس لأجل ثمراته

أبداً... هو العالم أن طريق الزهد وطريق العمل واحدٌ، هو العالم من دون ريب."[67]

الحياة مثل الفنّ والفنُ مثل اللعبة- كما العمل من أجل العمل، دون تفكير بالربح والخسارة، أو بالإطراء والتوبيخ- مفتاح، إذاً، لتحويل العيش ذاته إلى يوغا، والفنُ إلى وسائل لتلك الحياة.

هناك قصة بوذية صغيرة أظنها ستساعد في إيصال هذه الرسالة إلى موطنها مرفقة بصورة طريفة. إنها عن طالب صيني شاب، اسمه تشو، ذهب مع صديق له في جولة وسط الجبال. وهناك صادفا أنقاض معبد، وبين الجدران المهدمة التقيا براهب عجوز أقام صومعته في المكان. وحين لحظ وصول الرجلين، أقبل العجوز نحوهما وهو يسوي رداءه ليريهما المكان. كان هناك بعض من أوابد التماثيل، وأيضاً، هنا وهناك على الجدران المتبقية، عدد من اللوحات الزيتية التي تحاكي الحياة فتصوّر بشراً وحيوانات ومناظر مزهرة. كان تشو وصديقه مأخوذين، وخصوصاً عندما لحظا، أعلى أحد الحيطان، مشهداً لبلدة صغيرة جميلة مع فتاة حلوة تقف في الجهة الأمامية من اللوحة، تمسك زهوراً بيديها. كان شعرها مرخياً، ما يعني أنها لم تكن متزوجة، ولم يكد تشو يراها حتى غاب كلياً في الحب. كان خياله يشدّه إلى الابتسامة العذبة على شفتيها، لكن، بقدرة الراهب العجوز الماكر، الذي فكّر بتلقينه درساً- وقبل أن يدرك الأمر أصبح هناك في شارع تلك البلدة الصغيرة، وهناك كانت أيضاً الفتاة الحلوة.

رحّبت به بسعادة وقادته إلى بيتها. وعلى الفور أصبحا خطيبين يعيشان علاقة حب استمرت عدة أيام. تضاحكت صديقاتها وداعبنها إذ اكتشفن أنهما يعيشان معاً بتلك الطريقة، وخاطبنها، "آه، آه! ولا يزال شعرك مرخياً؟" أحضرن لها دبابيس شعر مطلية، وحين أصبح شعرها

67 *Bhagavad Gita* 2:47 and 5:5.

مرفوعاً بشكل جميل، تحوّل المسكين تشو إلى متيّم في حبها أكثر من ذي قبل. لكن حلّ يوم سُمعت فيه جلبة أصوات مرعبة للغاية آتية من الشارع، سلاسل تقعقع، وأحذية تضرب الأرض بقوة، الأمر الذي دفعهما إلى النافذة، فشاهدا ثلة من الضباط الإمبراطوريين القادمين لاستكشاف الوافدين غير المرخص لهم. طلبت الفتاة الخائفة من تشو أن يختبئ، وفعل ذلك. اختبأ تحت السرير. لكن بعد ذلك، مع سماعه هياجاً أكبر في الخارج، وثب من تحت السرير، ومسرعاً نحو النافذة ليتبيّن الأمر، شعر بكمّيه يرفرفان فجأةً ووجد أنه قد انفصل عن الصورة وإذا به يهبط عبر الهواء باتجاه صديقه والراهب العجوز في الأسفل. كان الاثنان واقفَين حيث كان الثلاثة منذ لحظات وجيزة مضتْ؛ وحين حطّ تشو وانضم إليهما، كان هو وصديقه مشدوهَين. التفتا إلى الراهب طلباً لتفسير ما حدث.

"الرؤى تولَد وتموت في أولئك الذين يبصرونها،" قال بكل بساطة. "ماذا بوسع راهب عجوز أن يقول؟" لكنه رفع عينيه، ورفعا أعينهما، إلى الصورة. وما أدراك؟ فشعْر البنت كان مرفوعاً إلى الأعلى.[68]

68 From the Liao Chai Stories of P'u Sung-ling, translated by Rose Quong, in *Chinese Ghost and Love Stories* (New York: Pantheon Books, 1946), pp. 305 ff.

7
الزّنZen
1969

تستخدم في الهند شخصيتان ظريفتان لتجسيد النمطين الرئيسيين للموقف الديني. الأولى هي "طريقة القِرَدة"، الأخرى هي "طريقة القرد." حين تموء الهريرة "مياو،" تاتي أمها وتطبق أسنانها على ظاهر عنق الصغيرة لتحملها إلى برّ الأمان، بينما تختلف الحالة لدى القرود، فكما يمكن أن يلاحظ أيّ شخص يزور الهند، حين تعدو عصبة قرود هبطت عن الشجرة وتجوب الشوارع، تكون القرود الصّغيرة معلّقة بظهور أمهاتها بنفسها. وبالتالي، يمكن فهم الموقفين الدينيين استناداً إلى ما سبق كالتالي: الأول هو موقف الشخص الذي يصلّي: "إلهي، إلهي، تعال أنقذني!" بينما الثاني هو موقف الشّخص الذي يعمل بنفسه دون صلاة أو دعاء من ذاك النوع. يُعرَفُ الموقفان آنفا الذّكر في اليابان باسم تاريكي، "القوّة الخارجيّة،" أو"القوّة خارجاً،" وجيريكي، "القوّة ذاتيّاً،" "القوّة أو الجهد من الدّاخل." وفي بوذيّة اليابان تتمثّل هاتان المقاربتان المتعارضتان جذريّاً في بلوغ التّنوير، في نوعين واضحيّ التناقض من الممارسة والفكر الدّينيّين.

الأوّل، والأكثر انتشاراً بينهما، هو المتعلّق بطائفتي الجودو والشينشو، والذي تستدعى فيه قوّة عليا أسطوريّة بالكامل تدعى بوذا، لتهبَ

الإعفاء من دورة حياة ثانية. يسمّى بوذا في السنسكريتيّة بـ أميتابها Amitabha، وتعني الإشعاع غير المحدود. أيضاً أميتايوس، أي الحياة غير المنتهية. ويُعرَف باليابانيّة باسم أميدا، ويطلب من هذه القوّة أيضاً أن تهب الخلاص، كمثل يسوع في الدّيانة المسيحيّة. بالمقابل تُمثّل جيريكي بالزّنّ على نحو بارز، وجيريكي كما أشرنا سابقاً هي أسلوب عوث الذّات، الفعل الذّاتي، الطّاقة الدّاخليّة، والّتي لا تتوسّل ولا تتوقّع المساعدة من أيّ إلهٍ أو من بوذا، لكن تعمل بنفسها لتحقّق ما ينبغي تحقيقه.

تُروى حكاية في الهند عن الإله فيشنو، داعم الكون، والّذي استدعى يوماً على نحو مفاجئ غارودا، ناقله الجويّ، طائر الشّمس ذهبيّ الأجنحة، وحين سألت الإلهة لاكشمي (زوجته) لماذا، أجاب بأنّه انتبه إلى أنّ أحد اتباعه في ورطة. لكنّه لم يكد يحلّق حتى رجع، ترجّل عن وسيلة نقله، وحين سألته الإلهة مرّة أخرى لماذا، أجاب بأنّه وجد تابعَه المخلص يحل مشكلته بنفسه.

فأسلوب جيريكي إذاً، كما يُمثّل في طائفة بوذيّي ماهايانا والمعروفة في اليابان باسم الزّنّ، هو شكل للدّين (إن صحّت تسميته بذلك) دونما اعتماد على إله أو آلهة، فلا وجود لفكرة المعبود المطلق، ولا حاجة أصلاً لبوذا - بل في الواقع، لا مرجعيّات خارقة على الإطلاق. وقد وُصفتْ كالتّالي:

بلاغ خاصّ من خارج النصوص المقدّسة،

لا تعتمدُ الكلمات أو الحروف،

تتوجه مباشرةً إلى قلب الإنسان،

تستطلع طبيعته الصميمة،

وهكذا تحقق هدفها المنشود ببوذيته.

وكلمة زنّ بحد ذاتها لفظ ياباني محرّف عن الكلمة الصّينيّة تشان، والتي هي بدورها لفظ صيني مُحرّف عن الكلمة السنسكريتيّة ديانا، وتعني "التفكّر، التّأمّل." في كل الأحوال التّفكّر بماذا؟

لنتخيّل أنفسنا للحظة في قاعة المحاضرات الّتي قدّمتُ فيها لأوّل مرّة مادّة هذا الفصل. نرى في الأعلى الأضواء الكثيرة. كل مصباح منفصل عن المصابيح الأخرى، وقد يخيّل إلينا بالتّالي بأنّ أحدها ينفصل عن الآخر. ضمن هذا المنظور، تلك المصابيح هي الكثير من الوقائع المبنيّة على الملاحظة والتجريب، ويُدعى الكون كلّه ضمن هذا المنظور باليابانيّة جي هوكّاي، "كون الأشياء."

لكن الآن، لننظُر أبعد. كلّ من هذه المصابيح المنفصل أحدها عن الآخر هو آليّة حاملة للضّوء، والأضواء ليست بدورها إلا ضوءاً واحداً. ويتبدّى هذا الضّوء ضمن جميع تلك المصابيح، وقد نفكّر بالتّالي إمّا بالمصابيح الكثيرة أو بالضّوء الواحد. علاوة على ذلك، إذا انطفأ مصباح أو آخر، فسوف يُستبدَل بآخر وسيكون لدينا مجدّداً الضّوء ذاته. إذاً يتبدّى الضّوء، الذي هو واحد، من خلال المصابيح الكثيرة.

على نحو مشابه، سوف أنظر بشكل مجرّد من منصّة المحاضرة، وفي مرمى ناظريّ جميع الأشخاص الذين يشكلون جمهوري، وتماماً كما يُرى كلّ مصباح من الأعلى على أنّه حامل للضّوء، كذلك فإنّ كل شخص منّا على الأرض هو حامل للوعي. لكنّ الشيء الهام في المصباح هو نوعيّة ضوئه. كذلك أيضاً الشيء الهام في كلّ منّا هو نوعيّة وعيه. وعلى الرّغم من ميل كلّ منّا لتعريف ذاته بشكل رئيسي من خلال جسده المستقلّ ونقاطه الهشّة، فمن الممكن أيضاً اعتبار جسد الإنسان مجرّد آليّة حاملة للوعي ثم التفكير عندها بالوعي على أنّه الوعي الحاضر هنا مجسّداً من خلالنا أجمعين. كان ما سبق مجرّد عرض لطريقتيّ تفسير واختبار المجموعة ذاتها من الوقائع. وليس هناك من طريقة أحَقّ

من الأخرى. كلاهما مجرّد أسلوبين في التفسير والاختبار: الأول، من ناحية تنوّع الأشياء المنفصلة، الثاني، من ناحية الشّيء الواحد المتجسّد من خلال هذا التنوّع. وكما يعرف الأول في اليابانيّة باسم جي هوكّاي، يعرف الثاني باسم ري هوكّاي، الكون المُطلَق.

والآن، لا يمكن للوعي المسمّى بـ جي هوكّاي إلا أن يكون تمييزيّاً، وعند اختبار المرء لذاته بتلك الطريقة، يكون محدوداً، كضوء المصباح في هذا الجسد الزّجاجيّ الحاضر الهش، بينما في الوعي المسمّى ري هوكّاي لا يوجد تحديد كهذا. وبالتالي يمكن وصف الهدف الأساسي لجميع التّعاليم الأسطوريّة الشرقيّة بأنّه المساعدُ لنا بنقل تركيزنا لتعريف الذّات من هذا المصباح إلى ضوئه، من هذا الشّخص الفاني إلى الوعي الذي تُعتبر أجسادنا مجرّد حامل له. هذا في الواقع هو المعنى الكامل للمقولة الهنديّة الشهيرة *Chhandogya Upanishad, tat tvam asi* "أنت ذلك." "أنت نفسك الأساس الكونيّ اللامتمايز لكلّ الوجود، كلّ الوعي، وكلّ السّعادة."

عموماً، الـ "أنت" لا تعني تلك التي يُعرف بها المرء عادة: "أنت"، التي سُمّيَت ورُقّمَت وسُجّلَت في بيانات جابي الضّرائب. هذه ليست "أنت" التي هي 'ذلك'، بل الحالة التي تجعلك مصباحاً متمايزاً.

في كل الأحوال، ليس من السّهل تغيير نبرة إحساس الوجود لدى الشخص من الجسد إلى وعيه، ومن هذا الوعي بعد ذلك إلى الوعي الكلّيّ.

حين كنت في الهند التقيت وتحاورت بشكل موجز مع معلّم التريفاندروم القديس الحكيم شري أتمانادا، وكان السّؤال الذي وجّهه إلي لأتفكّر به: أين تقف بين فكرتين؟ يعلّموننا في *كينا أوبانيشاد*: "هناك حيث لا تذهب العين، لا يذهب الكلام، ولا العقل... إنّه شيء مختلف عن المعروف. ومن جهة أخرى يعلو فوق اللامعروف."[69] إذ عند العودة مما هو بين فكرتين،

69 *Kena Upanishad* 1.3.

سيجد المرء بأنّ كل الكلمات التي يمكنها بالطبع أن تدور حول أفكار وأشياء، أسماء وأشكال. هي مضلّلة وحسب. حيث كما هو مبيّن أيضاً في أوبانيشاد: "لا نعلم، لا نفهم، كيف ينبغي أن تلقّن."

في الواقع، أظن أن كل امرئ لا بدّ قد خبرَ ذلك في حياته، من المستحيل فعليّاً إيصال أيّة تجربة من خلال الكلام، إلا إلى شخص اختبر بنفسه تجربة مماثلة. على سبيل المثال حاول أن تشرح تجربة التزلّج على منحدر جبلي إلى شخص لم يرَ في حياته الثّلج. أضف إلى ذلك أن الأفكار والتعاريف قد تُبطل تجاربَ المرء قبل أن يعيشها: كسؤال من مثل "هل يمكن أن يكون ما أشعر به هو الحب؟ هل هو مسموح؟ هل هو ملائم؟" في النهاية وبالطبع يمكن أن تُطرح أسئلة كهذه، لكن، للأسف، تبقى الحقيقة أنّ هذه الأسئلة ما إن تُطرَح حتّى تتحسر العفويّة. الحياةُ المؤطّرةُ بتعريف هي رهينةُ الماضي، ولا تصبّ قُدُماً في المستقبل. كلّ شخص، كما نتوقّع، يحوك حياتَه باستمرار لتصبح سياقات للنّيّة والجدوى، وتبيان المعنى سيجد أنه في النهاية قد خسر جدوى اختبار الحياة.

وهكذا فإنّ هدف الزنّ الأوّل والأهمّ هو تفكيك شبكة مفاهيمنا. الأمر الذي دعا البعض إلى اعتبارها فلسفة "اللا عقل." تعترف العديد من المدارس الغربيّة في علم النّفس بأنّ ما نحتاجُه ونبحث عنه بالدرجة الأولى هو المعنى لحيواتنا. وقد يشكّل ذلك بالنسبة للبعض مصدر عون، لكنّ كلّ ما يعينه حقّاً هو الفكر، وحين يعقد الفكرُ العزمَ على معالجة الحياة بأسمائها وفئاتها، ومفاهيمها حول العلاقات وتعاريفها للمعنى، يتبدد الجوهر الدّاخلي. أما الزّنّ، على العكس من ذلك، فيتمسك بإدراك أنّ الحياة ومغزى الحياة سابقان للمعنى؛ الفكرة أن تترك الحياة تأتي ولا تسمّيها. سيدفعك ذلك مباشرة إلى حيث تحيا. حيث تكون، وليس إلى حيث أُسبِغَ عليك الاسم.

هناك قصّة أثيرة من تعاليم بوذا يرويها معلّمو الزّنّ على الدوام: تحكي

كيف كان يحمل زهرة لوتس واحدة، بحيث تمثّل هذه البادرة البسيطة كلّ عظته. التقط راهب واحد من جمهوره العبرة، ويدعى كاشيابا، والذي يعتبر اليوم مؤسس طائفة الزنّ. وحين لاحظ بوذا كيف فهم هذا الراهب العبرة أوماً له إيماءة العارف، ثمّ قدّم عظة شفهية للبقيّة: عظةً لأولئك الساعين وراء المعنى، الذين مازالوا عالقين في شبكة الأفكار، لكنّهم مع ذلك يرومون أبعد من ذلك، لينجوا من الشبكة وينطلقوا نحو الطريق التي ربما سيجدها بعضهم يوماً ما.

ووفقاً للأسطورة، فقد حلّ بوذا نفسه هذه الشبكة بعد سنوات من البحث وشظف العيش، حتّى وصل في النّهاية إلى الشّجرة البوذيّة، الشجرة التي تعرف بأنها شجرة التنوير في مركز الكون - وهو مركزُ صمته الأعمق والتي دعاها ت. س. إليوت في قصيدته 'نورتون المحروق' "نقطة السكون من العالم الدوّار." يقول الشّاعر:

"لا يمكنني أن أقول إلا، "هنالك" كنّا: لكن أين، لا يمكنني أن أقول.

ولا يمكنني أن أقول، كم مكثنا، لأن ذلك يُنزله في الزمان."[70]

هناك، عند تلك الشجرة، حيث خاطب الإلهُ المُبارَكَ ليزيحه من مكانه، الإله المسمّى الرّغبة والموت، الذي يستمرّ الكون بالدّوران بفعل طاقاته، متمتّعاً بخصاله كمتبصّر في الرغبة، ومتعة للنظر، عرْض أمام المبارك بناته الثلاث فائقات الجمال، التّوق، والإنجاز، والشجن؛ بحيث إن فكّرَ الجالس هناك بلا حراك، بـ "أنا،" فلا بدّ أن يكون الآخر بدوره قد فكّرَ، بـ "هُم،" فيضطرب. لكنّه، وقد فقد كلّ إحساس بـ جي هوكّاي *ji hokkai*، بالأشياء المنفصلة عن بعضها، بقي ثابتاً لا يتحرك، وفشل ذاك الإغواء الأوّل.

70 اقتطفتُ السطرين من ترجمة هنري فريد صعب للقصيدة. (م)

وسرعان ما حوّل ربُّ *الرّغبة* نفسَه إلى مليك *الموت* ودفع إلى المبارَك بكامل قوّة جيشه المهول، لكن أيضاً لم يكن ثمّة "أنا" ولا "هم" حيث جلس المبارك دون حراك، وفشل الإغواء الثّاني.

في النهاية، متجسّداً في هيئته كربِّ الدارما، Duty، تجادلَ والخصم في حقّ المبارك بالجلوس بلا حراك على النقطة الساكنة في الكون المتحرّك، بينما تفرض عليه واجباته تجاه جماعته، كأمير عليهم، بأن يحكم الناس من قَصْره. استجابة لذلك، غيّر الأمير ببساطة موضع يده اليمنى، تاركاً أصابعها تنزلق عبر الركبة إلى الأرض بما يسمّى "وضعيّة لمس الأرض"، والتي استدعى من خلالها *الإلهة الأرض* ذاتها، والتي هي الطبيعة الأمّ، السابقة على الجماعة، والتي سبقته مطالبها أيضاً، فتحدّثت بصوت الرّعد وأعلمت الجميع، بأنّ الجالس هناك كانت له حيوات سابقة لا معدودة، فمنح ذاته للعالم حتّى لم يبقَ منها شيء.

وانحنى الفيل الذي اعتلاه سيد الرغبة والموت والواجب تبجيلاً للمُبارَك، وانحنى الجيش أيضاً فيما اختفى الإله. وتوصّل الجالس تحت الشجرة في تلك الليلة إلى المعرفة الكاملة التي اتحدّث عنها هنا- معرفة أن ذاته ليست بـ"ذات"، وإنما مثيلة ري هوكّاي، عابرة جميع الأسماء والأشكال، إلى حيث "لا تصل الكلمات" (كما قرأنا في *كينا أوبانيشاد*).

وحين نفذ عبْرَ شبكة الأشياء المنفصلة، التي تحجز المشاعر والأفكار، انبهر بوذا بالضّوء الخالص المذهل بحيث واصل الجلوس لسبعة أيام تماماً كما هو، في راحة مطلقة، ثم نهض ووقف على بعد سبع خطوات من مكان جلوسه السّابق، وظلّ يتأمل لسبعة أيّام أخرى في استقامته. ولسبعة أيّام أخرى، مشى جيئة وذهاباً بين مكاني جلوسه ووقوفه، والتي جلس بعدها لسبعة أيّام تحت شجرة أخرى، يتأمّل في انعدام الصّلة بين ما اختبره للتّو وبين شبكة العالم الذي كان سيعود إليه. ولسبعة أيّام تالية، تأمّل في عذوبة الانعتاق، تحت شجرة أخرى، ثم انتقل إلى شجرة رابعة،

هناك هبّتْ عاصفة هائلة القوّة فهاجت وماجتْ حوله وفوقه لسبعة أيام. فخرجت أفعى الكون، ناهضة من مكمنها تحت الشجرة الكونيّة، والتفّت حول المبارك، فاردةً رأس الكوبرا العظيمة فوق رأسه، لتحميه كدرع. انتهت العاصفة، وانسحبت الحية، ولسبعة أيّام، في استرخائه تحت شجرة خامسة، فكّر بوذا المتأمّل: "هذا ما لا يمكن تلقينه."

في واقع الأمر، لا يمكن نقل التنوير.

لكن ما إن مرّت هذه الفكرة بخاطر بوذا حتّى نزل إليها السماء العليا - براهما وإيندرا وملائكتهما - ليلتمسوا من المبارَك إيصال المعرفة، لخير البشريّة والآلهة وكلّ الوجود، وافق. ولتسع وأربعين سنة بعد ذلك أمضى بوذا بمعارفه إلى هذا العالم. لكنّه لم يعلّم الاستنارة، ولم يكن يستطيع أن يعلّمها. بذلك تعتبر البوذيّة مجرّد طريقة. وتدعى ناقلة (يانا) إلى الشاطئ الأبعد، تنقلنا من هذا الشاطئ جي هوكّاي (تجربة انفصال الأشياء، المصابيح الكثيرة، الأضواء المنفصلة) إلى ذلك الأبعد، ري هوكّاي، إلى ما وراء المفاهيم وشبكة الأفكار، حيث تغدو معرفة صمت ما وراء الصمت قائمةً في احتدام التجربة.

إذاً، كيف لفنّ بوذا تعاليمه؟

قدّم نفسه إلى العالم بشخصيّة الطبيب الذي يشخّص المرض، ليصف العلاجَ لمريضه. سأل أوّلاً، "ما هي أعراض مرض العالم؟" وكان جوابه "الحزن!" الحقيقة النبيلة الأولى: "الحياة بكاملها حزينة."

هل سمعْنا؟ هل وعيْنا؟ "الحياة *بكاملها* حزينة" الكلمة الهامّة هنا هي "بكاملها." والتي لا يمكن أن تترجَم لتعني الحياة "الحديثة"، أو "الحياة في ظلّ الرأسماليّة." (كما سمعت مؤخّراً) بحيث لا يعني ذلك أنّه في حال تغيير النّظام الاجتماعي سيصبح النّاس سعداء. لم تكن الثّورة هي ما علّمه بوذا. كانت حقيقته النبيلة الأولى هي أنّ الحياة، الحياة

بكاملها - حزينة. وكان على علاجه بالتّالي أن يراعي تقديم الرّاحة، أيّاً كانت ظروف المريض الاجتماعية، أو الاقتصاديّة، أو الجغرافيّة.

استناداً إلى ذلك كان سؤال بوذا الثاني "هل يمكن التوصّل إلى علاج شموليّ كهذا؟" وكان جوابه، "نعم!" الحقيقة النبيلة الثانية: "هناك الانعتاق من الحزن."

وما لا يمكن أن يعني الانعتاق من الحياة (التخلّي عن الحياة، الانتحار، أو أي شيء من هذا القبيل)، حيث من الصعب أن يمثّل ذلك عودة الصّحة إلى المريض. فتعليم البوذيّة سيكون خاطئاً حين تُلقّن بوصفها انعتاقاً من الحياة. كان طرْحُ بوذا يتعلق بالانعتاق من الحزن، لا من الحياة.

إذاً، ماذا يمكن أن تكون طبيعة حالة الصّحة التي لم يتبصّر بها وحسب بل حقّقها؟ إنها ما تعلّمناه من حقيقته النبيلة الثّالثة: "الانعتاق من الحزن هو النيرفانا."

المعنى الحرفي لكلمة نيرفانا السنسكريتيّة هو "منفجِر"، ومعناها في منطق بوذا هو إلغاء الأنانيّة. ستُلغى عندها رغبة الأنا في المتعة، والخوف من الموت، والإحساس بالواجب الذي يفرضه المجتمع. حيث ينبع تأثّر المنعتق من الدّاخل، وليس من سلطة خارجيّة: ولا يأتي هذا المحرّك الدّاخلي من منطق الواجب، لكن من التعاطف مع كلّ الكائنات المُعذّبة. لا ميتاً ولا متخلّياً عن العالم، لكن ضمن المعرفة الكاملة واختبار ري هوكّاي، يتحرّك المتنوّر في جي هوكّاي، حيث تعلّم غاوتاما، بعد استنارته، إلى عمر مديد بلغ الثّمانين.

وماذا علّم؟ كان ما علّمه طريقة التّحرر من الحزن، طريق العقود الثمانية، كما صاغ عقيدته، وفق رؤى صحيحة، التأمل الصّحيح، النّطلّعات الصّحيحة، الخطاب الصّحيح، السّلوك الصّحيح، الحيويّة، والجهد، التأمّل الصحيح، النّشوة الصّحيحة.

لكن عليك أن تتساءل كي تعرف ماذا عنى بوذا تماماً بمصطلح "صحيح" (*سامياك* بالسنسكريتيّة "ملائم، كلّي، كامل، صحيح، مناسب، حقيقي")، ستتعلّم من إجابات المختصين المتنوّعة بأنّ تفسيرات تعاليم بوذا التي قدّمتها المدارس المختلفة لمريديه لن تكون متطابقة على الدوام.

تبع المريدون الأوائل غاوتاما حرفيّاً في أسلوب حياته، فخلفوا العالم الدّنيوي كرهبان، ودخلوا الغابة أو التجؤوا إلى الأديرة لينخرطوا في التزامات النسّاك. كانت طريقتهم هي طريقة جي ريكي، "الجهد الذّاتي." تاركين العالم وبقوّة الجهد الروحيّ العظيم طاردين الرغبة، والخوف من الموت والحرمان، وكل شعور بالالتزام الاجتماعي إلى غير رجعة، وفوق كل شيء، نابذين فكرة الـ"أنا I" والـ"لي mine." وبدا أن بوذا نفسه جسّد هذه الطريقة السّلبيّة في حياته، وبقيت حياة النسّاك حتى هذا اليوم القوّة المهيمنة في العالم البوذي.

بعد قرابة الخمسمئة سنة التي تلتْ حياة ووفاة بوذا (والتي حددت اليوم بين 563-483 قبل الميلاد) ظهر في مراكز البوذيّة في الهند الشّماليّة اتجاه جديد في تفسير العقيدة، قُبَيل بدء الحقبة المسيحيّة في الغرب، وكان زعماء هذه الرؤية الأحدث للعقيدة من الأتباع اللاحقين للمعلّم، ممن بلغوا التنوير بأنفسهم واستطاعوا تقدير المعاني الضمنيّة في العقيدة، والتي فات إدراكُها المريدين الأوائل. فوجدوا بأنه لم يكن على المرء أن يترك العالم فعليّاً ليصبح راهباً أو راهبة، ليفوز بنعمة الاستنارة، يمكن للمرء أن يبقى في الحياة، بأداء غيريّ للمهام الدنيويّة، ويبلغ مع ذلك الهدفَ بشكل مضمون.

مع هذا الإدراك المصيريّ، انتقل إلى مركز الفكر والمجاز البوذيّ مثال جديد وتصوّر جديد للرضا، للاغتناء: ليس الراهب ذو الرأس الحليقة القاطن في ملجأ آمن من اضطرابات المجتمع وضوضائه، بل الشخصيّة الملكيّة، في الزيّ الملوكيّ، والتاج المرصّع بالجواهر، ويبدها زهرة لوتس

ترمز إلى العالم بأسره. ويقدّم هذا النموذج نفسه إلى عالم حياتنا العامّة باسم بوذيساتفا. هو شخص "وجودُه" (ساتفا) "تنوير" (بوذي)، حيث إن كلمة بوذا تعني "الموقَظ،" فـ بوذي تعني "الاستيقاظ، حالة اليقظة." والكيان الأكثر شهرة وأهلية للحفاوة، الكيان اليقظ في هذا السياق هو القدّيس الجميل في أساطير مدهشة والمعروف بالسنسكريتية باسم أفالوكيتيشفارا. يُفهم معنى الاسم عادة بأنه "السّيد الذي ينظر إلى العالم (بعين الرحمة)." تظهر هذه الشخصيّة في الفن الهندي دوماً بشكل ذكوري، بينما تظهر في الشرق الأقصى، كإلهة الرحمة الصينيّة *كوان يين* (كوانّون في اليابانيّة)، إذ يتخطّى كيان كهذا حدود الجنس، وبالطّبع فإن الشخصيّة الأنثويّة أكثر تعبيراً عن الرحمة من الذكر.

تروي أسطورة هذا البوديساتفا بأنه حين كان على وشك بلوغ الانعتاق الكامل من دوّامة إعادة الولادة التي هي عالمُنا، سمع الصخور والأشجار وكل الكائنات تنوح، وحين سأل عن معنى هذا الصوت، قيل له إن وجوده في الحياة بذاته قد أضفى على الجميع إحساساً بأصالة النشوة النيرفانيّة، والتي ستُفقَد إن غادر هو العالم. عندها، ولتعاطفه الغيريّ واللامحدود، تخلّى عن تحرّره ذاك والذي ناضل لأجل الفوز به لحيوات لا تُعَدّ ولا تحصى، وبالتالي يمكنه، باستمراره بالعيش في هذا العالم، أن يخدم عبر الأزمان كمعلّم ومساعد لكل الكائنات. فيظهر بين التجّار كتاجر، وبين الأمراء كأمير، وحتّى بين الحشرات كحشرة. يتجسّد فينا جميعاً كلما تحدث أحدنا إلى الآخر، نعلّم أو نساعد برحمة.

توجد أسطورة صينيّة ساحرة حول القوّة المنقذة اللانهائيّة لهذا البوديساتفا، يرويها أشخاص بسطاء للغاية يقطنون قرية تقع قرب الرافد الأعلى القصيّ من النهر الأصفر. لم يسمع هؤلاء يوماً بالدّين ولم يهتمّوا إلا بالرماية والأحصنة السّريعة. ذات صباح باكر، ظهرت امرأة شابّة خارقة الجمال في طريق وسطَ قريتهم، تحمل سلّة تصطفّ فيها أوراق الصفصاف الخضراء الطازجة وتمتلئ بالأسماك المخطّطة

الذهبيّة من النهر، لم تكد تنهي نداءها حتّى بيعت بضاعتها كاملة، ومع نفاد البضاعة اختفت المرأة. عادت في الصباح التالي، وهكذا دواليك لعدّة أيّام. انتبه شبّان القرية بالطبع إلى الأمر، وراحوا يترقّبون وصولها، ثم أوقفوها في أحد الأيام وطلبوا يدها للزواج.

فكان ردّها "أيّها الشبّان النبلاء، أرغب بالزواج لا ريب. إلا أنني امرأة واحدة فقط: فلا يمكنني أن أقبل بكم جميعاً. لكن إن تمكّن أحد منكم من تلاوة ساتورا كوان يين الرحيمة عن ظهر قلب، فسيكون هو من سأختاره."

لم يكونوا قد سمعوا بشيء كهذا، لكنّهم بدؤوا العمل ذاك المساء، وفي الصباح التالي حين ظهرت المرأة الشابة، قام ثلاثون من الشبان بتلاوة الساتورا على مسمعها. فكان ردّها مجدّداً "أيّها الشبّان النبلاء، لست إلا امرأة واحدة، إن تمكّن أيّ منكم من شرح الساتورا، سيكون زوجاً لي." كان عدد من تمكّنوا من أداء المهمّة في الصباح التّالي عشرة. فوعدت "إن تمكّن أيّ منكم في ثلاثة أيّام من *إدراك* معنى الساتورا، سيكون الرجل الذي سأتزوّج بالتأكيد." وحين وصلت بعد ذلك بثلاثة صباحات، لم يكن في استقبالها إلا شاب واحد. اسمه ميرو.

وحين رأته، ابتسمت الشابّة بارعة الجمال. وقالت "أرى بأنّك أدركت بالفعل معنى الساتورا المباركة لـ كوان يين الرحيمة، وبكلّ سرور أقبل بك زوجاً لي. ستجد منزلي هذا المساء عند منعطف النهر، وسيكون والداي في استقبالك."

بحث ميرو ذلك المساء عن المكان كما أشارت إليه الشّابة، وعند منعطف النهر، بين الصّخور على الشاطئ، اكتشف منزلاً صغيراً. أومأ إليه رجل وامرأة عجوزان عند الباب، وحين اقترب معلناً اسمه، قال الرجل العجوز "كنّا بانتظارك لوقت طويل." وقادته المرأة إلى غرفة ابنتهما.

تركته هناك، لكن الغرفة كانت خالية. شاهد من النافذة المفتوحة

امتداداً للرمل بلغ النّهر، وعلى الرمل خطوات امرأة، فتبعها، ليجد على حافة الماء صندلين ذهبيين. نظر حوله في الشّفق ولم ير الآن أيّ منزل صغير بين الصّخور. ولم يوجد إلا عقد من القصب على النهر، يُصدر حفيفاً كئيباً مع نسائم المساء. وأدرك فجأة: لم تكن بائعة السّمك إلا بوذيساتفا ذاته. وفهم بشكل كامل عظمة فضيلة الـ كوان يين الرحيمة بلا حدود"[71].

تلك حكاية عن طريقة "المساعدة الخارجيّة،" تاريكي، طريقة الهريرة- والتي ليست بحال من الأحوال طريقة الزّن.

سبق وذكرت حكاية بوذا وهو يرفع زهرة اللوتس وكيف لم يفهم الرسالة إلا واحد من الحضور. لنفترض الآن بأني سأرفع زهرة لوتس وأسألكم عن معناها! أو لنفترض، أنّ ما بيدي لم يكن بزهرة لوتس- إذ يرتبط بزهرة اللوتس كثير من الصّلات الرمزيّة؛ لنفترض بأني رفعت عشبة الحوذان وسألتكم عن معنى عشبة الحوذان! أو حتّى عوداً ميتاً: "ما معنى العود الميت؟" أو مجدّداً: لنفترض بأنكم سألتموني عن معنى بوذا أو البوذيّة، ورفعتُ عوداً ميتاً!

يُعرَف البوذا على أنه الشخص الذي "يأتي ويمضي *هكذا*،" تاثاغاتا Tathagata. لم يعد لديه "معنى" يتجاوز الزهرة، الشجرة، الكون أو أنتم وأنا. وحين يُختبَر شيء ما بتلك الطّريقة، ببساطة 'في' ولأجل' ذاته، دون ربطه بأيّة مفاهيم، أو مرجعيات، أو علاقات جزئية، فإن لحظة كبْح الارتياح الجمالي هذه تخطف الرائي خلفاً فتُعيّده إلى كينونته الخاصة دون معنى؛ إذ أنّه هو أيضاً ببساطة- "يأتي هكذا"- ناقلٌ للوعي، كشرارة قذفتها النار.

عندما انتقلت البوذيّة في القرن الأول بعد الميلاد من الهند إلى الصّين،

71 Adapted from a translation by the Roshi Sokei-an, published in*The Cat's Yawn* (NewYork: First Zen Institute of America, 1947), p. 11.

استُقبلَ الرهبان بحفاوة، تأسّستْ أديرة، وبُذلت جهود عظيمة في سبيل ترجمة الكتاب المقدّس الهندي. دون أن تتنبهم عن ذلك الصعوبة الهائلة في تحويل نص سنسكريتي إلى الصينيّة، استمر العمل قُدُماً بشعبيّة كبيرة واستمرّ لخمسمئة سنة وصلَ في نهاياتها من الهند إلى الصين، في حوالي سنة 250 بعد الميلاد، راهب بوذي عجوز صارم الملامح على نحو غريب يُعرَف ببوذيدارما، والذي مضى مباشرة إلى القصر الملكي. وبحسب حكاية هذه الزيارة، سأل الإمبراطور هذا الضيف قليل اللياقة عن حجم الفضيلة التي جناها من بنائه الأديرة، ودعْمه الرهبان والراهبات، والتراجمة.. الخ، فكان جواب البوذيدارما: "لا شيء".

فتساءل الإمبراطور: "لِمَ؟"

فكان الجواب "هذه أفعال وضيعة الشأن، أغراضها مجرّد ظلال العمل الوحيد الذي يضفي الفضيلة هو الحكمة، النقيّة، الكاملة والخفيّة، والتي لا يمكن الفوز بها من خلال الأفعال المادّيّة." فسأل الإمبراطور "فماذا إذاً، هل بلغت الحقيقة النبيلة ذُراها العليا؟"

أجاب البوذيدارما، "إنها فارغة، لا شيء نبيل فيها."

استفزّ ذلك الإمبراطور وتساءل "ومن هو هذا الرّاهب الماثل أمامي؟"

فأجاب الراهب "لا أعلم." وترك البلاط.

التجأ البوذيدارما إلى دير واستقر فيه، ووجهه إلى الحائط، وكما قيل لنا، بقي في ذلك المكان رهينَ صمت مطبَق لسنوات تسع. ليوصل فكرة أن البوذية الصحيحة ليست مسألة أعمال تقيّة، أو ترجمة نصوص، أو أداء شعائر وما يشبه ذلك. وهناك زاره طالب كونفوشي، حيث كان جالساً، واسمه هوي كو، خاطبه باحترام، "أيّها المعلّم!" لكنّ المعلّم المحدّق بالحائط أبداً لم يأت بأية حركة توحي بأنّه قد سمع. ظلّ هوي كو واقفاً. لأيّام، هطل الثّلج، وبقي بوذيدارما تماماً كما هو في صمته

مطبق. أخيراً، ليعربَ عن جدّيّة مقصده، سحب الزّائر سيفه وقطع يده اليسرى، قدّمها للمعلّم، هنا التفت الرّاهب.

قال هوي كو "ألتمس أن تعلّمني عقيدة بوذا." فكان الجواب "لا يمكنك بلوغ هذه الغاية من خلال شخص آخر."

"إذاً أرجوك أن تُمكّنَ روحي."

"قدّمها، وسأفعل."

فقال هوي كو "بحثت عنها لسنوات، لكني كلما بحثتُ عنها أعجز عن إيجادها."

فقال الرّاهب وقد أعاد وجهه ليقابل الحائط "إذاً هي في سلام! دعها وشأنها."

عندها أصبح هوي كو أوّل معلّم تشان Ch'an في الصين، بعد يقظته الفجائيّة حول تخطّيه كل معارف وهموم الراهن.

أما المعلّم الثاني الأساسي في مسيرة الأسماء العظيمة في التشان الصينيّة فيُدعى هوي- نينغ (638-713 م.)، كان هذا المعلّم حطّاباً أمّياً كما يلفَنا. وكانت أمّه أرملة، سنَدَ معيشتها بتأمين الحطب. كان واقفاً في أحد الأيام على باب منزل خاص، منتظراً أمراً، حين سمع بالمصادفة شخصاً ما في الدّاخل يرتّل آياتاً من كتاب ماهايانا المقدّس واسمها "قاطع الألماس،" فاجراتشتشيديكا *Vajrachchhedika*. وما سمعه: "أيقظ العقلَ، لا ترهنّه في مكان." وسرعان ما استنار واجتاحته الرؤيا.

وانطلق هوي- نينغ إلى دير 'الخوخ الأصفر' تقوده الرغبة في أن يرفع من سوية فهمه، كان رئيس هذا الدير رجلاً متقدماً في السن يدعى هونغ- جين وكان معلّم الـ تشان الأهم في تلك الحقبة، جمع الشبّان الأمّيين وأوكل إليهم مهمة العمل في المطبخ. بعد ثمانية أشهر، أدرك

هونغ- جين بأن الوقت قد حان وعليه أن يعيّن خلفاً له، فأعلن بأن الراهب الذي سوف يتمكّن من تلخيص جوهر التعاليم البوذيّة في بيت شعري واحد بالشكل الأفضل، سيُمنَحُ عباءة رئيس الدّير ووعاء الالتماس الذي يرمز إلى المنصب الأعلى. كان عدد المتنافسين خمسمئة راهب، وكان بينهم شخص فائق الموهبة، توقّع الجميع أن يحظى باللقب؛ وكان اسمه شين- هسيو. وبالفعل، كانت أسطره الأربعة هي التي تم اختيارها ونقشها على الحائط بجانب باب حجرة الطّعام:

الجسد هو شجرة البوذي

العقل، مرآة لامعة

احرص على مسحهما حتى الطّهر

تنقيتهما من ذرة غبار

تتمثل الفكرة هنا في أن جوهر الطريقة البوذيّة هي التطهير المستدام.

صبي المطبخ الأمي، الذي تعلّم من المسابقة، طلب من صديق أن يقرأ له القصيدة المنقوشة على الحائط؛ وحين استمع، رجاه أن ينقش بجانب تلك الأسطر ما يلي:

ليس الجسد بشجرة البوذي،

وليس العقل مرآة لامعة،

وحيث أن لا شيء في الجوهر،

عَمَّ يُزالُ الغبار؟

في الصّباح التالي سمع رئيس الدير أحاديث الرهبان الحماسيّة، فنزل،

ووقف قبالة القصيدة مجهولة الكاتب، أخذ خُفَّهُ ومسحها بغضب. لكنّه أصاب في تخمين هوية الكاتب، وأرسل تلك الليلة وراء فتى المطبخ، وقدّم له الرداء والوعاء. قال له "لك شارة رهبنتي. والآن ارحل! اهرب! توارَ!"

أصبحت عقيدة شين- هسيو الاعتقاد المؤسس لمدرسة تشان الصينيّة الشماليّة، المستندة إلى فكرة "التعلّم المتدرّج" (تشين- تشياو) ورعاية التعلّم. من ناحية أخرى، أصبح هيو- نينغ مؤسس المدرسة الجنوبية في "التعليم الفوريّ" (تون- تشياو)، مستنداً إلى الإدراك بأن المعرفة البوذيّة تتحقق حدسيّاً، بالتبصُر المباغت. وهنا لم تكن التزامات الدير غير ضرورية فحسب، بل يُحتمل أن تكون عائقاً. وكما أدرك رئيس الدّير، فإنّ عقيدة كهذه ستقوّض في النهاية نظام الأديرة وتدمّر صلاحيّاته. من هنا جاء تنبيهه له بأن يتوارى.

تقول المصادر إن هيو- نينغ لَقّنَ مقولة "انظر في الدّاخل!، فيك يكمن السّر." لكن كيف يمكن للمرء أن يحظى بمعرفة السر دون أيّة دراسة للعقيدة؟

التأمل في أديرة الزّن اليابانية هو الطريقة المفضّلة، يُسترشَد به ويُستوحى منه عبْرَ تتالٍ عجيب لمواضيع تأمّل عبثيّة مفتعَلة وتعرف بـ *كوان koan*. وتُنتقى بالدرجة الأولى من أقوال المعلّمين الصينيين القدامى، على سبيل المثال: "أرني كيف كان وجهك قبل أن يولد أبوك وأمّك!" أو "ما صوت تصفيق الأكفّ؟" لا يمكن الإجابة على الغاز كهذه، إنها تقود الفكر إلى التركيز أوّلاً ومن ثم الحيرة. في الأديرة يأمرُ المعلّمون مرشحيّ التنوير بالانصراف إلى تأمل هذه الألغاز ثم العودة بإجابات. مرّة تلو مرّة يفشلون ويعاد إرسالهم إلى التأمّل بشكل أعمق- حتّى يتحرر الفكر في لحظة مباغتة، ويثبَ إلى الذهن بعفوية جواب سريع. وكما وصلني، يُقال إن *الكوان* المطلق هو الكون المطلَق، وحين تأتي إجابة عليه تتبعها الإجابات الأخرى تلقائياً. كما صرّح د. ت. سوزوكي، فإنّ "الـ كوان ليس

مسألة منطقيّة لكنّه تعبير عن حالة ذهنيّة.[72] إنّه حالة ذهنيّة لتبصُّر عابر للمنطق بحيث يشكّل العبثي ظاهرياً، والمبرمَج بعناية فعلياً، سلسلةً من الهزّات الدّماغية الهادفة إلى التحفيز. وواقع أنّها كانت فعّالة لقرون وقرون هو الجواب على أيّ تساؤل يمكن أن يطرحه ناقد صعب الإرضاء حول قيمتها.

اسمحوا لي الآن أن أقدّم إليكم حكاية رمزية غريبة حديثة عن الحكمة البوذيّة "حكمة الشاطئ الأبعد" - ذاك الشاطئ الذي يقع خلف المنطق، "والذي تعود منه الكلمات دون أن تصله" - والذي سمعتُ به لأول مرة منذ ثلاثين سنة خلت، على لسان صديقي العزيز جداً هينريش زيمر- البوذية، كما سبق وذكرنا، هي وسيلة نقل أو عبّارة تحملنا إلى الشاطئ الأبعد. فلنتخيّل إذاً أنفسنا واقفين على هذا الشاطئ، لنَقُل في جزيرة مانهاتن. متخمين ومشمئزّين منها نحدّق باتجاه الغرب، عبر نهر هدسون، وهناك، انظروا! نرى جيرسي. لقد سمعنا كثيراً عن جيرسي، الولاية الحديقة[73]، وكم سيكون ذلك مختلفاً مقارنة بأرصفة نيويورك القذرة! لا توجد جسور بعد: على المرء أن يعبر بواسطة العبّارة. وهكذا بدأنا بالجلوس في مينائها، نحدّق بتوق إلى جيرسي، متأملين فيها، جاهلين لطبيعتها، لكن نفكّر بها بحماس يزداد اتّقاداً. ثم جاء يوم لمحنا فيه قارباً يقلع من شاطئ جيرسي. يقترب فوق المياه، نحونا، ويرسو حيث نجلس. وعلى السطح عامل من طاقم العبّارة، ينادي، "هل ثمّة أحد ذاهب إلى جيرسي؟" فنصيح "هنا!"

يقدّم العامل يد المساعدة، يقول حين نصل إلى مركبه "متأكدين تماماً؟" ويحذّرنا "لا توجد بطاقات عودة إلى مانهاتن. حين تطأ قدمكم

72 Daisetz Teitaro Suzuki, *Essays in Zen Buddhism (Second Series)*, (London: Rider and Company, 1950), p. 87.

73 لكل ولاية أميركية شعار قصير يدل على أهم ما يميزها، نيوجرسي: الولاية الحديقة، كارولاينا الشمالية: الأولى في الطيران... إلخ (م)

هذا الشاطئ ستكونون قد غادرتم نيويورك إلى الأبد. جميع أصدقائكم، مهنكم، أسَركم، أسماءكم، مكانتكم، كل شيء على الإطلاق. هل ما زلتم واثقين تماماً؟"

من المحتمل أن نكون قد شعرنا بالتهديد، لكنّنا مع ذلك نومئ ونصرّح بأننا واثقون، واثقون تماماً: لقد شبعنا من مدينة اللهو حتّى التخمة.

أصدقائي، هذه هي الطريقة التي تصبح من خلالها راهباً أو راهبة، طريقة البوذيّة الرهبانية، طريقة مريدي بوذا الأوائل، وطريقة بوذيي سيلان وبورما وتايلاند اليوم. ندخل هنا ما يُعرَف "بقارب العبور الصغير" أو الناقل الأكثر ضآلة، "هينايانا *Hinayana*، ويسمّى هكذا لأنّ رغبة الوصول إلى الشاطئ الأبعد لن تصيبَ إلا من هو جاهز ليهجر الدنيا ويصبح راهباً أو راهبة. أما أعضاء المجتمع العادي، غير الراغبين بعد باتخاذ هذه الخطوة القدريّة، فسيكون عليهم أن ينتظروا تجسُّداً فيما بعد (ذلك كل ما في الأمر!)، حين يعرفون المزيد حول تصوّراتهم الفارغة عن أسباب رفاهيّتهم. وهذه العبّارة صغيرة، مقاعدها صلبة، والاسم المنقوش داخلها هو ثيرافادا *Theravada*، "عقيدة القديسين القدماء."

ننطلق، يناولنا العامل مجدافاً، ويبتعد المركب عن الرصيف. فتنده نداء البحّارة: "هوي!" نمضي في الطريق، لكن في رحلة أبعد مما كنا نظن. في الواقع، قد تحتمل الرحلة حيوات عديدة. وها نحن نستمتع بالرحلة، ونشعر بالتفوق إذ نخوضها. نحن المقدّسون، الذين نمخر البحرَ، أناس العبور، لسنا هنا ولا هناك. في الحقيقة لا نعرف، بالطبع، أي شيء عن الولاية الحديقة أكثر ممّا يعرف الحمقى (كما نسمّيهم اليوم) الذين تركناهم على الشاطئ في متاهة فئران نيويورك، لكننا نتجه إلى الدرب الصحيح، وتختلف قوانين حياتنا تماماً عن تلك التي يعيش بها أقراننا في الوطن. بحسب سلّم ارتقاء الـ كونداليني، فنحن في الشاكرا الخامسة، فيشودا، "التطهُّر." مركز نظام الارتقاء. في البداية،

نجده ممتعاً وجذاباً للغاية. لكن لاحقاً، وبالتدريج، وبطريقة مفاجئة، يتحوّل إلى شيء محبط. بل يائس. إذ أنّ هدفه بالكامل هو التخلّص من وعي الأنا. غير أننا كلّما كافحنا أكثر، كلّما بنينا الأنا أكثر، لا نفكّر فعلياً بشيء إلا بأنفسنا: "هل *أنا* أقوم بعملي كما يجب؟" "هل *أنا* أحرز أيّ تقدّم في هذا اليوم؟ هذه الساعة؟ هذا الأسبوع؟ هذا الشهر؟ هذا العام؟ هذا العقد؟" ثمّة أشخاص مفرطون في تعلّقهم بتمحيص ذواتهم إلى درجة يصبح آخر ما يرغبون بالتوصل إليه حقّاً هو التوقف. ومع ذلك، في لحظة عابرة من الذهول عن الذّات، قد تحدث المعجزة فعلاً، ويصل قاربنا إلى الشاطئ، بروح القديسين القدماء. في جيرسي، الولاية الحديقة، النيرفانا، ونترجّل إلى الشاطئ. نترك القارب بكلّ ما هو متاح ومحظور فيه.

لكن فلنع الآن أين نحن. لقد وصلنا إلى ري هوكّاي، شاطئ معرفة الوحدانية، اللامثنويّة، اللاانفكاك، وحين نلتفت لنرى كيف يمكن لشاطئ مانهاتن أن يبدو من وجهة النظر المطلقة هذه... يا للدّهشة! لا يوجد شاطئ "آخر". لا يوجد نهر متشعّب، ولا قارب عبور، لا عامل، لا بوذي، لا بوذا. الفكرة السابقة اللامستنيرة- والتي قبعت بين العبوديّة والحرية، بين الحياة في سجن ونشوة النيرفانا، حيث ثمة مقام يتعرّفه المرء وبدءُ برحلة عبور من واحد إلى الآخر- كانت خادعة، مضللة. فهذا العالم الذي نختبره أنا وأنت هنا ونحن نتألم بمرور الوقت، على مرتبة الوعي ب- جي هوكّاي، هو نعمة نيرفانيّة على مرتبة ري هوكّاي، وكل ما يتطلّبه الأمر هو تحويل تركيز رؤيتنا وتجربتنا.

لكن ألم يكن ذلك هو ما علّمه ووَعدَ به بوذا، منذ خمسة وعشرين قرناً خلت؟ إلغاء الأنوية، الأَثَرة، برغباتها ومخاوفها، وبذلك نبلغ النيرفانا مباشرةً! ونحن هناك منذ البداية. لو علمنا. هذه الأرض بكاملها هي قارب العبور، الذي يطفو منذ البداية في فضاء لا نهائي، والجميع عليه، كما كان، ومنذ البداية، وهُم في الوطن إذاً منذ البداية. هذه هي الحقيقة

التي قد تخطر ببال المرء فجأة، "كاستنارة مباغتة." من هنا جاء الاسم ماهايانا *Mahayana*- "قارب العبور الكبير." "الحامل الأكبر"- في البوذيّة وبهذا التفكير غير المشوي، وهي البوذيّة المعروفة بشكل أوسع في التيبت، والصين في العصور الوسطى، وكوريا، واليابان.

وهكذا فإن ما اكتشفناه الآن هو أن عالم الأشياء المتعددة المنفصلة جي هوكّاي، ليس منفصلاً عن ري هوكّاي. لا يوجد انقسام بين الاثنين. مصطلح *الماهايانا* الياباني لهذه المرحلة من الإدراك هو جي-ري-مو-غي، "الأشياء والوحدة: لا انفصال." ومع تنقّلنا في عالم التعدّد، ندرك أيضاً، "هذا هو الواحد." إننا نختبر كواقع وحدةَ الكلّ. وليس مجرد وحدتنا كبشر ببساطة. لكن أيضاً وحدة مصابيح الضوء المعلّقة في السّقف، وجدران قاعة المحاضرات العريقة، والمدينة في الخارج، مانهاتن، ونعم! حدائق جيرسي أيضاً. نضمّ إلى ذلك الماضي- مواضينا العديدة البائسة- والمستقبل، الماثل اليوم، كثمرة بلوط في شجرة بلوط. فأن نمضي حاملين معرفة وتجربة كهذه يعني أن نعيش فيما يشبه الحلم المدهش.

ليس هذا في النهاية كل شيء، إذ لم تزل هناك درجة للإدراك يمكن اكتشافها، وهي المسمّاة باليابانيّة جي- جي- مو- غي: "الشيء والشيء: لا انقسام": لا انفصال بين الأشياء. التشبيه المقترَح هنا هو لشبكة من الجواهر: حيث يشكّل الكون شبكة هائلة الامتداد بجوهرة عند كل نقطة تقاطع، وكل جوهرة لا تعكس صورة الآخرين جميعاً فحسب بل تنعكس صورتها أيضاً من خلال الآخرين جميعهم. ثمّة صورة بديلة هي إكليل الزّهور. حيث لا تكون زهرة ما "سبباً" لأيّة زهرة من زهرات الإكليل، لكنها مجتمعةً، تشكل الإكليل. عادةً ما نفكّر بالأسباب والنتائج. أدفعُ هذا الكتاب فيتحرّك. تحرّكُ الكتاب لأني دفعته. سبق السببُ النتيجةَ. على الرغم من ذلك، ما السبب في نموّ شجرة البلوط؟ ثمرة البلّوط التي سوف تنبت؟ الذي سيحدث في المستقبل إذاً، هو سبب ما يحدث الآن،

وفي الوقت ذاته، ما حدث في الماضي هو سبب لما يحدث الآن. بالإضافة إلى ذلك، كل شيء في كل آنٍ، هو سبب لكل شيء آخر.

تدعى التعاليم البوذية، استناداً إلى تلك الحقيقة، عقيدة النشوء المشترك. وتفيد بأنه لا ينبغي لوم شيء أو أحد على أيّ شيء يحدث، لأن كل شيء ينشأ بشكل مشترك بين الجميع. وهذا أحد الأسباب الرئيسية لواقع أنني لم أجد في اليابان أيّ استياء، حتى بعد الحرب العالمية الثانية. حيث ينشأ الأعداء بشكل مشترك: إنهم أجزاء من الشيء ذاته. أيضاً القائد وأتباعه هم أجزاء من الشيء الواحد. أنت وأعداؤك، أنت وأصدقاؤك، جميعكم أجزاء من الشيء الواحد، إكليل واحد: "الشيء والشيء: لا انفصال."

لا بدّ أنه فكر سام مهيب. وهو أيضاً الفكرة الملهمة التي تسكن جوانبَ كثيرة من فن الشرق الأقصى البوذي. فعلى سبيل المثال، حين تنظر إلى لوحة يابانية لطائر الكركي، لن ترى ببساطة ما يمكن أن يكون رؤيتك أو رؤيتي عن طائر الكركي، بل ترى الكون، كانعكاس لـ ري هوكاي، الوعي البوذي الواحد لكل الأشياء. أضف أنه يمكن النظر إلى أي شيء، ويمكن اختباره بهذه الطريقة.

جاء راهب إلى تشي-آن من يين-كوان. وسأل "من هو فيروتشانا بوذا؟"

قال المعلّم، "هلاّ تكرّمتَ وأتيتني بالإبريق؟"

فأتى الراهب بالإبريق إلى المعلّم، الذي طلب بدوره من الراهب أن يعيد الإبريق إلى حيث وجده. ففعل الراهب وطلب من المعلّم مجدّداً أن يخبره عن فيروتشانا.

فردّ تشي-آن، "لقد رحل منذ وقت طويل."[74]

74 Adapted from ibid., p. 72.

هذا هو في النهاية ما يعنيه مصطلح بوذيي الماهايانا زِنْ < تشان < ديانا = "التبصُّر." هي طريقة في التفكُّر يمكن الاستمتاع بها سواء أثناء المشي، أو العمل، أو التنقّل في هذا العالم، أوأثناء الجلوس في وضعية زهرة اللوتس، محدّقاً في الحائط أو في لا شيء، على طريقة بوذيدارما. إنها طريقة للمشاركة، للعيش بسرور في الحياة الدّنيا، في العالم ومنه، حيث تكون جهودنا لكسب قوتنا هي التزامنا؛ كذلك تربية أبنائنا، تفاعلنا مع معارفنا، أفراحنا وأتراحنا. وقد تمثَّلَ ت. س. اليوت الفكرة في مسرحيته *حفل كوكتيل*- والتي تضمنت العديد من الاقتباسات المقنَّعة من النصوص البوذيّة- ورسمها ضمن سياق دائرة اجتماعية حديثة. وفي اليابان في العصور الوسطى كانت هذه هي بوذية الساموراي. يمكن لمس تأثيرها حتى هذا اليوم في فنون الدّفاع اليابانيّة: المصارعة، المبارزة بالسيوف، الرّماية، وبقية هذه الفنون. وبنفس الدّرجة في فن الحدائق، تنسيق الزهور، الطبخ، وحتّى تغليف الطّرود وتقديم الهدايا. هذه البوذيّة هي قيد العمل، وأسلوبها هو "أسلوب القرد." جيريكي، "القوّة الذّاتيّة." وقد أُدّيَتْ بالعلاقة مع ما لا نعتبره في جزئنا من العالم مسائلَ دينيةً سديدة، بل حتى أكثر تأنٍّ ومثابرة بما يتعلق بكل مجالات الحياة. وتمثّل في الحقيقة ما يكاد يكون الميزة الأهم للجمال الخارق للحضارة اليابانيّة. الفقر الشامل، المعاناة، القسوة، والمظالم، كلّ ملحَقات الوجود في وادي الدّموع هذا، كلّها ماثلة هناك بدرجة كبيرة- كما في كلّ مكان، وستبقى كذلك، عالماً بلا نهاية. لكن ثمّة مخرج من هذه المعاناة. وهو النيرفانا. والنيرفانا هي هذا العالم بذاته، حين تعيشه دون رغبة ودون خوف، كما هو فحسب: جي- جي- مو- غي. إنّه هنا! إنّه هنا!

باختصار: هناك حكاية شعبية هندية درَجَ راماكريشنا على روايتها، ليشرح مدى صعوبة الاحتفاظ بمرتبتيّ الوعي في العقل في آنٍ معاً، المتعدد والعابر. تقول الحكاية إن شاباً طموحاً تمكّن بفضل معلّمه من الوصول إلى إدراك ذاته ككيان مطابق في الجوهر مع القوّة التي تنهض

بالكون والتي نعرفها في التفكير الديني الأسطوري بـ"الله." وإذ تأثّر الشاب بذلك بالغ التأثّر، تسامى برؤياه لنفسه حتّى اعتبرها متوحدة مع إله وكينونة الوجود، وأوغلَ مبتعداً في حالة انغماس عميق، وحين عبَرَ وهو في تلك الحالة القريةَ ثم الطريقَ الذي تلاها، شاهد فيلاً ضخماً مُقبلاً نحوه، وكان على ظهر الفيل هودج ومعه الفيّال، السائس، يمتطي رقبة الفيل فوق رأسه كما جرت العادة، ثم وهو يتأمل في فكرة "أنا الله، جميع الأشياء هي الله." ومترقّباً ذاك الفيل الجبّار آتياً نحوه، أضاف الشاب المرشّح للقداسة النتيجةَ الطبيعية البديهية "الفيل أيضاً هو الله." ظلّ الحيوان يتقدّم بخطى ثابتة، بأجراسه التي تجلجل بالإيقاع المهيب لطريقة سيره، وبدأ الفيّال فوق رأسه يصيح، "ابتعد عن الطريق! ابتعد عن الطريق، أيّها الأحمق! ابتعد عن الطريق!" ولم يزل الشاب في نشوته يفكّر "أنا الله، الفيل هو الله." وانبرى قائلاً حين سمع صيحات الفيّال: "هل على الله أن يخشى الله؟ هل على الله أن يبتعد عن طريق الله؟" بقي الكائن المهول يقترب بثبات والسائق على رأسه يتابع الصياح في الشّاب أن يبتعد، وظلّ الأخير في تأمّله الذاهل ساكناً، متشبثاً بمكانه على الطريق وبتبصّره الماورائي، حتّى وصلت لحظة الحقيقة، ولفّ الفيل ببساطة خرطومه العظيم حول المخبول، وألقاه على جانب الطريق.

مصدوماً جسديّاً، ومذهولاً روحيّاً، ارتمى الشاب في مكانه متكوّماً على نفسه، دون رضوض تُذكَر، لكن لا يمكن القول بأنه على ما يُرام. وقف دون حتّى أن يعدّل من هندامه وعاد مضطرباً إلى معلّمه، ليطلب تفسيراً. قال للمعلّم شارحاً موقفه، "قلتَ لي إنّي الله." فأجاب المعلّم "نعم، أنت الله." "قلتَ لي إن جميع الكائنات هي الله." فأجاب المعلّم مجدّداً "نعم، جميع الكائنات هي الله." "إذاً كان الفيل هو الله؟" فكان رد المعلّم "نعم، كان الفيل هو الله. لكن لمَ لَم تستمع إلى صوت الله، يصيح عليك من على رأس الفيل لتبتعد عن الطريق؟"

8
ميثولوجيا الحب
(1967)

يا لها من ثيمة مذهلة! ويا لَعالم الأساطير المذهل الذي يجده المرء في الاحتفاء بهذا اللغز الكونيّ! فالإغريق مثلاً، كانوا ينظرون إلى إله الحب إيروس باعتباره أقدم الآلهة، لكن في الوقت ذاته أصغرهم عمراً، يولدُ فتيّاً بعيون لامعة أبداً في كل قلب محب. بالإضافة إلى ذلك، وُجدت حالتان للحب، بحسب أساليب تجسّد هذا الإله، بوجهيه الأرضي أو السماوي. فقد رأى دانتي، مقتفياً النموذج الكلاسيكي، بأن الحبّ عذاب يدور لأجله الكون، من أعلى مقرّ للثالوث الأقدس في السماء إلى أخفض نقطة في حضيض الجحيم. كما كانت إحدى أجمل الصور التي رأيت حول الحب صورة فارسية. رسَم فارسي مبهم للشيطان بصفته العاشق الأشد إخلاصا لله. ولعلكم سمعتم بالأسطورة القديمة، حين خلق الله الملائكة، أمرهم بألا يعبدوا إلاه، لكن لاحقاً حين خلق الإنسان، أمرهم بأن يسجدوا إجلالاً له كأكثر مخلوقاته نبلاً. فسجدوا إلا إبليس فقد أبى. بسبب كبريائه، كما تقول الروايات التي نعرفها، لكن وفقاً لهذه القراءة الإسلامية لحالته، كان الأمر بسبب حبه العميق وعشقه العظيم لله بحيث لم يتمكن من السجود لأحد غيره. ولذلك قُذفَ به إلى الجحيم، وحُكمَ عليه بأن يبقى هناك للأبد، بعيداً عن معشوقه.

ويقال بأن أشدّ عذابات الجحيم ليست النّار ولا النّتانة، بل الحرمان من رؤية لله التي تجلب المسرّة. فكم هو لا نهائيّ ألمُ نفي هذا العاشق العظيم، والذي لم يتمكن من إجبار نفسه على الانحناء أمام كيان غير الله، حتّى حين أمره الله نفسه بذلك!

وقد تساءل الشعراء الفرس "ما القوّة التي تغذّى عليها الشيطان؟" ووجدوا الجواب كالتالي: "هي ذكرى صوت الله حين قال /اذهب!/" يا لها من صورة للعذاب الروحي الفريد والتي هي نشوةُ الحب ولوعته في نفس الآن!

من الدروس الفارسية الأخرى حياة وكلمات المتصوّف الزاهد الحلاج، الذي عُذّبَ وصُلبَ عام 922م لإعلانه بأنه هو ومعشوقه- الله- قد توحّدا. قارن الحلاج حبّه لله بحبّ الفراشة للهب. تطير الفراشة بمرح حول المصباح المضيء حتى الفجر، وتعود بأجنحتها المرفرفة إلى صديقاتها، لتخبرهم عن الشيء الجميل الذي وجدت، والذي ترغب بالاتّحاد معه كلّياً. ثم تطير إلى اللهب الليلة التالية، وتتّحد فيه.

تتحدث استعارات كهذه عن نشوة لا بدّ أن كلّ امرئ منّا ربما عاشها أو تخيّلها في وقت ما، بطريقة أو بأخرى، وبكثافة، أو بكثافة شديدة. لكن يوجد وجه آخر للحب، يمكن للبعض أيضاً أن يكون قد اختبره، وهو مشروح في النص الفارسي كذلك. يعود هذا الوجه إلى أسطورة زرادشتية عن الأبوين الأولين للجنس البشري، اللذين يصوّران على أنهما انبثقا من الأرض على شكل قصبة واحدة، ملتحمّين لدرجة أن المرء لا يستطيع تفريق أحدهما عن الآخر. ومع الوقت، انفصلا، ثم مجدّداً مع الوقت اتّحدا، ووُلدَ لهما طفلان، أحبّاهما بحنان شديد إلى درجة أنّهما لم يستطيعا مقاومة أكلهما. أكلت الأم طفلاً، بينما أكل الأب الطفل الثاني، عندها ولحماية الجنس البشري، خفّف الله من قدرة الرجل على الحب بنسبة تسعة وتسعين بالمئة. كان لهذين الزوجين بعد ذلك سبعة أزواج من الأولاد، نجوا كلهم. والحمد لله!

تتفق فكرة الإغريق عن الحب بأنه أقدم الآلهة، مع نظيرتها في الهند، أسطورة بريهادارانياكا أوبانيشاد العريقة آنفة الذكر، التي تتحدث عن الكائن الأول كقوّة بلا اسم أو شكل، والذي لم يمتلك أدنى وعي لذاته في البداية، لكنّه بعدئذ فكّر، "أنا I." *aham*، وعلى الفور شعر بالخوف من أنّ الأنا me" التي أصبحت الآن في ذهنه قد تُقتَل. ثم فكّر بطريقة منطقية، "بما أنني الموجود الوحيد، فلماذا أخاف؟ أتمنّى لو وُجد كائن غيري!" وما لبث أن انتفخ وانقسم، وأصبح كائنين، ذكراً وأنثى، ومن هذا الزوج البدئي جاءت سائر المخلوقات على هذه الأرض. وحين اكتمل كلُ شيء، نظر الذكر حوله ورأى العالم الآتي من نسله، فكّر، ثمّ قال، "أكلّ هذا هو أنا!"

معنى هذه القصّة، أن هذا *الكائن البدئي*، السّابق لأيّ وعي. والذي فكّر بالبداية "أنا!" وخاف، ثمّ رغب. هو المادّة المحفّزة والمحرّكة داخلَ كلّ منا في حيواتنا المحفزّة اللاواعية. والدّرس الثاني للأسطورة، أن تجربتنا في الاتّحاد في الحبّ هي التي تجعلنا نشارك في عمليّة الخلق المبدعة لكلّ الكائنات. ذلك أن انفصالنا، وفق وجهة النظر الهنديّة، عن بعضنا على الأرض في المكان والزمان-أي تعدّدنا- ليس إلا جانباً ثانويّاً مضلّلاً للحقيقة، حقيقة أننا في الجوهر ننتمي إلى كيان واحد، أساس واحد، ونعرف ونختبر تلك الحقيقة في نشوة الحب، بانطلاقنا خارج ذواتنا، وخارج حدودها.

ننتقل إلى الفيلسوف الألماني العظيم شوبنهاور، حيث عالج في مقال مذهل حول "أساس الأخلاق،" هذه التجربة الروحيّة الفائقة. سُئلَ، كيف يمكن للمرء أن ينسى نفسه وأمانه ببساطة ليضع هذه النفس وهذه الحياة في خطر لكي ينقذ كائناً آخر من الموت أو الألم. كما لو كانت حياة هذا الكائن الآخر هي حياته ذاتها، والخطر الذي يتعرض له ذاك الآخر خطر يصيبه هو؟ يجيب شوبنهاور عن ذلك بأنّ المنقذ يتصرّف وفق إدراك غريزيّ لحقيقة أنّه وذاك الآخر واحد. لم ينتقل من

وعي ثانوي أقلّ شأناً لنفسه ككيان منفصل عن الآخرين، بل من تجربة مباشرة مع الحقيقة الأصحّ والأعظم، بأنّنا جميعاً واحد في أساس وجودنا. أطلق شوبنهاور على هذا الحافز اسم "الشفقة *Mitleid*،" ويعرّفها بأنها الملهمة الوحيدة للفعل الأخلاقي الفطري، وهي مترسخة، برأيه، في البصيرة المشروعة ماورائياً. للحظة يكون المرء غيريّاً، بلا حدود، بلا *أنا*. لقد تسنّى لي مؤخّراً التفكير مراراً بكلمة شوبنهاور هذه، عند مشاهدتي في نشرات الأخبار لحالات الإنقاذ البطوليّة بالطائرات المروحية، تحت إطلاق النّار في فييتنام، حيث يصاب شبّان في مناطق العدو، فيهرع زملاء لهم لإنقاذهم، متناسين أمر سلامتهم الشخصيّة، معرّضين أرواحهم الشابّة للخطر كما لو كانت هذه الأرواح التي يهرعون لإنقاذها أرواحهم الخاصّة. إنّها ترجمة *أصيلة* لفعل الحب، إن كنّا نبحث حقّاً عن مثال معاصر لذلك.

في الهند، هناك صيغة تتألف من خمسة درجات من الحب في المعرفة التقليدية الدينية. يرتقي العابد وفقها في خدمة الرب ومعرفته - بالمعنى الهندي، في إدراكه لتماهيه مع ذلك الكيان المطلق، والذي قال في البدء "أنا" ومن ثمّ أدرك، "أنا هو هذا العالم!" وأوّل درجة من درجات هذا الحب هي خدمة الربّ: "إلهي، أنت مولاي، وأنا عبدك. فمُرني، أُطِعْ [*لك الأمر ومني الطاعة*]!" وبحسب التعاليم الهنديّة هذا هو الموقف الديني المناسب لمعظم عبَدَة الآلهة، أينما كانوا في العالم. أما الدرجة الثانية في الحب، فهي حب الصديق للصديق، والذي تمثّل في التقليد المسيحي بعلاقة يسوع مع حوارييه. فقد كانوا أصدقاءه. كان بإمكانهم أن يتناقشوا وحتى أن يتجادلوا في شتى المسائل. لكنّ حبّاً كهذا يتضمّن جهوزيّة أعمق للفهم، وتطوّراً روحيّاً أعلى من الحالة الأولى. ويتجلى ذلك في الكتب الدينية الهنديّة في الحوار العظيم في *باغافاد غيتا* بين أمير باندافا المسمّى أرجونا وسائق مركبته الإلهي، الإله كريشنا. يلي ذلك الدرجة الثالثة من الحب وهي حب الأهل للولد، والتي تظهر في العالم

المسيحي في صورة مهد الميلاد. هنا ينقش المرء في قلبه الطّفل الإلهي الداخلي الممثّل لحياته الروحيّة اليقظة. بمعنى كلمات مايستر إيكهارت حين خاطب جماعته: "إن ولادة الله روحيّاً من العذراء أو الروح الطيّبة وحدها تكتسب قيمة أكبر بالنسبة إليه مما لو وُلِد جسدياً من مريم." وأيضاً: "أن هدف الله المطلق هو النسل. لن يشعر بالرّضا حتى يأتي بابنه المولود منّا." وفي الهندوسية، تُفسّر هذه الفكرة بأجمل طريقة من خلال العبادة الشعبية "للصّ الزبدة" الصغير المشاغب، كريشنا الرّضيع بين الجموع التي ربّته. وفي العصور الحديثة، نجد قصّة المرأة المضطربة التي سبق ذكرها، والتي جاءت إلى القدّيس الهندي الحكيم راماكريشنا، قائلة، "أيّها المعلّم، لا أعتقد بأنّي أحب الله." فسألها، "هل ثمّة مَن تحبّين؟" فأجابت، "ابن أخي الصّغير." فقال لها المعلّم، "إذاً ذلك هو حبّك لله وخدمتك له، من خلال حبّك وخدمتك لهذا الطفل."

أما الدرجة الرابعة للحب فهي حبّ الزوجين أحدهما للآخر. نجد مثلاً أن الراهبة الكاثوليكيّة ترتدي خاتم زواج كناية عن زواجها الروحي بالمسيح. وهكذا يكون كلّ زواج بدافع الحب روحيّاً. عبّرت عن ذلك الكلمات التّالية المنسوبة ليسوع، "سيكون الاثنان جسداً واحداً." حيث أن "الشيء الثمين" إذاً ليس الآن هو الشخص ذاته، أو حياة الشخص الفرديّة، وإنما مجموع الشخصين، وعيش الحياة متخطّين لذواتهم الفرديّة من خلال تلك المعرفة. في الهند، على المرأة أن تعبد زوجها كسيّد لها، ومقياس تديّنها يكون بمقدار خدمتها له. (لكنّنا بالمقابل لا نسمع هناك شيئاً من هذا القبيل عن واجبات الزوج تجاه زوجته.)

وفي النّهاية، ما هي الدّرجة الخامسة والأعلى بين درجات الحب، وفقاً لهذه السلسلة الهنديّة؟ إنها الحب الشغوف المحرّم. ففي الزواج، كما هو معروف، يبقى المرء مسيّراً بالمنطق. يبقى المرء متمتّعاً بملذّات الحياة الدّنيا ومكانته فيها، ثروته، مركزه الاجتماعي، وما شابه. علاوة على ذلك، الزّواج في الشّرق هو تدبير أُسَري، لا علاقة له على الإطلاق

بما نعتقد به اليوم في الغرب على أنّه الحب. ويمكن لنوبة من الشغف في الحب، ضمن هذا السّياق، أن تكون محرّمة فقط، لما تحدثه من خَرق في نظام حياة المرء المقترنة بالواجب والفضيلة، كعاصفة مدمّرة. ويمكن لهدف حبّ كهذا أن يكون فقط كهدف حبّ الفراشة في مثال الحلاج: أن تتبدّد في نار الحب. وفي أسطورة الإله كريشنا، يقدّم المثال على أنّه التّوق الشغوف للإله الشاب المتقمّص لعشيقته المتزوّجة الفانية، رادها Radha. وفي توقها إليه هي الأخرى. لنقتبس مجدّداً من راماكريشنا الزاهد، والذي كان عاشقاً من هذا النّوع في إخلاصه للإلهة كالي: حين يحب المرء الله بهذه الطّريقة، مضحّياً بكل شيء لرؤية وجهه، يمكنه القول "يا الهي، أظهر نفسك الآن!" وسيكون *واجباً* على الله أن يستجيب.

في الهند أيضاً، توجد قصة عن الإله كريشنا وهو ينفخ في نايه ليلاً وسطَ غابة فريندافان، وعلى صوت أنغامه التي لا تقاوَم ستتسلّل الزوجات الشّابّات من أسرة أزواجهنّ، وسيمضين خلسةً إلى الغابة المضاءة بنور القمر، وسيرقصن طوال الليل مع إلههن الشاب في سعادة قصوى.

الفكرة الكامنة هنا هي أن المرء في نشوة الحب، يتخطّى القوانين والعلاقات الدنيويّة، التي تختصّ فقط بالعالم الثانوي فحسب، عالم الانفصال الظّاهري والتعدّدية. وبالرّوحيّة ذاتها، يعظ القدّيس برنارد من كليرفو في القرن الثاني عشر حول سفر نشيد الأنشاد في الكتاب المقدس، إذ قدّم النصّ توق الرّوح لله بما يتخطّى القوانين والمنطق. وأيضاً، إن الانفصال والصّراع المؤلمين بين الالتزام الأخلاقي والمنطق من جهة، والحبّ الشغوف من جهة أخرى، قد شكّلا مصدراً للقلق المسيحي منذ البداية، على سبيل المثال كتب القدّيس بولس الطرسوسي إلى أهل غلاطية "أنّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ مَوْتٌ وَلَكِنَّ اهْتِمَامَ الرُّوحِ هُوَ حَيَاةٌ وَسَلاَمٌ."

رأى أبيلارد المعاصر للقديس برنارد، بأن أعلى مثل عن حب الله للإنسان تجسّد في نزول ابن الله على الأرض ليصبح جسداً ثم تقديم

نفسه للموت على الصّليب. وفي التأويل المسيحي لطالما مثّل صَلب المخلّص إشكالية كبيرة: حيث أن يسوع قَبِلَ موته طواعيةً بحسب المعتقد المسيحي. فلماذا، بحسب وجهة نظر أبيلارد، لم يكن الأمر كما طرحه بعض معاصريه، فدية دُفعَت إلى الشيطان، "ليعتقَ" بني البشر من قبضته، وليس كما طرح آخرون، كعطيّة للأب، "ككفّارة" عن خطايا آدم؟ لكنّه كان فعل افتداء ذاتي إرادي في الحب، يهدف لخلق استجابة لدى بني البشر بحيث يُردّ الحب لديهم من مشاغل الحياة الدنيا إلى الله. ويمكن أن نفهم من قول للصوفي مايستر إيكهارت بأن المسيح قد لا يكون عانى جرّاء فعل الحب هذا، حيث قال: "لذلك الذي يعاني في سبيل شيء غير الحب، فالمعاناة معاناة ويصعب احتمالها. لكنّ الذي يعاني في سبيل الحب لا يعاني، وفي انظار الله معاناته مثمرة."

بالفعل، يبدو لي أن صُلْبَ الفكرة القائلة إن الله قد نزل إلى الدنيا بحبّ ليحفّز بالمقابل حبّ الإنسان لله، يتضمن معنى مناقضاً تماماً لقول القدّيس بولس الذي استشهدتُ به. إذ يبدو لي بأنه ينطوي على فكرة أن توق بني البشر إلى نعمة الله، شبيه بتوق الله إلى إجلال بني البشر، فالتّوق هنا مُتبادَل. وستبدو صورة المصلوب كإله حقيقي وكإنسان حقيقي تُعيد التركيز على النموذج المتطابق للتضحية المتبادَلة. ليس بطريقة الكفّارة بالمعنى العقابي، بل بمعنى الزواج. وأكثر من ذلك: حين نوسّع المعنى ليس لنرمّز مجرد اللحظة التاريخيّة التي صُلِبَ فيها المسيح في جلجلته، بل للسر الباقي عبر الزمان والمكان عن حضور الله ومشاركته آلامَ جميع الكائنات الحيّة، سيُنظَرُ عندها إلى إشارة الصليب كإشارة تأكيد أزليّ لكلّ ما هو كائن، لكلّ ما كان، ولكلّ ما سوف يكون. يعتقد المرء بأن كلمات المسيح الواردة في الإنجيل الغنوصي وفقاً لتوما: "شقّ قطعة صوف، ستجدني، أرفع حجرة، ستجدني." وأيضاً كلمات أفلاطون في محاورة *طيماوس Timaeus*، حيث يصرّح بأنّ ذلك الوقت هو "الصورة المتحرّكة للأبديّة." أو مجدّداً، كلمات ويليام بليك: "الأبديّة

هي في الحب مع مرور الوقت." وثمّة مقطع لا يُنسى في أعمال توماس مان، حيث يحتفي بالإنسان باعتباره (*لقاء ساميًا* -*eine hohe Begeg-nung*) بين الروح والطبيعة في توق أحدهما المتبادَل إلى الآخر."

بينما يستطيع بعض الفلاسفة الأخلاقيين أن يجدوا ثمة إمكانية للتمييز بين عالمين ومُلْكَين، واحد للجسد، وآخر للرّوح، واحد للزّمن، وآخر للأبديّة- أبديّة. بذلك يمكننا القول بثقة إنه حيثما يظهر الحب، تختفي تعاريف كهذه، ويستيقظ معنى للحياة لتتحد بموجبه كل تلك المتناقضات.

وتعتبر البوديساتفا أفالوكيتيشفارا، والتي سبق لنا مناقشتها إلى حد معقول، أكثر تجسيد شرقيّ يحظى بالاحترام واسع النطاق لهذا الموقف المؤكّد للدنيا، المتخطّي للمتناقضات، وهي الصورة التي تنطوي على شفقة بلا حدود، وتعرف في الصين واليابان باسمَي كوان يين، كوانّون. وفي حين أن بوذا قد رحل في ختام حياته التي قضاها في الوعظ، دون أن يقيّض له العَوْد أبداً، إلا أن هذا *الشَّفَوقي* غير المحدود يمثل على مرّ الأزمان سرّ معرفة الانعتاق الأبديّ رغم العيش، وهو الذي أنكر على نفسه ذلك الانعتاق الأبدي ليبقى دائماً في دوّامة التجسّد الأزلية. وللمفارقة فإن الانعتاق الذي يُدرّس بهذه الطريقة لا يتحقق من خلال الهروب من الدّوامة، بل من خلال المشاركة الطّوعيّة الكاملة في كلّ أحزانها- تحت تأثير الشفقة، حيث بالفعل، يتحرر المرء من الذات عبْرَ الغيريّة. ومع التحرّر من الذات يأتي التحرّر من الرغبة ومن الخوف. وكما تحرر بوذيساتفا بهذه الطريقة، كذلك نتحرّر أبداً، وفقاً لمقياس خبرتنا باكتمال الشفقة.

يقال إن الطعام الإلهي ينسكب من أصابع بوذيساتفا حتّى إلى أعمق حُفَر الجحيم، ماحياً الراحة هناك للأرواح التي لم تزل محبوسة في زنازين العذاب التي هي عواطفهم. وقد أخبرونا أيضاً، بأننا من خلال تعامل أحدنا مع الآخر نحن وكلاء له، مُدركين بذلك أم لا. ليس هدف

البوديساتفا تغيير هذا العالم الدنيوي المؤقّت، ولا كما نحب أن نقول "تحسينه". فالصراع، والتّوتّر، والهزائم والانتصارات، كلّها من الطّبيعة الأصيلة للأشياء، وما تفعله بوذيساتفا هو المشاركة في طبيعة الأشياء. إنها خيْرةٌ بلا غرض. وبما أن الحياة بكاملها حزينة، ولا بد لها أن تكون كذلك، لا يمكن للحل أن يكمن في الانتقال- أو "التقدّم"- من حياة لأخرى، لكن في تبديد عنصر المعاناة نفسه فحسب، والذي هو فكرة الحفاظ على الأنا كما رأينا. هذه الأنا الملتزمة بمفاهيمها حول الخير والشر، الحقيقي والمزيّف، الصحيح والخاطئ، والتي تتبدّد تفرعاتها الثنائيّة، كما رأينا أيضاً، في النبض الماورائي للشفقة.

الحبّ كـ شغف، والحبّ كـ شفقة: هذان هما القطبان المتطرّفان لموضوعنا. غالباً ما قُدّما كشيئين متعارضين تماماً، جسدي وروحي على التوالي، لكنّ الفرد يتمزّق في كليهما ليخرج من نفسه وينفتح على تجربة الهويّة معادة الاكتشاف في صيغة أعظم وأقوى. وفي كليهما، علينا أن نتعرّف على إيروس، الإله الأقدم والأكثر فتوّة: هو ذاته الذي تخبرنا الأسطورة الهنديّة، بأنه في البداية سكب نفسه قُدُماً في عمليّة الخلق.

أمّا في الغرب فإن أبلغ تعبير عن الحبّ كشغف يتبدّى دون منازع في أسطورة جرعة الحب بين تريستان وإيزولت، حيث أن عبثية والتباس اللغز هما محطُّ التقديس: عذاب متعة الحب، واستمتاع العاشق بعذابه، الأمر الذي تختبره القلوب النبيلة، لكأنّه الطّعام الإلهي في الحياة. فلنقتبس من أعظم الشعراء الذين كتبوا عن تريستان، وهو غوتفريد فون ستراسبورغ، والذي اعتمد فاغنر على نسخته من القصّة ليؤلّف الأوبرا الشهيرة، إذ يقول: "لقد أخذت على عاتقي عملاً نابعاً من حب العالم ينشد راحة القلوب النبيلة: تلك الأثيرة لديّ، والعالم الذي يلهف إليه قلبي." ثمّ يضيف: "ولا أعني العالم العادي، عالم أولئك الذين (كما سمعت) لا يستطيعون تحمّل الحزن والرّغبة إلا ليتنعّموا بالسعادة. (فليغمرهم الله بالسعادة إذاً!) فحكايتي لا تتوجه إلى عالمهم

وأحوال حياتهم: حياتهم وحياتي منفصلة كلّ عن الأخرى. في ذهني عالم آخر، عالم يحمل في قلبٍ واحد حلاوته المرّة وحزنه العميق، متعة القلب ولوعة الاشتياق، حياةٌ عزيزة وموتاً حزيناً، موتاً حزيناً وحياة عزيزة. فَدَرُوني في هذا العالم هائماً في عالمي، ملعوناً به، أو ناجياً."

ألا نلمس هنا صدى المعنى الكامنَ ماورائيّاً لتآلُف وارتقاء الأضداد والذي وجدناه بطبيعة الحال مرمّزاً بشخص الشيطان في الجحيم، والمسيح على الصّليب، والفراشة التي يحرقها اللهب؟

غير أننا نجد في تجربة العصور الوسطى الأوروبيّة وفهمها للحب نغمة مختلفة كلّيّاً عمّا هي عليه في الشّرق، الشرق الأدنى أو الأوسط أو الأقصى. يتجلى هذا المزاج في ما نراه في أعمال غوتفرايد والشعراء الذين كتبوا عن تريستان، وأيضاً في أعمال الشّعراء الغنائيين في فرنسا وإيطاليا. والشعراء الغنائيين الألمان Minnesingers في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر. تتساوى نوعيّة "التعاطف" البوذيّة كارونا karuna، بشكل رئيسي، مع المحبة *agape* المسيحية، والتي تتلخّص في وصيّة المسيح بأن *أحبّ جارك كما تحبّ نفسك*. بل وما وراء ذلك، في الكلمات التي أعتبرها ذروة السّموّ والنّبل والشّجاعة، في التّعاليم المسيحيّة: "أحبوا اعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين[75]."

في كلّ التوصيفات التقليدية العظيمة للحب كالشفقة والمحبة، يوصَف عمل الفضيلة على أنه عام ولا شخصيّ يتجاوز الاختلافات وحتّى الولاءات. ومن جديد يقع هذا الشّكل الأسمى والأكثر روحانيّة للحبّ على طرفي نقيض مع الشّهوة الوضيعة عادةً، أو التي درجت

75 متّى 5 - 43؛ 44؛ 54

تسميتُها "بالمَيْل الحيواني"، والتي هي أيضاً عامّة ولا شخصيّة على حدّ سواء، تتخطّى الاختلافات وحتّى الولاءات. يمكن للمرء، بالفعل، أن يصف الأخيرة بدقّة أكبر ربما، على أنها ببساطة إقبال الأعضاء، الذكوريّة والأنثويّة، المتبادَل بين الجنسين، ويمكن أن نشير إلى كتابات سيغموند فرويد في هذا الموضوع على أنها النصّ الحديث الذي يعرّف حبّاً كهذا. ففي القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر ظهر في أوروبا أسلوب جديد في التعبير عن اختبار الحب، وهذا الأسلوب برز أولاً لدى شعراء التروبادور[76] في إقليم بروفانس، ومن ثمّ وبنيرة جديدة في قصائد الشعراء الغنائيين الألمان، واختلف هذا الأسلوب كلّيّاً عما وجدناه في الأسلوبين التقليديين اللذين سبق ذكرهما. وحيث أنّي أشير إلى هذا الفصل النموذجي والمحصور بأوروبا في موضوعنا كواحد من أهم التحوّلات ليس للمشاعر الإنسانية وحسب، لكن أيضاً للوعي الروحاني لجنسنا البشري، فسأبقى ضمن هذا الموضوع لبعض الوقت، قبل أن أبدأ بالمقطع الأخير من هذا الفصل.

بدايةً، كان الزواج في العصور الوسطى مسألة عائليّة اجتماعية فقط، كما هو دوماً في آسيا، وكما هو الآن عند الكثيرين في الغرب. كان المرء يتزوج بموجب ترتيبات عائليّة. وكانت الفتيات في الأوساط الأرستقراطيّة تحديداً، يُزوَّجن قبل بلوغهنّ، كضمانات سياسية. في حين أن الكنيسة قدّست روابطَ كهذه بتعبيرها المبهم غير اللائق "أن الزوجين بارتباطهما يصيران جسداً واحداً على ما هو من أمر المسيح": الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان". كانت أية تجربة للحب ستدخل ضمن منظومة مثل هذه كذير للكارثة. إذ لم يكن الشخص ليُحرَق على محراب عقاباً للزّنا فحسب، بل سيحترق أيضاً، وفقاً للاعتقاد الحديث، في الجحيم إلى الأبد. ومع ذلك جاء الحب، إلى القلوب النبيلة التي احتفى بها غوتفرايد، لم يأتِ فقط، بل دُعيَ للدّخول. واحتفت قصائد شعراء التروبادور بهذه

76 Troubadours الشعراء الغنائيون الجوّالون.

العاطفة، التي انتمت بنظرهم إلى النعمة الإلهية بل رأوها أعلى حتّى من قرابين الكنيسة، وأسمى من سر الزواج، وحتى لو نُفيتْ من الجنّة، فستتقدّس في الجحيم. وبدتْ كلمة *AMOR* وهي التهجئة المعاكسة للفظة *ROMA* تلخّص بشكل مذهل معنى هذا التناقض.

لكن أين تكمن خصوصية هذا الشكل الجديد للحب، والذي لم يكن محبة *agape* ولا إيروتيكياً *eros*، وإنما عشقاً *amor*؟

كان الجدال حول هذا الموضوع ثيمةً مفضّلة في قصائد شعراء التروبادور، وكان التعريف الأنسب الذي توصلوا إليه هو ما حُفظ لنا في بيت شعري لواحد من أهم شعراء التروبادور، جيرو دو برنوي Guiraut de Borneilh، حيث إن العشق *amor* مُنحازٌ- شخصي ومخصص- يولد *في العيون وفي القلب*.

إذاً، عبر العيون يقنص الحبُّ القلبَ

العيون كاشفة للقلب،

تمضي العيون لتستطلع

ما يمكن أن يسرّ القلبَ امتلاكُه

وحين تصبح جميعها في أُلفة

ويقين، والثلاثة على العَزْم ذاته،

ينولد الحب الكامل

ممّا جعلته العيونُ مرحّباً به في القلب،

بغير ذلك ليس للحب أن يولد أو تُكتَب له بداية،

سوى هذه الولادة وهذه البداية التي يحرّضها الهوى.

لننتبه جيداً: هذا الحبُّ النبيل لا انحيازيّ". انه ليس "أحبَّ جارك كما تحب نفسك أيّاً كان". وليس محبةً *agape*، ولا شفقة. وليس تعبيراً عن الرغبة الشائعة بالجنس، والتي هي أيضاً لا منحازة. إنه من طبيعة لا تنتمي إلى الجحيم ولا إلى الجنّة، ولكن إلى الأرض، راسخة في قرارة فرد دون سواه، وبالتّحديد في نزوع وهوى عينيه: في تلقّيهما صورة إنسانة أخرى محدّدة وإيصال هذه الصورة إلى قلب ذلك الفرد- والذي سيكون قلباً "رقيقاً" أو "نبيلاً" (كما تُنبئنا وثائق أخرى من تلك المرحلة)، قلباً قادراً على الشعور بالعشق *amor* وليس بالشهوة فقط.

وماذا ستكون طبيعة حب يولَد هكذا؟

في السياقات المختلفة للتصوّف الشرقي الإيروتيكي، في الشرق الأدنى أو في الهند، يُنظَر إلى المرأة صوفياً على أنها فرصة للعاشق ليجرّب أعماق ما وراء أعماق التنوير السّامي- التي تشبه إلى حدّ كبير نظرة دانتي لبياتريس- وليس نظرة شعراء التروبادور. كان المعشوق بالنسبة إليهم امرأة، وليس تجسيداً ما لمبدأ الهي، إنما تلك المرأة على وجه التحديد. كان الحب *لها*. وكانت التجربة المَعيشة تنطوي على عذاب الحب الأرضي: كأثر لحقيقة أنه يستحيل بلوغ الاتحاد بالحب اتحاداً كاملاً على هذه الأرض. تكمن متعة الحب في نكهة الأبديّة الكامنة فيه، في ألم الحب، في مرور الوقت، بحيث تكون "حلاوته المرّة وحزنه العميق" (كما قال غوتفرايد) من صلب جوهره. ولأولئك "الذين لا يستطيعون تحمّل الحزن، والرغبة إلا ليتنعّموا بالسعادة،" تكون الجرعة الإلهية لنعمة الحياة العظمى هذه شراباً بالغ القوّة. حتّى إن غوتفرايد ألّه الحبَّ كربّ، *وأتيت بالثاثي المدلّه إلى دير البراري الخبيء*، والمعروف "بالكهف المخصص للعشّاق،" حيث احتلّ سريرُ الحبّ البلّوري الجليل مكانَ المحراب.

أمّا المقطع الذي أعتبره الأشد تأثراً وعمقاً ضمن نسخة غوتفرايد

من الأسطورة، فهو المقطع الذي تُفتتح به أوبرا فاغنر، إنه على ظهر السفينة المبحرة من إيرلندا، حين شرب الثنائي الفتيّ الجرعة بغير حذق، وأصبحا واعيين بالتدريج للحب الذي كان ينمو بهدوء في قلبيهما، فقد كان الخادم المخلص برانجن ترك القارورة المشؤومة بالصدفة دون رقيب، لكنه وجّه إليهما تحذيراً شديد الوقع، "ستكون تلك القارورة وما تحويه موتاً لكليكما!" فأجاب تريستان، "فلتكن مشيئة الله إذاً، موتاً كانت أم حياة. فقد سممني ذاك الشراب بطلاوة. لا أعلم موتَ مَنْ ذاك الذي تخبرني به، لكن هذا الموت يناسبني على أكمل وجه. وإن كانت *Isolt* الطيبة ستستمر في أن تكون قدري بهذه الطريقة. فإني سألتمس بسرور موتاً أبديّاً."

ما رمى إليه برانجن كان موت الجسد فحسب. أما إشارة تريستان لـ "هذا الموت" فقد قصد بها نشوة هذا الحب، والمحتُ إشارته التالية "موت أبديّ" إلى أبديّة في الجحيم. ولم يكن كلام كهذا محموداً لدى الكنيسة الكاثوليكية.

افكّر بتلك الصورة الإسلامية للشيطان، العاشق الكبير لله، في جحيم الله. وحين أستعيد ما يتجاوز ذلك، في ضوء كلمات تريستان، وهو مشهد جحيم دانتي، حين يصف الشاعر مروره في دائرة خطّائي الجسد، فيروي كيف نظر إليهم، رأى بين الأرواح المستغيثة التي تدور في دوّامة من ريح ملتهبة، أرواح أشهر العشاق في التاريخ، سميراميس، هيلين، كليوباترا، باريس، وبالطبع! تريستان أيضاً، يروي كيف تحدّث إلى فرانشيسكا دا ريميني بين ذراعي أخ زوجها باولو، وسأل ما الذي أتى بهذين العاشقين إلى هذه الأبديّة المريعة، فأخبرته كيف كانا يقرآن معاً عن غوينيفير ولانسيلوت، وفي لحظة معينة، نظر أحدهما إلى الآخر، وتبادلا قبلة، مرتعشين كلّياً، ولم يقرآ المزيد من ذلك الكتاب في ذلك اليوم... حين أتذكّر كما قلت، ذلك المقطع الذي يرحّب فيه تريستان بـ"الموت الأبدي،" لا يمكنني إلا أن أتساءل هل كان دانتي محقّاً في اعتباره حالة تلك الأرواح

المعذبة في الجحيم حين أسبغ عليها العذاب المطبق. كانت نظرته كنظرة شخص من الخارج، نظرة شخص حمله حبُّه إلى أعلى قمم الجنّة بينما كان لباولو وفرانشيسكا نظرة شخص من الداخل، بعاطفة من نوع أكثر انقياداً، ولكي نأخذ فكرة عمّن كانت له متعة رهيبة، سنقتبس كلمات حالم آخر، وهو ويليام بليك، في عمله *الزواج بين الجنة والجحيم* يقول: "حين كنت أمضي بين حرائق الجحيم، مسروراً بمتع العباقرة والتي تراها الملائكة عذاباً وجنوناً..." لأن المقصود بأرض الفردوس هو التالي: حين تكون في مكانك الملائم، والذي هو في النهاية، المكان الذي ترغب في أن تكون فيه.

قدّم جان بول سارتر النقطة ذاتها في مسرحيّة لا مَخرَج، حيث مثّل المكان في المسرحية غرفة فندق في الجحيم، بالكاد مفروشة بأسلوب الإمبراطورية الثانية ومع صورة لـ إيروس على رف الموقد. وسيقدم خادم الفندق إلى هذه الغرفة الوحيدة ثلاثة ضيوف دائمين فقط، واحداً تلو الآخر.

كان الأول صحافيّاً مناهضاً للعنف، تعرّض لتوه لإطلاق الرصاص بسبب هربه من الخدمة، وما تطلّبه كبرياؤه في هذه اللحظة بالدرجة الأولى، هو أن يخبره أحدهم بأن محاولة هربه إلى المكسيك ونشر مجلّة مناهضة للعنف فيها يشكلان عملاً بطولياً، وبأنّه لم يكن جباناً. أما الثاني الذي سيدخل الغرفة فهو امرأة سحاقيّة، خسرت حياتها عندما اختفت زوجة شابّة أغوتها هذه المرأة، بعد أن فتحت الغاز سرّاً في شقتها وانتهت معها، مختفتين في السرير. وسرعان ما اشمأزت هذه الوافدة الجديدة من الذكر الجبان الذي سيكون رفيقها هنا إلى الأبد، لم تمنحه هذه المثقفة الباردة أيّ شعور بالطمأنينة التي يرغب. كما لم يمنحه ذلك أيضاً الداخل الأخير، وهي شابّة مهووسة بالرجال أغرقت ابنها غير الشرعي وقادت عشيقها إلى الانتحار.

وكما هو متوقع، اهتمت هذه الأنثى الثانية بالرجل مباشرة، والذي لا يطلب الحب بل التعاطف. فما كان من السحاقيّة إلا أن أغلقت أي باب يمكن أن يوصلَ الآخرَين إلى أيّ اتّفاق، ساعيةً بدورها لإغواء الأنثى الثانية، والتي لم تفهم ولم تهتم برغبات الأولى، وقع الثلاثة في حيرة مربكة حين قدّموا مطالبهم غير القابلة للنقاش واحدهم تجاه الآخر، وبلغ الأمرُ درجةً من الإحباط بدا معها الهرب، بطريقة أو بأخرى، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرغب به المرء في موقع كهذا. يفتح باب غرفتهم المقفل، كاشفاً عن فضاء لازورديّ في الخارج، دون أن يغادر أحد. ثم ينغلق الباب، ويحتجزون للأبد في زنزاناتهم المختارة.

أما برنارد شو فيقول الكثير مما يشبه ذلك في المشهد الثالث من عمله *الإنسان والسوبرمان*: يضم المشهد الآسر سيدة كبيرة العمر صغيرة الحجم، هي ابنة مخلصة للكنيسة الأم، تخبرنا هذه السيدة بأن المشهد الجميل الذي تتمشّى فيه بسعادة لم يكن الجنّة، وإنما الجحيم، فتصبح ساخطة. "أقول لك، أعلم أني لست في الجحيم،" وتُصرّ قائلة، "لا أشعر بأي ألم." فليكن، (يُقال لها) بأنه يمكنها أن تتمشى عبر الهضبة حتى تصل إلى الجنّة إذا شاءت. في كل الأحوال، ثمّة شرط للبقاء وجد الكثيرون أنه لا يُطاق بالنسبة لأولئك السعداء في الجحيم (حذّروها)، ثمّة قلّة معظمهم من الإنكليز- يبقون هناك، ليس لأنهم سعداء، بل لاعتقادهم بأنهم مدينون لوضعهم بأنهم في الجنّة. قال الشخص الذي يكلّمها "يظنّ الإنكليزي أنّه أخلاقي فقط عندما يكون مكدّراً." ومع تلك النكتة الحاذقة، أختم أفكاري بما يخص فكرة هذا الفصل.

أما مرحلة الشفاء فقد رمّزتْ في أسطورة الكأس المقدسة، والتي شفي من خلالها العالم من ارتباكه، بعد أن كان ممزقاً ما بين الشرف والحب، كما سلف في أسطورة تريستان. وقد تجلتْ فوضى المرحلة الروحيةُ العصيّة على الاحتمال إلى أقصى الحدود، في حكاية "الأرض اليباب"- الرمزيّة الواردة في قصيدة ت. س. إليوت التي تحمل الاسم

ذاته، والتي نُشرَت عام 1922، واعتُمدتْ هذه الصورة لتجسيد حالة زمننا المضطرب. فقد وُصِمَ بالفساد كلّ نبض طبيعي في تلك الحقبة من الاستبداد الكنسي، إذ لم تكن ثمة وسائل معترَف بها إلا الـ "كفّارة" التي تُقدّم ضمن طقوس تقيمها سلطات هي بحد ذاتها فاسدة. كان الناس مجبرين على العيش وممارسة الحياة وفق معتقدات لم يؤمنوا بها بالضرورة. وكانت الصدارة للنظام الأخلاقي المهيمن بدلّ دعوات الحقيقة والحب. وتمثلتْ عذابات الجحيم على الأرض في التنكيل بالزانيات، والهراطقة، والأشرار الآخرين، فكانت تمزّق أجسادهم أو يحرّقون في الساحات العامّة. وتلاشى كلّ أمل بأحوال أفضل في طلب ذلك العالم السماويّ الذي تكلّم عنه غوتفريد بتمزّز، حيث سينعم بالسعادة أولئك الذين لا يحتملون أي ألم وأية رغبة، إلى الأبد.

في حكاية الكأس المقدسة، كما قدّمت في *بارزيفال*، عمل فولفرام فون إيشنباخ، معاصر وخصم غوتفريد الأدبي العظيم، يُعزى دمار العالم المسيحي رمزيّاً إلى الجرح البليغ لملك الكأس الشاب أنفورتاس، والذي يعني اسمه "العجز"، وما يُنتظر من جهود فارس الكأس الموعود هو شفاء هذا الشاب الجريح. وقد ورث أنفورتاس بشكل رئيسي، دون أن يستحق بجدارة، المنصب العالي لحراسة الرمز الأعلى للحياة الرّوحيّة. ولم يثبت بشكل مناسب استحقاقه لهذا الدّور، لكنّه بالمقابل لا يزال تحت تأثير طبيعته الفتيّة. وكجميع الشبان النبلاء في تلك الحقبة، ابتعد في أحد الأيام على ظهر حصانه عن قلعة الكأس المقدسة مع صيحة المعركة Amor! وسرعان ما صادف فارساً وشيّاً من أرض ليست بعيدة عن بستان الجنّة المسوّرة، والذي أتى على ظهر حصانه بدوره باحثاً عن الكأس، وكان اسمه منقوشاً على رأس حربته. استلّ الاثنان رمحيهما، واندفع كلٌ منهما باتجاه الآخر، وذُبحَ الفارس الوثني، لكنّ رمحه الذي نقش عليه اسم الكأس، كان قد أخصى الشاب، وبقي رأس الرمح الذي انكسر منغرساً في الجرح المؤلم أيّما إيلام.

رمزت هذه النكبة بحسب تصوُّر وولفرام، إلى الانفصال في العالم المسيحي ما بين الروح والطبيعة: ذلك أن إنكار الطبيعة على أنها فاسدة، قد كرَّسَ ما توجَّبَ أن يوهَبَ كسلطة بشكل *ما* فوق طبيعي، وأنزلَ الدّمار الفعليّ بكلتا الطبيعة والحقيقة نتيجةً لذلك. وبالتالي يمكن التّوصّل إلى شفاء الملك المشوّه فقط من خلال وهبها السلطة لشاب غير مُفسَد بشكل طبيعي، سيستحق التّاج الأعلى من خلال عمل حياته الأصيل وتجربته، محفّزاً بروح حبٍّ نبيل لا يتزعزع، وولاء يتخطّى الصّعاب، وتعاطُف عفوي. فكان هذا الشاب هو بارزيفال. وعلى الرغم من أننا لن نتمكّن من إيراد كامل مسيرته الرمزيّة في هذه الصفحات القليلة، إلا أنه يكفي ذكر أربع من الحلقات الرئيسية لتبيان شحنة رسالة الشفاء التي تحدّث عنها الشاعر.

ترعرع الشّاب النبيل في كنف أمه الأرملة في غابة بعيدة عن عالم القلعة، ولم يعلم بوجود مملكة إلى أن لمح ذات يوم مجموعة صغيرة من الفرسان المسرعين يعبرون مزرعته، فترك أمّه وهرع إلى بلاط الملك آرثر. وهناك تلقّى معارفه في الكياسة والقتال كفارس على يد غورنمانز، وهو رجل عجوز أعجبَ بمواهبه الواضحة وقدّم له ابنته ليتزوّجها. فكّر بارزيفال عندها "لا يجب علي أن أقبل ببساطة، عليّ أن *أستحقّ* زوجتي!" فانطلق بعيداً بعد أن رفض العرض بكياسة وأدب.

أطلق العنان لجواده، وبذلك ترك نفسه ينساق بإرادة الطبيعة (مطيّته) إلى القلعة المسوّرة لملكة يتيمة في مثل عمره، اسمها كوندويرامور (*con-duireamour يوصل إلى العشق*)، والتي أنقذها ببطولة في اليوم التالي من اعتداء آثم قام به ملكٌ يطمع بضم إقطاعاتها عن طريق أسرها ثم زواجها منه. فكانت فيما بعد هي الملكة الشابة الجميلة، هي الزوجة التي استحقّ، ولم يكن ثمّة كاهن ليعقد القران. ورسالة الشاعر وولفرام الشافية هنا، هي أن الحبّ النبيل بنفسه هو سرّ الزواج، والإخلاص في الزواج، هو تأكيد للحب.

أما المسألة الثانية التي خاطب فيها الشاعر نفسه، فكانت إيفاء الطبيعة البشرية حقها- لا قهرها ولا التعالي عليها- من خلال إنجاز الهدف الروحي الأعلى والذي كانت الكأس في العصور الوسطى ترمز إليه- إذ بعد أن واجه بارزيفال التحدّيات اليومية الدّنيويّة- في أمور الفرسان وفي الزواج- أصبح منخرطاً دون قصد في السّياق لم يكن ولن يكون متوقّعاً للمغامرة الروحيّة العليا والتي ترمز إليها قلعة الكأس والشفاء العجائبي لملكها. واشترط القانون الغامض الذي يحكم المغامرة أنّه لكي ينجح البطل، فعليه ألا يعلم شيئاً عن مهمّتها أو قوانينها، بل أن ينجزها جميعاً بعفويّة نابعة من طبيعته. ستبدو القلعة كرؤيا أمامه. سيدخلها عبر الجسر المتحرّك المنخفض وسيُستَقبَل بحفاوة. وستكون مهمّته المتوقّعة منه ببساطة أن يسأل الملك ما الذي يؤلمه حين يدخل القاعة الرسميّة محمولاً على نقّالته. سيشفى الجرح مباشرة، وستصبح الأرضُ اليباب خضراءً، وسيتوّج البطل المنقذ ملكاً.

وبالعودة إلى حادثة وصول بارزيفال واستقباله، فعلى الرغم من شعوره بالتعاطف إلا أنه احتفظ بصمته أدباً، إذ علّمه غورنيمانز بأن الفارس لا يطرح الأسئلة. وهكذا ترك لاهتمامه بصورته الاجتماعية أن يهدئ من اندفاع طبيعته- وهذا بالطبع ما كان يفعله كل إنسان في تلك الحقبة وما كان منشأ كلّ أخطائها.

ولأختصر القصة الطويلة، لكن الفاتنة، على وجه السرعة، كانت نتيجة كتْمه ما أملاه عليه قلبه أن الفارس الشاب المضلَّل- بعد أن احتُقِرَ، وأهين، ولُعن، وتعرّض للسخرية، ونُفيَ من ضواحي الكأس المقدسة- كان مرتبكاً ويلفه العار الشديد لما لحق به فلعن 'القدر' بمرارة لما اعتبره وسيلة خداع مورسَت ضدّه، ومضى على ظهر حصانه لسنوات بمفرده في بحث يائس، ليصل مجدّداً إلى قلعة الكأس المقدّسة ويحرّر ملكها المعذّب. وبالفعل، حتّى بعد أن علم من ناسك في الغابة بأنّ قانون الله قضى ألا يحقق باحث عن القلعة مراده بإيجادها وألا يُمنَحَ من يفشل

فرصةً ثانية، أصرّ الشاب المليء بالتصميم على المضيّ، يدفعه تعاطُفه تجاه الملك المشوّه بشكل فظيع، والذي تركه فشله صريعَ آلام مبرّحة.

لكن ويا للمفارقة، أعقب ذلك نصرُه المؤزر، بسبب ولائه لـ كوندويرامور وشجاعته في المعركة، أكثر مما كان بسبب تصميمه العنيد على إعادة اكتشاف القلعة. كانت المناسبة المباشرة هي وليمة عرس فخمة عظيمة. ضمت سيدات جميلات والكثير من المغازلات الأنيقة في الأروقة الملوّنة. فمضى على ظهر حصانه بعيداً عن كلّ ذلك، ليس نتيجةً لغلوّ خلقي وإنما لعدم استطاعته الانجرار وراء أيّة متعة في هذه الحفلة البهيجة، وصورة كوندويرامور في قلبه (والتي لم يرها طوال تلك السنوات القاسية من سعيه الحثيث)، فانطلق وحيداً إلى البعيد. ولم يكن قد ابتعد كثيراً عندما هجم باتجاهه من غابة قريبة فارس مسلم بارع.

الجدير الذكر هنا أن بارزيفال كان يعلم بوجود أخ مسلم غير شقيق له يكبره في السن، وكان ذلك الفارس أخاه. اصطدم الفارسان وتقاتلا بضراوة. وكتب وولفرام "وكم أحزن لهذا، إذ كانا ولدين من نفس الأب. يمكن للمرء أن يقول "أنهما" كانا يتقاتلان، فيما لو شاء المرء أن يتحدّث /عنهما/ على أنهما اثنان. لكنّ هذين الاثنين، في الواقع كانا واحداً: /أخي وأنا/ جسد واحد، كالزوج الطيب والزوجة الطيبة. يتنافسان هنا نتيجة لولاء القلب، جسد واحد، دم واحد، كان يؤذي نفسه أشدّ الأذى."[77] كان مشهد المعركة خلاصة متحوّلة لمشهد أنفورتاس والوثني. لكنّ سيف بارزيفال انكسر هنا على خوذة منافسه، فأبعد المسلم نصله، متجنباً قتل الفارس الأعزل، وجلس الاثنان في ما يمكن اعتباره مشهد تعارُف.

من الواضح بأن اللقاء المحتدم تضمن إشارة مجازيّة إلى الدينين

77 Wolfram von Eschenbach,*Parzival* XV, 740 (Karl Lachmann edition, Berlin and Leipzig, 6th ed., 1926), pp. 348-349.

المتحاربين في تلك المرحلة، المسيحيّة والإسلام: "ابنان نبيلان، لأب واحد." وللدّهشة، حين توصّلَ الأخوان إلى حالة اتفاق، برز رسول من الكأس المقدسة ليدعو كليهما إلى القلعة. والذي هو تفصيلٌ مذهل ضمن عمل مسيحي في زمن الغزوات الصلّيبيّة! وشفي الملك المشوّه، ونصُب بارزيفال بدلاً عنه. وغادر المسلم إلى بلاده في الشرق بعد أن تزوّج عذراء الكأس (والتي لا تحمل الوعاءَ الرّمزيّ إلا يداها العذراوان)، فحكم هذا المسلم بلادَه بالحقيقة والحب. إذ رأى (كما يقول النص) "بأن على شعبه أن ينال حقوقه."

لكن ببساطة لا بدّ من قراءة *بارزيفال*[78] للكاتب وولفرام فون إيشنباخ. فهو عمل مرح، وظريف، ومختلف بالكامل من ناحية الروح والمعنى عن القطعة الموسيقيّة المملّة لريتشارد فاغنر. فـ *بارزيفال* واحدة من أغنى وأعظم وأكثر أعمال العصور الوسطى الأوروبية تحضّراً. كما أنها أثر خالد أيضاً للقوة المنقذة للعالم التي هي الحب بكلّ أشكاله، بل قد تكون قصّة الحب الأعظم في التاريخ.

وختاماً، اسمحوا لي أن أنتقل إلى كاتب معاصر، توماس مان، والذي سبق له في روايته القصيرة تونيو كروغر *Tonio Kröger*، أن حدّد الحبّ كمبدأ مسيطر في كتابته.

فبطل قصّته الشاب من شمال ألمانيا، والذي تنتمي والدته إلى العرق اللاتيني، وجد نفسه منفصلاً عن رفاقه الشقر زرق العيون، ليس جسدياً وحسب، بل أيضاً من ناحية الطّباع. نظر إليهم من خلال قيد ثقافيّ سوداويّ بالغ الغرابة، لكن مع مزيج من الحسد والإعجاب والحب. بالفعل، في مكان خفيّ في قلبه، تعهّد لهم جميعاً بالولاء الأبديّ. وبخاصّة لشاب ساحر أزرق العينين يدعى هانز وأيضاً إينجيبورغ

78 There is an excellent translation by Helen M. Mustard and Charles E. Passage, published by Alfred A. Knopf and Random House, A Vintage Book, No. V-188.

الشقراء الجميلة، اللذين مثّلا له بشكل لا يقاوم جاذبيّة الجمال البشري والحياة الشابة.

وحين أصبح في عمر مناسب، غادر تونيو الشمال ساعياً لتحقيق حلمه ككاتب، ومع انتقاله إلى مدينة في الجنوب، التقى شابّة روسيّة، تدعى ليسافيتا، وداثرتها من المفكّرين الجدّيين. هناك شعر باللاانتماء، بين أولئك النّقاد الكارهين لعامّة الجنس البشري، الأمر الذي شعر به سابقاً بخصوص موضوعات كانت محط احتقارهم، فأصبح "مواطناً ضائعاً" بين عالمين، كما سمّى نفسه، ومبتعداً عن هذا المشهد الثاني أرسل إلى ليسافيتا العصيّة بياناً يعلن فيه عقيدته كفنّان.

لقد اكتشف بأنّه يمكن للكلمة الصواب، *le mot juste*، أن تجرح، بل حتى أن تقتل. على الرغم من ذلك فإن واجب الكاتب يحتم عليه أن يلاحظ، وأن يسمّي بدقّة: الجرح، أو حتّى القتل. إذ ما يجب أن يسمّيه الكاتب في الوصف هو حتماً النقائص. فليس ثمّة من كمال في الحياة، وإن وُجد، فسيكون غير مرغوب، ربما ينال الإعجاب فحسب، ويمكن أن يكون مملاً. يفتقد الكمال للشخصية. (يقال إن جميع شخوص البؤذا كاملون، وبالتالي متشابهون. إذ ريحوا التحرّر من نقائص هذا العالم، تركوها بلا عودة. بينما ينظر بوذيساتفاس، الذي بقي في هذا العالم، بعين التعاطف إلى حيوات وأفعال هذا العالم النّاقص.) إذاً دعونا نلحظ جيّداً، (وهنا نجد ذروة فكر توماس مان حول الموضوع): الشيء المحبوب في أي كائن بشري هو نقائصه. وعلى الكاتب أن يجد الكلمات الصحيحة لوصفها وأن يطلقها كسهام إلى هدفها. لكن مع يلسم، يلسم الحب، على كلّ نقطة. حيث أن الهدف، النقيصة، هو بالتحديد كلّ ما من شأنه أن يكون شخصياً، بشرياً، طبيعياً، في الشيء، ونقطة تعلّقه بحبل سرّة حياته.

كتب تونيو كروغر إلى صديقته المثقفة، "تعجبني تلك الكائنات

الفخورة الباردة التي تعيش المغامرة على طريقة الجمال الشيطاني العظيم وتحتقر "الجنس البشري"، لكنّني لا أحسدها. لأنّه (وهنا يطلق سهامهُ) إن كان هناك من شيء قادر على تحويل الشاعر إلى رجل أدب فهو ذلك الحب، حب عموم الناس والذي أشعر به تجاه الإنسان، والمألوف. ومنه ينبثق كل دفء، كلّ طيبة ومرح؛ ويبدو لي أنه لا بد أن يكون هو نفسه ذاك الحب المكتوب، الذي سيمكّن المرء من التحدث بلسان الإنسان وبلسان الملائكة. وأيضاً، إن غياب هذا الحب، يجعل الكلام يبدو كقرع النحاس، وجلجلة آلات الصنج.."

وأطلق توماس مان على ذلك المبدأ اسم "الإيروتيكية" أو "السخرية المطواعة"plastic irony، وكان هو مبدأ فنّه خلال القسم الأعظم من مهنته الإبداعية. العينُ الثابتة تتفحص، الصغيرة تُسمّي، ويتبدى القلب بالتعاطف؛ وأخيراً ستُختبَر قوّة الحياة في كل قلب محب للحياة، ستواجهه الصعاب، وسيُقيّم من خلال قدرته على النظر بتعاطف إلى أي شيء تفحّصته العين، وأسماه الفكر. وكما نقرأ في رسالة بولس إلى رومية "أَنَّهُ كَمَا بِمَعْصِيَةِ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ جُعِلَ الْكَثِيرُونَ خُطَاةً، هكَذَا أَيْضًا بِإِطَاعَةِ الْوَاحِدِ سَيَجْعَلُ الْكَثِيرُونَ أَبْرَارًا."

بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نوقن بأن الحياة نفسها ستقدم إلى كلّ منّا اختباراً لحبّ كهذا. كما اختبرت توماس مان مع الوقت، حيث تحوّل هانز آزرق العينين وإينجيبورغ الشقراء، تحت حكم هتلر، إلى ما تسنى له وصفه وتسميته بوحوش فاسدة...

فماذا يفعل المرء في ظلّ اختبار كهذا؟

قال القديس بولس، "يتحمّل الحبّ كل شيء." ولدينا أيضاً كلمات يسوع: "لا تحاكم، حتّى لا تُحاكَم." وهناك أيضاً قول هيراقليطس: "بالنسبة إلى الله كل الأشياء عادلة وجميلة وصحيحة، أما بالنسبة للبشر فهناك أشياء صحيحة وأشياء خاطئة. الخير والشر واحد."

ثمّة سرّ عميق ومريع هنا، قد لا نستطيع فهمه، أو بالأحرى وببساطة لن نفهمه، لكن على الرغم من ذلك يجب استيعابه، إن واجهنا اختباراً كهذا. فالحب قويّ كالحياة تماماً، وحين تفرز الحياة ما يسمّيه الفكر شراً، فقد ندخل حينها معركة عادلة، ونعارك "نتيجة ولاء القلب": لكن في حال فُقدَ مبدأ الحب بالنتيجة (الحب الذي تحدّث عنه المسيح "أحبّ أعداءك!")، ستُفقَد إنسانيتنا أيضاً.

وبكلمات الروائي الأمريكي هاوثورن، "على الإنسان ألا ينكر أخوّته، حتّى مع أولئك الأشد إثما."

9
أساطير الحرب والسلم
(1967)

لسبب واضح، يبدو أن إيراد أمثلة عن أساطير الحرب أكثر سهولة من إيراد أمثلة عن أساطير السلم؛ ليس لأن الصراعات بين الجماعات البشرية كانت اعتيادية في تجربة الإنسان فحسب، بل لأن هناك حقيقة قاسية لا بدّ من الاعتراف بها؛ وهي أن القتل شرط مُسبق لكل كائن حيّ مهما كان نوعه: روح تعيش على حساب روح، وروح تلتهم روحاً، ولولا ذلك لن يكون لها وجود. يعتبر البعض أن هذه الحقيقة المرعبة غير مقبولة أساساً، ولذلك قام هذا الصنف من الناس أحياناً بابتكار أساطير عن السلم بطريقة ما. وعلى أية حال، لم يكن أولئك البشر عموماً من الناجين ضمن ما أطلق عليه 'داروين' الصراع الشمولي من أجل البقاء. بل إن الذين نجوا كانوا بالأحرى أولئك الذين تصالحوا مع طبيعة الحياة على هذه الأرض. أي، بوضوح وببساطة: كانت الأمم والقبائل والبشرية التي نشأت على أساطير الحرب، هي التي نجت لتنقل تقاليدها الأسطورية الداعمة لحياتها إلى الأحفاد.

لدى التمعّن في أحدث الأبحاث والاكتشافات الأحفورية، في شرق أفريقيا البدائي، حيث وُجدت الأدلّة الأولى على نشوء الإنسان، ظهر أنه

كان هناك منذ البدء، منذ ثمانية عشر ألف سنة على الأقل[79]، نوعان متمايزان من أسلاف البشر، أو الكائن البشري، على الأرض. الأول، الذي أطلق عليه مكتشفه البروفسور ل. س. ب. ليكي' اسم 'زينجانثروبوس' Zinjanthropus، والذي تبيّن أنه كان إنساناً نباتياً، وقد انقرضت سلالته الآن. والآخر هو 'هومو هابيليس- Homo Habilis"، أو " الإنسي الماهر"، كما أسماه 'ليكي'، وكان لاحماً، وقاتلاً، وصانع أسلحة ومعدّات. ومن سلالته، كما يبدو، تحدرت سلالتنا نحن الجنس البشري الموجود الآن.

يقول أوزوالد شبنغلر: "الإنسان وحش كاسر، صيّاد فرائس". وهذه ببساطة حقيقة من حقائق الطبيعة. والحقيقة الأخرى المشابهة لها هي أنه: ضمن مملكة الحيوان، فإن الوحش الكاسر وصياد الفرائس، لدى مقارنته بضحاياه النباتيين، لا يُعَد الأقوى فحسب بل الأذكى أيضاً. قال هيراقليطس إن الحرب خالقة كل الأشياء العظيمة؛ وبكلمات شبنغلر: "من يفتقد الشجاعة لأن يكون المطرقة، سوف يتخذ دور السندان". رداً على هذه الحقيقة غير المرغوب فيها، وجد العديد من أصحاب المشاعر المرهفة أن الطبيعة لا تُطاق، وأسكتوا جميع أولئك الذين يفضّلون العيش بوصفهم "فاسدين"، أو "أشراراً"، أو "وحوشاً"، وصاغوا بدلاً من ذلك مثاليات مناقضة من نوع 'من يدير خدّه الأيسر'. مملكته ليست من هذا العالم'. وهكذا، يمكننا في النهاية تحديد أسطورتين متعاكستين تماماً في المشهد البانورامي الواسع للتاريخ: في الأولى يؤكّد هذا الشرط المُسبق الفظيع للحياة البشرية محدودة الزمن، ويُنقّض في الثانية.

والآن، عندما نعود إلى الأساطير البدائية لدى الشعوب غير الكتابية في هذه الأرض، فإن ما نجده على الفور، ودون أي استثناء، أنهم من النوع الأول، أو النوع الذي يؤكد الشرط. لستُ أعرف أي شعب بدائي، في أي مكان من العالم، يمكن أن يرفض القتال أو يستخفّ به، أو أن يطرح فكرة الحرب جانباً بوصفها شراً مطلقاً. ففي القبائل العظيمة

79 لعل الرقم الحديث بين 2.4 – 1.4 مليون سنة (م).

التي تمتهن الصيد، يقوم الرجال بقتل الحيوانات على مدار الوقت، وبما أن هذه الموارد محدودة، فإن صراعاً حتمياً ينشأ بين أفراد المجموعات المتنافسة القادمة لصيد القطعان ذاتها. إن الشعوب الصيادة شعوبٌ محاربة بشكل عام؛ ليس هذا فحسب، بل تبتهج معظمها بالمعارك، وتحوّل الحرب إلى اختبار للشجاعة. وعادة ما تقوم طقوس هذه القبائل وأساطيرها على فكرة أنه لا وجود في الواقع لشيء اسمه الموت. إذا عاد دم الحيوان الذبيح إلى التربة، سوف يعيد مبدأ الحياة إلى الأرض الأم مجدداً للانبعاث، وسوف تعود الطريدة ذاتها في الموسم القادم لتسلّم جسدها الفاني من جديد. وهكذا، تُعتبر الحيوانات المَصيدة وكأنها ضحايا بملء إرادتها، وهي تقدّم أجسادها للإنسان من خلال مفهوم ضرورة ممارسة الطقوس المناسبة لإعادة مبدأ الحياة إلى أصله. والأمر ذاته بعد جولات من المعارك، يُشرَّع بطقوس خاصة لتسكين وتحرير أرض الأرواح من أشباح أولئك الذين قُتلوا.

قد تشمل هذه الاحتفالات طقوساً لتخفيف هوس الحرب وحرارة المعارك لأولئك الذين مارسوا القتل. أما بالنسبة للقتل بشكل عام، سواء أكان قتل وحوش أم قتل بشر، فيُفترض أن يكون مليئاً بالمخاطر. إذ لدينا، من جهة أولى، مخاطر احتمال أن يقوم الشخص أو الحيوان القتيل بالانتقام. ومن جهة أخرى، تنشأ مخاطر من القاتل نفسه عندما يُصاب بهوس القتل، ويركض بحالة من الهيجان. وبناء عليه، إضافة إلى طقوس تكريم الأرواح واسترضائها، ربما تُقام طقوس خاصة شُرِّعتْ لإعادة تأهيل المحاربين العائدين على طريقة العيش في الوطن.

أول كتاب حظيتُ بشرف تحريره، كان عن الاحتفالية الحربية لدى هنود الناهاهو، إضافة إلى سلسلة لوحاتهم الرملية (أو بالأحرى، في هذه الحالة، لوحات 'غبار الطلح'، المصنوعة من بتلات أزهار مسحوقة). أساءت الأسطورة على توأم إلهة الحرب لدى شعب الناهاهو، الذي أعيدت طقوس إحيائه (ضمنياً) خلال سنوات الحرب العالمية الثانية،

لإزكاء روح الحرب لدى شباب شعب النافاهو، لكي يبادروا إلى التطوّع في جيش الولايات المتحدة. كان اسم هذه الطقوس الاحتفالية "حيث يأتي الاثنان إلى والدهما - *Where the Two Came to Their Father*". وتتحدث عن رحلة بطلي النافاهو التوأمين إلى موطنهما الشمس، والدهما، للحصول منه على السحر والأسلحة اللازمة للقضاء على الوحوش التي كانت طليقة في العالم في ذلك الوقت. ففي في كل أسطورة حرب، ثمة فكرة أساسية تقوم على أن العدو عبارة عن وحش، وفي قتل ذلك الوحش، يحمي القاتل النظام الوحيد الحقيقي ذا القيمة لحياة الإنسان على الأرض، والذي سيكون بالطبع نظام شعب ذلك القاتل. وبالنسبة لطقوس شعب النافاهو، فإن انضمام الشاب الفتيّ الشجاع للحرب يجسّد الإلهَ البطل الشاب في عصر الأسطورة، والذي كان يحمي الجنس البشري في ذلك الوقت عبر تطهير البريّة من الأفاعي السامة، والعمالقة، والوحوش الأخرى. أودّ القول إن إحدى المشاكل الكبرى لمجتمعنا المتعدد المضطرب تكمن بالضبط في أن الشباب الذين نشؤوا على العمل في مجالات الحياة المحلية المحمية المسالمة، عندما يتورطون فجأة في القيام بدور المحاربين، إنما يُزوّدون بالقليل من الإعداد النفسي، أو لا شيء إطلاقاً. وبالتالي فهم غير مؤهلين روحانياً للعب الأدوار المطلوبة منهم في لعبة الحياة القديمة هذه، ولا يمكنهم استحضار مشاعرهم الأخلاقية غير المناسبة لتعزيز تلك اللعبة.

لكن ليست جميع الشعوب البدائية شعوباً محاربة، وعندما ننتقل من مجتمع البدو الرحّل الصيادين المحاربين في سهول الحيوانات، إلى سكان القرى الأكثر استقراراً في المناطق الاستوائية- الذين يعيشون إلى حد كبير في بيئة نباتية، حيث الغذاء النباتي، وليس الحيواني، هو الوجبة الغذائية الأفضل دوماً- ربما ننتظر أن نجد عالماً مُسالماً نسبياً، عالم لديه القليل من المتطلّبات، أو ليس لديه أية متطلّبات لخلق سيكولوجية أو ميثولوجية تتعلّق بالحرب. لكن كما أشرنا في الفصول السابقة، ثمة اعتقاد سائد

قوي للغاية في تلك المناطق الاستوائية، يقوم على مراقبة العالم النباتي، حيث تظهر الحياة الجديدة من البقايا المتحللة، وتنبثق الحياة من الموت، ومن تحلُّل مزروعات العام الفائت ينمو نبْتٌ جديد. وهكذا فإن الموضوع الأسطوري السائد لدى العديد من شعوب تلك المناطق، يدعم فكرة أن ممارسة الإنسان للقتل، تزيد من الحياة، وحقيقة الأمر أنه في تلك الأجزاء من العالم تحديداً، تُمارَس أكثر طقوس التضحية البشرية رعباً وغرابة حتى يومنا هذا، ويقوم دافعهم على ضرورة أن يمارس المرءُ القتل بهدف تنشيط الحياة. وتزدهر في مناطق كهذه عملية جمع الرؤوس، إذ تعتمد الفكرة الأساسية على أن الشاب، وقبل أن يُقدم على الزواج ويُنجب حياة جديدة، عليه أن يقتل أحدهم ويعود برأسه كغنيمة- فيُحتفى بالرأس في حفل الزفاف، ولا يُعامل بازدراء أبداً بل بكثير الاحترام بصفته، إن جاز التعبير، مانح طاقة الحياة لأطفال هذا الزواج، الذين سيُحبَل بهم الآن ثم يولَدون.

ومع التقدير لهذه المهمّة القاسية المتمثّلة بإيجاد ضحايا بشرية لتعزيز الحياة، لدينا مثال متطرّف جداً في حضارة شعب الأزتك الموغلة في القدم؛ إذ اعتقدوا بأنه ما لم تستمر عملية تقديم الأضاحي البشرية على مذابحهم المتعددة، فسوف تتوقف الشمس عن حركتها، ويتوقف الزمن وينهار الكون. ولهذه الغاية، للحصول على ضحايا بشرية بالمئات أو بالآلاف، شنّ الأزتك حروباً كثيرة على جيرانهم. وكرموا محاربيهم وكأنهم قدّيسون؛ وكان مبدأ القتال هو القاعدة الأساسية لعالمهم- كان الصراع موجوداً حتى بين عناصر الطبيعة الأربعة، الهواء والتراب، والماء والنار- فتأسست لديهم طقوس عظيمة للحرب عُرفت باسم "الحرب المزدهرة - Flowery War"، أقيمت خلالها أهم طقوسهم الاحتفالية.

في الشرق الأدنى القديم، حيث نشأت أولى مجتمعات زراعة الحبوب وحصادها، وظهرت أقدم البلدات إلى الوجود منذ قرابة الألفية الثامنة قبل الميلاد، برز نظام جديد تماماً على الوجود البشري، واتخذ شكلاً

لا يعتمد على الصيد ونهب المؤن، بل على زراعة المحاصيل وحصادها، بوجود الأم العظيمة "الأرض"، بوصفها المصدر الرئيس للتزوّد بالمؤن. وحدث في تلك الأزمنة، بين أولئك الناس أيضاً، أن تطورت طقوس الخصوبة التي أصبحت طقوساً رئيسية لكل الحضارات الزراعية التي نشأت منذ ذلك الحين: طقوس ترتبط بحراثة الأرض وزراعة البذور وجنيها وتذريتها، وبدء الإثمار. كانت تلك البلدات الأولى، في الألف سنة الأولى لوجودها، قادرة على الاستمرار دون أسوار حماية. لكن خلال الألفية السادسة قبل الميلاد تقريباً، أو بشكل أوضح، خلال الألفية الخامسة، بدأت تظهر الأسوار في الحفريات الأثرية التي أُجريتْ في مراكز الحياة الحضرية تلك. وهذا ما يدلّنا على أن مجموعات المحاربين قد بدأت، في تلك الفترة، بتهديد المستوطنات الغنية نسبياً وغزوها ونهبها، أي مستوطنات أولئك الفلاحين المسالمين الكادحين الذين يزرعون الأرض.

كان العرقان البشريان الأكثر أهمية في مسألة الإغارة على الأجزاء الغربية، من مجال الثقافة المتنامي هذا، رعاة الماشية الآريين القادمين من سهول أوروبا الشرقية، والساميين من الجنوب، من الصحراء العربية السورية، مع قطعان أغنامهم وماعزهم. كان كلاهما مكوناً من مقاتلين عديمي الرحمة، وكانت غاراتهم على المدن والبلدات مروّعة. كما يزخر العهد القديم بذكر المستوطنات المسالمة التي جرى سحقها ونهبها وتدميرها بالكامل. تخيّل أن ترى من أبراج المراقبة غيمة غبارية تغطي الأفق! هل هي رياح عاصفة؟ لا! إنها فرقة من البدو؛ وفي الصباح التالي، لن يكون هناك أثر لروح حيّة داخل جدران تلك المدن.

وهكذا فإن أضخم عملين عن أساطير الحرب في الغرب هما 'الإلياذة' و'العهد القديم'. كان الإغريق في أواخر العصر البرونزي، ومطلع العصر الحديدي، في طريقهم لأن يكونوا سادة بحر إيجة القديم، عندما كان الأموريون والمؤابيون، و'العبيرو Habiru' أو العبرانيون، يجتاحون بلاد كنعان. كادت تلك الغزوات أن تكون متزامنة؛ وقد تطوّرت الأساطير

التي تحتفي بانتصاراتهم في الفترة ذاتها تقريباً. بالإضافة إلى ذلك، لم تكن المفاهيم الميثولوجية في الحكايات الأساسية التي تُحيي هذين الكيانين مختلفة جداً هي الأخرى. حيث تصوّر كلٌ منهما عالماً مكوناً من طابقين: الأول على مستوى الأرض في الأسفل، والثاني في الأعلى حيث الكائنات السماوية. على كوكب الأرض في الأسفل، كان هناك حروب ما تُشنّ. شعوبنا تُهاجم تلك الشعوب. وكان تقدّم تلك الحروب موجّهاً من الأعلى. ففي حالة الإلياذة، كانت آلهة البانثيون تدعم كلا الطرفين بطرق مختلفة؛ ذلك أن هناك صراعات تحدث في الأعلى أيضاً، إذ يقف بوسيدون ضدّ إرادة زيوس، وأثينا ضدّ أفروديت، وكان زيوس لفترة ما ضدّ هيرا. وبحسب الطريقة التي تجري فيها مجادلات الآلهة في الأعلى، تكون حظوظ الجيوش في الأسفل على الأرض. وفي واقع الأمر، إن أحد أكثر الأشياء إثارة للاهتمام في الإلياذة، على الرغم من أنها كُتبتْ لتمجيد الإغريق، أنها مجّدت الطرواديين واحترمتهم. فكان القائد الطروادي النبيل هيكتور البطلَ الروحاني الرئيسَ في هذه التحفة الفنيّة. وإلى جانبه، كان هناك السفاح أخيل، والفصل الرائع الذي يتحدث عن رحيل هيكتور في المعركة، وعن زوجته أندروماخي وابنهما الصغير أستياناكس ("كنجم جميل" بين ذراعي مربيته)، كان بالتأكيد اللحظة الأسمى للإنسانية والدماثة والرجولة الحقيقية في العمل برمّته.

"سيدي العزيز"، تبكي الزوجة الطيبة، "صلابتك هذه لن تجدي نفعاً؛ لأنه سرعان ما سينقضّ عليك الأخيليون ويذبحونك". أجاب زوجها الرائع: "أنا أصلّي من أجلك يا عزيزتي، لا تكوني كسيرة القلب هكذا. لا يمكن لأي رجل أن يقف في مواجهة قَدَري، ويعجّل في وصولي إلى 'هادس- العالم السفلي'؛ وحده القدر، الذي لم يستطع أي إنسان، مُذْ وُلد، أن يهرب منه، سواء أكان جباناً أم شجاعاً". وعندما انكمش الصبي الصغير خائفاً من خوذة أبيه اللامعة التي يعلوها شعر حصان، أطلق 'هيكتور' ضحكة مجلجلة، خلعها، وتركها تلمع على الأرض، ثم قبّل

ابنه، وداعبه وهو بين ذراعيه، وتلا صلاته إلى زيوس ليحفظ ابنه، ثم رحل ليواجه مصيره ويُقتل.

أو فلنتأمّل مسرحية أسخيلوس التراجيدية الساحرة بعنوان "الفرس- The Persians": أيّ نتاج رائع كانت تلك المسرحية لتُقدَّم في مدينة (إغريقية)، بعد مدة لا تكاد تتجاوز العشرين عاماً من اليوم الذي حارب فيه أسخيلوس بنفسه الغزاة الفارسيين في معركة سلاميس؟! تدور أحداث المسرحية في بلاد فارس، مع ملكة فارس ورجال بلاطها وهم يتداولون في عودة ملكهم المهزوم 'أحشويروش' من تلك المعركة. كُتبت المسرحية من وجهة نظر فارسية، وأظهرت القدرة العظيمة على الاحترام والتعاطف الذي يمكن أن يظهره الشعب الإغريقي القديم حتى لأشدّ أعدائه تهديداً في ذلك الحين.

لكن عندما ننتقل من الإلياذة وأثينا، إلى أورشليم والعهد القديم، فإننا أمام أسطورة تتضمن قصة عُلوية مختلفة جداً، وطاقة مختلفة جداً كامنة هناك: إذ ليس هناك 'بانثيون، مجمّع آلهة'، يدعم طرفين في الوقت ذاته، وإنما إله واحد شديد البأس، يبدي تعاطفه الدائم تجاه طرف واحد. وبالتالي، في العهد القديم، يجري التعامل مع العدو دون الاهتمام بمن يكون، وبطريقة تختلف بشكل مُذهل عن الطريقة الإغريقية، تماماً كما لو أنه دون البشر: لا يستخدم ضمير "thou" لمخاطبة العاقل (باستخدام تعبير مارتن بوبر) بل ضمير غير العاقل "it". لقد اخترت بعض الفقرات المميزة التي أثق تماماً بأننا سنفهمها جميعاً بسهولة، والتي ستساعدنا بتكرارها في السياق الحالي، على إدراك أننا قد وُلدنا في أحد أكثر أساطير الحرب وحشية على مرّ العصور:

وإذا أدخلَكُمُ الرّبُّ إلهُكُم الأرضَ الّتي أنتُم مُزمِعونَ أنْ تمتلكوها، وطَردَ أُمَماً كثيرةً منْ أمامكُم كالحِثّيّينَ والجِرجاشيّينَ والأموريّينَ والكنعانيّينَ والفَرِزّيّينَ والحِوّيّينَ واليَبوسيّينَ،

وهُم سَبعةُ شُعوبٍ أعظمُ وأكثرُ منكُم، وأسلَمَهُم إلى أيديكُم وضَربتموهُم، فاجْعَلوهُم مُحَرَّمينَ عليكُم. لا تقطعوا معهُم عَهداً، ولا تَتَحَنّنوا عليهم، ولا تُصاهروهُم، فتُعطُوا بَناتكُم لِبَنيهم وتأخذوا بَناتهم لِبَنيكُم لأنّهُم يَردّونَ بَنيكُم عَن اتّباعِ الرّبِّ، فيَعبدونَ آلهةً أُخرى. فيَشتدُّ غضبُ الرّبِّ عليكُم ويُبيدُكُم سريعاً. بل هذا ما تفعلونَ بهم: تَهدمونَ مذابحَهُم، وتُحَطّمونَ أصنامَهُمُ المَنصوبةَ، وتقطعونَ أوتادَ آلهتهم، وتحرقونَ تماثيلَهُم بالنّار فأنتُم شعبٌ مُقدَّسٌ للرّبِّ إلهِكُمُ الّذي اختارَكُم لهُ منْ بَينِ جميعِ الشُّعوبِ الّتي على وجهِ الأرض. (سفر التثنية 7: 1-6).

وإذا اقتَرَبتُم منْ مدينةٍ لتُحاربوها فاعْرِضوا عليها السّلْمَ أوّلاً، فإذا استَسلَمَت وفتَحَت لكُم أبوابَها، فجميعُ سُكّانها يكونونَ لكُم تَحتَ الجزية ويخدمونكُم. وإنْ لم تُسالمْكُم، بل حارَبَتكُم فحاصَرتُموها فأسلَمَها الرّبُّ إلهُكُم إلى أيديكُم، فاضْربوا كُلّ ذَكَرٍ فيها بحَدِّ السّيف. وأمّا النّساءُ والأطفالُ والبَهائمُ وجميعُ ما في المدينة منْ غَنيمة، فاغْنَموها لأنفُسكُم وتمتّعوا بغَنيمة أعدائكُمُ الّتي أعطاكُمُ الرّبُّ إلهُكُم. هكذا تفعلونَ بجميعِ المُدُن البعيدة منكُم جداً، الّتي لا تخُصُّ هؤلاء الأُمَمَ هُنا. وأمّا مُدُنُ هؤلاء الأُمَمِ الّتي يُعطيها لكُمُ الرّبُّ إلهُكُم مُلكاً، فلا تُبقوا أحداً منها حيّاً بل تُحلّلونَ إبادَتَهُم، وهُمُ الحثّيّونَ والأموريّونَ والكنعانيّونَ والفرزّيّونَ والحوّيّونَ واليَبوسيّونَ، كما أمرَكُمُ الرّبُّ إلهُكُم لئلاّ يُعلّموكُم أنْ تفعلوا الرّجاسات الّتي يفعلونَها في عبادة آلهتهم فتخطأوا إلى الرّبِّ إلهكُم. (سفر التثنية 20: 10-18)

وإذا أدخلَكُمُ الرّبُّ إلهُكُمُ الأرضَ الّتي أقسَمَ لآبائكُم إبراهيمَ وإسحَقَ ويعقوبَ أنْ يُعطيَها لكُم تجدونَ مُدُناً عظيمةً حسَنةً

لم تبنوها وبُيوتا مملوءَةً كُلَّ خَيرٍ لم تملؤوها، وآبارا مَحفورةً لم تحفروها، وكُروما وزيتونا لم تغرسوها. فإذا أكلتُم وشَبِعتُم لا تنسَوا الرّبَّ الّذي أخرجَكُم مِنْ أرضِ مصْرَ، مِنْ دارِ العُبوديّة.
(سفر التثنية 6: 10ـ 12)

لكن عندما ننتقل في قراءتنا من سفر التثنية إلى أكبر الحروب على الإطلاق في سفر يشوع، نجد أسطورة سقوط أريحا، الأكثر شهرة على الإطلاق. أصوات الأبواق، وتداعي الأسوار. "ومن ثم"، كما سنقرأ في النص، "*يقتلون الجميع في المدينة، الرجال والنساء، الشباب والعجائز، الثيران والأغنام والحمير، بحدّ السيف.... ثم يحرقون المدينة بالنار والجميع في داخلها؛ لم يأخذوا سوى الذهب والفضة، والأواني المصنوعة من البرونز والحديد، ليضعوها في خزانة الرب*" (سفر يشوع 6: 21 ـ 24). المدينة الثانية كانت 'عاي'. وقد ضربتها مملكة بني إسرائيل، ولم تترك فيها ناجياً ولا هارباً... "بلغ مجموع من قُتلَ في ذلك اليوم اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء، جميع السكان في 'عاي'" (سفر يشوع 8: 22، 25). "وقهر 'يشوع' الأرض كلها، الجبال المرتفعة و'النقب'، والسهول والمنحدرات، وملوكها. لم يترك أي ناجٍ، بل دمّر كل شيء حيّ، كما أمر إله اليهود". (سفر يشوع 10: 40).

سنعرف أيضاً مع تقدم القراءة، أن هذا الرب ذاته، كثيراً ما تقتبس عنه اليوم حمائمنا المسالمة، العبارة التي تعلّموها: "لا تقتل!"

ولدينا أيضاً، في نهاية 'سفر القضاة'، حكاية تلك الطريقة التي تعتمدها قبيلة 'بنيامين' لإيجاد زوجات لرجالها (سفر القضاة 21). إن أقدم ترنيمة في الكتاب المقدس، ترنيمة 'دبورة' Deborah's song، هي ترنيمة عن الحرب (سفر القُضاة 5). ونجد في 'سفر الملوك' طرق القتل الوحشية التي نفّذها 'إيليا' و'اليسع'، باسم الإله يهوه طبعاً. ثم تأتي إصلاحات 'يوشيا ملك يهودا' (سفر الملوك الثاني 22 ـ 23)؛ يتبعه بفترة

قصيرة حصار ملك بابل 'نبوخذ نصر' لأورشليم ذاتها عام (586 ق. م). (سفر الملوك 25).

لكن فوق وما وراء هذا كله، منذ عهد 'أشعياء' فصاعداً، تحلّق فكرة جميلة عن الكمال والسلام العالميين، وهي فكرة كان لها دور جذّاب في جميع أساطير الحروب الأساسية للغرب. تذكر على سبيل المثال تلك الصورة الخادعة المُقتبسة من نهاية 'سفر أشعياء 65': "***الذِّئْبُ وَالْحَمَلُ يَرْعَيَانِ مَعًا، وَالأَسَدُ يَأْكُلُ التِّبْنَ كَالْبَقَرِ. أَمَّا الْحَيَّةُ فَالتُّرَابُ طَعَامُهَا. لاَ يُؤْذُونَ وَلاَ يُهْلِكُونَ فِي كُلِّ جَبَلِ قُدْسِي، قَالَ الرَّبُّ***". على أية حال، في جزء سابق من 'سفر أشعياء' ذاته، تعرّفنا إلى الشكل الذي يجب أن يكون عليه السلام المثالي فعلاً: نقرأ هنا عن "الغرباء":

وَبَنُو الْغَرِيبِ يَبْنُونَ أَسْوَارَكِ، وَمُلُوكُهُمْ يَخْدِمُونَكِ. لأَنِّي بِغَضَبِي ضَرَبْتُكِ، وَبِرِضْوَانِي رَحِمْتُكِ. وَتَنْفَتِحُ أَبْوَابُكِ دَائِمًا. نَهَارًا وَلَيْلاً لاَ تُغْلَقُ. لِيُؤْتَى إِلَيْكِ بِغِنَى الأُمَمِ، وَتُقَادَ مُلُوكُهُمْ. لأَنَّ الأُمَّةَ وَالْمَمْلَكَةَ الَّتِي لاَ تَخْدِمُكِ تَبِيدُ، وَخَرَابًا تُخْرَبُ الأُمَمُ. مَجْدُ لُبْنَانَ إِلَيْكِ يَأْتِي. السَّرْوُ وَالسِّنْدِيَانُ وَالشَّرْبِينُ مَعًا لِزِينَةِ مَكَانِ مَقْدِسِي، وَأُمَجِّدُ مَوْضِعَ رِجْلَيَّ. وَبَنُو الَّذِينَ قَهَرُوكِ يَسِيرُونَ إِلَيْكِ خَاضِعِينَ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَهَانُوكِ يَسْجُدُونَ لَدَى بَاطِنِ قَدَمَيْكِ، وَيَدْعُونَكِ: مَدِينَةَ الرَّبِّ، صِهْيَوْنَ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ. (سفر أشعياء 60: 10 ـ 14).

يبدو أنه من الغريب والمدهش أن تسمع وقْع تلك الثيمات ذاتها مترافقة مع فرحة الانتصار في دولة الاحتلال، مباشرة بعد حرب الأيام الستة، و'السبت Sabbath' في اليوم السابع، من التاريخ الحالي. هذا يعني أن هذه الأسطورة لا تزال حيّة حتى الآن، على العكس من أساطير الإغريق القدماء. ولإتمام هذه الصورة، لدى العرب طبعاً أسطورتهم

الحربية السماوية أيضاً. لأنهم، وبحسب أسطورتهم الخاصة، شعب من نسل إبراهيم: ذريّة إسماعيل، ابن إبراهيم البكر. والأهم من ذلك، استناداً إلى هذا التاريخ، وكما هو مُثبت في القرآن، يُعتبر أن إبراهيم وإسماعيل، قبل ولادة إسحاق، هما من قاما ببناء الكعبة في "مكة"، وهي الرمز الموحّد والمقدّس للعالم العربي والإسلامي كله. يُبجّل العرب أنبياء اليهود أنفسهم، ويستمدّون معتقداتهم من اليهود أيضاً. إنهم يبجّلون إبراهيم وموسى، ويخصّون سليمان بالكثير من الاحترام. وهم يحترمون يسوع المسيح بقدر احترامهم للنبيّ محمد، الذي يعتبرونه نبيّهم المطلق، ومنه- كان هو نفسه مُحارباً لا يُشقّ له غبار- استمدّوا أسطورة حريهم الصارمة باسم "الله".

الجهاد، ذلك الفَرْض في الحرب المقدّسة، عبارة عن مفهوم تطوّر من نصوص معينة من القرآن، وكان يُفسّر خلال فترة الفتوحات الكبيرة (من القرن السابع حتى العاشر الميلادي) على أنه فرْض على كل مسلم ذكر حرّ، بلغ سن الرشد، يمتلك القدرة العقلية الكاملة، ومُناسب جسدياً للخدمة. نقرأ في القرآن، من سورة البقرة، الآية (216) "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ". ومن التعليقات التي قرأتها حول هذه الآية: "إن القتال من أجل الحق هو أسمى أنواع الخير". "ماذا يمكنك أن تقدّم أثمن من روحك؟" إن جميع الأراضي التي لا تنضمنها "حدود الدولة الإسلامية" (دار الإسلام) يجب غزوها، وبالتالي تُعرف باسم "حدود حرب" (دار الحرب). ويُذكر عن النبيّ قوله: *"أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"*. وهكذا فإن على كل أمير مسلم، بموجب هذه القدوة، أن يقوم بحملة واحدة سنوياً، بالحد الأدنى، ضد الكفار. وإذا اتضح عدم إمكانية القيام بذلك، يكفيه أن يستمرّ بتدريب الجيش، وأن يكون مستعداً *للجهاد*.

أما اليهود، "أهل الكتاب"، كما يُطلق عليهم هنا، فلديهم مكان خاص في هذا الفكر، لأنهم أول من تلقّى كلمة الله، لكنهم نبذوها لاحقاً (من وجهة نظر النبي محمد)، وتراجعوا عنها ورفضوها، حتى إنهم قتلوا أنبياء الله. وقد ذُكروا في القرآن ونالهم الوعيد مرات عديدة: سوف أقتبس من القرآن الآيات (4 - 8) من سورة الإسراء، ونلاحظ هنا أنه (عندما تُظهر "نا" الجماعة، فالضمير يشير إلى الله، وعندما تظهر "أنتم"، فالمقصود هم اليهود: في حين أن كلمة "كتاب" تعني "الكتاب المقدّس- التوراة"):

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ (البابليون، سنة 685 قبل الميلاد) *فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ* (الرومان، سنة 70 ميلادية) *كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا.*

إذاً، هاتان أسطورتا حرب تواجه إحداهما الأخرى، حتى يومنا هذا، في منطقة الشرق الأوسط المثيرة للجدل، وربما تدمّر كوكبنا.

عوداً إلى الماضي الذي يمثل حاضرُنا استمراريةً له: فإن المثال التوراتي القديم عن تقديم محرقة لـ 'يهوه' عبر قتل كل ما هو على قيد الحياة في كل بلدة ومدينة تم الاستيلاء عليها، لم يكن سوى النسخة العبرية من العرف العام للساميين الأوائل: المؤابيون، العموريون، الآشوريون، والجميع. وعلى أية حال، فمع اقتراب منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، بدا أن الآشوري 'تغلث فلاسر الثالث' (745 - 727، ق. م) قد لاحظ أنه عندما يُقتل الجميع في كل منطقة يتم احتلالها، لن يبقى أي شخص لكي يُستعبَد. أضف إلى ذلك، إذا بقي البعض أحياء، فسوف يجتمعون عما

قريب، ويُصبح أمام تمرّد يحتاج إلى إخماد. وهكذا، ابتكر 'تغلث فلاسر' إجراء يقوم على نقل السكان من منطقة إلى أخرى: عندما تؤخذ مدينة، يُحكم على سكانها بالعمل بالسُخرة في مكان آخر، ويُنقل أهل ذلك المكان، إلى هذا المكان الذي جرى إخلاؤه. كانت الفكرة مؤثرة وفعّالة؛ لم يمض قرنان من الزمان حتى بات الشرق الأدنى بكامله في حالة من الاضطراب. وبالكاد بقي شعبٌ واحد لديه جذور. عندما سقطت إمبراطورية اليهود، لم يُذبح شعبها كما حدث قبل ذلك بنصف قرن، بل رُحِّلَ إلى مكان آخر، وجلبوا شعباً آخر (عُرف لاحقاً بالسامبين) ليعيش في مملكتهم السابقة. وبالتالي، عندما سقطت أورشليم عام (586)، لم يُذبح شعبها بل انتقل إلى بابل، كما نقرأ في المزمور (137) الشهير:

على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون.

على الصفصاف في وَسَطِها علّقنا أعوادنا.

لأنه هناك سَألَنا الذين سَبَوْنا كلام ترنيمة، ومُعَذِّبونا سَألونا فَرَحاً قائلين: "رنّموا لنا من ترنيمات صهيون.

كيف نُرَنِّمُ ترنيمة الرب في أرض غريبة؟

إن نسيتك أورشليم، تَنسَى يميني!

ليَلتصقْ لساني بِحَنَكي إنْ لم أذكرك، إن لم أُفضّل أورشليم على أعظم فرحي.

اذكرْ يا ربّ لِبَني أدومَ يومَ أورشليمَ، القائلينَ: "هُدُّوا، هُدُّوا حتى إلى أساسها".

يا بنت بابل المُخ، طُوبى لِمَن يُجازيكِ جزاءكِ الذي جازيتنا!

طوبى لمن يُمسكُ أطفالكِ ويَضربُ بهمُ الصخرةَ!

لكن بعد ذلك، حدث تحوّل جذري مفاجئ جداً في أساطير الشرق الأدنى كلها، وظهور مفاجئ أيضاً، وانتصارات رائعة للفرس الآريين على أمم العالم القديم كلها باستثناء الإغريق، من البوسفور وأعالي النيل، إلى بلاد السند. سقطت بابل عام (539 ق. م) على يد 'كورش الأكبر' الذي لم تكن فكرته، بما يخص إدارة الإمبراطورية، ترتبط بالقتل أو باقتلاع الجذور، بل بإعادة السكان إلى أماكنهم، وإعادتهم إلى آلهتهم، وقيادتهم على يد ملوك يتبعون أعرافهم وتقاليدهم. وهكذا أصبح أول '*ملك للملوك*'. وأصبح هذا اللقب الخاص بملوك الفرس الأقوياء، اللقب الحالي للرب، '*إله اليهود*' ذاته، الإله الذي أعاد 'كورش' شعبه إلى مدينتهم، وحثّهم على إعادة بناء معبدهم. في '*سفر أشعياء 45*' ويُحتفل بهذا الوثني كمسيح افتراضي؛ أي الخادم الممسوح لـ يهوه، ويُعَدّ العمل الذي قام به بيديه، بمثابة عمل قام به يهوه لإعادة شعبه إلى موطنه المقدّس. إذا قرأنا ذلك الفصل بشكل دقيق، سنلمح في نهاية المطاف أن ما يَعدُ بتنفيذه من خلال نبيّه، هو أنه يتولّى شعب يهوه، وليس الشعب الفارسي، سيادةَ العالم كله باسم الرب. (أشعياء 45: 14 ـ 25).

من جهة أخرى، لم تكن أسطورة الفرس الحقيقية عن أشعياء بل عن زرادشت Zarathustra (باليونانية ـ Zoroaster)؛ وبما أن تأثيره كان كبيراً جداً، ليس على اليهودية فحسب بل على تطوّر الدين المسيحي كله، فإننا سنبذل ما بوسعنا للتوقف عنده لوهلة قبل المضي قدماً في دراستنا عن أساطير السلام.

بحسب وجهة النظر هذه، كان '*أهورا مازدا*' هو الإله الخالق لكل شيء، إله الحق والضوء الذي كان خلقه الأساسي مثالياً. وكانت قوة الظلام الشريرة المعارضة المضلّلة، '*أنغرا ماينو*' المعروفة باسم '*أهريمان*'، قد سكبت فيه شروراً من كافة الأنواع، مما أدى إلى سقوط جمعيّ في الجهل، وها هو الآن صراع مستمر يتنامى بين قوى النور وقوى الظلام، قوى الحقيقة وقوى الخداع. لم يكن ذلك، من وجهة النظر الفارسية،

حكراً على أي عرق أو قبيلة، بل كانت قوى شاملة كونية، وعلى كل فرد، من أي عرق أو قبيلة، أن يتحالف بملء إرادته الحرّة الخاصة مع إحدى هاتين القوتين الموجودتين في العالم: قوة الخير أو قوة الشر. فإذا تحالف مع الأولى، سيساهم من خلال أفكاره وكلماته وأفعاله باستعادة مثالية العالم؛ وإذا تحالف مع القوة الأخرى، سيمضي إلى الحزن العظيم في الجحيم الملائم لحياته.

مع اقتراب يوم الانتصار الكوني المطلق، واتخاذ قوى الظلام لموقفها اليائس النهائي، ستحلّ فترة من الحروب العامة والكوارث الكونية، ثم سيصل المخلّص الأخير، '*سوشيانت ـ Saoshyant*'. وسينهار 'أهريمان' وشياطينه تماماً؛ ويُعاد إحياء الأموات في أجساد من الضوء النقي، سيتلاشى الجحيم، وتُطلق أرواحه بعد تطهيرها، ويتبع ذلك سلام راسخ ونقاء وفرح إلى الأبد.

بحسب وجهة نظر الملوك الفارسيين القدماء هذه، كانوا أنفسهم، بشكل خاص جداً، الممثلين لقضايا 'إله الضوء' وإرادته على الأرض. ونجد أنه في الإمبراطورية الفارسية متعددة الأعراق والثقافات والتي كانت في الواقع الإمبراطورية الأولى من هذا النوع في تاريخ العالم، كان هناك دافع *إمبراطوريّ* مسوّغ دينياً، إلى حدّ أن ***ملك ملوك الفرس***، سيصبح باسم الحقيقة والخير والضوء، قائد البشرية نحو استعادة الحق. إنها الفكرة التي تنطوي على استمالة خاصة للملوك؛ وقد اعتُمِدتْ لدى الملوك الغزاة في كل مكان. في الهند مثلاً، كانت صورة الملك الكوني 'تشاكرافارتين ـ Chakravartin' الأسطورية، الملك الذي ستجلبُ أنوار حضوره السلام والرفاه للبشر جميعاً، الشخصية المُلهِمة إلى حد كبير بهذه الفكرة. ويمكننا أن نلاحظ الشيء ذاته في الشعارات الملكية للملك البوذي الأول 'آشوكا' (262ـ248 ق. م). وفي الصين أيضاً، في الفترة التي تبعت المرحلة المضطربة من زمن "الولايات المتحاربة"، والشهيرة باسم فترة 'تشون كو ـ Chun Kuo'، فكان أول حاكم للإمبراطورية المتحدة 'شي

هوانغ تي ـ Shih Huang Ti' (221 ـ 207 ق. م) يدّعي بأنه يحكم بتفويض من السماء، في ظل القانون المقدّس.

إنه لمن الصعب إذاً أن نتساءل ما إذا كان المؤلّف العبري المتحمّس لسفر 'أشعياء 40 ـ 55'، والذي كان مُعاصراً لـ 'كورش الأكبر'، والشاهد الحيّ على إعادة الفرس لمدينة أورشليم إلى شعبها، يقدّم الدليل ضمن نبوءته على تأثير الأفكار الزرادشتية؛ مثلاً، في المقطع الشهير من الفصل 45: "***هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ، لِكُورَشَ الَّذِي أَمْسَكْتُ بِيَمِينِهِ لأَدُوسَ أَمَامَهُ أُمَمًا .... مُصَوِّرُ النُّورِ وَخَالِقُ الظُّلْمَةِ، صَانِعُ السَّلاَمِ وَخَالِقُ الشَّرِّ. أَنَا الرَّبُّ صَانِعُ كُلِّ هذِهِ***". في هذه الفصول مما يُسمى 'أشعياء الثاني'، يمكن أن نجد أول احتفال بـ يهوه، ليس بوصفه الإله كليّ القوة، والأعظم بين الآلهة، بل الإله الأوحد للكون الذي لا يجد اليهود وحدهم الخلاص فيه، بل الوثنيون أيضاً. نقرأ مثلاً في 'أشعياء 45: 22': "***اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ، لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرُ***". وأيضاً، كانت الفكرة الأقدم عن مخلّص Messi-ah أنبياء ما قبل السّبي هي فكرة ملك مثالي على عرش داوود، كما يتضح من (أشعياء 9: 6ـ7): "***لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ. ٧ لِنُمُوِّ رِيَاسَتِهِ، وَلِلسَّلاَمِ لاَ نِهَايَةَ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ وَعَلَى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَهَا وَيَعْضُدَهَا بِالْحَقِّ وَالْبِرِّ، مِنَ الآنَ إِلَى الأَبَدِ. غَيْرَةُ رَبِّ الْجُنُودِ تَصْنَعُ هذَا***"؛ وفي فترة ما بعد السبي، وخاصة في وقت متأخر جداً، في الكتابات التنبؤية من العصر الإسكندراني Alexandrian Age (عصر تأثير مدينة الإسكندرية). كما في (سفر دانيال 7: 13 ـ 27) على سبيل المثال. هناك فكرة عن شخص يأتي في نهاية الزمان، ويُعطى "***سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبديّ ما لن يزول، وملكوته ما لا ينقرض***". ومنذ ذلك الحين فصاعداً، "***كثيرون من الراقدين في***

تراب الأرض يستيقظون هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي" (دانيال 12: 2).

ليس هناك أي شكّ من تأثير الإيمان الزرادشتي بالآخرة على تلك الأفكار المتعلّقة بنهاية العالم وبعث الموتى. الأهم من ذلك، وعند كل منعطف، يظهر تأثير الفكر الفارسي في جوهر مخطوطات البحر الميت (مخطوطات الأسينيين)، التي تعود إلى القرن الأخير قبل الميلاد. لقد كانت هذه الفترة في الواقع فترة اضطرابات رهيبة، لدرجة أنه كان بمقدور أي شخص مطلع على الزرادشتية القديمة أن يتوقّع نهاية العالم وقدوم المخلّص 'سوشيانت'. وفي أورشليم نفسها، كان هناك شقاق بين فريقين مستميتين في سياق من أجل السيطرة: أحدهما مدعوم من 'الحاسيديم Hasidim'، "الفريق التقي" التقليدي المتعصّب، الموالي والمخلص للقانون، والآخر الذي يفضل الأفكار الإغريقية. وعندما ذهب أعضاء الفريق الآخر إلى إمبراطور الإغريق 'أنطيوخس' (كما تذكر كتب المكابيين) وحصلوا منه على وعد بأن يبنوا لأنفسهم 'جيمانزيوم' خاصاً بهم في مدينة أورشليم، "بحسب تقاليد الوثنيين، وأن يكونوا غير مختونين، وأن يهجروا العهد المقدّس، وينضمّوا للوثنيين"، ظهرت اعتراضات جديدة داخل المدينة المقدّسة، وتتوّجت تلك الاعتراضات بأن قام الإغريق بنهب المعبد وإصدار أمر ببناء المذابح الوثنية في كافة الأنحاء، وذلك لدعم الادعاءات الهيلينية الانتهازية المتعلّقة بمركز الكهنوت العالي. وفي عام (168 ق. م)، في قرية تُدعى 'مودين'، هاجم 'ماتاثياس' وأولاده الخمسة (المكابيون)، ليس أول يهودي يقترب من المذابح الوثنية لتقديم الأضحية "وفقاً لوصيّة الملك" فحسب، بل القائد الإغريقي الذي أتى لإنشائها وقتلوه. وبعد ذلك، اتخذ المكابيون لأنفسهم، وبكل جرأة ألقاب المَلَكيّة والكهنوتية العالية التي لم تكن من حقّهم من حيث النسب، وقد ارتُكبت ضمن تلك العائلة عدة دسائس وجرائم قتل، في صراعات لاحقة من أجل الميراث. امتعض الفرّيسيون والحسيديون والآخرون من هذا العقوق

الذي ظهر الآن في تمرّد تم إخماده بأشد أنواع القسوة على يد الحاكم 'الكسندر جانيوس' (104 - 78 ق. م)؛ الحاكم الذي صلب ثمانمائة من أعدائه في ليلة واحدة، وذبح نساءهم وأطفالهم أمام أعينهم، وشاهد الإعدام بأم عينيه وهو يشرب، ويتسلّى علانية مع محظياته. كتب المؤرّخ اليهودي 'يوسيفوس' في ختام روايته عن هذه الفظاعة: "وهكذا، سيطر ذعر عميق على قلوب الناس، لدرجة أن ثمانية آلاف من معارضيه هربوا في الليلة التالية، خارج حدود 'يهودا' كلها"[80].

يُظنّ بأن هذا الحدث على وجه الخصوص، ربما كان سبباً لتأسيس مجمع 'قمران'، وصياغة مخطوطات البحر الميت، على البراري المحيطة بضفاف البحر الميت. وعلى أية حال، لقد توقّع مؤسسوه نهاية العالم، وكانوا يُعدّون أنفسهم بكل جديّة ليكونوا ممن يستحقّون البقاء على قيد الحياة، والمضيّ إلى الحياة الأبدية التي يعتبرونها مآل شعب الله المختار. ويبدو أن توقعاتهم قد بُنيَتْ على تشكيل جيش لهذه الفضيلة، وأنهم يعون الرب وتأييده ضد "أبناء الظلام". (مقارنةً بالزرادشتية القديمة!) ستبدأ تلك الفترة بحرب السنوات الست ضدّ الجيران الحاليين مثل 'المؤابيين' و'القراعنة'، وبعد سنة من 'راحة السبت'، تعود الحرب بسلسلة حملات ضد سكان المناطق البعيدة. وعلى الموالين لهم أن يكتبوا على أبوابهم ورايا تهم شعارات مُلهمة ومُداهنة: "المختارون من الربّ"، "أمراء الرب"، "رؤساء آباء المحفل"، "مائة الربّ"، ذراع الحرب ضدّ كل البشر المخطئين"، "حقيقة الرب"، "صلاح الرب"، "مجد الرب"، وما إلى ذلك. لكن في تلك الأثناء، في أورشليم، وأسفاه! كان ابنا 'الكسندر جانيوس' يتنازعان على المملكة. فاستدعى أحدهما الرومان لدعم مسعاه. وكان ما كان عام (63 ق. م).

من الأهمية بمكان أن نلاحظ الآن التوجّه الذي يبدو أنه ساد خلال تلك الفترة، بين اليهود من مذاهب متعددة، حول النهاية الوشيكة

80 Josephus, De Bello Judaico I. 4. 1-6.

للكون. ففي الحالة الزرادشتية، سيؤدي هذا الأمر إلى قدوم المخلّص 'سوشيانت'. وفي يهودية ما بعد السبي، سيكون المخلّص، الممسوح، هو من يظهر. حيث ستُباد الأمم، ولن يبقى سوى الأطلال حتى من ديار اليهود أنفسهم. وفي هذا الجو من الضرورة الملحّة، رأت المسيحية النور. وكان الرسول يوحنا المعمدان، الذي كان يعمّد فقط 'العهديين - أهالي قمران' على بعد أميال من الأردن، من البحر الميت، ينتظر أيضاً، ويمهّد الطريق، ولم يكن القادم إليه سوى يسوع؛ لقد صام أربعين يوماً في الصحراء، وعاد ليوصل رسالته الرؤيوية.

إذاً ما هو الفرق البارز بين رسالة يسوع المسيح، ورسالة 'العهديين، أهالي قمران' القريبين؟ يبدو الفرق بالنسبة إلى على الشكل الآتي: كان العهديون قد أوشكوا على التورّط في معركة تشبه معركة 'أبناء الضوء' ضد 'أبناء الظلام'، واتخذوا وضعية الاستعداد للحرب، إن جاز التعبير، بينما كان إنجيل المسيح قد حلّ مشكلة المعركة بطبيعة الحال. "سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ" (متى 5: 43 - 45). أودّ أن أقول إن هذا تحديداً هو الفرق بين إنجيل الحرب وإنجيل السلام.

ناتي بعد قليل إلى تلك الكلمات المذهلة في إنجيل (متى 10): "لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي". ومرة أخرى في إنجيل (لوقا 14) نجد صدى من النوع ذاته: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي

إِلَيَّ وَلاَ يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضاً، فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً".

أعتقد أن المفتاح الأساسي لفهم ذلك هو في السطر الأخير المُقتبس هنا، وفي الكلمات التي تتبع كلاً من الاقتباسين السابقين فوراً. في إنجيل متى: "وَمَنْ لاَ يَأْخُذُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي. مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا". وفي إنجيل لوقا: "وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً". بالعودة إلى إنجيل (متى 19: 21): "إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي". وأيضاً في إنجيل (متى 8: 22): "اتْبَعْنِي، وَدَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ".

إن هدف هذه التعاليم هو التخلي الكامل عن كل اهتمامات الحياة الدنيوية العامة، والروابط العائلية والمجتمع وكل شيء، وترك "الأموات" أولئك الذين نصفهم بالأحياء. "يدفنون موتاهم"؛ وبهذا تبدو تعاليم المسيحية الأولى وكأنها من النظام اليوذي والجينيّ القديم. إنها "تعاليم غايية"، وما تفعله بالثيمة الرؤيوية العامة أنها تحرف إحالتها بشكل جذري من مستقبَل تاريخي إلى حاضر سيكولوجي: نهاية العالم، وقدوم يوم الدينونة، إن جاز التعبير، يعني أن ليس عليهم أن يكونوا منتظرين في حيّز الزمن، بل أن يكونوا مظفرين الآن في عزلتهم، في حُجرات قلوبهم. وللتأكيد على هذا المعنى، نجد في السطور الأخيرة من 'إنجيل الغنوصيين'، 'بحسب توما'، أنه عندما طرح التلاميذ على يسوع السؤال الآتي: "متى يأتي ملكوت الله؟" أجاب: "إن ملكوت الله لا يأتي بمراقبة، ولا يُقال ها هو هنا، أو ها هو هناك، بل إن ملكوت الله منتشر في الأرض، ولا يمكن للبشر رؤيته".

كما لا يمكن لإشارة يسوع إلى السيف أن تدلّ على أي سلاح يُستخدم

في حرب حقيقية، وهذا يظهر واضحاً في مشهد اعتقاله في "بستان الجثسيمانية"[81].

"وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ. وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ. فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي! وَقَبَّلَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟ حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَ يَسُوعَ مَدَّ يَدَهُ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ، فَقَطَعَ أُذُنَهُ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!". (إنجيل متى 26: 47 – 52).

واضح جداً! أليس كذلك؟ مع ذلك، فإن الحارس القوي للسيف، المعروف في إنجيل يوحنا (18: 10) باسم بطرس، لم يكن آخر الأتباع الذين خانوا يسوع وتعاليمه، كما فعل يهوذا. فمنذ انتصارات القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، تطوّرت الكنيسة التي تأسست على الصخرة التي تحمل اسم بطرس، بنسبة كبيرة، بحد السيف.. وفي ذروة القرون الوسطى، تحت سلطة البابا إينوسنت الثالث (1198 ـ 1216)، بلغ وميض سيف بطرس المُتعصّب ذروته الملتهبة، في الحرائق المضطرمة التي أفرزتها الحملة الصليبية على الكاثار (الطهريين). كان المُحترقون بالنار هم الكاثار المهرطقون، ناكرو الذات، الأنقياء، والذين رفضوا السيف صراحة مقابل العيش بنقاء وسلام.

81 Garden of Gethsemane. كلمة جثسيماني آرامية وتعني معصرة الزيت. وهي مكان يصفه متى ومرقس بأنه كان ضيعة، أي مكاناً محاطاً بسياج (متى 26: 36، مرقس 14: 23) ويدلّ عليه يوحنا أنه بستان (يوحنا 18: 1). ويكتفي لوقا بوصفه بالمكان (لو 22: 39) وكان يقع على جبل الزيتون، عبر وادي قدرون (يوحنا 18: 1).

إذاً، ربما يكون الزهد وانتباذ العالم والعيش فيه- بما في ذلك الرغبة في النجاة- أفضل مبدأ تم اقتراحه للجنس البشري ليعيش بسلام. وإذا كان بإمكان المرء أن يحاكم من خلال الظروف التاريخية للتصريح الأصلي، فقد نشأت- أو على الأقل، انتشرت- كردّ فعل على إحباط عام ناجم عن انهيار كل شيء. كانت أقدم الأفكار الأسطورية عن حرب عظمى، حرب مقدّسة نهائية تؤدي، في نهاية المطاف، إلى تأسيس عهد سلام عالمي في نهاية الزمان: إنها على أية حال، لم تكن أسطورة سلام بالشكل الصحيح، بل دعوة للحرب، حرب دائمة. ومن المفارقة بمكان أن رسالة الزهد لم تكد تخرج من شفاه يسوع إلى آذان أقرب أتباعه حتى تحوّلت إلى (وبقيت تُفسّر منذ ذلك الحين على أنها) مجرّد عقيدة حرب مقدّسة، 'جهاد'، أو حرب صليبية. لذلك دعونا نراجع الآن، ونقارن باختصار، النماذج والمآلات في عدد من أساطير السلام الزهدية الأخرى المعروفة.

دون أدنى ريب، فإن الديانة التي لا تساهل في تماسكها هي الديانة الجينية في الهند، وقد كان معلّمها مهافيرا معاصراً لبوذا. كانت تعاليم مهافيرا في ذلك الزمن تعاليمَ عظيمة، ولم يكن إلا آخر سلسلة طويلة من المعلّمين الجينيين المعروفين بـ "صانعي السلام"، "التيرثانكاراس. المعلّمين الروحانيين" الذين يعود تاريخهم إلى عصور ما قبل التاريخ. وبحسب تعاليم هؤلاء الحكماء الخالية تماماً من العنف، يتعيّن على المرشح لاجتياز الولادة الجديدة ألا يقتل، وألا يؤذي أي كائن حي، وألا يأكل لحم حيوان أبداً. حتى إنه لا ينبغي عليه أن يشرب الماء ليلاً لخوفه من ابتلاع حشرة قد تكون طافية على سطح الماء. ولا بدّ من نذر النذور، وتقليل عدد الخطوات التي يمشيها يومياً؛ لأن في كل خطوة يخطوها، تكون حياة حشرة أو دودة أو كائن آخر مهددة بالخطر. يحمل اليوغانيون الجينيّون، أثناء سيرهم في الغابة، مكانس يكنسون بها الأرض قبل كل خطوة؛ ومن الممكن، حتى يومنا هذا، أن ترى في بومباي رهبان الطائفة الجينية

وراهباتها، وهم يرتدون واقية قطنية تغطّي الفم والأنف (كالأطباء في غرف العمليات الجراحية) ليتأكدوا من عدم استنشاقهم أي كائن حي أثناء تنفّسهم. وعلى أتباعها ألا يتناول الثمار المقطوفة؛ بل أن يتركوها حتى تسقط. وألا يقطع النباتات الحيّة بالسكين. من الناحية المنطقية، يكون الموت المبكّر هو هدف الراهب الجينيّ؛ لكن ليس قبل أن تخمد رغبته بالحياة خموداً مطلقاً. لأنه إذا مات وهو يضمر أقل دافع للحياة أو المتعة، أو لحماية حياته، ستُعاد ولادته بالتأكيد، ويعود من جديد إلى هذا العالم المروّع، ويؤذي حيوات أخرى ويقتلها.

كانت البوذية في صيغتها البدائية وثيقة الصلة بالجينية، لكن مع نقلة جذرية من إخماد المرء لحياته حرفياً، إلى إخماده لـ 'أناه'، بدلاً من ذلك، ما ينبغي على المرء أن يتخلّص منه هو الإحساس بـ 'الأنا'، وبـ 'الملكية'، ودافع المرء لحماية نفسه وأملاكه وحياته. ولهذا فإن المدخل سيكولوجي أكثر منه جسدي، وحتى في هذه الحالة، يمكن أن نجد أيضاً حكماً مطلقاً للفضيلة، مستمراً حتى النهاية المريرة التي قد تؤدي بالمطلق إلى شيء أشبه ما يكون بنبذ الحياة بالكامل.

على سبيل المثال، هناك حكاية التقيّ البوذي مع الملك فيسانتارا، الذي طلب منه أحد ملوك البلدان المجاورة، أن يعيره فيله الإمبراطوري الأبيض. الفيلة البيضاء تجذب الفيوم، والفيوم تجلب الأمطار طبعاً. ولأن الملك فيسانتارا لم يكن أنانياً أبداً، أعطاه الفيل الأبيض حتى دون أن يفكّر بالأمر. لكن بدا أن الشعب أصبح ساخطاً عليه بسبب ضعف اهتمامه بالشعب ورفاهيته، ففقوه وعائلته من المملكة. غادرت العائلة الملكية بالعربات؛ وعندما أوشك أن يدخل الغابة، اقترب من مجموعة من البراهمانيين الذين طلبوا منه العربات والأحصنة؛ وفيسانتارا، الغيري بالمطلق، الذي لا يملك أدنى شعور بـ 'الأنا' أو 'بالملكية'، قدّم لهم تلك الأشياء القيّمة بملء إرادته، ودخل مع عائلته الغابة الخطيرة سيراً على الأقدام. بعد ذلك، مرّ 'براهمي' عجوز وطلب منه أن يعطيه

أولاده؛ فاحتجّت الأم بأنانية؛ لكن الملك الذي لا يشعر بـ 'الأنا' أو بـ 'الملكية'، سلّم أطفاله للعبودية بملء إرادته. ثم جاء آخر وطلب الزوجة، وسلّمها أيضاً.

يتعلّم المرء من هذه الحكاية ما الذي كان يعنيه يسوع عندما حثّنا على التخلّي عن الأب والأم، والابن والابنة، وحياتنا أيضاً، لكي نتبعه؛ عندما يطلب أحدهم معطفنا، نقدّم عباءتنا أيضاً، وعندما نُضرب على الخد الأيمن، ندير الأيسر. في حكاية البوذي التقيّ، تحوّل كل شيء نحو الأفضل، طبعاً، لأن 'البراهميين' كانوا في الواقع آلهة تختبر الملك؛ وتمت إعادة الأطفال والزوجة والجميع بأمان إلى قصر الجدين. كما حدث في قصّة إبراهيم الواردة في الكتاب المقدّس، حيث استُبقي 'إسحاق' المُضحّى به بين يدي الله الذي كان يختبره وحسب. ومع ذلك، يبقى السؤال في كلتا الأسطورتين هو ذاته: أين تنتهي الفضيلة وتبدأ الرذيلة في مجازفات من هذا النوع، وإلى أي مدى سيذهب المسالم بالمطلق في دفاعه المطلق عن لا شيء سوى طهارته الروحية الشخصية؟ لا أعتقد أن هذا السؤال منفصل عن زمننا الحالي.

لكن بالتوغّل عميقاً في العالم الشرقي، الصين واليابان، نصل إلى ثقافة أساطير سلام مختلفة؛ وبشكل خاص أسطورة 'لاو تسو - Lao tzu' و'كونفوشيوس'. إذ يطلق العديد من الناس صفة 'الرومانسي' على الفكر المؤسس لهذه الأساطير؛ لأن ثمة تناغماً ضمن الطبيعة كلها، تناغم روحي غامر: إنه تفاعل منظّم في الحياة كلها والحيوات كلها، في التاريخ والمؤسسات التاريخية كلّها، بين هذين المبدأين أو القوتين: النشاط والخمول، الضوء والظلام، الحرارة والبرودة، السماوي والأرضي، تناغم يُعرف باسم *'اليانغ واليين - yang and yin'*. حيث تهيمن قوة 'اليانغ' في مرحلة الشباب؛ ويهيمن 'اليين' لاحقاً، وبشكل متزايد، في مرحلة الشيخوخة. كما يسود 'اليانغ' في الصيف، في الجنوب، ويعد الظهر. ويسود 'اليين' في الشتاء، في الشمال، وفي الليل. فطريقة التناوب بين

الأشياء كلها هي الطريق للأشياء كلها، هي 'التاو'. وعندما يضع المرء نفسه في حالة تناغم مع التاو- زمن المرء وعالمه وذاته-فإنه يُنجز أهداف الحياة في حالة سلام من ناحية التناغم مع الأشياء كلها.

يمكن أن نجد المقولة الأكثر شهرة وإلهاماً للفلسفة التاوية في عمل صغير مكوّن من إحدى وثمانين قصيدة شعرية معروفة باسم 'التاو تي تشينغ'، "كتاب حكمة التاو، وهو يُعزى إلى حكيم أسطوري طويل اللحية يُدعى لاو تسو'، "الصبيّ العجوز".

نقرأ في المقطع الثلاثين من كتاب 'التاو'[82]:

"إذا كُنتَ في موضع نصح الحاكم، وفق التاو، لا تشر عليه باللجوء إلى قوة السلاح وإخافة شعب الإمبراطورية، لأن أساليب عمله وحدها سترتدّ إليه على نحو حسن. حيثما تُعسكر القوات، ينبت شجر الشوك، وفي أعقاب الجيوش الجرارة، يذوي الحصاد، وإذا كان لا بدّ من الحرب، فعجّل في إنهائها، عجّل في إنهائها ولا تتفاخر، عجّل في إنهائها ولا تتبجّح، عجّل في إنهائها ولا تتغطرس، عجّل في إنهائها ولا تروّع الناس. فورة القوة يعقبها الوهن، وهذا ليس من التاو، ومن يَسِرْ عكس تيار التاو، يأت إلى نهاية سريعة".

ونقرأ في المقطع الحادي والثلاثين:

"لأن السلاح أداة شؤم يبغضها الناس، لا يلجأ التاويّ إلى استخدامه. السلاح أداة شؤم لا يلجأ إليها السادة، فإذا كان لا بدّ منها، استخدمها بحياد".

82 Translation by Dwight Goddard, Laozus Tao and Wu Wei (New York: Brentano's, 1919).

"لا يوجد مجد في الانتصار، تمجيد الانتصار يعني إعلاء شأن القتل، ومن يُعلي شأن القتل لا مكان له في المملكة».

على أية حال، وكما يعلم العالم جيداً، تميّز تاريخ الصين الطويل جداً، بعهود الطغاة عديمي الرحمة إلى حد كبير، بالإضافة إلى قرون من فوضى الحروب؛ وعلى الأقل، منذ حقبة المقاطعات المتحاربة (453 - 221 ق. م) فصاعداً، كان لمناوشات الجيوش المحترفة تأثير على مسار سياسات الصين أكثر بكثير من أي شيء آخر شبيه بنموذج 'لاوتسو' عن "فضيلة التاو". في الواقع، لقد أتى من تلك الحقبة شديدة العنف إلى زمننا الحالي عملان ميكافيليّان مترابطان تماماً حول فن السلطة والحفاظ عليها: الأول: ما يُعرف باسم 'Book of the Lord Shang' (ترجمه إلى الإنكليزية: جان يوليوس لودفيغ دويفندك، لندن، 1928)، والثاني هو كتاب 'فن الحرب' لـ 'سون تزو' (ترجمه إلى الإنكليزية: صموئيل كريفث، جامعة أكسفورد، 1963). دعوني أقتبس بشكل مُقتضب بعض ما جاء في كتاب 'سون تزو' (9_1_I) أولاً:

"فنّ الحرب ذو أهمية حيوية للدولة؛ فالحرب مسألة حياة أو موت؛ وبمثابة طريق إلى برّ الأمان أو إلى حيث الخراب، ولهذا فإن الحرب قضيّة تستحقّ البحث والتحري الدقيق والتمحيص. لذلك، يُفترض الاعتماد على خمسة عوامل ثابتة لتقييم الحرب، ومقارنتها مع العناصر السبعة التي تم تحديدها لاحقاً. بهذا يمكن تقييم أساسياتها.

أول هذه العوامل الخمسة هو الأثر الأخلاقي (التاو)، الثاني هو الطقس، والثالث هو التضاريس، الرابع هو شخصية القائد، أما الخامس فهو النظام العام. أعني بالأثر الأخلاقي (التاو) ما يجعل الناس يتناغمون مع قادتهم، بحيث يرافقونهم في الحياة،

وإلى الموت، دون خوف من أية مخاطر. وأعني بالحلقس التفاعل بين القوى الطبيعية، أي تأثير برد الشتاء وحرارة الصيف، وشنّ العمليات العسكرية بحسب الفصول. وأعني بالتضاريس، ما إذا كان بالإمكان اجتياز تضاريس المنطقة بسهولة أو بصعوبة، وما إذا كانت مفتوحة أو ضيقة، وفرص الحياة أو الموت فيها. أما القيادة فأعني بها صفات القائد المرتبطة بالحكمة والصدق والإنسانية والشجاعة والصرامة. وأخيراً، أعني بالنظام العام، السيطرة والتنظيم وتعيين الرتب المناسبة للضباط، وتنظيم طرق الإمداد، وتوفير المواد الأساسية التي يحتاجها الجيش. ليس هناك من قائد عسكري لم يسمع عن هذه الأمور الخمسة. من يتقنها ينتصر، ومن يجهلها يُهزم.

ومن كتاب 'The Lord Shang' (I.8 and 10-12) أقتبس:

تعتمد الدولة على الزراعة والحرب من أجل إحلال السلام في ربوعها، وكذلك على الحاكم من أجل شرفها... إذا وُجدَت في الدولة الأشياء العشرة الآتية: الشعر والتاريخ، الشعائر والموسيقى، الفضيلة وبالتالي الثقافة، الخير والنزاهة، السفسطة والذكاء، فلن يكون للحاكم أي شخص يمكن توظيفه من أجل الدفاع والحرب... لكن إذا أقصت الدولة تلك الأشياء، فلن يجرؤ الأعداء على الاقتراب، وحتى إذا فعلوا، فسوف يتراجعون... الدولة التي تحبّ القوّة، تنفّذ هجماتها على ما هو صعب، وبالتالي سينكلل ذلك بالنجاح. الدولة التي تحب اللغوَ، تنفّذ هجماتها على ما هو سهل، وبالتالي ستكون في خطر... عندما تكون الدولة في حالة خطر، والحاكم قلق، فلا جدوى من تخفيف هذا الخطر؛ لأن الناطقين المحترفين يشكّلون

كتائب. السبب الذي يجعل دولة في خطر، وحاكمها قلقاً، يكمن في وجود عدو قوي أو في ولاية كبيرة أخرى.

الزراعة والتجارة ومكاتب السلطة، هي الوظائف الثلاث الدائمة في الدولة، وتؤدي هذه الوظائف الثلاث إلى ست وظائف طفيلية تُدعى: العناية بالعجزة، العيش على حساب الآخرين، الجمال، الحب، الطموح، السلوك الفاضل. إذا وجدت هذه الطفيليات الستة ما تتعلّق به، سيحدث تقسيم....

البلد الذي يكون الحكم فيه للفاضل على الشرير، سوف يعاني من الاضطراب وينقسّم؛ لكن البلد الذي يكون الحكم فيه للشرير على الفاضل، سيكون منظّماً، وسوف يصبح قوياً...

إذا كانت العقوبات كبيرة، والمكافآت شحيحة، فهذا يعني أن الحاكم يحبّ شعبه، وسوف يموت من أجله؛ لكن إذا كانت المكافآت كبيرة، والعقوبات خفيفة، فالحاكم لا يحب شعبه، ولن يموت من أجله.

وأخيراً:

إذا فعلت أشياء يخجل العدو القيام بها، فلديك الأفضلية.

في الهند أيضاً، كان هناك تاريخ طويل من التفكير بهذه الطريقة، لدرجة أنه ألهم فنون الحرب وطرق الحكم وصاغها. يميل الطلاب الذين يدرسون 'باغافاد غيتا- Bhagavad Gita' اليوم إلى نسيان أن ما يقرؤونه على أنه دليل سلوكي ديني إنما هو جزء من إحدى الملاحم الحربية العظمى على مرّ الأزمان، وهو الكتاب الهندي "ماهابهاراتا- Mahabharata"، أي "الحرب العظيمة لأبناء بهاراتا"، ومنه تنتقي بعض

الخيارات المميزة التالية، وهي من الكتاب الثاني عشر (الفيتا من الكتاب السادس):

الملك الذي يعرف قوته الذاتية، ويقود جيشاً كبيراً، عليه أن يعطي الأوامر بسعادة وشجاعة، دون الإعلان عن نيّة الجيش بالتحرك ضدّ جزء من الحلفاء والأصدقاء، أو أنه في حالة حرب أساساً، ومن هنا ترك الجيش غافلاً عما يحدث؛ أو ضد من هم أضعف منه: عليه أولاً إجراء الترتيبات لحماية مدينته الخاصة....

لا ينبغي على الملك أن يعيش دوماً تحت سلطة ملك أقوى منه. على الرغم من الضعف، عليه أن يحاول خلع الأقوى، ويكون عازماً على ذلك، ويتابع الحكم بطريقته. عليه أن يهاجم الأقوى بالأسلحة، والنار، واستخدام السموم. وأن يزرع الشقاق بين وزراء الملك الآخر وخدمه.

يعتمد الملك على خزينته وجيشه، ويعتمد جيشه بدوره على خزينته. إن جيشه مصدر جدارته الدينية كلها. وجدارته الدينية هي دعم شعبه له. كما لا يمكن لخزينته أن تمتلئ من جديد دون تضييق على الآخرين. كيف يمكن إذاً الحفاظ على الجيش من دون تضييق؟ وبالتالي فإن الملك، في الأوقات الصعبة لا يرتكب أية خطيئة في التضييق على رعاياه من أجل ملء خزينته... فالثروة، يمكنه نَيل العالَمين - هذا العالم والعالم الآخر -، وكذلك الحقيقة والجدارة الدينية. فالشخص الذي لا يمتلك الثروة هو شخص ميّت أكثر مما هو حي....

على المرء أن يحمل عدوه على كتفه طالما أن الظروف غير ملائمة، لكن عندما تأتي الفرصة المناسبة، عليه أن يسحقه كإناء فخاري على صخرة....

يجب على الملك الذي يسعى إلى الرخاء ألا يتردد بقتل ابنه أو أخيه أو أبيه أو صديقه، إذا كان أحدهم سيقف في طريقه....

دون اجتثاث الأعضاء الحيوية للآخرين، دون اتخاذ العديد من الإجراءات القاسية، دون قتل الكائنات الحية، كما يقتل الصياد السمك، لا يمكن للمرء أن يصل إلى الرخاء...

ليس هناك من أنظمة خاصة لكائنات تُدعى أصدقاء أو أعداء. يصبح الأشخاص أصدقاء أو أعداء بحسب الظروف....

يجب أداء كل عمل بشكل مثالي: بقتل السكان، بتدمير الطرقات، بإحراق البيوت وهدمها، على الملك أن يدمّر عالم عدوّه.

وأخيراً:

القوة أعلى من الحق؛ فالحق يُصبح نافذاً من خلال القوة؛ والحق يتلقّى الدعم من القوة كما تتلقّى الكائنات الحية الغذاء من التربة. كما يتبع الدخان الريح، ينبغي على الحقّ أن يتبع القوة. الحق بحد ذاته لا سلطة له؛ إنه يعتمد على القوة كما تعتمد العريشة على الشجرة.

إن الـ 'بهاغافاد غيتا' بحد ذاته، كفصل من ملحمة المحارب هذه، هو في الهدف والمحتوى مُحاضرة تشجيعية للأمير الشاب المُصاب بوخز الضمير قبيل إعطائه الإشارة للبدء بالمعركة، لكي يحرر ذهنه من الإحساس بالحزن والشعور بالذنب أثناء القتل. فقد تعلّم أنه: "لمن يولد، يكون الموت حتمياً، ولمن يموت، الولادة حتمية. ليس عليك أن تشعر بالحزن على ما لا يمكن تَفاديه... إن الذات الأسمى، التي تقطن

الأجساد كلها، لا تُقتل". "لا تقتلها الأسلحة، ولا تحرقها النار، ولا يبللها الماء، ولا تيبّسها الريح. فالذات تبقى نفسها إلى الأبد، أبدية، كونية لا تتغير ولا تتحرك... وبما أنها تسكن جميع الأجساد، لا يمكن أن تُقتل. وبالتالي ليس عليك أن تحزن على أي مخلوق"[83].

باختصار شديد: هذا أساس السلام الكامل في التفكير الشرقي. وعلى صعيد الأداء الفعلي، ليس هناك سلام في الحياة كلها، إن جاز التعبير، ولا يمكن أن يسوّد. فصيغة تحقيق السلام هي أن تتصرّف كما ينبغي على المرء أن يتصرّف، لكن من دون أهواء. وكما خَبِرَ المحارب الشاب 'الأمير أرجونا' في 'الغيتا': "من خلال ممارسة اليوغا، قم بأداء الأفعال وتحرر من الهوى، وحافظ على اتقاد الذهن إنْ في النجاح أو الفشل. هذا التوازن هو ما يُدعى بـ اليوغا. وما دون ذلك هو محضُ انتقال من فعل إلى آخر مع هذا التوازن في العقل. ابحث عن ملاذ في هذا التوازن. واليائس ذاك الذي يعمل من أجل النتائج. ومَن يوهَب توازنَ العقل هو ذاك الذي يتخلّى، في هذه الحياة تحديداً، عن الأفعال الحميدة والشريرة. ويسعى بالتالي إلى اليوغا؛ اليوغا هي المهارة في الأداء".

بالتحلل من كلّ مخاوفه، ورغباته، وثمار الفعل، على المرء أن يتصرف دون هوىً يربطه بالمهمة الملقاة على عاتقه؛ ومهما يكن الأمر، فإن تلك المهمة من واجباته، ومن واجبات الأمراء أن يُقاتلوا ويقتلوا. ونقرأ أيضاً: "بالنسبة للأمير، لا شيء أفضل من الحرب المبررة أخلاقياً. وبكل تأكيد، سيسعد ذاك الأمير الذي تأتيه حرب من هذا النوع دون سعي، وتفرض نفسها، وتترك أبواب الفردوس مفتوحة"[84].

هكذا، ويا للمفارقة، تكون أسطورة الحرب، في هذا السياق، هي ذاتها أسطورة السلام. وليست هذه المفارقة أساسية في الهندوسية وحسب،

83 Bhagavad Gita 2. 27, 30, 23.
84 Ibid. 2. 31-32

بل في البوذية أيضاً- بوذية المهايانا. لأنه، وقبل كل شيء، طالما أن حكمة الضفة القصيّة قد تجاوزت كل ثنائيات الأضداد، فلا بدّ بالضرورة أن تتفوّق وتتضمّن تعارُضَ الحرب- و- السلام. وكما يتضح من القول المُقتبس من بوذية المهايانا، "هذا العالم تحديداً، بكل ما فيه من النقص، هو عالم اكتمال اللوتس الذهبية". وإذا لم يكن بمقدور المرء أن يرى الطريق، أو لا يحتمل رؤية الطريق، فالخطأ ليس في العالم.

لا يمكن اعتبار هذا الكون مجرّدَ شر. فالطبيعة ليست شراً بل هي "كتلة فعلٍ" لوعي بوذا، وبالتالي فإن الصراع ليس شراً، ولم يعد الخصم في المعركة شريراً أكثر من الآخر ولا أفضل منه.

بناء عليه، فإن مشاركةَ البوديساتفا الوجدانية في سيرورة العالم تكون خالية تماماً من الشعور بالإثم. وأيضاً، تكون متجردة، لا شخصية بالمطلق. وبالمعنى ذاته فإن قدوة بوذيّ المهايانا؛ ذي "الأداء المُمتع" بالنسبة إلينا جميعاً، في "كتلة أداء وعي بوذا"، هي لا شخصية بالمطلق ولا ذاتية ودون إحساس بالإثم أيضاً. وقد علمتْ أنه بعد معركة بورت آرثر، في الحرب الروسية اليابانية عام (1904)، لم تُنقش أسماء الرجال فقط على لوحة تخليد الذكرى- في التايين- بل أسماء الأحصنة أيضاً، وكل من قدّم روحه في هذه المعركة، على أنهم (بوديساتفات).

إذاً، باختصار: سادت منذ أقدم العصور فكرة أن الحرب (من هذا النوع أو ذاك) ليست أمراً جيداً ولا مفرّ منه فحسب، بل هي النمط الأكثر طبيعية وإثارة في الأداء الاجتماعي للإنسان المتحضّر، وشَنّ الحروب هو المتعة الطبيعية للملوك، وواجبهم أيضاً. كما أن الملك الذي لا يشترك بحرب، وليس مستعدّاً للتورّط فيها، سيكون أحمقَ بحسب وجهة النظر هذه: يكون "تمراً من ورق".

لكن من جهة أخرى، توجد في حوليات تاريخ العالم تقارير عن وجهات نظر معاكسة تماماً لهذا الأمر، حيث يكون الهدف إيقاف الحرب

والاقتتال، والوصول إلى سلام دائم. وعلى أية حال، فإن النتيجة المباشرة العامة لهذا الطموح هو أنه، طالما أن القتال والألم أمران جوهريان للوجود الدنيوي المؤقت، فالحياة ذاتها بالشكل الذي نعرفها فيه، يجب أن تنتفي. ويمكن أن نلمس أمثلة عن هذه النزعة السلبية بوضوح في الهند، في الجينية وفي بوذية (الهيناياتا)، لكنها ظهرت أيضاً في الغرب، كما في الحركات المسيحية المبكرة، وفي فرنسا في القرن الثاني عشر، "الألبيين - Albigenses"[85].

باستعراض أساطير الحرب، وجدنا في التوراة والقرآن اعتقاداً بأن الله، خالق الكون والمسيّر الوحيد له، كان دوماً، وبشكل مطلق، إلى جانب شعب مختار معين، وبالتالي كانت حروبهم حروباً مقدّسة جرتْ تحت عنوان إرادة الله وفي سبيل الله. وثمّة فكرة لا تختلف كثيراً ألهمت شعب الأرتك بشنّ "الحروب المزهرة"، للقبض على أضاحٍ بشرية بغية الحفاظ على حركة الشمس. وفي الإلياذة، من جهة أخرى، تعاطفت آلهة الأولمب مع كلا الطرفين في الصراع، ولم يجرِ تفسير حرب طروادة وفق مصطلحات الإنسان الكونية بل الأرضية: حرب طروادة ذاتها كانت حرباً من أجل استعادة الزوجة المخطوفة. ولم يُعبَّرْ عن المحارب المثالي الإنسان بشخصية الإغريقي وكلماته، بل ببطل طروادة، هيكتور. وألمحُ هنا دليلاً يتناقض مع روح أسطورتي الحرب الساميتين، ومع قريبتهما من جهة أخرى: الأسطورة *الهندية ماهابهاراتا*. إن القرار الصريح لـ هيكتور بالقتال وفاءً لواجبه الواضح تجاه عائلته ومدينته، و"التحكم بالذات" (اليوغا) المطلوبة من "أرجونا" في "الغيتا" في تحقيق واجبات طائفته، هي في جوهرها من المنظومة ذاتها. أضف إلى ذلك، أن ثمة في الملاحم الهندية والإغريقية ذلك التكافؤ في الشرف والاحترام الممنوح لكلا طرفي الصراع من كلا الجانبين.

85 أعضاء مجموعة دينية تُعتبر مُهرطقة، ظهرت في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وتُعتبر من جماعة "الكاثار". وقد تضمّنت تعاليمهم شكلاً من أشكال الثنائية المانوية، وتتميز بالصرامة الأخلاقية والاجتماعية. (م).

لكننا الآن، في نهاية الأمر، اكتشفنا في استطلاعنا وجهة نظر ثالثة تتعلّق بمثاليات الحرب والسلام وأهدافها، وهي لا تؤكد ولا تُنكر الحرب كحياة، والحياة كحرب، بل تطمح إلى زمن تتقلص فيه الحروب. ففي الأسطورة الزرادشتية الفارسية المؤمنة باليوم الآخر، والتي يبدو أنها الأولى التي ظهر فيها هذا الاحتمال بشكل جدي، كان يوم التحوّل العظيم ذا طبيعة ترتبط بالأزمات الكونية، عندما تكفّ قوانين الطبيعة عن العمل، عندما يسود الوجودَ نمطٌ أبدي لا زمن له، ولا تَبدُّلَ فيه، ولا حياة بالشكل الذي نعرفه اليوم. ومن المفارقات أن حروباً كثيرة ستسود الكون، وتظهر صراعات لقرون طويلة تسبق هذا التجلّي الشمولي. وفي غضون ذلك، في الإمبراطورية الفارسية ذاتها، كان هناك ازدهار وتنام لسيطرة استباقية. يفرضها جواسيس الإمبراطور والعسس وعناصر الشرطة؛ ومع توسّع هذه الإمبراطورية المسالمة، تتسع حدود منطقة السلام المؤقت، حتى.....!!

لكن سمعنا مؤخراً عن نماذج مماثلة، وفي متناول اليد. حيث استُوعبت الفكرة، كما رأينا، في صورة الكتاب المقدس عن بني إسرائيل؛ وفي فترة تمرير مخطوطات البحر الميت إلى المسيحية الأبوكاليبسية. (انظر إنجيل مرقس 13: 3 ـ 37). إنها جوهرياً فكرة "دار الإسلام" و"دار الحرب" الموجودة لدى العرب. ونراها أيضاً في سلام موسكو. جواسيس، مخبرون، قمع الشرطة، وسوى ذلك.

بالإضافة إلى ما سبق، وبحسب معرفتي، لا توجد سوى فكرة واحدة أخرى عن الحرب والسلام في التقاليد القديمة، وقد أعلن عنها للمرة الأولى، فيلسوف القرن السابع عشر الهولندي القانوني البارز غروتيوس عام (1625)، في محاضرته "حقوق الحرب والسلام. The Rights of War and Peace". هنا، للمرة الأولى في تاريخ البشرية، يُقدَّم مقترح لقانون الأمم على أساس المبادئ الأخلاقية وليس شريعة الغاب. في الهند مثلاً، كان قانون إدارة العلاقات الدولية معروفاً لقرون بوصفه "*the matsya nyaya*"،

أي "قانون الأسماك"، يا لظرافتهم، ويقضي بأن الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة، وعلى الصغيرة أن تكون ذكية. والحرب واجب طبيعي على الأمراء، وليست فترات السلام سوى فواصل مؤقتة كالفترة الفاصلة بين جولتي ملاكمة. بينما الحرب، من وجهة نظر غروتيوس، خرقٌ للمعيار الحضاري اللائق، أي السلام؛ ويجب أن يكون هدفها إحلال السلام، ليس السلام الذي تفرضه قوة الجيوش، بل ذاك الذي يقوم على أساس المصالح المتبادلة. وهذه بدورها، كانت الفكرة المثالية التي طرحها وودرو ويلسون، في خطابه بمناسبة نهاية الحرب العالمية الأولى، حول "السلام دون نصر". ويظهر لدينا أيضاً رمز لهذا المثل الأعلى، في شكل أيقونة النسر الأمريكي الذي يتم تصويره بمجموعة سهام في مخالب قبضته اليسرى، وغصن زيتون في اليمنى، وتسكنه روح غروتيوس[86]. والرأس يتجه إلى اليمين، إلى غصن الزيتون. لنأمل، على أية حال، باسم السلام، أن يُحتفَظ بتلك السهام مسنونة في مكانها، حتى لا يُصبح الزهد، ولا قوة السلاح، الضامنَين للجنس البشري كله، بل الفهم الكامل للمصلحة المشتركة، في النهاية، لمعرفة عهد السلام.

86 هوغو غروتيوس (1583 – 1645)، رجل قانون ودبلوماسي هولندي أصبحت مؤلّفاته أساساً للقانون الدولي. (م).

10
الفُصام - الرحلة إلى الداخل
(1970)

في ربيع عام (1968)، تلقيت دعوة لتقديم سلسلة حوارات عن الفُصام، في معهد إيسالن، بيغ سور- كاليفورنيا. وقبل سنة من الآن، ألقيت محاضرة في ذلك المركز عن الأسطورة؛ كان من الواضح أن السيد مايكل مورفي، الشاب واسع الخيال، ومدير هذا المشروع المثير للاهتمام، قد اعتقد أنه لابدّ من وجود رابط ما بين الموضوعين. وبما أنني بالكاد أعرف شيئاً عن موضوع الفُصام، فقد اتصلت بالسيد مايك بعد أن استلمت الرسالة مباشرة.

قلت: "مايك، لا أعرف شيئاً عن موضوع الفُصام، ما رأيك أن ألقي محاضرة عن جويس؟"

أجاب بدهشة: "حسناً!، لكن أودّ، بالقدر نفسه، لو أسمعك تتحدث عن الفُصام. دعنا نُجر حواراً مزدوجاً في سان فرانسيسكو: أنت والسيد جون بيري، حول الأسطورة والفُصام. ما رأيك؟"

لم أكن أعرف السيد جون بيري في ذلك الحين؛ لكن عندما كنت شاباً، كانت لدي تجربة عظيمة جداً في تقبيل حجَر بلارني- *Blarney stone*[87].

87 حجر بلارني: هي كتلة من الحجر الجيري، موجودة في قلعة بلارني، في إيرلندا، وبحسب الأساطير التي يتناقلها أهل إيرلندا، فإن من يقبّل الحجر، يمتلك القدرة على الحديث المُقنع. (م).

الحجر يستحقّ زينة شهادات دكتوراه، هكذا قلت في سري: "حسناً! ولمَ لا؟" وإلى جانب ذلك، كانت ثقتي كبيرة بالسيد مايك مورفي، وهو ما جعلني أثق تماماً أن ما يدور في خَلَده مثير للاهتمام.

بعد أسابيع، تلقيتُ رسالة بالفعل من جون واير بيري؛ الطبيب المُقيم في سان فرانسيسكو، تتضمن نسخة من محاضرة عن الفُصام، كان قد نشرها في **حوليات أكاديمية العلوم في نيويورك** عام (1962)[88]؛ وبعد قراءتها، كان ما أثار دهشتي أن تصورات الفانتازيا الفُصامية تتطابق تماماً مع صور رحلة البطل الأسطورية التي أشرت إليها سابقاً وأوضحتها عام (1949)، في موضوع "**البطل ذو الألف وجه**".

لقد قام عملي على دراسة مقارنة لأساطير الإنسان، مع إشارات عابرة هنا وهناك إلى ظواهر الأحلام، والهستيريا، والرؤى الباطنية وما إلى ذلك. كانت أساساً منظومة من الشيمات والأفكار النمطية في جميع الأساطير، ولم تكن لدي أية فكرة لجمعها معاً، إلى الحد الذي تتوافق فيه مع التصورات المتعلّقة بالجنون. وقد كانت، من وجهة نظري، ثيمات وأفكاراً رمزية وشمولية نموذجيّة قامت على أساس سيكولوجي، تشكلت من جميع الأساطير التقليدية؛ لكن الآن، ومن محاضرة الدكتور بيري، عرفت أن العناصر الرمزية ذاتها تظهر تلقائياً من حالة ذهنية منفصلة ومُعذّبة للبشر المُعاصرين الذين يُعانون من انهيار فُصامي كامل: حالة شخص فقد التواصل مع حياة مجتمعه وأفكاره، وبهذي قهرياً من جذوره مكتمل الانفصال.

باختصار؛ النموذج الشائع هو، أولاً: انفصال عام عن النظام الاجتماعي السائد وسياقه، أو مجرّد نأي عنه. ثانياً: انكفاء طويل وعميق، داخليّ وارتدادي؟، ويكون في بعض الأحيان، إلى الباطن، وفي أعماق النفس؛ فهناك سلسلة مواجهات فوضوية، وتجارب مخيفة قاتمة،

88 Vol. 96, Article 3, pp. 853-876, January 27, 1962

وفي الوقت ذاته (إذا كانت الضحية محظوظة) تحدث مواجهات من نوع مركزيّ، فتنجز، وتوفّق، وتقدّم دفقة شجاعة جديدة، وأخيراً، في حالات حالفها الحظ، تحدث رحلة عودة للانبعاث في الحياة. هذه هي الصيغة الكونية، وهي أيضاً عن رحلة البطل الأسطوري التي وصفتها، في كتابي المنشور، بأنها (1) الانفصال، (2) المبادرة (3) العودة:

يغامر البطل منطلقاً من عالم اليوم الاعتيادي ليدخل منطقة العجب الخارقة: يواجه قوى خارقة هناك وينتصر بشكل ساحق: يعود البطل من تلك المغامرة الأسطورية ولديه القوة لكي يُسبغ نعمه على أصدقائه الرجال[89].

هذا نمط الأسطورة، ونمط فانتازيا النفس.

كانت أطروحة الدكتور بيري في هذه المحاضرة تقوم على أن أفضل شيء، في حالات معينة، هو أن تترك العملية تأخذ مجراها لدى الفُصامي، ولا تجهضها عن طريق العلاج بالصدمة أو ما شابه ذلك، بل على العكس تماماً، أن تدعم عملية الانفصال ثم إعادة الاندماج. وعلى أية حال، إذا كان يفترض بالطبيب أن يكون مفيداً في هذه الحالة، فعليه إذاً أن يفهم لغة الصورة الخاصة بالأسطورة. وأن يفهم ما تشير إليه العلامات والإشارات المجزّأة التي يحاول مريضه، البعيد من ملامسة وسائل التفكير والتواصل العقلانية، أن يجمعها معاً لخلق نوع من التواصل. وبتفسير الأمر من وجهة نظره، يُعتبر انهيار المريض الفُصامي رحلة داخلية وخارجية لاستعادة شيء ضائع، أو شيء يتوق إليه لاستعادة توازنه الحيوي. لذا دع المسافر يذهب، فقد انقلب مركبه، وهو يغوص الآن في الأعماق، ربما كان يغرق، ومع ذلك، كما في أسطورة

89 Joseph Campbell,The Hero with a Thousand Facts (New York: Pantheon Books, 1949), p. 30.

جلجامش القديمة وغوصه لفترة طويلة في قاع البحر الكوني ليقطف نبتة الخلود، هناك قيمة واعدة لحياته هناك. لا تقاطعه في رحلته: بل مدَّ له يدَ العون.

أستطيع القول إن رحلتي إلى كاليفورنيا كانت رائعة جداً. فالنقاش مع الدكتور بيري، والحوارات التي قدّمناها معاً فتحت آفاقاً جديدة تماماً بالنسبة إلي. وقد جعلتني هذه التجربة أفكّر ملياً بإمكانية أن أستمد من الناس الذين يعانون الأزمات اليوم، تلك المواد الأسطورية التي كنتُ أعمل عليها بطريقة أكاديمية تعليمية وحماسية طوال تلك السنوات، دون معرفة دقيقة بالتقنيات التي ربما يمكن تطبيقها على احتياجات الآخرين.

أطلعني الدكتور بيري والسيد مورفي على دراسة بعنوان "الشامان والقُصام الحاد"، للدكتور جوليان سيلفرمان من المعهد الوطني للصحة العقلية، المنشورة عام (1967) في مجلة: الأنثروبولوجي الأميركي[90]، وفيها وجدت أيضاً شيئاً ذا أهمية كبيرة، وله علاقة مباشرة بدراساتي وأفكاري. وفي أعمالي الخاصة، كنتُ قد أشرت سلفاً[91] إلى أنه، في القبائل البدائية التي كانت تعيش على الصيد، كانت الطقوس والتصورات الأسطورية لحياتهم الشعائرية الطقسية غالباً ما تُستحضَر من التجارب السيكولوجية للشامان. فالشامان عبارة عن شخص (سواء كان ذكراً أم أنثى) واجَهَ في فترة مبكّرة من مراهقته عدة أزمات سيكولوجية مشابهة تماماً لما يُسمّى الذُهان في يومنا هذا. لذلك عادة ما ترسل أسرة الشاب المضطرب في طلب الشامان العجوز، ليُخرج الشاب منها، وعبر إجراءات وأغانٍ وتمارين مناسبة، يحالف الحظُ هذا الممارس الخبير. وكما يذكر الدكتور سيلفرمان ويوضح في محاضرته: "في الثقافات البدائية التي يتم التساهل فيها مع هذا الحل الفريد لأزمة حياتية، عادة ما تكون هذه التجربة غير العادية (الشامانية) مفيدة للفرد معرفياً وعاطفياً

90 Vol. 69, No. 1, February 1967

91 The Masks of God, Vol. I, Chapters 6 and 8.

ويُنظر إليه كشخص واسع الإدراك". وعلى العكس من ذلك، في ثقافة منظمة عقلانياً كثقافتنا- أو لنصفها بكلمات الدكتور سيلفرمان: "في الثقافة التي لا تؤمّن فيها إرشادات مرجعية لفهم هذا النوع من التجارب الحرجة، فإن الفرد (الفصامي) يقاسي على العموم آلاماً مبرحة تتجاوز قلقه الأصلي".

دعوني أصف لكم حالة شامان من الأسكيمو، أثناء إجراء مقابلة مع الباحث والمستكشف الدانماركي العظيم كنود راسموسن في مطلع القرن العشرين. كان راسموسن يتحلى بالتعاطف الإنساني وسعة الاطلاع والفهم، وكان قادراً على التحدث بطريقة مدهشة، إنساناً لإنسان، مع الشخصيات التي قابلها أثناء رحلته إلى أقاصي شمال المنطقة القطبية، ضمن بعثة استكشاف شمال القطب الدانماركية الخامسة، التي عبرت طرقاً شاقة بين عامي (1921 ـ 1924)، على امتداد المسافة بين غرينلاند وألاسكا.

عندما كان إيغجوغارجوك Igjugarjuk "شامان الأسكيمو كاريبو" ابن القبيلة التي تسكن السهول الجرداء في شمال كندا شاباً، راودته أحلام لا يمكن تفسيرها؛ حيث تأتي حيوانات غريبة مجهولة وتتحدث معه؛ وعندما يستيقظ، يتذكّر كل شيء بحيوية لدرجة أنه يستطيع أن يصف لأصدقائه وعائلته ما رآه بمنتهى الدقّة. لذا شعرت العائلة بالقلق حيال ذلك، وأدركت ما يحدث، فأرسلت في طلب الشامان 'بيكاناوك'، الذي قام بتشخيص الحالة، ووضع الشاب على مزلجة كبيرة بالكاد تكفي لأن يجلس عليها، ثم جرّه بعيداً في أقسى درجات الشتاء. والقطب الشمالي مظلم وقارس البرودة في ليالي الشتاء. إلى القفار القطبية المعزولة، وبنى له كوخاً ثلجياً صغيراً لا يكاد يتسع له إلا إذا صالَبَ ساقيه. ولم يكن مسموحاً له أن يلامس الثلج بقدمه، ولهذا رفعه عن المزلجة ووضعه في الكوخ على قطعة من الجلد لا يزيد حجمها عن حجم جسده. ولم يُبقِ معه طعاماً ولا شراباً، وأعطاه تعليمات بأن يفكّر فقط 'بالروح العظيمة'، التي ستظهر عما قريب، ثم تركه هناك وحده ثلاثين يوماً. بعد خمسة

أيام، عاد العجوز إلى الكوخ وقدّم له الماء الفاتر. وبعد خمسة عشر يوماً عاد بالماء مرة أخرى بالإضافة إلى قطعة لحم. كان ذلك كل شيء. كان البرد والصيام قاسيين جداً لدرجة أنه، بحسب ما قاله إيغجوغارجوك لـ راسموسن، "شعرت أحياناً أنني فارقت الحياة". مكث خلال هذه الفترة كلها يفكّر على مدار الوقت، يفكّر بـ 'الروح العظيمة'، حتى اقتربت منه، مع اقتراب نهاية محنته، على شكل امرأة تحوم في الهواء فوقه. عندئذ، أعاده الشامان العجوز إلى البيت، وطلب منه اتباع صيام ونظام غذائي معين مدة خمسة أشهر أخرى، فصيام من هذا النوع، كما قال لضيفه الدانماركي، والذي أمارسه كل حين، هو أفضل طريقة للوصول إلى معرفة الأشياء الغيبية بشكل عميق. يقول إيغجوغارجوك: "إن الحكمة الوحيدة الحقيقية، تكمن في العيش بعيداً عن البشر، في حالة من العزلة الكاملة، وعدم إتاحة الوصول إلى تلك الحكمة إلا من خلال المعاناة، وحده الحرمان والمعاناة ما يفتح عقل الإنسان على كل ما هو خفيّ عن الآخرين".

شامان جبار آخر، التقى به الدكتور راسموسن في منطقة مدينة Nome، الاسكا، وأخبره سراً بمغامرة مشابهة. لكن هذا العجوز 'ناجاغنيك'، كان قد مرّ بظروف سيئة في علاقته مع الناس في قريته. لا بدّ أن تعرف أن الشامان يعيشون مواقف محفوفة بالمخاطر؛ فعندما تسير الأمور بشكل سيئ بطريقة ما، يميل الناس إلى ملامة الشامان المحلّي. فهم يتصوّرون أنه يُمارس السحر. ولكي يحمي هذا العجوز نفسه، يبتكر بعض المعدات الخادعة، والأشباح الأسطورية ليخيف جيرانه، فيبقيهم بذلك آمنين تحت سيطرته.

أدرك الدكتور راسموسن أن معظم أرواح 'ناجاغنيك' كانت عبارة عن احتيال صريح من هذا النوع، لكنه سأله إذا كان قد آمن بأي منها يوماً ما: فأجاب: "نعم! القوة التي ندعوها 'سيلا'، تلك التي لا نستطيع تفسيرها بكثير من الكلمات: روح قوية جداً، تسيطر على الكون والطقس، وكل ما هو حيّ على الأرض. لم يصلْ خطاب 'سيلا' عبر الكلام العادي،

بل من خلال العواصف والأمطار والبحار الهائجة، ومن كل القوى التي تخيف البشر، أو من خلال أشعة الشمس والبحر الهادئ، أو من خلال الأطفال الصغار الأبرياء، وهم يلعبون ولا يفهمون أي شيء. وعندما تكون الأمور على مايرام، لا يتوفر لدى 'سيلا' ما تقوله للبشر. تختفي في الخلاء واللانهاية، وتبقى بعيدة طالما أن الناس لا يسيئون التعامل مع الحياة بل يحترمونها على كرمها بتقديم الغذاء اليومي. ولم يحدث أن أبصر أحدهم 'سيلا'. فموقع إقامتها غامض جداً لدرجة أنها معنا، وبعيدة جداً في نفس الآن".

وما الذي تقوله 'سيلا'؟

يقول ناجاغنيك: "لا أحد يستطيع أن يرى روح الكون أو مسكنها؛ يمكن للمرء سماع صوتها وحسب. كل ما نعرفه أن لها صوتاً هادئاً كصوت امرأة، صوت ناعم جداً ولطيف ليس له حتى أن يخيف الأطفال. وما تقوله هو: "Sila ersinarsinivdluge"، أي لا تخف من الكون"[92].

كان أولئك الرجال بسطاء للغاية. على الأقل بمعايير ثقافتنا ومعرفتنا وحضارتنا. مع أن حكمتهم، المستمدّة من أقصى أعماقهم الداخلية، تستجيب في الجوهر لما سمعوه وتعلّموه من أكثر المتصوّفين تقديراً. ههنا نحن أمام حكمة بشرية شمولية وعميقة، ولن نستطيع معرفتها، على الأغلب، من خلال طرقنا الاعتيادية بالتصرّف والتفكير العقلاني.

في مقاله عن الشامانية، ميّز الدكتور سيلفرمان بين نموذجين مختلفين تماماً للفُصام: أطلق على الأول اسم 'الفُصام الحقيقي - essential schizophrenia'، وعلى الثاني 'الفصام الزَّوَريّ- paranoid schizophrenia'؛ وفي

92 These accounts are from Knud Rasmussen, *Across Arctic America* (New York and London: G. P. Putnam's Sons, 1927), pp. 82-86, and H. Osterman, *The Alaskan Eskimos, as Described in the Posthumous Notes of Dr. Knud Rasmussen. Report of the Fifth Thule Expedition 1921-24.* Vol. X, No. 3 (Copenhagen: Nordisk Forlag, 1952), pp. 97-99

النوع الأول وحده، يظهر تشابه مع ما أسميتهُ "أزمة الشامان"؛ حيث يكون نمط الشخصية مستمداً من تأثيرات التجربة في العالم الخارجي. هناك انحسار في الاهتمام والتركيز، حيث ينكمش العالم المحسوس ويبتعد، ويصبح المرء عرضة لهجمات من اللاوعي تستحوذ وتطغى عليه. أما في النمط الثاني، "الفصام الزوَري"؛ فيبقى الشخص واعياً وحساساً جداً للعالم وللأحداث التي تقع فيه، لكنه على أية حال، يفسّر كل شيء بحسب تصوراته ومخاوفه وأوهامه المُسقَطة، مع الإحساس بأنه تحت خطر التعرّض للاعتداءات. إن هذه الاعتداءات نابعة من الداخل في واقع الأمر، لكنه يُسقطها على الخارج متخيّلاً أنه يخضع لمراقبة مستمرّة في أي مكان في هذا العالم. ويصرّح الدكتور سيلفرمان بأن هذا ليس نموذج الفُصام الذي يؤدي إلى أنواع التجارب الداخلية المشابهة للتجارب الشامانية. ويتابع مفسّراً: "يبدو الأمر كما لو أن المُصاب بـ "الفُصام الزوَري" عاجز عن فهم أو تحمّل الرعب الشديد الموجود في عالمه الداخلي، فيوجّه اهتمامه إلى العالم الخارجي بشكل سابق لأوانه، في هذا النوع من الإخفاق في حل الأزمة، لا يكون الشواش الداخلي، إن جاز التعبير، عملية يمكن التعامل معها ثم معالجتها، أو ليس قابلاً لأن يُشتَغل عليه ثم معالجته". إن الشخص/ الضحية المختلّ عموماً، هو في حقل لاوعيه الشخصي المُسقط.

من جهة أخرى، إن النمط المقابل للمريض الذّهاني، لدى التمعن فيه، هو نمط مُثير للشفقة وقد رُمِيَ في أعماق جحر أفعى تسكن داخله. إن كل انتباهه وكينونته يكمنان هناك، مرتبطين بمعركة حياة أو موت مع تمظهرات مرعبة لقوى سيكولوجية خارجة عن السيطرة. والتي تبدو مشابهة تماماً لما يفعله الشامان المرتقب في فترة رحلته المتخيّلة. وبالتالي، علينا أن نتساءل مرة أخرى عن الفرق بين مشكلة "الفُصام الحقيقي"، ومشكلة الشامان المعرّض لحالة الغشيّة: والإجابة ببساطة هي أن الشامان البدائي لا يرفض النظام الاجتماعي المحلي وأشكاله

وهو في حقيقة الأمر إنما يُعاد إلى وعيه العقلاني بفضل ذلك النظام. والأهم من ذلك، أنه عندما يعود يجد أن تجاربه الداخلية الشخصية تُعيد تأكيد الأشكال المحلية الموروثة وتجددها وتعززها، لأن ترميز حلمه الشخصي يتناغم مع ترميز ثقافته. بينما في حالة المريض الذّهاني، على النقيض من ذلك، يحدث انفصال جذري مع النظام الترميزي لثقافته، فلا يكون هناك ثمة رابط يمكن أن يكون مؤثراً. لإن نظام الرمز ههنا لا يُنجد مريض الفُصام المسكين التائه المرتعب من تلفيقات خياله، والتي تكون غريبة بالنسبة إليه، أما في حالة الشامان البدائي، يحدث انسجام جوهري بين حياته الخارجية وحياته الداخلية.

حسناً، كما قلت، وكما يمكن أن نتخيّل، لقد كانت رحلة كاليفورنيا مشوقة جداً بالنسبة إلي؛ وبعد أن عدت إلى نيويورك (حدث كل شيء كما لو أن روحاً هادية كانت تعدّ كل شيء بالنسبة إلي)، دعاني الطبيب النفسي البارز في مدينتنا المعذّبة، الدكتور مورتيمر أوستو لمناقشة موضوع المحاضرة التي أوشك أن يقرأها في لقاء "جمعية الطب النفسي للمراهقين". وتبيّن أنها عبارة عن دراسة لصفات معيّنة مشتركة، كان الدكتور أوستو قد تناولها، وتتعلّق، فيما يبدو، بـ"آليات" (بحسب مصطلح الدكتور أوستو) الفُصام والتصوّف، وتجربة مادة (LSD) المخدرة، و"معاداة الأديان- antinomianism" لدى جيل الشباب المعاصر كما لو أنها تتبع النظام ذاته: تلك المواقف المعادية بشدّة للمجتمع، والتي أصبحت بارزة جداً في سلوك وممارسات عدد كبير من المراهقين ضمن الحرم الجامعي، ومُستشاريهم في هيئة التدريس في هذه الأيام. كانت هذه الدعوة أيضاً تجربة كبيرة بالنسبة إلي لأنها فتحت ذهني على مجال أساسي آخر قد تلعب فيه دراسات الأساطير دوراً مهماً- دور كنت قد بدأت ألمسه سلفاً خلال عملي كأستاذ جامعي.

ما عرفته الآن أن تراجع مادة (LSD) المخدرة، والغوص في الداخل، يمكن مقارنتهما مع "الفُصام الأساسي"، و"معاداة الأديان - antinomianism"، ومع

"الفُصام الزوَري". إن الشعور بالتهديد من كل شيء يُوصف بالمؤسسة، أي من الحضارة الحديثة، ليس كله خداعاً أو تمثيلاً بالنسبة إلى الكثير من هؤلاء الشباب، بل حالة حقيقية للروح. إن الانفصال واقعيّ، وما يتم قصفه وتدميره في الخارج عبارة عن رموز واقعية للخوف الداخلي. أضف إلى أن الكثيرين عاجزون حتى عن التواصل، وتصبح كل فكرة مشحونة للغاية بالنسبة إليهم، يرافقها شعور بأنها تفتقر إلى توصيف لها في الخطاب العقلاني. لذا لا يمكن لعدد كبير منهم أن يطرح حتى جملة بسيطة توضيحية، بل يقطعون كل جملة يحاولون قولها بكلمة "مثل ـ like" حيث لا يكون لها صلة بالموضوع، ثم يتراجعون إلى كتم صوتهم والشعور بالصمت المشحون، ملتمسين الاقتناع. أحياناً، يشعر المرء أثناء التعامل معهم وكأنه في مأوى مجانين لا أسوار له. والمؤشرات الدلالية التي يظهرونها عن المرض ليست اجتماعية (كما تدعي وسائل إعلامنا الإخبارية والعديد من رجال السياسة لدينا)، بل نفسية.

ظاهرة (LSD)، من جهة أخرى ـ بالنسبة إلي على الأقل ـ أكثر إثارة للاهتمام. إنها دخول في حالة فُصام عن سابق إصرار وتصميم، مع توقع هدوء تلقائي لا يعقبُها دوماً على أية حال. وتُعتبر ممارسة اليوغا أيضاً نوعاً من الوصول إلى فُصام مقصود: إذ ينفصل المرء عن العالم، ويغوص في الداخل، وتكون الرؤى التي يختبرها مشابهة في الواقع لتلك الرؤى الموجودة لدى الذُهاني. لكن أين يكمن الفرق إذاً؟ إنه منتهى الغوص في البحر الداخلي العميق ذاته؛ وليس ثمة شكّ في ذلك. والعناصر الرمزية التي تواجَهُ تتطابق في كثير من الحالات (سيكون لدي ما أضيفه بشأن ذلك بعد قليل). لكن هناك فرق كبير. إنه بشكل واضح جداً، يشبه الفرق بين غوّاص يستطيع السباحة، وآخر لا يستطيع. الباطنيّ الذي يمتلك مواهب فطرية ترتبط بأشياء كهذه، ويتبع، خطوة إثر خطوة، إرشادات المعلّم، يخوض تلك المياه ويكتشف أنه يستطيع السباحة فيها؛ في حين أن الفُصامي غير المهيأ وغير الموهوب، ولا معلّمَ يرشده، يسقط

أو يغوص عن سابق إصرار، ثم يغرق. هل يمكن أن ينجو؟ وإذا ألقى أحدهم إليه بحبل، هل يُمسك به؟

دعنا نستفسر أولاً عن المياه التي يغوص فيها؛ إنها مشابهة تماماً للتجربة الباطنية كما ذكرنا سابقاً. ما هي مواصفاتها إذاً؟ ما هي خصائصها؟ وما هو المطلوب للسباحة فيها؟

إنها مياه النموذج البدئي الكوني للأسطورة. فعلى امتداد حياتي، كطالب في علم الأساطير، كنت أعمل على هذه النماذج البدئية، وأستطيع القول إنها موجودة في العالم كله بالطريقة ذاتها. وتُعرَضُ في التقاليد المختلفة بأشكال مختلفة؛ في المعبد البوذي مثلاً، أو في كاتدرائية من العصور الوسطى، أو في برج بابل لدى السومريين، أو هرم شعب المايا. وسوف تختلف صور الآلهة في أجزاء العالم المختلفة وفقاً للموجودات المحلية النباتية والحيوانية والجغرافية، والسمات العرقية وما إلى ذلك. وستُعطى الأساطير والطقوس تفسيرات مختلفة، وتطبيقات عقلانية وعادات اجتماعية مختلفة، كي يُصادقَ عليها ثم تُقرَض. ومع ذلك فإن الأشكال والأفكار النموذجية البدئية الأساسية هي ذاتها ـ وبشكل مثير غالباً، وبالتالي، ما هو كنهها؟ وما الذي تمثّله؟

كان عالم النفس الذي تعامل مع هذه المسائل وفسّرها وشرحها بأفضل طريقة ممكنة هو الدكتور كارل غوستاف يونغ، وقد عبّر عنها بمصطلح "النماذج البدئية للاوعي الجمعي" لارتباطها بتلك البنى النفسية غير الناتجة عن تجربة فردية وحسب، بل يشترك بها البشر جميعاً. من وجهة نظره، فإن البعد الأساسي، أو الطبقة الأساسية للنفس هي تعبير عن النظام الفطري لجنسنا البشري الراسخ في جسد الإنسان، وفي جهازه العصبي ودماغه المُذهل. حيث تتصرّف الحيوانات كلها بشكل غريزي، وهي تتصرّف طبعاً، بطرق يجب أن تتعلّمها وفقاً لعلاقتها مع الظروف المحيطة؛ ومع ذلك يتصرّف كل نوع بشكل مختلف عن الآخر،

وبناء على "طبيعته". راقب قطّة تدخل إلى غرفة المعيشة، ثم راقب كلباً على سبيل المثال. سترى أن كل نوع يتحرّك بناء على دوافع أو حوافز تميّز نوعه، وهذا، في نهاية المطاف، الشكل النهائي لحياته. وبالطريقة ذاتها يكون الإنسان أيضاً، محكوماً ومقيّداً. لديه صفات بيولوجية موروثة، وبيوغرافيا شخصية، وتشكّل "نماذج اللاوعي البدئية "تعبيرات عن الأولى (البيولوجية الموروثة). أما الذكريات الشخصية المكبوتة عن الصدمات والإحباطات والمخاوف وما إلى ذلك، وعن الطفولة التي أولتها المدرسة الفرويدية الكثير من الاهتمام، فقد قام يونغ بتمييزها عن البقية، وأطلق عليها اسم "اللاوعي الشخصي". وكما أن الأولى بيولوجية ومشتركة لدى الأنواع كلها، فإن الثانية "بيوغرافية. ترتبط بالسيرة الذاتية" ومقيّدة اجتماعياً، وتختص بكل شخص دون سواه. وستكون آحلامنا ومصاعبنا اليومية كلّها مستمَدّة من الأخيرة طبعاً؛ لكن في حالة غوص المريض الفُصامي، يهبط المرء إلى مستوى "الجمعي"، وتعود الصور المَعيشة، إلى حد كبير، إلى نظام النماذج البدئية للأسطورة.

والآن، فيما يتعلق بقوة الغريزة: أتذكر مرة أنني شاهدت أحد أفلام ديزني الجميلة عن الطبيعة، وظهرت فيه سلحفاة تضع بيضها في الرمل، على بعد ثلاثين خطوة تقريباً من الماء. بعد بضعة أيام، خرج من الرمال عدد كبير نسبياً من السلاحف الصغيرة حديثة الولادة، كلٌ منها بحجم قطعة نقود صغيرة؛ ودون أدنى تردد، توجّهت جميعها نحو البحر. ليس هناك من صيادين حولها، ولا محاولات لتصحيح أخطاء، ودون أن تسأل: "ما هو المكان المناسب بالنسبة إلي لأتجه إليه أولاً؟" لم تتحرّك أيّة سلحفاة باتجاه خاطئ، لتبدأ مسيرتها بين الشجيرات ثم تقول: "أوه! لقد خُلقتُ لما هو أفضل من ذلك!" لا، بالتأكيد! إنها تتجه مباشرة إلى المكان الذي تعرف الأم تماماً أنها ستتجه إليه: السلحفاة الأم، أو الطبيعة الأم. في تلك الأثناء، كانت طيور النورس تتناقل الأخبار فيما بينها عبر الإشارات الصوتية، ثم بدأت تقترب وكأنها قاذفات فتنقضّ على تلك

السلاحف الصغيرة التي تشقّ طريقها إلى المياه. عَرفَت السلاحف تماماً أن هذا هو المكان الذي عليها أن تصل إليه، وكانت تسير بالسرعة التي يمكن أن تدفعها بها أقدامها الصغيرة: وبالمناسبة؛ تعرف الأقدام مُسبقاً أيضاً كيف ينبغي أن تتحرك، فلم تكن هناك ضرورة للتدريب والاختبار. إذ تعرف الأقدام عملها، وتعرف الأعين أن ما كانت تراه أمامها، هو ما ينبغي عليها أن تذهب إليه. كان النظام كله يعمل بطريقة مثالية، مع أسطول كامل من المدرّعات الصغيرة التي تتجه بطريقة خرقاء، بأسرع ما يمكن، نحو البحر: ومن ثم.... من المؤكد أن المرء يعتقد أنه، بالنسبة إلى سلاحف صغيرة كهذه، تبدو تلك الطيور الكبيرة جداً كمصدر تهديد. لكن لا! إنها تتقدم مباشرة إلى المياه، وتعرف مُسبقاً كيف تسبح. وما إن تصل إلى هناك، ستبدأ الأسماك بالهجوم عليها طبعاً؛ فالحياة قاسية!

عندما يطالب بعض الناس بالعودة إلى الطبيعة، هل يكونون على دراية كافية بما يُطالبون به؟

ثمة مثال آخر مُثير للإعجاب عن دور الطبيعة المؤثّر؛ هو أيضاً عن كائنات صغيرة حديثة الولادة: فراخ طائر ففقست للتو، حتى إن بعض قشور بيضها لا يزال عالقاً بذيلها. إذا طار صقر فوق القنّ، تُسرع إلى ملجئها؛ لكن إذا طارت حمامة، لا تبدي أية ردّة فعل. من أين اكتسبت معرفة ذلك الفرق؟ من هو الذي يقرر، أو ما هي القرارات التي أُتخذت عندما طبّقت تلك الإجراءات؟ أُجريتْ تجارب باستخدام صقور خشبية، وقرّبوها من العش باستخدام أسلاك. فأسرعت تلك الفراخ جميعها إلى الملجأ؛ لكن حين تُسحب الأشكال الخشبية ذاتها، فلن يبدر عنها أي ردّ فعل.

إن الاستعداد للاستجابة لمحفزات مثيرة معينة، وأنماط التصرّف المناسب التي تليها هي، في كل الحالات المشابهة، موروثة مع الفيزيولوجيا الخاصة بهذه الأنواع. إنها معروفة باسم "ميكانيزمات الإطلاق الفطري- innate releasing mechanisms (IRMs)"، وتُعتبر أساسية في الجهاز

العصبي المركزي. ويوجد ما يشبه ذلك في البنية الجسدية للرئيسات التي ينتمي إليها الإنسان.

هذا ما تعنيه الفطرة أو الغريزة إذاً. وإذا كنت لا تزال تريد المزيد من الأمثلة، إذا كنت من 'ميزوري'، ولا يزال لديك شك في القوة الحاكمة، وحكمة الغريزة المطلقة، اقرأ أي كتاب بيولوجي عن دورة حياة الطفيليات. اقرأ، على سبيل المثال، عن مرض 'رُهاب الماء hydrophobia'، كعَرَض من أعراض داء الكلب، وسوف تسأل نفسك ما إذا كان الإنسان يستحقّ أن يلعب دور المُضيف لأعجوبة كهذه. إنها تعرف ماذا عليها أن تفعل، وأين تذهب، وما الذي تهاجمه في جهاز الإنسان العصبي، وتعرف كيف تصل، ومتى تصل، لتقلب كل ما تعلّمناه إلى إيمان بأن أعلى ما خلقته يد الله في عبده الذليل، سُعاره للعض وإيصال الفيروس إلى مجرى دم الضحية التالية، ومنه سيتقدم من جديد إلى الغدد اللعابية لحدث آخر يليه.

لدى كل إنسان نظام غريزة مدمّج به، ومن دونه لم نكن لنولد في هذه الحياة. لكن كل فرد منا قد اكتسب أيضاً منظومة ثقافة مختصّة به أيضاً. والشيء الغريب في الإنسان، وهو ما يميزنا عن كل البهائم الأخرى في مملكة الحيوان، أننا نولد، كما أشرنا سابقاً، متأخرين مدة اثني عشر عاماً. ليس هناك من أم ترغب بخلاف ذلك؛ لكن هكذا هو الأمر، وهذه هي مشكلتنا. لدى الطفل المولود حديثاً فطنة غير موجودة لدى فرخ السلحفاة حديث الولادة، والذي لا يزيد حجمه عن حجم قطعة نقدية صغيرة، وغير موجودة لفرخ الطير الذي لا تزال بقايا قشرة البيضة عالقة على ذيله. ومع عدم قدرته مطلقاً على إطعام نفسه، يلتزم صغير الرئيسات بمدّة تصل إلى اثني عشر عاماً من الاعتماد على الأهل أو بدائل الأهل؛ وخلال هذه الفترة من الاعتماد، نتحوّل إلى كائنات بشرية. نتعلّم السير كما يسير البشر، ونتعلّم أيضاً كيف نتكلم ونفكّر، وكيف نستخدم المصطلحات والمفردات المحليّة. نتعلّم الاستجابة لمؤشرات معيّنة بطريقة إيجابية، ولمؤشرات أخرى بطريقة سلبية أو بنوع

من الخوف؛ ومعظم الإشارات التي نتعلّمها ليست مرتبطة بالطبيعة، بل بنظام اجتماعي محلي ما. إنها محددة اجتماعياً. ومع ذلك فإن الدوافع التي تنشط وتحكم هي دوافع طبيعية وبيولوجية وغريزية. وبناء عليه، فإن كل أسطورة عبارة عن منظومة من الإشارات المُحرّرة المشروطة ثقافياً، تندمج فيها السلالات الطبيعية والثقافية بشكل وثيق لدرجة يستحيل تمييز نوع عن الآخر في كثير من الحالات. هذه الإشارات المحددة ثقافياً، تحفّز 'آليات التحرر الفطري' المنسوخة ثقافياً، والخاصة بجهاز الإنسان العصبي، كما تُنتج إشارات التحفيز في الطبيعة ردود الأفعال الطبيعية لدى الحيوان.

ثمة رمز أسطوري فعّال أسميتُه "إشارة تحريض الطاقة وتوجيهها"، وأما الدكتور بيري فأطلق على إشارات كهذه مصطلح "الصور المؤثرة". إن رسائلها ليست موجهة إلى الدماغ، لكي يفسرها ويمررها؛ بل موجهة مباشرة إلى الأعصاب والغدد والدم، والجملة العصبية الوديّة المسؤولة عن تسريع ضربات القلب، وتضيّق الأوعية، وضغط الدم. ومع ذلك تمرّ عبر الدماغ، وقد يتدخّل الذكاء المكتسَب، يحرّف الرسائل، ويعوقها. عندما يحدث ذلك، لا تعود الرسائل إلى العمل كما ينبغي. والأساطير الموروثة محرّفة ومشوهة، وقد ضاعت قيمتها الدلالية أو أُسيء فهمها. وربما يحدث ما هو أسوأ، ربما تربّى المرء على الاستجابة لمجموعة مؤشرات غير موجودة في البيئة العامة، كما كان الحال دوماً مع الأطفال الذين يكبرون في إطار طوائف معيّنة مثلاً، ولا يشاركون في الأنماط الثقافية الأخرى لهذه الحضارة، بل يمكن أن يكونوا مستائين منها فيحتقرونها. لن يشعر أشخاص كهؤلاء بالراحة أبداً في الحقل الاجتماعي الأوسع، بل سيراودهم شعور بالقلق، أو حتى شيء من البارانويا. لا شيء يلامس مشاعرهم كما يجب، ولا شيء يعني لهم أو يحرّكهم مثلما يعني للآخرين ويحركهم. بل يُصبح مجبراً على التراجع إلى حيث يشعر بالرضا، إلى السياق المُقيّد والمُقيِّد، للطائفة أو العائلة أو المجتمع. أو إلى

الطريقة المتحفظة التي كان متناغماً معها. يصبح مرتبكاً، وحتى خطيراً، في حقل الحياة الأوسع.

وهكذا يمكنني أن أشير هنا إلى مشكلة كبيرة يجب على الأهل والعائلات مواجهتها بشكل مباشر: وهي التأكد من أن الإشارات التي يطبعونها في أبنائهم، سوف تساعد على تناغمهم مع العالم الذي سيمضون للعيش فيه، لا على أن تحرفهم عنه؛ هذا، بالتأكيد، إن لم يكن المرء مصمماً على نقل جنون شكّه واضطهاده إلى ورثته. وبشكل طبيعي سيرغب الأهل العقلانيون بإنجاب ذريّة سليمة جسدياً واجتماعياً، متكيّفة على أكمل وجه مع منظومة الوجدان الثقافي الذي يترعرعون فيه، ليكونوا قادرين على رفع قيمها عقلانياً، ومواءمة أنفسهم بشكل بنّاء مع عناصرها المتقدمة واللائقة المثمرة، والمعززة للحياة.

وبذلك تبرز أمامنا هذه المشكلة الحرجة، كما أسلفت، المشكلة الحرجة بالنسبة إلينا كبشر، في النظر إلى الأمر بأن الأساطير- مجموعة الإشارات الدالة، والصور المؤثرة، وتحرير الطاقة، والإشارات الموجّهة- التي ننقلها إلى شبابنا، سوف تقدّم رسائل توجيهية جديرة بأن تربطهم على نحو غنيّ وحيوي بالبيئة التي يجدر أن تكون بيئتهم خلال مسيرة حياتهم، وليس لفترة ما تخصُ شخصاً مضى، أو فترة عن مستقبل بائس وخادع، أو ما هو أسوأ بكثير، عن طائفة غريبة مُبتذلة أو بدعة لحظية. وأنا أصف هذه المشكلة بالحرجة لأنها عندما تُحلّ بطريقة سيئة، تكون النتيجة بالنسبة إلى الشخص غير المتعلّم، بحسب المصطلحات الميثولوجية، حالة 'الأرض اليباب'. فلا العالم يخاطبه، ولا هو يخاطب العالم. وعندما يصبح الحال على هذا النحو، يحدث الانفصال وينطوي الفرد على نفسه، في هيئته الأولية، وذلك الانتباذ النفسي سيجعل منه إما قُصامياً حقيقياً، ضمن حُجرة عازلة، أو شخصاً يطلق صرخات من جنون الاضطهاد على الملأ، في مأوى مجانين دون أسوار.

لهذا، عليّ الآن قبل المضي قدماً في تقدير المسار العام أو تاريخ انفصال كهذا- الرحلة الداخلية (ولنسمّها كذلك) رحلة النزول والعودة- أن أوضح وأضيف كلمة أخرى تتعلق بالوظائف التي عادةً ما تستوفيها الأسطورة التي تسير بشكل صحيح. إنها بتقديري أربع وظائف.

الأولى هي ما أسميتها الوظيفة الباطنية: لكي نوقظ في الفرد إحساس الرهبة والعرفان فيما يتعلق بالأبعاد الغامضة للكون، فلا يعيش الرهبة تجاهه، بل يقرّ بأنه يشارك فيه، طالما أن غموض الوجود هو غموض وجوده العميقة أيضاً. هذا ما سمعه حكيم الاسكا العجوز من 'سيلا'، روح الكون: 'لا تخف'. لأننا كما شهدْنا بعيوننا الدنيوية، فإن الطبيعة قاسية، كما رأينا سابقاً: إنها مرعبة ووحشية، إنها من نوع الأشياء التي تجعل الفرنسيين الوجوديين العقلانيين يطلقون عليها صفة "سخيفة" (المدهش في الفرنسيين أنهم متأثرون بـ ديكارت، وما لا يمكن تحليله وفق الإحداثيات الديكارتية، لا بدّ أن يكون باطلاً. ولعلنا نتساءل مَن أو ما هو السخيف، عندما تُكرّس أحكامٌ من هذا النوع بوصفها فلسفة؟)

الوظيفة الثانية للأسطورة الحيّة هي تقديم صورة للكون تتناغم مع إدراك الزمن، ومع علوم وحقول نشاط الشعب الذي تخاطبه الأسطورة. لكن في أيامنا هذه، ترجع صور العالم الخاصة بجميع الديانات الكبرى إلى ألفي سنة على الأقل، وبسبب هذه الحقيقة وحدها، فإن هناك أرضية خصبة لحدوث انفصال خطير جداً. ولو تساءل المرء، لماذا تخسر الكنائس تجمّعاتها في فترة الحماس والسعي الحثيث إلى التديّن هذه؟ فسيتمثل الجزء الأعظم من الإجابة هنا. إنها تدعو رعاياها للدخول وإيجاد السلام في أرض رعوية لم توجد يوماً، ولن توجد أبداً، وغير موجودة بالتأكيد في أي مكان من العالم اليوم. هذا العرض الأسطوري عبارة عن حبة دواء موثوقة على الأقل من أجل حالة قُصام طفيف.

تتمثل وظيفة الأسطورة الحية الثالثة في إعطاء الصلاحية لنظام

أخلاقي معين ودعمه وترسيخه، في المجتمع الذي ينبغي على الفرد أن يعيش فيه. والرابعة هي إرشاده، خطوة إثر خطوة، من ناحية صحّة الروح وتقويتها وتناغمها، على امتداد مسار كامل يمكن التنبؤ به لحياة مثمرة.

دعونا نراجع تسلسل هذه الخطوات باختصار.

بالطبع، الأولى عن الطفل الذي يبقى مدة اثني عشر عاماً وهو يعتمد جسدياً ونفسياً على إرشاد عائلته وحمايتها له. وكما أوضحت في الفصل الثالث، يمكن العثور على نظير بيولوجي واضح في نوع الجرابيات: الكنغر، الأبوسم، والكُنيغر وما إلى ذلك. طالما أنها ليست حيوانات ذات مشيمة، ولا يمكن للجنين أن يبقى في الرحم بعد تقديم الطعام (مح البيض) وامتصاص البيضة، وبالتالي، يجب أن يولد ذلك الصغير قبل فترة طويلة من اللحظة التي يُصبح فيها مستعداً للحياة. يُولد صغير الكنغر بعد ثلاثة أسابيع من الحمل، ولديه بطبيعة الحال ساقان أماميتان قويتان تعرفان عملهما تماماً. يزحف الصغير غريزياً، وأنا أشدد على ذلك مرة أخرى، إلى أعلى بطن أمه، ثم إلى جرابها، ويتسلّق إلى هناك ويتعلّق بالحلمة التي تنتفخ (غريزياً) في فمه بحيث لا يستطيع أن يخطئها، ويبقى هكذا في الرحم الثاني حتى يصبح مستعداً للخروج من الجراب: "الرحم الظاهر".

هناك وظيفة بيولوجية، يمكن مقارنتها مع ما سبق، تعمل في جنسنا البشري من خلال الأسطورة التي لا تُعتبر أقلّ من عضو بيولوجي يستحيل الاستغناء عنه، دون أن تكون منتَجاً أقل طبيعية منه، على الرغم من أنها تبدو ظاهرياً غير ذلك. مثل عش الطائر، يتم تصميم الأسطورة من مواد مستمدة من البيئة المحلية، كلها بطريقة واعية ظاهرياً، لكن وفقاً لبنيان معماري يُملى من الداخل بطريقة غير واعية. وببساطة، ليس من المهم ما إذا كانت صورها المريحة المعززة والتوجيهية مناسبة للبالغين أم لا. إنها غير معدّة للبالغين، ووظيفتها الأولى هي تهيئة النفس غير المهيّأة

لمرحلة البلوغ، وتحضيرها لمواجهة العالم. وبالتالي فإن السؤال الواجب طرحه هو ما إذا كانت تدرب الشخصية على العيش في هذا العالم كما هو، أم أنها تدرّبها على العيش في جنة أو في مجال اجتماعي متخيّل. وبناءً عليه، يجب أن تكون الوظيفة الآتية هي مساعدة الشاب المستعد للمضي خطوة أبعد نحو الخارج، وعيش الأسطورة، ذلك الرحم الثاني، ليصبح، كما يقولون في الشرق، "مولوداً مرتين"، شخصاً كُفُؤاً راشداً يعمل بعقلانية في عالمه الحالي، وقد خلفَ وراءه مرحلةَ طفولته.

سأضيف الآن شيئاً مقيتاً آخر عن مؤسساتنا الدينية: ما تريده وتتوقعه هو أنه لا ينبغي على المرء أن يهجر الرحم الذي توفّره المؤسسة. يبدو الأمر كما لو أنك تحتفظ بصغار الكنغر في أجربة أمهاتها. إننا نعلم جميعاً ما نتج عن ذلك في القرن السادس عشر: إذ تحوّلت جميع أجربة الكنيسة الأم إلى أشلاء، ولم تتمكن كل أحصنة الملك، أو كل رجاله، من إعادتها إلى سابق عهدها. لقد قُوّضت الآن، ولم يعد لدينا جُراب مناسب حتى لصغار الكنغر ضئيلة الحجم. وعلى أية حال، نحن "نقرأ ونكتب ونحسب" مثل نوع من بديل بلاستيكي مقلّد. وإذا أكملتَ تحصيلك لنَيل شهادة الدكتوراه، ربما تبقى في الحاضنة غير العضوية حتى تبلغ عامك الخامس والأربعين. فقد لاحظتُ (ألم تلاحظوا أنتم؟) على شاشة التلفاز أنه عندما يُطرح سؤال على بروفيسور، يبدأ بالتنحنح والهمهمة والتأوه حتى لتكاد تسأل نفسك عما إذا كان يعاني من أزمة داخلية، أو أنه فقد الكلمات المناسبة التي تعبّر عن الأفكار الرائعة؛ بينما عندما يُطرح سؤال على لاعب كرة قدم أو لاعب كرة سلّة محترف، حتى ولو كان سؤالاً معقداً، يستطيع الإجابة بسهولة وكياسة. لقد تخرّج من الرحم عندما قارب التاسعة عشر من عمره، وهو أفضل لاعب في الملعب. لكن ذلك الشاب المسكين الآخر بقي عالقاً تحت مظلّة البروفيسورات إلى أن بلغ منتصف عمره، ومع أنه سينال الآن شهادته، إلا أنها وصلت متأخرة جداً حتى لأنْ يبدأ بتطوير ما اعتدنا على تسميته "الثقة بالنفس".

وسيبقى لديه بصمة المظلّة البروفيسورية في آليات تحرره الفطري إلى الأبد، وسيبقى على أمله بألا يعطيه أحدهم علامة سيئة على إجابته.

بعد ذلك، ما إن تتعلم شغلَ البالغين، وتتخذ لنفسك موطنَ قدم في مجتمعنا، حتى يراودك شعور بصرير العمر، تنتظر التقاعد، ويصل بسرعة لافتة مع الرعاية الطبية، ودور المجزة وما إلى ذلك. بين يديك الآن نفس مفككة، إنها نفسك؛ حمل ثقيل أسماه يونغ "طاقة جنسية يمكن التخلّص منها". ماذا تفعل بها؟ آن أوان الانهيارات العصبية التقليدية لمن هم في أواخر منتصف العمر، وآن أوان الطلاق وإدمان الكحول وسوى ذلك: عندما يخبو ضوء حياتك وأنت غير مستعد، أي غير مستعد في اللاوعي، ستغرق هناك. ربما كان الظرف أفضل بكثير لو تشكّلَ لديك، خلال سنوات طفولتك، انطباع واضح عن أساطير الطفولة، بحيث أنه عندما يحين الوقت لهذا التراجع والغوص إلى القاع، يكون المشهد في الأسفل قد بات مألوفاً أكثر، على الأقل، ربما كنتَ قد تلقيتَ أسماء للوحوش التي واجهتها والتي وربما امتلكتْ بعض الأسلحة؛ لأن الحقيقة البسيطة والمهمة جداً أيضاً، أن صور الأسطورة التي تؤوّل في مرحلة الطفولة على أنها إشارات لأشياء خارجية خارقة للطبيعة، هي في حقيقة الأمر رموز القوى المُهيكِلة للاوعي (أو، كما أسماها يونغ، نماذج بدئية). وإلى هذه كما إلى القوى الطبيعية التي تمثّلها- قوى وأصوات الروح الكونية (سيلا) الساكنة في داخلك- ستعود عندما توشك على خطوة جريئة، وهي أن يحيق بك مكروه ذات يوم، ولا ريب أنه الموت.

وهكذا، مع هذا التحدي الماثل أمامنا، دعونا نحاول التعرّف على شيء من مدّ وجزْر بحرنا الداخلي. دعوني أخبركم شيئاً عما سمعته مؤخراً عن عجائب غوص الغُصامي في الداخل.

التجربة الأولى هي الإحساس بالانشطار، حيث يرى الشخصُ العالمَ ينقسم إلى شقّين: شقّ منه يبتعد؛ و'نفسه' في الشق الآخر. هذه

بداية الارتداد regressus، أي الصدع أولاً ثم التدفق الارتدادي. ربما يرى نفسه، لوهلة، أنه يؤدي دورين: الأول دور المهرّج، الشبح، الساحر، المشبوه، أو الدخيل. ذلك هو الدور الخارجي الذي يلعبه، أن يجعل من نفسه الأحمقَ، المضحك، المتسكّع والأبله. أما في أعماقه، فهو من ناحية أخرى المخلّص، وهو يعرفه؛ إنه البطل المختار من أجل المصير المحتوم. وفي الآونة الأخيرة، شرّفني مخلّص من هذا النوع بزيارتي ثلاث مرات: شاب طويل وسيم له لحية، وعينان لطيفتان، وهيئة المسيح؛ كان مخدّر (LSD) هو سرّه المقدس- مخدر (LSD) والجنس. قال لي في زيارته الثانية: "لقد رأيت أبي، إنه عجوز الآن، وأخبرني أن أنتظر وحسب. سأعرف متى يحين الوقت لتولي المسؤولية".

رُصدت المرحلة الثانية في العديد من التقارير العيادية؛ إنها عن الانحدار والتردّي المهول، إلى الوراء، زمنياً وبيولوجياً أيضاً. ومع هذا النكوص إلى ماضيه الشخصيّ، يصبح المريض النفسي رضيعاً، جنيناً في الرحم. بل كان لأحدهم تجربة مخيفة تتلخص في أنه انزلق إلى مرتبة الإدراك الحيواني، إلى هيئة حيوان، هيئة ما دون الحيوان، وحتى إلى أشباه النباتات. فكرتُ بتلك الحكاية، حكاية 'دافني- Daphne' الحورية التي تحوّلت إلى شجرة غار. فصورة كهذه، لدى قراءتها بالمصطلحات السيكولوجية، يمكن أن تكون صورة عن مريض ذُهاني. كانت هذه العذراء خائفة لأن الإله أبولو فاتحها بحبّه لها، فطلبت الدعم من والدها، إله الأنهر بينيوس، فحوّلها إلى شجرة.

"أرني الوجه الذي كان لديك قبل ولادة أبيك وأمك!" أُتيحت لنا فرصة سابقة للإشارة إلى موضوع التآمل هذا، الخاص بمعلّمي الزن اليابانيين. أثناء فترة معالجة الغُصامي، قد يتعرّف الذُهاني على مسألة تمجيد الاتحاد بالكون، وتجاوز الحدود الشخصية: "الإحساس بالمحيط- Oceanic feeling"[93]،

93 مصطلح سيكولوجي صاغه رومان رولان، وانتشر أيام سيغموند فرويد في كتاب "مستقبل وهم" و"قلق في الحضارة". ويعني المصطلح شعور المرء برابطة لا تنفصم مع العالم الخارجي بشكله المتكامل. (م)

كما أسماه فرويد. ثم تظهر مشاعر بمعرفة جديدة أيضاً. وأشياء كانت غامضة فيما مضى، لتُصبح الآن مفهومة تماماً. وقد تُعاش إدراكات تفوق الوصف؛ وفي الواقع، بحسب معرفتنا عنها، لا يمكن إلا أن تشعر بالذهول إزاءها. لقد قرأت الآن الكثير عن هذه الموضوعات؛ وهي تتطابق، بشكل مذهل غالباً، مع رؤى الصوفيين، ومع صور الهندوسيين واليوذيين والفراعنة، والأسطورة الكلاسيكية.

على سبيل المثال، الشخص الذي لم يؤمن قطُّ بالتقمّص، أو لم يسمع عنه أبداً، سيتولّد لديه شعور بأنه يعيش إلى الأبد، وأنه عاش حيوات مختلفة متعددة، ولم يولد، ولن يموت أبداً. يبدو الأمر كما لو أنه بدأ يتعرّف على نفسه بوصفها "الذات" (أتمان *atman*) التي قرأنا عنها في كتاب 'بهاغافاد غيتا' المقدّس: "لم يولد أبداً، ولن يموت.... غير مولود وأبدي ودائم وبدائي، ولا يموت بموت الجسد". فالمريض (لنطلق عليه هذه الصفة الآن) قد وحّد بقايا وعيه مع وعي الأشياء كلها، الصخور والأشجار، وكل عالم الطبيعة الذي جئنا منه جميعاً. إنه في حالة تناغم مع ما هو موجود دوماً بالتأكيد: في الواقع، كما هو حالنا جميعاً في الأصل، وبحالة سلام في هذا المجال. مرة أخرى، كما هو مذكور في كتاب 'الفيتا': "عندما يسحب المرءُ الحواسَّ بشكل كامل من غاياتها، كما تسحب السلحفاة أطرافها إلى الداخل، تصبح عندئذ حكمة المرء راسخة بقوة. وفي تلك الطمأنينة يحدث الانقطاع لكل أنواع الحزن".

باختصار يا أصدقائي، ما اكتشفته وما أقوله، أن مريضنا الفُصامي يختبر في الواقع، ودون قصد منه، المحيط المُبهج العميق ذاته الذي يسعى الكاهن وممارس اليوغا دوماً إلى الاستمتاع به: باستثناء ذلك الفرق، بينما هم يسبحون، يغرق هو.

وفقاً لعدّة دراسات، قد يأتي بعد ذلك إحساس بالمهمة المرعبة القادمة مع مخاطر يجب مواجهتها والسيطرة عليها؛ لكن الشعور المُسبق بـ وجود داعم غير مرئي قد يرشد المرء أيضاً ويساعده. إنها الآلهة، والشياطين أو الملائكة الحارسة؛ يوجد في النفس قوى فطرية مناسبة لمواجهة القوى السلبية؛ التي تعذّب وتبتلع وتمزّق، وللتحكم بها. وإذا كان المرء يمتلك الشجاعة الكافية للضغط عليها، سيعيش في نهاية المطاف، في جذل رهيب، أزمة ساحقة بلغت ذروتها. أو حتى سلسلة من بلوغ الذروات تفوق القدرة على التحمّل.

تتكوّن هذه الأزمات من أربعة أصناف بحسب ضروب الصعوبات التي أفضتْ إلى الارتداد في المقام الأول. فالشخص الذي كان محروماً من الحب الأساسي في طفولته مثلاً، وُلدَ في بيت يفتقر للاهتمام أو يخلو منه تماماً، وليس هناك سوى التسلط والصرامة والأوامر، أو في بيت يعمّه الغضب والسخط، وأب سكّير يجيش الغضب في داخله، أو ما شابه ذلك، سوف يسعى في رحلة عودته إلى إعادة توجيه حياته وتركيزها على الحب. وبناءً عليه (عندما يرتد إلى نقطة البداية من سيرته الذاتية، أو ما قبلها، إلى الشعور بالدافع الإيروتيكي الأول للحياة)، ستكون الذروةُ اكتشافَ مركز في قلب الرقّة والحب اللذين سيجد فيهما الراحة. وذلك سيكون الهدف النهائي، والمعنى الكامل، لمسعى عودته. وسيكون إدراكه، بطريقة أو بأخرى، متمثلاً في تجربة، هي بطريقة أو بأخرى، نوع من الإنجاز الوهميّ لـ "رباط مقدّس" مع حضور متمثل بأمومة/ "زوجية" wifely mothering، أو حضور (الأمومة ببساطة).

أو إذا كان هناك من بيت يُعتبَر الأب فيه "لا أحد"، 'نكرة'؛ بيت لا سلطة فيه ولا يُلمَس حضور الوالدَين، ولا وجود لحضور ذكوري يمكن أن يُجلَّ ويُحترَم، بل مجرد هوضى من التفاصيل المنزلية والهموم الأنثوية المضطربة، فسيكون المسعى حينها باتجاه صورة لائقة للأب، وهو ما يجب العثور عليه: نوع من الإدراك الرمزي لبنوّة (ابن أو ابنة) خارقة للأب.

الحالة المحلية الثالثة التي تتضمّن حرماناً عاطفياً كبيراً هي عن

الطفل الذي يراوده شعور بالاستبعاد من محيط عائلته، ويُعامل وكأنه غير مرغوب فيه، أو كأنه بلا عائلة أبداً. في حالات الزواج الثاني مثلاً، وحين تصبح العائلة الثانية وحدها، قد يشعر طفل العائلة الأولى بأنه مُستبعد أو مُهمل أو قابع في الخلف. ويبدو أن للحكاية الخرافية القديمة حول الأم والأخت البديلتين الشريرتين صلةً بهذا الموضوع. لذلك فإن ما سيسعى إليه منبوذ من هذا النوع، في رحلته الداخلية وحيداً، هو إيجاد أو تشكيل مركز. ليس مركز عائلة ولا مركز كون. يكون هو محوره. لقد أخبرني الدكتور بيري عن مريض فُصامي كان منفصلاً بشكل كامل وجذري، بحيث لم يستطع أي شخص أن يخلق أسلوب للتواصل معه أبداً. وفي إحدى المرات، قام هذا الشخص المسكين الصامت، بحضور الطبيب، برسم دائرة بخط اليد، ثم وضع نقطة في الوسط بقلم الرصاص. نهض الدكتور بيري وقال له: "أنت في المركز، أليس كذلك؟" كانت تلك الرسالة نقطة بداية مسار العودة.

هناك شيء رائع مثالي، عن مريض فُصامي، في الفصل ما قبل الأخير من كتاب الدكتور آر. دي. لاينغ الذي يحمل عنوان "سياسة الخبرة The Politics of Experience"[94]. إنها إفادة قدّمها جندي سابق في البحرية الملكية، هو الآن نحّات، عن مغامرته الخاصة كمريض فُصامي. في الذروة التي اختبر بها نوعاً رابعاً من الإدراك: هو إحساس بالضوء النقي، إحساس بالمخاطر المرعبة، إحساس بضوء غامر تجب مواجهته وتحمّله. تشير إفادته بقوة إلى 'ضوء بوذا' المبيّن في "كتاب الموتى التيبتي - *the Tibetan Book of the Dead*"، والذي يُفترض أن يُختبر بعد الموت مباشرة، والذي إذا استطاع المرء تحمله، يطلّق العنان لمكاسب ما بعد الولادة، لكن احتماله غير ممكن بالنسبة إلى الكثيرين. لم يكن لدى رجل البحرية السابق البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، السيد جيس واتكنز، أية معرفة مُسبقة بالفلسفات والأساطير الشرقية؛ ورغم

94 (New York: Pantheon Books, 1976), Chapter 7, "A Ten- Day Voyage".

ذلك، مع اقترابه من ذروة رحلته التي استمرّت عشرة أيام، أصبح من غير الممكن تمييز صور هذه الرحلة عن تلك الموجودة في المعتقدات الهندوسية والبوذية.

بدأ ذلك كله بإحساس نذير بأن الزمن ذاته يعود إلى الوراء. كان هذا السيد في بيته في غرفة المعيشة يستمع دون مُبالاة إلى موسيقى شعبية يبثّها الراديو، عندما عاش تلك التجربة الغريبة. نهض ونظر في المرآة ليعرف ما الذي يحدث، وعلى الرغم من أن الوجه الذي رآه كان مألوفاً، إلا أنه بدا له وكأنه يعود لشخص غريب، وليس وجهه. وبعد ذلك نُقلَ إلى سرير في غرفة المراقبة، ليغمره في تلك الليلة شعور بأنه فارق الحياة، وأن أولئك المقيمين في الجناح حوله فارقوا الحياة أيضاً. استمرّ في ارتداده الزمني إلى الوراء، باتجاه مشهد أرض تجوبها الحيوانات، ثم بدأ يتنقّل فيها كحيوان: وحيد قرن يُصدر صوت وحيد قرن، خائف، ومع ذلك عدواني، وينظر بتوجّس. شعر أيضاً، أنه كان طفلاً صغيراً ويمكنه أن يسمع نفسه وهو يبكي كطفل. كان في الوقت نفسه المُراقِبَ والمُراقَب.

لدى إعطائه صحيفة ليقرأها، لم يستطع أن يتقدّم قيد أنملة، لأن كل عنوان وكل شيء فيها ينفتح على تداعيات واسعة. منحته رسالة من زوجته شعوراً بأنها تعيش في عالم مختلف، عالم لن يُقيم فيه مرة أخرى. وشعر بأنه ينصت، أينما كان، إلى قوى تسكننا جميعاً. مثلاً، لم يدع الحاضرين يعالجون جرحه المتقيّح، واستطاع أن يشفيه فعلاً خلال يوم واحد، وذلك عبر تركيز انتباهه عليه، كما قال هو نفسه. لقد اكتشف، أثناء جلوسه في السرير، وعبر تحديقه بشدّة في المرضى الصاخبين في الجناح، أنه يجعلهم ينامون بينما يتسمّر هو في حالة من الهدوء. شعر بأن لديه أكثر بكثير مما كان يتخيّل يوماً؛ وبأنه كان موجوداً دوماً، بكل أشكال الحياة، وكان يختبرها كلها من جديد؛ لكنه

شعر أيضاً بأن أمامه الآن رحلة عظيمة مرعبة عليه أن يكملها، وهو ما سرّب إليه شعوراً عميقاً بالخوف.

إن هذه القوى العظيمة التي كان يختبرها، قوة السيطرة على جسده، وقوة تأثيره على الآخرين، تُسمى في الهند، "The Siddhi- السيدهي". إنها تُعاش هناك (كما عاشها هذا الرجل الغربي) كقوة كامنة فينا جميعاً، ومتأصلة في الحياة كلها، وهي القوة التي يحررها ممارس اليوغا بنفسه. لقد سمعنا عن هذه القوى في 'العلوم المسيحية'؛ وفي أنواع أخرى من "الشفاء بالإيمان"، وصلوات الناس طلباً للصحّة، وما إلى ذلك. كما أن معجزات الشامان والقدّيسين والمخلّصين هي أمثلة معروفة جداً. وكذلك الحال مع الشعور بتجربة التماهي مع الكائنات كلها، والحياة كلها، والانتقال إلى أشكال حيوانية: اقرأ الترنيمة التالية للشاعر الأسطوري أميرغن، من 'السلت الغويدليين' أوائل الواصلين، حين بلوغ سفينتهم سواحل إيرلندا:

أنا الريح التي تهبّ فوق البحر

أنا موجة الأعماق

أنا ثور المعارك السبع

أنا النسر على الصخرة

أنا دمعة الشمس

أنا الأجمل بين النباتات

أنا في الإقدام خنزير البراري

أنا سمكة السلمون في الماء

أنا بحيرة في السهل

أنا كلمة المعرفة

أنا رأس الحربة في المعركة

أنا الله الذي خلق ناراً (= فكرة) في الرأس.

وبذلك نحن على أرض أسطورية معروفة تماماً- مع أنها قد تبدو غريبة وسلسة- بينما نتتبع في المخيّلة مسار رحلة الأيام العشرة الداخلية هذه. وممراتها التي بلغت الذروة أيضاً، على الرغم من غرابتها، ستكون مألوفة (بطريقة خفية ما) على نحو يثير الفضول.

هذا المسافر، كما أخبرنا بنفسه، لديه "شعور ثاقب جداً"، وهو أن العالم الذي اختبره كان قائماً على ثلاثة مستويات، هو نفسه في المستوى الأوسط، يعلوه مستوى الإدراك الأعلى، وتحته مستوى يشبه تقريباً 'غرفة انتظار'. قارن هذه الصورة مع الصورة الكونية الموجودة في الكتاب المقدّس، حيث فردوس الله في الأعلى، والأرض تحتها، والمياه تحت الأرض. أو فكّر بـ "الكوميديا الإلهية" لـ 'دانتي'، أو أبراج المعابد في الهند، والمايا في أمريكا الوسطى، والأبراج المستطيلة في 'سومر'، في الأسفل جحيم المعاناة؛ وفي الأعلى فردوس النور؛ وبينهما، جبل من الأنفس التي ترتقي مراحل التطوّر الروحي. وبحسب 'جيس واتكنز'، فإن معظمنا في المستوى الأدنى، ننتظر (ربما يمكننا القول: "في انتظار غودو")، كما لو أننا في غرفة انتظار عامة؛ حتى إننا لم نصل إلى الغرفة الوسطى، غرفة الصراع والسعي التي بلغها هو نفسه. لديه إحساس بوجود آلهة غير مرئية فوقه، وفي كل مكان تقريباً، وهي المسؤولة عن كل شيء، وتدير كل شيء؛ وفي الموقع الأعلى، الموقع الأسمى، كان عرش الإله الأكثر سمواً من الجميع.

بالإضافة إلى ذلك، إن ما جعل كل ذلك مرعباً هو إدراكه أن على الجميع القيام بهذه المهمة في نهاية المطاف. جميع أولئك الموجودين حوله

في مستشفى الأمراض النفسية، الذين ماتوا مثله، وكانوا في المستوى الأوسط؛ مستوى "التطهر من الإثم"، كانوا. كما صاغها هو نفسه- "في حالة يقظة نوعاً ما". (هذا هو معنى كلمة 'بوذا'، دعوني أتذكرها، إنها "المتيقظ أو المستنير"). كان جميع الموجودين حوله في مستشفى المجانين في طريقهم- متيقّظين- لتولي ذلك الموقع في الأعلى، كلٌ في وقته المحتوم، وكان الله هو الحاضر هناك الآن. كان الله مجنوناً، كان هو الذي يتحمّل كل شيء: "هذا الوزر الهائل"، كما صاغها واتكنز، "التابع من ضرورة أن يكون متيقظاً، للسيطرة على الأشياء وإدارتها". بحسب تصريحه: "الرحلة قائمة، وعلى كل فرد منا أن يمضي فيها، ولا يستطيع تفاديها، كما أن الغاية من كل شيء، ومن الوجود برمّته، هي إعدادك لتتخذ خطوة أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، وهكذا.

أليس رائعاً أن نعثر على مجموعة موضوعات كتلك في سجل رحلة بحرية ليلية لضابط في البحرية البريطانية في فترة الحرب وقع قارب الجنون؟ كما أن هناك أسطورة يونية قديمة عن نهاية رحلة من هذا النوع، محفوظة في كتاب أساطير هندوسي شهير، إنها أسطورة "الباحثين الأربعة عن الكنز"، في 'بانشاتانترا'. أربعة أصدقاء 'براهميين'[95] خسروا ثرواتهم، وقرروا المضي قدماً معاً للحصول على الثروة، وعندما وصلوا إلى منطقة 'أفانتي' (وهي منطقة عاش فيها بوذا فترة معيّنة، وجاء بتعاليمه)، التقوا بساحر اسمه 'تيرور جوي'. عندما شرحوا لهذا الرفيق الساحر محنتهم، وتوسّلوا مساعدته، أعطى كل واحد منهم ريشة سحرية، بالإضافة إلى إرشادات بالتوجّه شمالاً نحو المنحدر الشمالي لجبال الهيمالايا، وأكد لهم أنه في المكان الذي تسقط فيه ريشة كل واحد منهم، يحصل مالك هذه الريشة على كنزه.

ألقى الرئيس ريشته أولاً، ووجدوا أن تربة ذلك المكان تتحوّل إلى

95 عضو في أعلى طبقة كهنوتية لدى الهندوس. (م).

نحاس. "انظروا" قال له، "خذ كل ما تريد!" لكن اختار الباقون أن يتابعوا بينما جمع الرئيس ما وجده من نحاس وعاد. وفي المكان الذي سقطت فيه ريشة الثاني، وجدوا الفضة، وكان على حاملها أن يعود أيضاً. ثم كشفت ريشة الثالث عن الذهب، فقال رابع أعضاء المجموعة: "ألا ترى المغزى من ذلك؟ أولاً، نحاس، وثانياً فضة، والآن الذهب. لا بد أن الأحجار الكريمة هي التالية؟ ثم أخذ الثالث نصيبه من الذهب بينما تابع الرابع طريقه.

وهكذا، كما نقرأ في النص الهندي:

ثم تابع الأخ وحده. احترقت أطرافه تحت أشعة شمس الصيف الحارقة، واضطرب تفكيره بتأثير العطش بينما كان يتجوّل جيئة وذهاباً فوق ممرات أرض الجن. وفي النهاية، عند رصيف دائري، رأى رجلاً تقطر الدماء من جسده؛ وعلى رأسه عجلة تدور. أسرع إليه وقال: "سيدي، لماذا تقف في هذا المكان والعجلة تدور فوق رأسك؟ وبكلّ الأحوال، أخبرني ما إذا كان للماء وجود في الجوار. أكاد أموت من العطش".

في اللحظة التي نطق فيها 'البرهمي' تلك العبارة، انتقلت العجلة من رأس الآخر واستقرّت على رأسه. قال: "ما معنى كل ذلك يا سيدي؟" أجاب الآخر: "بالطريقة ذاتها التي أصبحت فيها العجلة على رأسك، وصلت إلى رأسي". قال البرهمي: "لكن متى سأنتهي منها؟ إنها تؤلمني كثيراً". فأجاب الآخر: "عندما يأتي شخص آخر، ويبده ريشة سحرية، كالتي لديك، ويصل إلى هذا المكان ويقول ما قلته، سوف تنتقل العجلة من رأسك إلى رأسه". قال البرهمي: "حسناً، منذ متى وأنت هنا؟" فسأل الآخر: "من هو الملك في العالم حالياً؟" ولدى سماعه الإجابة "الملك 'فيناياتسا'"، أجاب بدوره: "عندما

كان 'راما' ملكاً، كنت بائساً، وحصلت على ريشة سحرية، وأتيت إلى هنا، مثلك تماماً. ورأيت رجلاً آخر والعجلة على رأسه، وطرحت عليه سؤالاً. ما إن طرحت السؤال (مثلك تماماً)، طارت العجلة عن رأسه واستقرّت على رأسي. لكن لا أستطيع أن أتذكر من أي قرن كان ذلك".

ثم سأل حامل العجلة: "بالله عليك، كيف كنت تحصل على الطعام وأنت تقف هنا؟" قال الآخر: "يا عزيزي، يخشى إله الثروة على ثرواته من السرقة، ولهذا أعدّ هذا النوع من الرعب حتى لا يقترب أي ساحر أكثر من ذلك. وإذا نجح أحدهم في الوصول إلى هنا فسوف يكون حرّاً من الحاجة إلى الطعام والشراب، ويكون محمياً من الانهيار والموت، وعليه فقط أن يحتمل التعذيب. لذا، اسمح لي أن أودّعك. لقد حررتني من تعاسة لا توصف. أنا ذاهب إلى بلدي". ثم مضى[96].

تمثّل هذه الخرافة القديمة، بالطريقة التي سُردتْ هنا، تحذيراً من مخاطر الجشع الشديد. وقد كانت، بشكلها البدائي، أسطورة 'بوذي المهايانا' في عبوره إلى حالة 'النيرفانا'، والطرح المباشر لمسألة ما إذا كان هناك علامة على اكتمال نكران الذات في شفقة المسافر الروحانية. إنها تذكّرنا بشخصية الملك المشوّه في أسطورة الكأس المسيحية المقدسة، والسؤال الذي كان يجب على فارس الكأس البريء أن يطرحه، والذي أدّى إلى شفاء الملك، ووصول الفارس نفسه إلى مرتبة الملك. ويفكّر المرء أيضاً برأس المسيح المصلوب المتوّج بالأشواك، وبعدد من الشخصيات الأخرى: بروميثيوس، المعلّق على صخرة في القوقاز، والنسر يمزّق كبده؛ و'لوكي' أيضاً، وهو مثبت على صخرة، بينما يقطر سمّ الأفعى

96 translation by Arthur W. Ryder,The Panchatantra (Chicago: The University of (Chicago Press, 1925), pp. 434-441

الكونية الناريّ على رأسه إلى الأبد، أو شخصية الشيطان، كما رآه 'دانتي، كمحور لمركز الأرض، متوافقاً في موقعه هذا مع شبيهه النمطي، 'هادس، الإغريقي (بلوتو الروماني)، إله العالم السفلي والثروة. الذي يتطابق تماماً (بهذه الطريقة الرائعة التي نجدها كثيراً لدى مقارنة الأشكال الأسطورية) مع نظيره في نصف الكرة الغربي، المرتبط بإله الأرض، الهندي 'كوبرا'، إله الثروة تحديداً، وإله العجلة الدوارة المؤلمة المشار إليها في هذه الحكاية الخرافية.

لكن، في حالة رؤى مريضنا الفُصامي، كان دور الإله المجنون المرعب في تعذيبه، والقابع في موقعه في ذروة الكون، أكبر بكثير من إمكانية الصمود في وجهه. فمن سيكون قادراً على المواجهة بنفسه، ويقبل عن سبق إصرار وتصميم، كل نتائج اختبار ما تكوّنُه الحياة فعلاً، بكل متعتها الرهيبة؟ ربما سيكون ذلك هو الاختبار الأقصى لاكتمال تعاطف المرء: ليكون قادراً على الاعتراف بهذا العالم، تماماً كما هو، دون تحفّظ، بينما كل متعته ونشوته الرهيبة كامنتان في ذاته، وبالتالي يتمنى بجنون أن تحظى بها الكائنات كلها! وبكل الأحوال، أدرك جيس واتكنز في مرحلة جنونه أنه قد نال كفايته.

في حديثه عن المغامرة كلها، قال: "كانت في بعض الأحيان مدمّرة جداً لدرجة بت أخشى الدخول فيها مرة أخرى... فجأةً، كنتُ أواجه شيئاً أكبر بكثير من ذاتي، ويحمل الكثير من التجارب، والكثير من الاستنارة، بحيث لا يمكنك أخذها... لقد اختبرتها دقيقة أو دقيقتين، لكنها كانت أمام عيني مثل انفجار ضوء أو هبوب ريح مباغت، أو ما يشبه ذلك، لدرجة تشعر أنك وحيد وأعزل، ولست قادراً على الصمود".

في صباح أحد الأيام، قرر أنه لم يعد يريد تناول المهدئات، ويرغب بطريقة ما أن يعود إلى أحاسيسه. جلس على حافة سريره، وشبك إحدى يديه بالأخرى بقوة، وبدأ يردد اسمه بشكل متكرر. استمر بعملية

الترداد هذه، مرة تلو أخرى، وفجأة، أدرك أن كل شيء قد انتهى، وكان ذلك. انتهت التجربة، وعاد إلى رشده.

يمكننا القول إن لغزنا عن أسلوب المغامرة يكمن هنا، ذلك إذا كان ينبغي على المرء العودة إلى مكانه. الأمر على النحو الآتي: يجب ألا تُحدَّد ذات المرء بأية شخصية أو قوة من الشخصيات والقوى التي كانت موضوعَ الاختبار. فممارس اليوغا الهندي، خلال سعيه إلى الانعتاق، يحدد نفسه بالنور، ولا يعود، لكن ما من شخص لديه الرغبة بخدمة الحياة والآخرين، يمكن أن يسمح لنفسه بمثل هذا الهروب. يجب ألا يكون الهدف الأقصى للسعي، إذا كان على المرء أن يعود، مرتكزاً على تحرر المرء نفسه ولا على نشوته، بل على الحكمة والقوة اللازمتين لخدمة الآخرين. وهناك حكاية غريبة وعظيمة فعلاً، وذائعة الصيت، حكاية غريبة عن رحلة مشابهة إلى "أرض النور" في *رحلة السنوات العشر* التي خاضها "أوديسيوس هوميروس" الذي كان، مثل ضابط البحرية الملكية واتكنز محارباً عائداً من سنوات حرب طويلة إلى الحياة العادية، وبالتالي، يحتاج إلى تغيير موقعه، ومركزه السيكولوجي، بشكل جذري.

نعرف جميعاً تلك القصة العظيمة: بعد إبحاره باثنتي عشرة سفينة بعيداً عن طروادة المُحتلة، رسا أوديسيوس في ميناء تراقيا، في إسماروس، ثم نهب المدينة وذبح سكانها. وكما قال بنفسه لاحقاً: "أخذ نساءها وثرواتها"، ووزّعها على رجاله. إن وحشاً كهذا لم يكن، بكل وضوح، مستعداً للحياة البيتية العادية؛ وكان هناك ضرورة لحدوث تغيير كامل بالشخصية. أما الآلهة المتيقظة دوماً لأمور من هذا النوع، فقد رأت بأنه يجب أن يقع بين أيدٍ قديرة.

أولاً، سلط عليه زيوس عاصفة هتكتْ أشرعة سفنه، وتركتها تسعة أيام خارج السيطرة، فوصلت إلى أرض آكلات اللوتس- أرض المخدرات المهلوسة، "السُلوان"، حيث طفا أديسيوس ورجاله الفزعون، على بحر

من الأحلام، كما كان الحال مع واتكنز في مشفى الأمراض العقلية، ثم تابعوا مغامرتهم الأسطورية بطريقة مختلفة تماماً عن أي شيء خبروه فيما مضى.

كانت البداية مواجهته مع السايكلوب ثم، بعد تحرر كلفهم الكثير من كهفه المرعب، سادت فترة من البهجة مع إبحارهم نحو الإله أيولوس؛ ومن ثم الهدوء المطبق والمحنة القاسية بعودة اثنتي عشرة سفينة إلى التجذيف. اتخذوا طريقهم إلى جزيرة لايستريغون، آكل لحوم البشر، الذي أغرق إحدى عشرة سفينة، لكن أوديسيوس القوي، ببقائه بمواجهة قوى تفوق بكثير ما يمكنه التغلّب عليها، ابتعد مع الطاقم المذعور بالسفينة الباقية الوحيدة. ومع متابعة التجذيف في بحر شديد السكون، وصلوا إلى ما تبيّن أنه مركز مغامرة بحر الليل كلها: جزيرة سيرسي، الحورية الساحرة ذات الشعر المجدول، التي حوّلت الرجال إلى خنازير.

إنها أنثى لا يستطيع بطلنا الذي تعرض لهزيمة نكراء التعامل معها على أنه مجرد غنيمة. وكانت قوتها تفوق قوته بكثير. لكن لحسن الحظ، وبسبب شهرته، وصل هرمس، إله الأسرار وحامي الأرواح ومرشدها إلى تجاوز الموت وإعادة الولادة، في الوقت المناسب ليحميه بالنصيحة والسحر: وهكذا، بدلاً من مَسخ البحار العظيم المتمتّع بالحماية، انتقل إلى سرير سيرسي، التي قادته بعد ذلك إلى العالم السفلي، وظلال أسلافه، وهناك قابل تيريسياس، الحكيم المتنبئ الأعمى الذي توحدت فيه المعارف الأنثوية والذكرية. وبعد أن تعلّم هناك كل ما يستطيع تعلّمه، عاد إلى الساحرة السابقة الخطيرة وهو أكثر خبرة بكثير، وأصبح هو معلّمها ومرشدها.

وفيما بعد، أرشدته سيرسي إلى جزيرة الشمس، والده، ومنبع الضياء كله، حيث تحطمت سفينته الوحيدة الباقية بكل طاقمها، وبعد أن عاد إلى البحر وحده، حمله المدّ والجزر الذي لا يُقاوم، إلى زوجته الدنيوية

(وحياته)، بينلوبي.... بعد ثماني سنوات توقف فيها خلال طريقه مع كاليبسو الحورية التي كانت في أواسط عمرها، ثم استراحة قصيرة أيضاً على جزيرة الجميلة ناوسيكا ووالدها، ثم عاد بقاربهما الصغير، قارب بحر الليل، إلى وطنه وشاطئه الجميل في حالة نوم عميق. وأصبح مستعداً الآن للعودة إلى حياته كشريك وأب صالح.

تكمن السمة الهامة في هذه الملحمة العظيمة، ومغامرة بحر الليل الداخلية، في مقولتها إن هذا المغامر لم يرغب بالبقاء في أية محطة من محطاتها. فعندما وصل إلى أرض "آكلات اللوتس"، وبعد أن تناول بعض رجاله النبتة المُزهرة، فقدوا الرغبة بالعودة إلى الوطن؛ لكن أوديسيوس جرّهم باكين إلى سفنه؛ وقيّدهم في السفينة وأبحر عائداً. وحتى خلال بقائه بحالة نشوة لثماني سنوات على جزيرة كاليبسو، فإنه غالباً ما كان يظهر على الشاطئ وحده، ويطيل النظر باتجاه الوطن، ما وراء البحر.

كان جيمس واتكنز أيضاً، قادراً تماماً على تمييز نفسه في دوره الدنيوي، عن الرجل المجنون في المأوى؛ ومثل نقطة التحوّل في أبعد مدى من مساره النمطي التقليدي، حيث تحطّمت آخر سفنه على جزيرة الشمس، وصل بحارنا المعاصر في رحلته إلى نقطة تحوّل على حافة تجربة انفجار الضوء. أدرك جيمس واتكنز عند نقطة التحول، أنه لم يكن مجنوناً مرعباً يوشك أن يختبر حالة الفناء، بل إنه أيضاً رجلٌ؛ الرجل العاقل الذي كان يقيم يوماً في منزل، ومن حياته تحت قبّة ذلك المنزل، أصبح شخصاً منفصلاً سيكولوجياً، يستلقي (كما سمعنا) في فراش، يُطبقُ إحدى يديه على الأخرى، ويلفظ الاسم الذي كان يُطلَق على هيئته الجسدية، ثم يعود إليها، كما يعود الغواص إلى سطح البحر.

لعلّ أنسبَ ترميز للشكل الأسطوري الاعتيادي المرتبط بالعودة إلى الحياة من هذا النوع هو رمز "إعادة الولادة"، إعادة الولادة إلى عالم

جديد؛ وتلك بالضبط كانت الطريقة التي اتبعها مريض نفسي تخلّص ذاتياً عبر اختبار تهدئة لحظيٍّ. سمعت نقلاً عنه: "عندما عدت، شعرت فجأة أن كل شيء كان حقيقياً أكثر بكثير مما كان من قبل. العشب كان أكثر خضرة، وكانت الشمس أكثر سطوعاً، والناس أكثر حيوية، وأستطيع رؤيتهم بشكل أوضح. أستطيع أن أرى الأشياء السيئة، والأشياء الجيدة، وكل ذلك. أصبحتُ أكثر يقظة".

يعلّق الدكتور لينغ في ملاحظاته على التجربة كلها: "ألا يمكننا أن نرى أن هذه الرحلة كانت هي ما نحتاجه للشفاء، بل هي بحد ذاتها طريقة طبيعية للشفاء من حالة اغتراب مروّعة نسميها طبيعية؟"

كانت وجهة نظر كل من الدكتور بيري والدكتور سيلفرمان مشابهة لوجهة النظر هذه في المحاضرات التي أشرنا إليها سابقاً؛ وكما علمت في الآونة الأخيرة، فإن أقدم اقتراح تم توثيقه عن وجهة النظر هذه كان في دراسة نشرها كارل غوستاف يونغ عام (1902)، حملت عنوان "عن السيكولوجيا وعلم الأمراض لما يُسمى بـ الظواهر الغامضة- On Psychology and Pathology of So-called Occult Phenomena"[97].

باختصار إذاً: إن الرحلات الداخلية للبطل الأسطوري، الشامان، والصوفي، والفُصامي، هي ذاتها من حيث المبدأ؛ وعندما يحدث التحوّل أو الشفاء، يكون اختباره كالولادة الجديدة، أي أن "الأنا" "المولودة مرتين" لم تعد مقيّدة بأفق العالم الأرضي. وأصبح معروفاً الآن أنها ليست سوى انعكاس لذات أكبر، وتتمثّل وظيفتها المناسبة في نقل طاقات النظام الغريزي النموذجي البدئي إلى دور مثمر في الفضاء الزمني المُعاصر. ولم يعد المرء الآن خائفاً من الطبيعة؛ ولا من طفل الطبيعة ولا من مجتمعها الوحشي أيضاً، ولا يمكنه في الواقع أن يكون غير ذلك؛ ولن ينجو أبداً إذا كان غير ذلك. ستكون "الأنا" الجديدة منسجمة ومتناغمة، وفي حالة

97 Collected Works, Vol. I, pp. 3-92

وثام مع الوضع الجديد؛ وكما كان الحال مع الذين عادوا من قصص الرحلات، تصبح الحياة أكثر غنى، أكثر قوة، وأكثر سعادة.

يبدو أن المشكلة برمتها هي في الذهاب في رحلة بطريقة ما، ولو مراراً وتكراراً، دون أن تتحطم السفينة؛ والجواب لا ينبغي أن يكون في عدم السماح للمرء بالجنون؛ بل بضرورة أن يعرف المرء مُسبقاً شيئاً عن هذا المشهد الذي سيراه، والقوى التي يُرجّح أن يواجهها، ويُعطى صيغة من نوع ما يستطيع أن يُدركها ويُخضعها ويدمج قواها. فعندما قام سيغفريد بقتل فافنير، تذوّق القليل من دم التنين، ولدهشته، أحسّ على الفور بأنه يفهم لغة الطبيعة، ويعني بذلك طبيعته الخاصة، والطبيعة الخارجية. فلم يصبح هو ذاته تنيناً، على الرغم من أنه استمدّ القوة منه. تلك القوة التي فقد السيطرة عليها عندما عاد إلى عالم الإنسان العادي.

أبداً، ثمة في المغامرة خطر هائل معروف في السيكولوجيا باسم "التضخّم"، وهو ما يتجاوز الذهان. إنه يحدد نفسه إما بالموضوع الوهمي، أو بالشاهد عليه، أو الذات الوهمية. وتتركز الخدعة بأن يصبح المرء مُدركاً له دون أن يضيع فيه: أن يفهم بأن كل فرد منا قد يُصبح **مخلّصاً** في العلاقة مع أصدقائنا أو أعدائنا، لكننا لن نكون المخلّص أبداً. ربما نصبح جميعاً آباء وأمهات، لكن لن نكون أبداً الأم أو الأب. فعندما تعي الفتاة اليافعة أثر البهجة التي بدأت أنوثتها المزهرة تتركه على الآخرين، ثم يرتدّ ذلك إلى "أناها"، تصاب بنوع من الانطلاق والحماس. لقد عرّفت نفسها بطريقة خاطئة. إن ما أدى إلى كل هذه الإثارة ليست "أناها" الصغيرة المُذهلة، بل ذلك الجسد اليانع الرائع الذي يغلّف هذه "الأنا". هناك مقولة يابانية أتذكر أنني سمعتها يوماً، وهي عن خمس مراحل لنمو الرجل. "في العاشرة: حيوان، في العشرين: طائش، في الثلاثين: فاشل، في الأربعين: محتال، وفي الخمسين: مجرم". وفي الستين: أنا أكملها (لأنه عند الوصول إلى تلك المرحلة، سيكون

الشخص قد عبر كل تلك المراحل) بالقول إن المرء يبدأ بتقديم النصيحة لأصدقائه، وفي السبعين (مع إدراكه أن كل ما قيل قد أُسيء فهمه) يبقى أحدنا هادئاً، ويُعتبر حكيماً. و"في الثمانين"، كما قال كونفوشيوس، "عرفتُ أرضي فوقفت بكل رسوخ".

من خلاصة ما ورد ذكره، دعوني الآن أؤكّد الدرس من هذه الأفكار المطهرة من الإثم بكلمات ختامية من تلك الرؤية النزقة للقديس يوحنا والتي حملها من مكان نفيه في جزيرة بطموس:

ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأَنَّ السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ. وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا. وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلاً: "هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شُعُبًا، وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ..... وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ.

11
السير على سطح القمر- الرحلة إلى الخارج
(1970)

هل نحن اليوم في سبيلنا لتحويل الأسطورة إلى واقع؟ دعوني أقدّم لكم فقرة من *"الكوميديا الإلهية"* لـ دانتي، الموضوع الرائع حقاً لهذا الفصل. إنها عن رحلة متخيّلة للشاعر، يُقلع فيها من الفردوس الأرضي، ويصعد إلى القمر، محطته السماوية الأولى في مليرانه الروحاني إلى عرش الإله. ها هو يوجّه كلامه الآتي إلى القارئ:

> كنتم أيها المبحرون على المركب الصغير، التواقون للاستماع، تتعقبون عربتي السماوية التي يتردد ترتيلها، ألتفت من جديد لأرى شطآنكم؛ لا جهد أبذله فوق الأعماق؛ ودونما قصد، إذ تخسروني، سوف تبقون تائهين. والمياه التي أمخر عبابها لم يعبرها امرؤ من قبلُ. ها مينيرفا ترسل أنفاسها، ويرشدني أبولو، وتدلّني ربّات الإلهام التسع إلى نجوم الدبّين الأكبر والأصغر.

هذا سيعدّل المزاج. فأنفاس الإلهة مينيرفا راعية الأبطال، تملأ أشرعتنا، والإشارة إلى أبولو مفاجأة ممتعة، وسوف ترشدنا ربات

الإلهام، ومعلّمات الفنون كلها إلى النجوم الملاحية. لأنه على الرغم من أن رحلتنا ستكون إلى الخارج، فهي إلى الداخل أيضاً، إلى منابع الأفعال العظيمة كلها، وهي ليست في الخارج أبداً، بل هنا، في داخلنا جميعاً، حيث تقطن الربّات.

أتذكر أنني عندما كنت صبياً صغيراً، أخذني عمي إلى ريفرسايد درايف، لأشاهد، كما قال هو: "رجلاً يحلّق بالطائرة (بالشكل الذي كانت عليه في تلك الأيام)، من ألباني إلى نيويورك سيتي". كان ذلك الرجل غلين كورتيز في عام 1910، يركب طائرة على شكل صندوق كرتوني مزوّد بمحرك، وهو الذي اخترعها بنفسه. انتشر الناس على امتداد الجدار المنخفض، على الجانب الغربي للمدينة، يراقبون وينتظرون، وقد يمموا وجوههم شطرَ غروب الشمس. كانت جميع أسطح المنازل القريبة مكتظّة أيضاً. بانَ الشفق، وعندئذ، وبشكل مفاجئ، بدأ الجميع يشيرون ويصرخون، "ها هو!" كان ما رأيته أشبه بخيال قاتم لطائر كبير يحلّق في الضوء المتلاشي، على ارتفاع مئة قدم تقريباً فوق النهر. بعد سبع عشرة سنة أخرى، في السنة التي غادرت فيها جامعة كولومبيا، عبَرَ ليندبيرغ المحيطَ الأطلسي. وفي هذه السنة، على أجهزة التلفاز لدينا، رأينا رجلين يطآن سطح القمر.

أريد أن يكون هذا الفصل احتفالاً بالعصر الرائع الذي نعيشه؛ واحتفالاً بهذا البلد الذي نعيش فيه أيضاً؛ وبالعرق البشري الخارق الذي انفصل عن أرضه في السنوات التي مضت، ليطير مخترقاً الفضاء المفتوح، في أعظم مغامرة على مرّ العصور.

عندما أصغي إلى بعض الزملاء الأكاديميين وهم يتحدثون بلا مُبالاة عن هذه المغامرة العصرية، أتذكر طرفة تلك المرأة العجوز ضئيلة الحجم، التي علّقت، عندما عُرضت عليها فرصة لرؤية القمر عبر التلسكوب، وقالت: "أريد القمر كما خلقه الله!" وقد ظهر التعليق العام

الوحيد الحقيقي المناسب، على أول خطوة يخطوها الإنسان على سطح القمر، في صحيفة عالمية تضمنت تصريحاً للشاعر الإيطالي جيوزيبي أنغاريتي، المنشور في صحيفة إيبوكا المصوّرة. في عددها الصادر في السابع والعشرين من شهر تموز عام (1969)، رأينا صورة لهذا الرجل العجوز ذي الشعر الأبيض، يشير بنشوة إلى شاشة تلفازه، وتحتها عبارة توضيحيه تتضمن هذه الكلمات الرائعة: "*Questaèuna notte diversa da ogni ultra notte del mondo*".

تعني هذه العبارة: "ليلة مختلفة عن كل الليالي في هذا العالم!" مَن سينسى، من الذين عاصروه، سحر تلك الساعة الرائعة في العشرين من شهر تموز (1969)، عندما عرضت أجهزتنا التلفزيونية في غرف معيشتنا، صورة لتلك الطائرة الغريبة هناك، ونيل أرمسترونغ يطأ القمر بقدمه، يتحسس طريقه بحذر. ليترك على تراب تلك الكرة المضيئة المرتفعة عن الأرض، أول بصمة عن الحياة على الإطلاق؟ ومن ثم، كما لو أنهم في المنزل هناك، ظهر رائدا فضاء بملابسهما الفضائية، يطوفان أرض الأحلام، ويؤديان المهمّات الموكلة إليهما، ألا وهي وضع العلم الأمريكي، وجمع بعض القطع والمواد، ويخطوان بشكل غريب، لكن بسهولة، للأمام والخلف؛ وصلت الصور إلينا، وبالمناسبة، وصلت إلينا عبر مسافة مئتين وثمان وثلاثين ألف ميل من الفضاء المفتوح، من خلال تلك المعجزة الحديثة الأخرى (هذه أيضاً أصبحت الآن من المسلّمات)، التلفاز القابع في غرفة المعيشة. قال بوكمينستر فولر مرة في تنبئه لتلك القوى المحوّلة التي تعمل الآن مقابل حواسنا: "توشك البشرية كلها أن تولد في علاقة جديدة كلياً مع الكون".

من وجهة نظر طالب في دراسة الأساطير، إن أهم أثر كتبه كوبرنيكوس عن الكون عام (1543) جاء من تقديمه صورة تُفنّد "الحقائق" الظاهرة وتدحضها، تلك الحقائق التي يمكن لأي شخص في أي مكان أن يراها. لقد تأسست أفكار الجنس البشري كله، اللاهوتية

منها والكوزمولوجية، حتى زمننا هذا، على مفاهيم الكون التي أُثبتت بصرياً من وجهة نظر الواقف على سطح الأرض. كما أن فكرة الإنسان عن نفسه وعن الطبيعة، وأشعاره ومنظومة إحساسه كلها، مستمدّة من رؤية عينيه المحدودة. تشرق الشمس من جهة الشرق، تمرّ في الأعلى، وتميل نحو الغرب، ثم تغوص ملتهبة في الغرب. لقد أعدّ البطل البولينيزي ماوي شركاً لكي يبطئ الشمس قليلاً، فتحظى والدته بوقت كاف للطبخ. كما أوقف يشوع الشمس والقمر، ليتسنى له إنهاء عمليات القتل، في حين أطلق الربّ من السماء وابلاً من الحجارة لمساعدته: "وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُ ذلِكَ الْيَوْمِ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ سَمِعَ فِيهِ الرَّبُّ صَوْتَ إِنْسَانٍ".

في الأزمنة القديمة، كان يُنظر إلى القمر، ولا يزال يُنظر إليه في أماكن متفرّقة من العالم، على أنه دار الآباء، مأوى الأرواح التي توفّي أصحابها ولا تزال تنتظر إعادة الولادة. فالقمر ذاته، كما نراه، يموت ويُبعَث. ومع إسقاطه لظلّه يتجدد، مثلما تُهرق الحياة أجيالاً لكي تتجدد بأجيال لاحقة. وفي حين أنه مقابل ذلك، وهو ما تأكّد، وأُعيدَ تأكيده، في الكتب المقدسة والشعر، بالأحاسيس والرؤيا على مر العصور، كان ما اقترحه كوبرنيكوس عبارة عن عالم لم تتمكن عين الإنسان من رؤيته، لكن العقل تمكّن من تخيّله: فالبنية العلمية غير المرئية مطلقاً، والتي تثير اهتمام علماء الفلك فحسب، لا يراها ولا يشعر بها الناس العاديون من عرقنا البشري الذي يبقى بصره وإحساسه مثبّتين في الأرض.

في أيامنا هذه، وبعد أربعة قرون وربع، ومع وصول هذه الصور إلينا من زاوية النظر من القمر، رأينا جميعاً، وشعرنا أيضاً، أن عالمنا المرئي يتوافق مع تفسير كوبرنيكوس المجرّد. وها هي ذي الصور المذهلة الملوّنة لأرضنا الطيبة الناهضة ككوكب متألق فوق مشهد قمر ساكن، أصبحت

شيئاً لا يمكن نسيانه. لقد نشر جيوزيبي أنغاريتي في مجلّة *إيبوكا* أول قصيدة عن العالم الجديد احتفالاً بالكشف عن ولادة القمر:

Che fai tu, Terra, in ciel?
Dimmi, che fai, Silenziosa Terra?

ما الذي تفعلينه أيتها الأرض، في السماء؟

أخبريني، ما الذي تفعلينه، أيتها الأرض الصامتة؟

تصدعت كلّ القيود القديمة. انتشرت المراكز الكوزمولوجية في أيّ مكان، وكلّ مكان. الأرض جرم سماوي، بل وأجمل الأجرام كلها، وأصبح الشعر كله قديماً حتى إنه يُخفق في توصيف روعة هذا المشهد.

على النقيض من ذلك، أتذكر ما شعرت به من حيرة وارتباك في عيد الميلاد قبل عامين من الآن، ليلة أول تحليق بشري حول القمر، عندما بدأ أولئك الشبان الثلاثة يقرؤون لنا، من الأعلى، ويرسلون رسائل إلى هذا العالم، كانت الرسالةُ الإصحاحَ الأول من سفر التكوين: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً". وما إلى ذلك! لم يكن لأي منها علاقة، من أي نوع كان، بالعالم الذي كانوا هم أنفسهم يرونه ويستكشفونه في الواقع. لاحقاً، سألت بعض أصدقائي عن شعورهم عندما سمعوا تلك العبارات تأتيهم من القمر، وأجاب الجميع، دون استثناء، بأنهم وجدوها مؤثرة بشكل رائع. يا له من أمر غريب! فكرت بأنه لم يكن هناك في أشعارنا ما يمكن أن ينسجم مع الإحساس بتلك المناسبة المذهلة! لا شيء ينسجم مع، أو حتى يُمكن أن يوحي بـ، أعجوبة هذا الكون الذي نتحرّك فيه، وأهميته! كان ثمّة حلم طفولي قديم عن بعض اليهود المولودين في بابل، من القرن الرابع قبل الميلاد، يخبرنا عن نشأة العالم الذي قام هؤلاء الرجال (رواد الفضاء)

الثلاثة بدحضه، حتى وهم يقرؤونه! يا له من شيء مخيّب للآمال! يبدو لي أنه كان من الأفضل بكثير، قراءة تلك الأسطر الستة الجميلة من افتتاحية فردوس دانتي في "الكوميديا الإلهية":

مجدُ الربِ، محرّكُ الأشياء؛

يتغلغل في الكون، أكثر ألقاً

في شطر، وأقلّ في آخر.

في السماء التي تحظى بجلّ أنواره

حللتُ، ورأيتُ ما يُروى من أشياء

تتنزّلُ من عل، لكن لستُ أدري كيف، ولا طاقةَ لي كي أرويها.

من المستحيل في هذه الأيام أن تنتبأ بما ستكون عليه الصور الشعرية لمستقبل الإنسان. أما رواد الفضاء الثلاثة هؤلاء فقدموا فكرتين اثنتين بعد عودتهم. بعد أن تجاوزوا الفكر بتحليقهم في الفضاء المفتوح، ودارُوا عدة دورات حول القمر القاحل، وبدؤوا رحلة العودة الطويلة: قالوا: كم كان جميلاً ورائعاً مشهد هدفهم الذي يعودون إليه الآن؛ كوكب الأرض هذا، كان أشبه "بواحة في صحراء ليس لها نهاية!"، توجد الآن صور معبّرة: هذه الأرض، الواحة الوحيدة في الفضاء كله، البستان المقدّس الرائع، كما كان دوماً، المميز لإقامة طقوس الحياة؛ الأرض كلها ملاذ آمن الآن، ومكان مبارك، لا جزء منها أو قطّاع محدد. وفوق ذلك، رأينا جميعاً الآن كم نحن ضئيلو الحجم في أرضنا المولودة كقطعة من الجنة، وكم هو محفوف بالمخاطر موقعنا على هذا الجرم السماوي الدّوار الجميل المضيء.

الفكرة الثانية هي إجابتهم، أثناء عودتهم، على سؤال يستفسر

فيه المركز الأرضي عمن كان يقود المركبة. كانت الإجابة الفورية هي "نيوتن!" تخيّل ذلك! كانوا عائدين على متن المركبة بأمان معتمدين على حسابات عقل إسحاق نيوتن المبهر.

ذكّرتني هذه الإجابة المدهشة بمشكلة المعرفة الأساسية لدى إيمانويل كانط. هو يسأل: كيف يمكن أن نقف في هذا المكان هنا، ونحن نستطيع إجراء حسابات رياضية نعرف تماماً أنها صالحة في ذلك المكان هناك؟ لا أحد يعرف كم يمكن أن يكون عمق طبقة الغبار على سطح القمر، لكن علماء الرياضيات يعرفون تماماً كيف يضعون القوانين التي سيحلّق بموجبها رواد الفضاء، ليس حول الأرض المعروفة فحسب، بل حول القمر أيضاً، وعبر تلك الأميال الكثيرة من الفضاء غير المستكشف بينهما. يتساءل كانط كيف يمكن للمحاكمات الرياضية أن تُجرى مُسبقاً عن الفضاء، وعن العلاقة بالفضاء؟

عندما تمرّ أمام مرآة متموّجة، لا يمكن أن تتوقّع مقدار أبعاد انعكاس صورتك. لكن الأمر ليس كذلك في الفضاء. لا يوجد في الفضاء كله مثل هذه التحوّلات بحسابات الأبعاد. عندما رأينا على شاشة تلفازنا، أن سفينة فضاء الرحلة الثانية إلى القمر، تهبط بالمظلة من السماء، إلى بقعة محددة تماماً في البحر، وكانت مبرمجة بدقة في حال تعطلها، أصبحنا جميعاً شهود عيان، رغم أن القمر على بعد أكثر من مئتي ألف ميل عنا، على حقيقة أن قوانين الفضاء التي كانت تحرّك المركبة موجودة مُسبقاً في عقولنا (أو في عقل نيوتن على الأقل) قبل قرون من سفرنا إلى هناك. كما كان من المعروف مُسبقاً حقيقة أن السرعة هناك يمكن تحديدها بناء على المقاييس الأرضية: المسافة التي تقطعها في دقيقة واحدة هناك، ستكون ذات الدقيقة هنا. أعني أن هناك معرفة مُسبقة بتلك المسائل. ونعرف أيضاً، أن القوانين ذاتها سوف تطبق عندما تذهب سفننا الفضائية إلى المريخ أو المشتري أو زُحل، أو حتى ما بعدها.

المكان والزمان، كما لاحظ كانط مسبقاً، هما "الشكلان *الاستدلاليان* للإحساس"، الشرطان المُسبقان لكل التجارب والأفعال مهما كانت، والمعروفان ضمنياً لجسدنا وإحساسنا حتى قبل ولادتنا، كحقل ننجز فيه وظائفنا. إنهما ببساطة "*ليسا هناك*"، مثلما الكواكب *هناك*، فتُكتشَف بالطرق التحليلية، عبر مرات متباعدة من المراقبة. إننا نحمل قوانينهما في دواخلنا، ولهذا قمنا بإحاطة الكون بعقولنا فوراً. كتب الشاعر ريلكه: "العالم كبير، لكنه عميق كالبحر في داخلنا". نحن نحمل قوانين العالم في داخلنا، ومن خلالها يقوم النظام. ونحن أنفسنا، لسنا أقل غموضاً. فمن خلال بحثنا عن أعاجيب هذا الكون، تعلّمنا تلقائياً أعاجيب ذواتنا. وكانت رحلة القمر الخارجية أشبه برحلة خارجية إلى ذواتنا. ولا أعني ذلك بالمعنى الشاعري، بل بالمعنى الواقعي التاريخي. أعني أن الواقع الفعلي للبثّ المرئي لهذه الرحلة قد نقل الوعي البشري، وعمّقه ووسعه، إلى درجة قاربتْ فتح عصر روحاني جديد.

كانت الخطوة الأولى لتلك القدم على سطح القمر حذرة للغاية. نزل رائد الفضاء الثاني، ولفترة قصيرة كان كلاهما يتحرّكان بهدوء، يختبران توازنهما، وأوزان معدّاتهما في البيئة الجديدة. لكن بعد ذلك، يا للدهشة! أصبحا يتحرّكان فجأة ويتقافزان مثل الكنغر! والمأثران على القمر من الرحلة التالية كانا يقهقهان، يضحكان ويستمتعان كولدين طائشين. أهي صدمة القمر! وكنت أقول في نفسي: "حسناً، كان ذلك القرص المحبب يدور حول أرضنا، منذ أربعة ملايين سنة، كامرأة جميلة مهجورة تحاول أن تلفت انتباه عيني الأرض. ولقد تمكّنتْ منها في النهاية، وسيطرت على أعيننا أيضاً. وكما يحدث دوماً عندما يُستجاب لإغواء من هذا النوع، تتفتح حياة جديدة غنية ومثيرة وفيها إنجاز يتخطى ما عرفناه سابقاً، أو تفكّرنا فيه أو تخيّلناه". هناك شباب بيننا، وهم لا يزالون حتى الآن يؤمنون بالقمر! وهناك آخرون سيزورون المريخ. لكن ماذا عن أبنائهم؟ أية رحلات ستكون رحلاتهم؟

أتساءل كم من قرّائي شاهدوا ذلك الفيلم، (*2001*)، عن رحلة سفينة فضاء متخيّلة عظيمة في المستقبل غير البعيد، مستقبل سيعيش معظم من شاهدوا الفيلم ليروه. تبدأ المغامرة بوجهات نظر مسلية عن مجتمع القرود الصغيرة المشابهة للبشر، منذ ما يقارب مليون سنة: مجموعة من البشر القرود المعروفين في العلم اليوم باسم القردة الجنوبية - Austra-lopithecines، يزمجر أحدهم على الآخر، ويتقاتل ويتصرّف عادة كأيّ قرد ضمن مجموعة قرود. وكان من بينهم قرد لديه في روحه المتفتّحة إمكانيات لما هو أفضل؛ تتوضح تلك الإمكانيات في شعوره *بالرعب* من الغامض، وفي فضوله الساحر، ورغبته بالاقتراب من المجهول واستكشافه. أظهر الفيلم هذه الفرضية بمشهد رمزي يصوّره جالساً بشيء من العجب أمام لوحة غريبة لصخرة تنتصب بغموض في منظر طبيعي. وبينما يتابع الجميع حياتهم بطريقة الرجال القرود الاعتيادية، مُستهلكين في مشاكلهم الاقتصادية (الحصول على الطعام لأنفسهم)، ومتعهم الاجتماعية (يفتش أحدهم شعر الآخر بحثاً عن القمل)، والنشاطات السياسية (صراعات متنوعة)، يبقى هذا القرد الاستثنائي وحيداً منعزلاً يتأمّل اللوحة، ثم يصل ويلامسها. كاقتراب قدم رائد الفضاء من سطح القمر للمرة الأولى، ثم ملامسة القدم للقمر بلطف. تبعه آخرون، لكن ليس جميعهم؛ لأنه، وبالتأكيد، يبقى بيننا كثيرون ممن لا يحرّكهم "الشطر الأفضل من الإنسان"، بحسب توصيف غوته. يبقى هؤلاء، حتى في وقتنا الحالي، في حالة القرود السابقة على الإنسان، الذين لا يهتمون سوى بالاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع، يضرب أحدهم الآخر بالحجارة، ثم يلعق كلٌ منهم جراحه.

هؤلاء ليسوا من الذين يتطلّعون إلى القمر، ولا يفهمون أن أعظم الخطوات في تقدّم البشرية لم تكن نتاج لعق الجراح، بل من أفعال الهمهم بها ذلك *الرعب*. واعتراضاً باستمرارية هذا المبدأ التحفيزي في تطوّر جنسنا البشري على مدار الوقت، أظهر كاتب الفيلم، وبشكل

رمزي أيضاً، أن اللوحة الغامضة ذاتها تنتصب في جانب خفيّ من القمر، وقد وصل إليها مسافرون إلى القمر ولامسوها؛ ومرة أخرى، بالسباحة بكلّ حرية في أقاصي الفضاء البعيد، يبقى الغموض، كما كان دوماً، وسيبقى إلى الأبد.

يمكننا أن نلحظ إحدى أقدم الإشارات على فصل إدراك الإنسان عن إدراك الحيوان في تطويع البشر للنار، وهو ما أودّ أن أنسبه إلى رمزية تلك اللوحة. لسنا نعرف متى حدث هذا التدجين[98]؛ لكننا نعرف تماماً أنه يرجع إلى ما يقارب أربعمئة ألف عام قبل الميلاد. حيث كانت النار تنير كهوف إنسان بكين Peking Man وتدفئه. لماذا؟ هذا أمر آخر لا نعرفه. من الواضح أن المواقد لم تكن تُستخدم للطبخ. ربما كانوا يستخدمونها من أجل الحرارة، أو لإبعاد الحيوانات المفترسة؛ والمرجح أنها كانت تُستخدم للسحر الذي يتبدى في تراقص شعلتها. لدينا في كلّ أنحاء العالم أساطير لا تُحصى عن الإمساك بالنار؛ ومن الشائع في حالات كهذه تمثيل المغامرة كما حدثت، ليس لأن أي شخص يعرف ما يجب أن يكون عليه استخدام النار العملي، بل لأن ذلك كان رائعاً. كان الناس يرقصون حولها، ويجلسون ويراقبون. ومن الشائع أيضاً، في تلك الأساطير، إيضاح أن انفصال الجنس البشري عن الحيوانات المفترسة، تبعَ هذه المغامرة الأساسية مباشرة.

عادةً ما كانت النار مُبجّلة كآلهة هذه الأيام. وإشعال النار في البيت في العديد من الثقافات هو سلوك طقسي. لقد سمعنا عن "نار فيستا المقدّسة"، وبأنها حازت على أقصى درجات التبجيل في روما. فسحْر النار، كما كانت اللوحة الرمزية في الفيلم الذي تحدثت عنه، ربما يُعتبر، في تاريخنا البشري، أقدم إشارة إلى الانفتاح على السحر والرغبة بمغامرة عالية الخطورة، وهو ما كان دوماً علامة أساسية على تفرّد

98 يرجع الباحثون تدجين النار إلى مليون سنة قبل الآن بحسب اكتشاف تم في كهف ووندروورك Wonderwerk في جنوب أفريقيا عام 2102.

مَلَكات الإنسان إذا ما قورن بالحيوان، وقد تمثّلت بشكل بارز في المغامرة التي أشير إليها هنا.

ناقشت في فصول سابقة بعض أنساق السحر الأخرى، والتي أدّت إلى تفوّق بعض أعضاء جنسنا على أنفسهم: فالسحر الذي شعرت به القبائل الصيادة تجاه الحيوان أعاد تشكيلَ كلّ ما حولها، وألهمَ القبائلَ الزراعية معجزةَ غرس البذور، والكهنةَ السومريين القدماء في مراقبتهم للسماء وحركة النجوم والكواكب ودورانها. كان ذلك غامضاً للغاية، وغريباً بشكل مثير للعجب! وكان نيتشه هو من أطلق على الإنسان صفة "الحيوان المريض- das krank tier"؛ لأننا منفتحون وغير مقيّدين في تنميط حياتنا. فطبيعتنا ليست كطبيعة الأنواع الأخرى، وليست مقولبة بشكل ثابت. على الأسد أن يبقى أسداً طيلة حياته؛ وعلى الكلب أن يبقى كلباً. لكن يمكن للإنسان أن يصبح رائد فضاء، ساكن كهوف، فيلسوفاً، بحاراً، خياطاً، فلاحاً أو نحاتاً. يمكنه أن يعبث، ويحقق في حياته عدداً من المآلات بالغة الاختلاف؛ وما يريد أن يجسّده في طريق حياته لن يكون، في نهاية المطاف، مرهوناً بالمنطق ولا حتى بالفطرة الطبيعية، بل بما يفيض فيه من إثارة: "الرؤى التي تقذفه خارج حدوده"، بحسب الطريقة التي أسبغها عليه الشاعر روبنسون جيفرز. يقول الشاعر جيفرز: "البشرية هي القالب الذي عليك الانفصال عنه، القشرة التي عليك اختراقها، الفحم الذي يجب أن يوضع في النار، الذرّة التي يجب أن تنشطر". فمن هو الذي يحتال علينا ويدفعنا خارج حدودنا بهذه الطريقة؟

تعشق البرّية تلك الوثبة عن جدران الطبيعة،
والعلم الجامح الذي يقفز من فوق السياج،
ما لم ينبرِ ذكاء النجوم البعيدة،
إلى إضعاف معرفة الشياطين الدوّارة التي تصنع الذرّة[99].

99 Robinson Jeffers, "Roan Stallion" in op. cit., p. 20.

وكما يبدو، فإن جاذبية النار هي ما خدع الإنسان في البداية، وأغراه بالتقدم إلى نمط حياة غير معروف مُسبقاً، حيث تبيّن بوضوح أن مواقد العائلة كانت مراكز ومقامات مقدّسة لحلقات اهتمام الإنسان. ثم ما إنْ انفصل الإنسان عن الحيوانات، حتى طبعتْ أنماط حياة الحيوان والنبات هيئاتها في مخيلة هذا الإنسان، فجذبت جنسنا البشري إلى أنماط ميثولوجية كبيرة مرتبطة بالمراتب الاجتماعية الخارجية، وتجارب الفرد بما يتعلق بالهوية: يعيش الشامان كذئاب، وبعهود طقوسية مع الجاموس، ويرقصون مرتدين قناعاً وطوطماً للأسلاف وما إلى ذلك. أو قد يحكم المجتمع كله نفسه وفقاً لقوانين النباتات وطقوسها، ثم التضحية والتقطيع وغرس أفضلها وأكثرها حيوية من أجل الصالح العام. نقرأ في إنجيل يوحنا، استمراراً لهذه الصورة: *"اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ اَلْحِنْطَةِ فِي اَلأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هذَا اَلْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ"* (إنجيل يوحنا: 12: 24-25). أو مرة أخرى، تشبيه يسوع المسيح نفسه في العشاء الأخير بأنه الكرمة الحقيقية: *"اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ اَلْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي اَلْكَرْمَةِ، كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ. أَنَا اَلْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ اَلأَغْصَانُ. اَلَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ، لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا."* (إنجيل يوحنا: 15: 4-5).

كما هو موضّح هنا، يفترض التخيّل الأسطوري للنبات مشاركة عضوية للحياة الفردية في كتلة المجموعة الكبرى وحياتها، فيغري الفردَ بتجاوز حدوده. وإلى حد ما، بين القبائل الصيادة، وطقوسها التي تقوم على أساطير العهود مع عالم الحيوان، يُعترَف بالمعاملة بالمثل، مما يوسّع حدود اهتمام روح الإنسان لتشمل ما هو أكبر بكثير من مصالحه الخاصة المباشرة. وبكل الأحوال، كان السحرُ الأكثر إثارة حتى الآن، والذي ألهم

فكر الإنسان وحياته، هو ذاك الذي سلب لبَّ الكهنة السومريين الذين راقبوا سماء الليالي في بلاد ما بين النهرين حوالي عام (3500 ق. م): فكان تصوُّر النظام الكوني القابل للتحديد حسابياً، بحيث تتحدد هيكليّة المجتمع بناءً عليه. ففي ذلك الحين ظهرت المدينة- الدولة المنظّمة كهنوتياً إلى حيّز الوجود، والتي استندت إلى مصادر كل الحضارات التي عرفت القراءة والكتابة قاطبةً، وعلى مدى ألفيّات من الزمن بقيت النموذج لها. بمعنى آخر، ليس الاقتصاد بل الرياضيات السماوية هي التي أوحت بالأشكال الدينية والفنون والأدب والعمل والنظم الأخلاقية والاجتماعية، ورفعت الإنسان في تلك الفترة إلى مجال الحياة المتحضرة. لقد دفعتنا خارج حدودنا، إلى إنجازات تتجاوز بنسبة كبيرة أية أهداف يمكن أن تُستلهم من الاقتصاد وحده، أو حتى من السياسة وحدها.

واليوم، كما نعلم جميعاً، تعود الأفكار والأشكال من هذا النوع إلى ماضٍ أقل، والحضارات التي اعتمدت عليها هي في حالة فوضى وانحلال. ولم يعد الأمر أن المجتمعات فقدت تناغمها مع دورات الكواكب فحسب؛ وعلم الاجتماع والفيزياء والسياسات وعلم النجوم كلها لا تُعتبَر فروعاً من علم واحد. ولا يوصَف الفرد أيضاً (في الغرب الديمقراطي على الأقل) على أنه جزء ثانوي لا يتجزّأ من كيان الدولة. فما نعرفه اليوم، هذا إذا كنا نعرف شيئاً، أن كل فرد فريد من نوعه، وأن قوانين حياته لن تكون قوانين أي شخص آخر على سطح الأرض. ونعرف أيضاً أنه إذا كانت الألوهة حاضرة في مكان ما، فلن تكون "هناك"، بين الكواكب وما وراءها. لقد بيّن غاليليو أن القوانين الفيزيائية ذاتها، التي تحكم حركات الأجسام على الأرض، يمكن تطبيقها في الأعلى على الأجرام السماوية؛ لقد رأينا جميعاً الآن أن روّاد الفضاء ذهبوا إلى القمر من خلال هذه القوانين الأرضية. وسيصلون قريباً إلى المريخ وما بعده. ونعرف أيضاً، بالإضافة إلى ذلك، أن حسابات تلك المسافات الخارجية البعيدة ستُجرى هنا على الأرض، بواسطة العقول البشرية. ليس من قوانين 'هناك' لا

تصحّ 'هنا'؛ وليس هناك من آلهة هناك ليست صحيحة هنا، وليس هنا فقط، بل في داخلنا أيضاً، في عقولنا. وبالتالي ما الذي يحدث الآن لهذه الصور الطفولية الخاصة بصعود إيليا، وعيد انتقال العذراء، وارتقاء المسيح- مادياً- إلى السماء؟

ما الذي تفعلينه أيتها الأرض، في السماء؟

أخبريني، ما الذي تفعلينه، أيتها الأرض الصامتة؟

لقد جذب علماء الفضاء القمر إلى الأرض، ورفعوا الأرض إلى السماء. سوف تظهر أرضنا الأم أيضاً من صحارى المريخ، من المنطقة الأعلى والأبعد، وتبقى سماوية؛ ومع ذلك، ليست أقرب إلى أي إله أكثر مما هي قريبة الآن. ومن المشتري، ستبدو أعلى وأبعد؛ وهكذا دواليك: كوكبنا الصاعد إلى الأعلى أكثر من أي وقت مضى، كما يمضي أبناؤنا وأحفادنا، وأحفادهم وأحفاد أحفادهم، قُدماً في المسارات التي انفتحت، في هذه الأيام الأخيرة، عبر البحث والمغامرة في فضاء كان ماثلاً بطبيعة الحال في عقولنا.

بمعنى آخر، إن ما حدث الآن من تحوُّل transformation في الحقل الميثولوجي، الذي يتطابق بالمقدار مع ذلك الموجود لدى السومريين أثناء مراقبتهم للسماء في الألفية الرابعة قبل الميلاد، وما يتلاشى الآن، ليس مجرد عالم عن الآلهة والبشر، بل هو أيضاً عالم الدولة التي أبصرت النور في ذلك الزمن المستلهَم. لقد تأثرتُ، منذ سنوات، بأعمال رجل لا أزال أعتبره طالب علم الأساطير الأكثر ذكاء بين أبناء جيله: ليو فروبينيوس، الذي أظهر تاريخ الإنسان كله كعملية عظيمة عضوية يمكن مقارنة مراحل نموّها ونضجها وشيخوختها بمراحل حياة الإنسان. تماماً كما تبدأ حياة أي فرد بالطفولة، وتتقدم نحو المراهقة والبلوغ والشيخوخة، وكذلك هي حقبة حياة الجنس البشري. كانت طفولته طويلة وبعيدة

جداً، بدأت بالأسلاف الصيادين وصائدي الأسماك، ثم جامعي الجذور كغذاء، والمزارعين الذين يعيشون علاقة مباشرة مع جيرانهم الحيوانات والنباتات. بدأت المرحلة الثانية، والتي وصفها فروبينيوس بالمرحلة "عظيمة الأهمية"، مع ظهور أولى الحضارات القائمة على الزراعة والحياة المدنية والتعليم، وقد تأسست كلٌ منها بما ينسجم مع نظام كوني متخيّل، يمكن التعرف إليه من خلال طرق تحرّك أضواء الكواكب وأحوالها. كان يُفترض أن تكون الأضواء عبارة عن مواطن لأرواح حاكمة؛ بينما، كما ذكرنا للتو، ندرك الآن بأنها أجسام مادية مثلنا. إن قوانين الأرض، وقوانين عقولنا الخاصة التي اتسعت لتدمج ما كان يُعتبر فيما مضى حقول الآلهة وقواها، تلمس أنها الآن مجالاتنا وطاقاتنا. ومن هنا تبيّن أن كامل الدعم المتخيّل لنظام "المرحلة عظيمة الأهمية"، الذي استُمدَّ من "الخارج هناك"، كان متمركزاً في ذواتنا، أما ذلك العصر العالمي الجديد المتخيَّل، والذي ينبغي أن يكون عالمياً أو 'مادياً' (بحسب وصف فروبينيوس)، فيمكن مقارنته روحانياً بروح فترة الشيخوخة بحكمتها المتحررة من الوهم، والاهتمام بالجسد المادي، والتركيز على الإنجازات الحاضرة بدلاً من التركيز على أي مستقبل بعيد. كما إن مقامَ الروح الذي خبرناه سابقاً لم يعد الآن متمركزاً في النار أو في العوالم الحيوانية والنباتية، ولا في الأقاصي البعيدة بين الكواكب وما وراءها، بل في الإنسان الموجود هنا على الأرض؛ الأرض، وسكانها، التي رآها علماء الفضاء وصوّروها وهي تعلو القمر في السماء.

اقترح صديقي آلان واتس في إحدى المحاضرات صورة مسليّة تتضمن استبدال الإنسان القديم (لم يعد من اللائق الاحتفاظ به الآن) بإنسان غريب أرسلته السماء في هذا العالم، وعندما يذهب الموت بالجسد المادي لهذا الإنسان، يحلّق بالروح إلى مصدره ومكانه المناسب مع الله في السماء. يقترح الدكتور واتس على مستمعيه ما يلي: "تكمن حقيقة هذه المسألة في أنك *لم تأت إلى* هذا العالم أبداً. لقد خرجت منه، بالطريقة

ذاتها **التي تخرج فيها** الأوراق من الشجرة، أو الطفل من الرحم.... تماماً كما قال يسوع إن الناس لا يجنون من الشوك عنباً أو من العلّيق تيناً، وأنتم أيضاً لا تجنون البشر من عالم لا يلد بشراً. إن عالمنا يلد البشر كما تُعطي شجرة التفاح تفاحاً، وكما تعطي الكرمة عنباً". إننا منتج طبيعي لهذه الأرض، إن جاز التعبير؛ وكما أوضح الدكتور واتس في المحاضرة ذاتها، إذا كنا كائنات ذكيةً، فلا بدّ أننا ثمار أرض ذكية، وأعراض نظام طاقة ذكي؛ لأن "المُرء لا يجني من الشوك عنباً"[100].

إذاً، ربما نستطيع التفكير بأنفسنا على أننا عقول وآذان وأعين (شغّالةً كمحرك آلة) لهذه الأرض، بالطريقة ذاتها التي تعمل فيها الأذنان والعينان والعقل في أجسادنا. إن أجسادنا تشكّلُ كلاً واحداً مع الأرض، هذه "الواحة الرائعة في صحراء هذا الفضاء اللامتناهي"؛ ومن خلالنا تُزهر وتُثمر رياضيات mathematics هذا الفضاء اللامتناهي بالغ الشبه بعقل نيوتن. عقلنا، عقل هذه الأرض، عقل الكون، في هذه الواحة الرائعة.

لنتذكر مرة أخرى: عندما كان إنسان بكين Sinanthropus ساكن الكهوف، يستجيب لسحر النار في كهفه الكئيب، فإن ذلك كان استجابة لظهور قوة حاضرة مُسبقاً، وفعّالة في جسده: السخونة والحرارة والأكسدة؛ كانت هذه القوى موجودة أيضاً في الأراضي البركانية في المشتري والشمس. عندما كان راقصو القبائل الصيادة الطوطمية المقنّعون يعرّفون أنفسهم بالقوى المقدّسة التي يُدركونها في الحيوانات التي يقتلونها، فإن ذلك كان ظهوراً لوجههم الآخر الذي يستشعرونه ويبجّلونه، والذي نشترك به جميعاً مع الضواري: ذكاء غريزي يتوافق مع النظام الطبيعي للأرض الأم. وبالشكل ذاته، في العلاقة مع عالم النبات: ذلك أيضاً كان ظهوراً لوجهنا الآخر، بمعنى الحصول على

100 Alan Watts, "Western Mythology: Its Dissolution and Transformation," in Joseph Campbell, ed.,*Myths, Dreams, and Religion* (New York: E. P. Dutton and Co, 1970), p. 20.

الغذاء، والنمو. هناك أساطير كثيرة، وليست جميعها بدائية، تمثّل البشر وكأنهم 'ينبتون' كالنبات من الأرض- الأرض "تلد البشر"- أو من الأشجار. ولدينا صورة لـ "آدم الثاني"، المسيح المصلوب، كثمرة لشجرة الحياة. ولدينا أيضاً شجرة بوذا المرتبطة بالحكمة؛ وشجرة أغدراسيل[101] للجرمانيين الأوائل. جميعها أشجار كاشفة لحكمة الحياة الكامنة مُسبقاً في العمليات المماثلة في النباتات، التي اتخذت أجسادُنا شكلَها في أرحام أمهاتنا، لتولد كمخلوقات مُعدّة مسبقاً لتتنفّس هواء العالم، لتهضم وتمتصّ طعام العالم عبر عمليات كيميائية معقدة، لترى مناظر العالم وتفكّر بأفكار العالم بما يتناسب مع المبادئ الرياضية mathematical principles التي ستبقى فعالة دوماً في أقصى أبعاد المكان والزمان.

لاحظت في الشرق أن البوذيين عندما يبنون معابدهم، يختارون غالباً موقعاً في قمة هضبة تشرف على الأفق. هناك يعيش المرءُ اتساع رؤيته وقصور ذاته، مع شعور باتساع روحي إلى أقصى أبعاد الروح. كما لاحظت أيضاً، أثناء الطيران فوق المحيطات بشكل خاص، أن العالم ذا الطبيعة المادية المحضة، ذا الهواء والغيوم وعجائب الضوء التي يراها هناك، يُصبح متجانساً من الناحية الروحانية بشكل كلّي. أما هنا على الأرض، فيكون تناغمنا مع عالم الطبيعة النباتية المحبية؛ وفي البعيد، مع الحيّز المكاني السامي. لقد درَجَ البشر على مخاطبة أنفسهم: "كم الإنسانُ ضئيل مقارنةً بالكون!" يبدو التحوّل من مفهوم مركزية الأرض إلى مركزية الشمس وكأنه نقل للإنسان من المركز. يبدو المركز مهماً جداً من الناحية الروحانية؛ يكون المركز حيث تكون الرؤية. قف في الأعلى وانظر باتجاه الأفق، قف على القمر وانظر إلى الأرض وهي ترتفع حتى من خلال التلفاز الموجود في غرفة معيشتك. ومع كل اتساع للأفق، من مغارة سكان الكهوف إلى المعبد البوذي على قمة الهضبة، والآن إلى

101 شجرة الدردار: شجرة ضخمة لها ثلاثة جذور، يمتد أولها إلى العالم السفلي، والثاني إلى أرض العمالقة، والثالث إلى أرض الآلهة. (م).

القمر، كان، وسيبقى حتماً، ليس مجرد اتساع في الوعي يتوافق مع عمق البصيرة في طبيعة "الطبيعة" (والتي لها طبيعة واحدة مع ذواتنا)، بل إغناءً وصقلاً وتطويراً شاملاً لأحوال الحياة الجسدية للإنسان.

بناءً عليه، تقوم فرضيتي الراهنة بكليّتها على أننا نتشارك، في هذه اللحظة، إحدى أعظم قفزات الروحانية البشرية باتجاه الإلمام ليس بالطبيعة الخارجية فحسب، بل بما اعتُبِرَ دوماً، أو سيُعتبَر دوماً، أو يمكن اعتباره دوماً، لغزنا الداخلي العميق. وفي هذه الأثناء، ما الذي نسمعه من علماء الاجتماع العباقرة المحتشدين في جامعاتنا هذه الأيام؟ رأيت الإجابة تُعرض منذ أيام على لوحة إعلانات ضخمة في متجر لبيع الكتب في يال: صورة لأحد رواد الفضاء في صحراء القمر، وتحتها عبارة تقول: "حسناً، وماذا في ذلك؟ So what!".

لكن بالعودة إلى الجانب الميثولوجي اللاهوتي لهذه اللحظة: كان هناك رئيس دير إيطالي متنبئ من العصور الوسطى اسمه يواكيم الفلوري Joachim of Floris، وقد توقّع، في مطلع القرن الثالث عشر، تفكك الكنيسة المسيحية، وبزوغ فجر حياتها الروحية الأرضية، عندما ستتحدث "الروح القدس"، الروح المقدّسة، مع الإنسان بشكل مباشر دون وساطة الكنيسة. كانت وجهة نظره، المشابهة لوجهة نظر فروبينيوس، تقوم على سلسلة مراحل تاريخية تُعتبر مرحلتنا آخر مراحلها الأربع. المرحلة الأولى طبعاً كانت المرحلة التي تبعت نزول الإنسان من الجنّة، قبل بداية القصة الأساسية التي كشف بعدها عن دراما الخلاص العظيمة، وتندرج كل مرحلة تحت إيحاء أحد أقانيم الثالوث المقدّس. المرحلة الأولى كانت في أقنوم 'الأب'، شريعة موسى وشعب بني إسرائيل؛ والثانية كانت في 'الابن'، العهد الجديد والكنيسة؛ وأخيراً (وهنا طبعاً، انفصلت تعاليم رجل الدين هذا عن تعاليم الآخرين من طائفته)، المرحلة الثالثة التي يُعتقَد أنها توشك على البدء، مرحلة 'الروح القدس'، ستكون للقديسين من ممارسيّ التأمّل، عندما تتفكك الكنيسة بمرور الوقت بعد أن تصبح

عديمة الفائدة. وقد ساد اعتقاد، لعدد ليس بقليل من أيام يواكيم، أن القس فرنسيس الأسيزي ربما يمثل بداية عصر الروحانية المباشرة القادم. لكن بحسب نظرتي الحالية، ومراقبتي لما يحدث في كنائسنا هذه الأيام من حماس ديني وتعصّب ربما لم تعرفه حضارتنا منذ القرون الوسطى، أميل إلى التفكير بأن السنوات التي تنبأ بها الأب الطيب يواكيم فلوريس يجب أن تكون هذه الأيام.

لم تعد هناك أية سلطة دينية مرسومة يتعيّن علينا الاعتراف بها. ليس هناك أي رسول ممسوح يحمل إلينا شرائع الله. فجميع القوانين المدنية، في عالمنا اليوم، عرْفية، معتمَدة. وليس هناك من سلطة إلهية تزعم أنها تختص بها: لا سيناء، ولا جبل الزيتون. إن سَنّ قوانيننا وتغييرها يتم بقرارات بشرية، وضمن سلطتنا القضائية العلمانية، كما يمتلك كلٌ منا حرية اتباع مصيره الخاص، وحقيقته الخاصة، بأن يسعى إلى هذا أو ذاك، ويجده بطريقته الخاصة. لقد تفككت جميع الأساطير والأديان والفلسفات، وأنماط التفكير التي ظهرت في الحياة منذ ستة آلاف سنة، والتي استمدّت جميعُ الثقافات العظيمة، وأعني الثقافات الغربية والشرقية، من أوروبا إلى الشرق الأدنى والأوسط والأقصى، وصولاً إلى أمريكا القديمة، حقائقَها منها، وبقينا نحن، ليتبع كلٌ منا نجم حياته الخاصة وروحها بطريقته. لا أستطيع التفكير بأبطال رمزيين مناسبين لهذه الأيام أكثر من شخصيات رجال القمر الرائعين. ولا أستطيع التفكير أيضاً بنص مناسب أختتم به هذا الفصل الاحتفالي لما قاموا به، أكثر من الأسطر التالية من كتاب روبنسون جيفرز بعنوان "الحصان الأغبر Roan Stallion":

الذرات محطّمة الحدود،

النوى إلى شمس، والإلكترونات إلى الكواكب، مع التسليم

أن لا صلاة، ولا عدلَ بالنفس، الكل للكل،

العالم الأصغر

لا دخول ولا قبول لدخول، نتّحد، أكثرَ مساواة،

أكثرَ إطلاقاً، أكثر لا معقوليةً

مع الأقصى والجلال؛ مغرماً

بوعي الهوية.... [102]

يُنظَر إلى النظام الشمسي والذرة، النقيضان الأقصيان في الاكتشافات العلمية، على أنهما متماثلان، رغم تباينهما! يجب أن يكون التجانسُ هويتّنا الخاصة مع "المطلَق" الذي نشكل بالنسبة إليه الأذنين والعينين والعقل.

قدم الفيزيائي العظيم إيروين شرودينغر فكرة ميتافيزيقية مشابهة في كتابه الصغير المُذهل والرائع "وجهة نظري عن العالم"[103]. يقول في ذلك الكتاب: "إننا ككائنات حية، ننتمي معاً، بقدر ما نحن في الواقع جوانب أو أوجه لكائن واحد، إلى كائن يُسمى في اللاهوت الغربي "الله"، بينما يُسمى براهمان في الأبانيشاد".

دون شك، ليس العلم هو ما جعل الإنسان ضئيلاً وفصله عن الإله. بل على العكس، بحسب وجهة نظر العلماء الذين أعادوا ضمّنا إلى الأسلاف بشكل لافت، علينا أن نجد في هذا الكون كله انعكاساً مضخّماً عن طبيعتنا الداخلية الأعمق غوراً؛ إننا بالتأكيد أذناه وعيناه وأفكاره، أو بالمصطلحات اللاهوتية، أذن الله وعينه وتفكيره وكلمته؛ ونشارك بالطريقة ذاتها، هنا والآن، في عملية الخلق المستمرّ لفضاء عقلنا اللامتناهي، هذا الفضاء الذي تطير عبره الكواكب، ويطير بينها رفاقنا الذين انطلقوا من الأرض.

102 Ibid., p. 24.

103 (Cambridge: Cambridge University Press, 1964), p. 95.

12
رسول: لم تعد هناك آفاق
(1971)

ما هي الأسطورة الجديدة، أو كيف يجب أن تكون؟ وبما أن الأسطورة نظام شعري، فلنسأل شاعراً أولاً، الشاعر والت ويتمان مثلاً، في قصيدة "أوراق العشب - Leaves of Grass" (1958):

قلتُ إن الروح ليست سوى جسد،

وقلتُ إن الجسد ليس سوى روح،

ولا شيء، ولا الله، أعظم للمرء أكثر من نفسه،

ومن يمشِ فرسخاً دون رحمة، يمشِ

إلى مأتمه، مرتدياً كفنه،

وأنا أو أنت المفلّسين حتى من عشرة سنتات، قد نشتري

معول الأرض،

وإذ ترمش بعين أو ترى إلى حبة فاصولياء في قشرتها

تفنّد علوم الأزمنة كلها،

ليس هناك من حرفة أو وظيفة

إلا ويصبح الفتى الذي يديرها بطلاً

وليس هناك من غرضٍ بالغِ اللّيْنِ إلا ويصير محوراً

للكون المُدولب،

وليكونَّ كلُ رجل أو امرأة يكون صلفاً ورابطَ الجأش

أمام مليونٍ من الأكوان.

وأدعو الإنسان، ألا يعتريه الفضول بشأن الله،

لأنني، أنا الفضولي بشأن الكلّ لستُ فضولياً

بشأن الله،

لا نسق من كلام يشي بِكَمّ الطمأنينة الذي أعيش

حيالَ الله والموت.

أسمع وأرقبُ الله في كل شيء، رغم أني

لا أُدرك الله قطعاً،

ولستُ أُدرك مَنْ له أن يكون

أكثر بهاءً مني.

لماذا عليّ أن أرى اللهَ أفضلَ من هذا النهار؟

أرى شيئاً من الله في كل ساعة من اليوم،

وفي كل لحظة،

في وجوه الرجال والنساء أرى الله،

وفي وجهي حين يعكسه الزجاج؛

أعثر على رسائل من الله مرمية في الطريق،

وكلٌ منها ممهورة باسم الله،

أتركها في مكانها، لأنني أوقن

أن ثمة رسائل أخرى سوف تَرِدُ

دائماً وإلى الأبد.[104]

تشكّل هذه الأبيات للشاعر ويتمان صدى رائعاً لمشاعر الأبانيشاد الأقدم، "كتاب الغابة العظيمة ـ Great Forest Book" (بريهادارانياكا ـ Brihadaranyaka) حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

حيث يقول الناس: "اعبد هذا الإله! اعبد ذلك الإله!" – إله بعد آخر! كل ذلك من خلقه بالتأكيد! وهو ذاته الآلهة كلها... يولج في الكون حتى إلى أطراف أظافرنا، كشفرة في غلاف شفرة، أو كنارٍ في الحطب المشتعل. أولئك الناس لا يرونه، لأنه غير مكتمل كما يُرى. عند التنفس، يصبح "النَفَس"؛ وعند الكلام، يصبح "الصوت"؛ وعند الرؤية، يُصبح "العين"؛ وعند السمع، يُصبح "الأذن"؛ وعند التفكير، يصبح "العقل": هذه ليست سوى أسماء أفعاله. وأي شخص يعبد هذا الاسم أو ذاك– ليس يعرف أياً منها؛ لأنه لا يكتمل بهذا الاسم أو ذاك.

على المرء أن يعبد فكرة أنه ذاته الخاصة، لأنه في ذلك كله

104 Walt Whitman, *Leaves of Grass*, Version of the First (1855) Edition, section 48, lines 1262-1280, edited with an Introduction by Malcolm Cowley (New York: The Vikin Press, 1961), pp. 82-83.

يُصبح واحداً. هذه الذات هي آثار أقدام ذلك الكل؛ لأن المرء من خلالها يعرف ما هو الكل، تماماً كما يعرف المرء القطيع الذي فقده باقتفاء آثار أقدامه... على المرء أن يبجّل الذات وحدها كشخص عزيز. ومن يبجّل الذات كشخص عزيز، وما يحمله كعزيز، لن يهلك بالتأكيد....

وهكذا من يبجّل إلهاً آخر غير ذاته، ويقول لنفسه: 'إنه شيء، وأنا شيء آخر'، لا يعرف أي شيء. إنه أشبه بالحيوان المضحّى به على مذبح الآلهة. وبالتأكيد، من دون شك، بعدد الحيوانات التي تكون في خدمة الإنسان، يكون البشر في خدمة الآلهة. وحتى إذا استُبعد حيوان واحد فقط، لن يكون هذا شيئاً مفرحاً. فكيف سيبدو الأمر إذا تم استبعاد عدد كبير؟ وبالتالي لن يُسعد الآلهة أن يعرف الناس هذا.[105]

سمعنا الأمر ذاته بطريقة أكثر روعة، ومن مصدر أكثر قدماً، إنه من "كتاب الموتى المصري"، في فصل بعنوان "الخروج من العالم السفلي نهاراً":

أنا الأمس واليوم والغد، ولدي القدرة على أن أولد مرة أخرى. أنا الروح السماوية المختبئة التي خلقت الآلهة، ولا تزال تقدم وجبات القبور إلى المقيمين في العمق، مكان الأموات، والجنة.... 'هايل رب الضريح المقدّس الذي ينهض في مركز الأرض. إنه أنا، وأنا هو!

هل سمعنا الشيء ذاته، بالتأكيد من المسيح نفسه كما هو موجود في الإنجيل الغنوصي القديم، بحسب "توما"؟

105 Brihadaranyaka Upanishad 1. 4. 6-10.

من يستقي من فمي سوف يصبح وكأنه أنا، وأنا نفسي سأصبح هو، وستُكشف الأشياء المخبأة له... أنا الكل، الكل مني خرج، والكل إليّ يصل. اشطرْ حطبة، أكن هناك؛ ارفع حجراً تجدني هناك[106].

أو نعود مرة أخرى إلى سطرين آخرين للشاعر ويتمان:

أنا أسلّم نفسي إلى التراب لأنمو من العشب الذي أحبه

إذا كنت تريدني ثانية، ابحث عني تحت حذائك[107].

منذ خمس عشرة سنة، حدث أن كنت في بومباي، والتقيت مع اليسوعي الألماني المثير للاهتمام فوق العادة، الأب الموقّر هـ. هيراس الذي قدّم لي محاضرة مطبوعة كان قد نشرها حول موضوع سرّ "الأب والابن، كما انعكس في الأسطورة الهندية"[108]. كان تفكيره منفتحاً جداً فضلاً عن معرفته المذهلة بالأديان الشرقية، وكان ما أراده تحديداً من هذه المحاضرة التثقيفية هو تفسير الإله الهندي القديم "شيفا" وابنه الشهير جداً "غانيشا" على أنهما مكافئان تماماً، بطريقة ما، للأب والابن في الإيمان المسيحي. فإذا كان الشخص الثاني في الثالوث المقدّس، يُعتبر في جانبه الأبدي إلهاً سابقاً في التاريخ، ويساند ويعكس (ببعض المعايير) "صورة الله" فينا جميعاً، فليس من الصعب إذاً، حتى بالنسبة إلى لمسيحي المتشدد جداً، أن يُدرك انعكاس نظريته. لاهوته الشخصي

106 The Gospel According to Thomas 99:28-30 and 95:24-28; translation by Guillaumont, Puech, Quispel, Till, and abd al Masih (New York: Harper & Row, 1959), pp. 55 and 43

107 Whitman, op. cit. Section 52, lines, 1329-1330; p. 86

108 H. Heras, S.J, "The Problem of Ganapati," *Tamil Culture*, Vol. III, No. 2 (Tuticorn, April 1954).

في قديسي العوالم الغريبة عنه وآلهتها. إنها حقيقة بسيطة، أظن أن علينا جميعاً أن نعترف بها، وهي أن الأساطير وآلهتها من منتجات النفس وإسقاطاتها. ما هي الآلهة الموجودة هناك، وما هي الآلهة التي كانت هناك دوماً، ولم تكن من مخيّلة الإنسان؟ نحن نعرف تاريخها: نعرف مراحل تطوّرها. لم يُدرك الأمر فرويد ويونغ فحسب، بل أدركه جميع طلاب علوم النفس والأديان المقارنة اليوم، وعرفوا تماماً أن أشكال الأسطورة وشخصياتها هي من طبيعة الحلم بشكل أساسي. والأهم من ذلك، وكما اعتاد صديقي القديم الدكتور غ. روهيم أن يقول: مثلما لا توجد طريقتان للنوم، كذلك لا توجد طريقتان للحلم. كما يمكننا بشكل جوهري أن نعثر على الدوافع الأسطورية ذاتها عبر العالم كله. فهناك أساطير عن ولادة العذراء، وعن التجسّد والموت والبعث؛ وكذلك المجيء الثاني والديونة وغيرها في سائر التقاليد العظيمة. وبما أن صوراً كهذه تأتي من النفس، فهي تشير إلى النفس. إنها تنبؤنا عن بنيتها ونظامها وقواها بطرق رمزية.

لذلك لا يمكن تأويلها كما ينبغي بما هي إحالات، أصولياً، وكونياً، وجذرياً، والأهم، من ناحية المعنى، إلى أحداث وشخصيات تاريخية محلية. فهذه الإحالات، إذا كان لها أي معنى أساساً، فيجب أن يكون ثانوياً؛ كما في التفكير البوذي مثلاً حيث يُعتبر الأمير التاريخي غوتاما شاكياموني مجرد واحد من حالات التجسيد التاريخي لوعي بوذا؛ أو في التفكير الهندوسي حيث لا حصر لعدد المرات التي تجسّد فيها فيشنو. وفي هذا الحقل، تبرز الصعوبات التي يواجهها المفكّرون المسيحيون اليوم في عقيدتهم القائمة على أن الناصري هو تجسيد تاريخي فريد من نوعه لله؛ وفي اليهودية أيضاً، هناك عقيدة لا تقلّ إرباكاً عن سابقتها، تقول إن عيني الإله الكوني، في هذا الكون كله، لا تنظران إلا شعبَ الله المختار. إن ثمار هذا النوع من التمركز التاريخي حول الذات في يومنا هذا عبارة عن أجر روحاني بسيط؛ ويجب أن تكون اهتمامات رجال ديننا بجذب

الذوّاقين إلى ولائمهم دليلاً كافياً لكي يدركوا حتمية وجود شيء ما لم يعد صالحاً للأكل في الأطباق التي يقدّمونها. كانت تلك الأمور على ما يرام بالنسبة إلى آبائنا ضمن عوالم المعرفة الضيّقة في أيامهم، حيث كانت كل حضارة صغيرة تركز اهتمامها بنسبة ما على نفسها. مع ذلك، تأملوا في صورة كوكب الأرض التي تم التُقطت من على سطح القمر!

في الأزمنة القديمة، عندما كانت الوحدة الاجتماعية الملائمة هي القبيلة أو الطائفة أو الدولة أو حتى الحضارة، كان يمكن للأسطورة المحلية القائمة على خدمة تلك الوحدة أن تجسّد كل مَن هم وراء حدودها بوصفهم أقل شأناً، وتجسّد مطواعية الإرث الإنساني الكوني المحلية للتصور الأسطوري أيضاً إما بوصفه الواحد الحقيقي المقدّس، أو الأنبل والأسمى على أقلّ تقدير. وفي تلك الأيام، كان من المفيد لنظام المجموعة أن يتعلم شبابها الاستجابة إيجابياً مع منظومة الإشارات القبلية الخاصة بهم، والاستجابة سلبياً مع إشارات الآخرين، وضمان حبّهم للوطن وإظهار كراهيتهم للخارج. لكن بالنسبة إلينا؛ نحن المسافرين اليوم في سفينة الفضاء الأرضية الوحيدة هذه (كما أسماها بوكمينستر فولر ذات يوم)، نندفع بشكل مذهل عبر فضاء الليل الشاسع، ونمضي إلى أي مكان، فهل سنسمح لخاطف طائرة أن يكون على متنها؟

منذ قرن تقريباً، أطلق نيتشه على زمننا هذا اسم "عصر المقارنات". في السابق، كان هناك آفاق عاش الناس وفكّروا ووضعوا أساطيرهم فيها. لكن لم يعد هناك من آفاق الآن. ومع تلاشي تلك الآفاق، اخترنا ونختبر في هذه الأونة، التصادم الهائل، ليس ما بين البشر فحسب، بل ما بين أساطيرهم. نبدو كمن يسحب السطوح الفاصلة بين غرف حارة جداً وغرف باردة جداً؛ هناك تدافع بين هذه القوى إحداها مع الأخرى. وبالتالي نحن الآن في عصر محفوف بالمخاطر الجدية، وكل مكان يحفل بالبرق والرعد والأعاصير. أعتقد أنه من غير المناسب أن نُصاب بالهلع جراء ذلك، وأن نُبدي الكراهية والملامة. فمن الطبيعي جداً أنه عندما

تتصادم قوى لم يسبق لها أن تلاقت. لكل منها مفاخرها الخاصة. ستحدث البلبلة والاضطراب. هذا بالضبط ما نختبره الآن؛ ونسافر على متنه أيضاً: نسافر إلى عصر جديد وولادة جديدة وأحوال جديدة كلياً للجنس البشري. إلى حيث لا يمكن لأي كائن على قيد الحياة، في أي مكان من العالم اليوم، أن يُعلن بأنه يمتلك المفتاح، أو الإجابة، أو النبوءة عن بزوغ فجره. وليس لدينا من دُينه هنا، (لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا!") فما يحدث الآن طبيعي تماماً، كما آلامه واضطرابه وعثراته.

ومن بين القوى التي تتبادل القذائف فيما بينها الآن، لتصطدم وتنفجر، ثمة التقاليد الأسطورية القديمة، التي يمكن القول بمنتهى الطمأنينة إنها ليست الأقلّ أهمية، وبشكل أساسي أساطير الهند والشرق الأقصى التي تدخل الآن بقوة تراثنا الأوروبي، وبالعكس أيضاً، هناك المثل العليا للعقلانية والإنسانية التقدمية والديمقراطية التي تفيض بها آسيا الآن. وبإضافة المعارف العامة للعلم الحديث إلى المعتقدات القديمة المتداخلة في كل الأنظمة التقليدية، أعتقد أن علينا الاتفاق على وجود مشكلة تصفية وغربلة يجب حلّها إذا أردنا الحفاظ على شيء من معرفة الحكمة التي صانت جنسنا البشري حتى هذا الوقت، وتسليمها بتعقّل إلى الأجيال القادمة.

لقد فكّرت في هذه المشكلة طويلاً واستنتجت أن الأشكال الرمزية التي تجسدت بها معرفة الحكمة في أي مكان، قد فُسّرت ليس كإشارة إلى أية شخصيات أو أحداث تاريخية مفترضة أو حتى واقعية في المقام الأول، بل سيكولوجياً أو على الأصح "روحياً"، كإشارة إلى الإمكانيات الداخلية لجنسنا، ليظهر حينها من خلال كل ذلك ما تصحّ تسميته بـ "الفلسفة المعمرة-a phi losophia perennis"[109] للبشر، التي تبقى خبيئة حين ترجمة النصوص

109 الفلسفة المعمّرة أو الحكمة الدائمة، وهي مفهوم في الروحانية الحديثة التي تنظر إلى كل التقاليد الدينية في العالم على أنها تشترك في حقيقة أو أصل ميتافيزيقي واحد انبثقت منه المعرفة والمعتقدات الباطنية كلها. (م).

حرفياً، على أنها تاريخ، بوسائل الفكر الأرثوذكسي المتصلب الاعتيادية.

في كتابه الفلسفي الوليمة- Convito، يميّز دانتي بين المعاني الحرفية، والمجازية، والأخلاقية، والروحانية (أو الباطنية) في كل مقطع من الكتاب المقدّس. دعونا نأخذ مقولة كالتالية على سبيل المثال: **يسوع المسيح قام من بين الأموات**. المعنى الحرفي واضح: "الشخصية التاريخية، يسوع بالاسم الذي عُرف به 'المسيح' (المخلّص/ الممسوح)، قام حياً من بين الأموات". أما المعنى المجازي فهو قراءة المسيحي العادي كما يلي: "وهكذا بالطريقة ذاتها، نحن أيضاً سننهض من الموت إلى الحياة الأبدية". وبالتالي يكون الدرس الأخلاقي: "دع عقولنا تتحوّل عن التفكير بالأشياء الفانية لتستقرّ على الأشياء الأبدية". وبما أن القراءة الصوفية أو الروحانية لا يُفترض أن تشير إلى الماضي ولا إلى المستقبل، بل أن تتجاوز الزمن والأبدية، لا في هذا المكان ولا في ذاك، بل في كل مكان، في كل شيء، الآن وإلى الأبد، فإن المستوى الرابع من المعنى سيبدو وكأنه في الموت. أو في عالم الموت هذا- تكمن الحياة الأبدية. عندئذ، ومن هذا المنظور المتسامي، يبدو أن المعنى الأخلاقي هو أن العقل يجب أن يُدرك الأبدية من خلال نظرته إلى الأشياء العقلانية؛ والمجاز هنا: "إن هذا الجسد تحديداً، والذي أسماه القديس 'بولس' "جسد هذا الموت" (رسالة بولس الرسول إلى أهالي رومية 7: 24) هو حياتنا الأبدية. لا يذهب إلى أي مكان سماوي، بل إنه هنا والآن، على هذه الأرض من حيث المكان والزمان.

هذا أيضاً هو فحوى قول الشاعر ويليام بليك: "إذا كانت أبواب الإدراك نقيّة، سيظهر كل شيء للإنسان كما هو، لا متناه". وأعتقد أنني أفهم المعنى ذاته من قصيدة ويتمان التي اقتبستُ منها سابقاً، وكذلك من الأبانيشاد الهندي، وكتاب الموتى المصري، وإنجيل توما الغنوصي. وفي ذلك يقول الراهب الكاثوليكي الروماني الراحل، الأب توماس ميرتون، في

مقالة قصيرة لكنها ذكية بعنوان "الترميز: تواصل أم قربان مقدس؟"[110]: "للوهلة الأولى، تبدو رموز الأديان الكبرى وكأنها تحتوي شيئاً مشتركاً، لكن عندما يصل المرء إلى فهم أفضل لهذه الأديان، وعندما يلمس أن الممارسة، وهي التعبير عن تطبيق المعتقدات الدينية وأدائها تعبيراً يعتمد الرموز بكل جلاء، فغالباً ما سيدرك أن رموز الديانات المختلفة قد تنطوي على قواسم مشتركة أكثر مما هو موجود في المذاهب الرسمية التي صِيغتْ بطريقة تجريدية".

يقول أيضاً: "لا يشير الرمز الصحيح إلى شيء آخر وحسب، إنه يتضمن في ذاته بنية توقظ، وعيناً تتوجّه نحو إدراك جديد للمعاني الداخلية للحياة، وللحقيقة بحد ذاتها. يأخذنا الرمز الصحيح إلى مركز الدائرة، وليس إلى أية نقطة أخرى من السطح. ويدخل الإنسان، عبر الترميز، بشكل مؤثر وواعٍ إلى حالة تواصل مع ذاته العميقة، ومع بشر آخرين، ومع الله". "الله مَيّت... يعني في الواقع، أن الرموز ميتة"[111].

ينظر الشاعر والصوفي إلى أن مجازات الوحي هي تخييل يعبّره الاستبصار إلى أعماق الكينونة. كينونة الشخص ذاته والكينونة عموماً. بشكل روحاني. ومن جهة أخرى، يحافظ اللاهوتيون المتعصبون على القراءات الحرفيّة لسردياتهم، مما يُبقي التقاليد منفصلة. لن تبقى حيوات التجسّدات الثلاثة: المسيح وكريشنا وشاكياموني على حالها، وحتى كرموز لن تبقى على إشارتها إلى ذاتها، كما لن تشير إحداها إلى الأخرى، وأما بالنسبة إلى الحياة التي تعاين هذه التجسدات، فإنها تبقى متكافئة. وبالاقتباس عن الراهب توماس ميرتون مرة أخرى: "لا يمكن للمرء أن يفهم الرمز ما لم يكن قادراً على أن يعي، في كينونته الخاصة، الأصداء الروحانية التي تستجيب للرمز، ليس كإشارة فحسب بل كسرّ

110 Thomas Merton, "Symbolism: Communication or Communion?" in *New Directions 20* (New York: New Directions, 1968), pp. 11-12.
111 Ibid, pp, 1 and 2.

مقدس وحضور. فالرمز عنصرٌ موضوع يشير إلى ذات. إننا مدعوون إلى صحوة روحانية، تتجاوز بكثير مستويات الذات والموضوع"[112].

بمعنى آخر، إن الأساطير والأديان هي قصائد عظيمة، وعندما نعيها بهذه الطريقة، فإنها تشير من خلال أشياء وأحداث، وبطريقة لا تقبل الشك، إلى التواجد المطلق لـ 'الحضور' أو "الأبدية"، التي تكون مكتملةً وكليّةً في كلٍّ منها (من الأساطير والأديان). وبموجب هذا الاقتران، فإن جميع الأساطير والقصائد العظيمة، وجميع التقاليد الباطنية في حالة تناغم؛ وحيث إن أية رؤية ملهمة من هذا النوع تبقى مؤثرة في الحضارة، فإن كل شيء وكل كائن في مداها باقٍ على قيد الحياة. وبالتالي فإن الشرط الأول الذي ينبغي على كل أسطورة أن تحققه، إذا أرادت أن تضفي حياة على الحيوات الحديثة، هو تنقية أبواب مداركنا للأعجوبة الرهيبة منها والرائعة التي هي أنفسنا، وللكون الذي نشكّل نحن أذنيه وعينيه وعقله. وبينما يقرأ اللاهوتيون وحيهم بعكس عقارب الساعة، إن جاز التعبير، ويشيرون إلى الماضي (بكلمات ميرتون: "إلى نقطة أخرى على سطح المحيط")، ويقدّم الطوباويون وحياً لا يتعدى الوعود بمستقبل مرغوب، فإن الأساطير، وقد انبثقت من عمق النفس، ترد الإشارة إلى النفس ("المركز"): وأي امرئ يدور في فلكه بشكل جدّيّ، سيعيد اكتشاف إشاراتها في ذاته.

منذ بضعة أسابيع، وصلني في البريد رسالة من الدكتور ستانسلاف غروف، من القسم التوجيهي للأطباء النفسانيين التابع لمركز ميريلاند لأبحاث الطب النفسي في بالتيمور، تتضمّن مخطوط عمل مذهل يفسّر فيه نتائج ممارسته للعلاج النفسي خلال السنوات الأربع عشرة الماضية (أولاً في تشيكوسلوفاكيا، والآن في الوطن)؛ وهذا يعني علاج الاضطرابات العصبية، العُصابية منها والذُهانية، باستخدام جرعات محدودة من مادة

112 Ibid, pp. 1 and 11

(LSD) المخدّرة. وجدت في البحث الكثير من أفكاري المرتبطة بالأشكال الأسطورية التي أضاءتها النتائج الحديثة الواردة هنا، وسأحاول أن أقدّم في هذه الصفحات الأخيرة اقتراحاً حول نماذج وأعماق الوعي التي سبر الدكتور غروف أغوارها في بحثه ضمن بحرنا الداخلي. كان عنوان الكتاب عندما رأى النور: *العذاب والنشوة في العلاج النفسي* (بالو ألتو: كتب العلم والسلوك، 1972).

باختصار شديد؛ كان أول ما قام الدكتور غروف في توثيقه التجربةَ أنه أطلق عليها اسم "تجربة LSD الجمالية". وهذا يتوافق بشكل أساسي مع ما وصفه ألدوس هكسلي في كتاب "بوابات الإدراك" الذي كتبه عام (1954)، بعد أن ابتلع أربعة أعشار الغرام من مادة الميسكالين، واختبر تأثيرها. لقد اختبر نوعاً من الحيوية والتغيير والتكثيف المذهل لكل تجارب الأحاسيس التي، كما صاغها هكسلي، "تجعلك ترى، حتى مقعدَ حديقة في الشمس، كأنه شيء مُذهل للغاية؛ مُذهل إلى حدّ أنه يكون مرعباً تقريباً"[113]. والأمر الثاني هي آثارٌ أكثر عمقاً قد تُسفر عن شعور بتحوّل فيزيائي، كالخفّة والتحليق والاستبصار، أو حتى القدرة على اقتراض أشكال حيوانية وأشياء تشبهها كما يدّعي الشامان البدائيون. وفي الهند، يدّعي ممارسو اليوغا وجود قوى مشابهة لهذه (تُسمّى سيدهي -sid dhi)، ولا يُفترض أنها أصابتهم من الخارج بل ظهرت من الداخل، وهي موجودة بشكل كامن فينا جميعاً. لدى ألدوس هكسلي فكرة مشابهة صيغت بمفردات غربية، وأظن أن لدي ما أقوله عنها بعد قليل.

وصف الدكتور غروف ردّ الفعل الثاني بأنه "تجربة LSD الديناميةالنفسية"، نسبة إلى تمدد الوعي في ما اصطلح يونغ على تسميته بـ *اللاوعي الشخصي*، وتنشيط تلك المحتويات المثقّلة بالأحمال العاطفية، والتي يتم تناولها عادةً في التحليل النفسي الفرويدي. إن التوترات

113 Aldos Huxley, *The Doors of Perception* (New York: Harper & Row, 1954), p.54

الشديدة، والمقاومة المرعبة للتمحيص الواعي الذي يواجَه على هذا المستوى، ناجمة عن إجهادات لا واعية متنوعة سببها دفاعات 'الأنا' الطفولية الأخلاقية المتعالية والاجتماعية غير المنسجمة مع مرحلة البلوغ؛ والثيمات الأسطورية التي ارتبطت مسلكياً، في مؤلفات التحليل النفسي، بصراع هذه الأطوار- عقدة أوديب، عقدة إلكترا، وما إلى ذلك (بحسب إشاراتها) ليست أسطورية فعلاً. إنها، في سياق هذه الروابط الطفولية البيوغرافية، لا تحمل أية ارتباطات أمثولية anagogical أو *ما وراء شخصية* من أي نوع كانت، بل هي مجرّد صلات مجازية لرغبات طفولية أحبطها المحظور والنهي الأبوي الواقعي أو المتخيّل. بالإضافة إلى ذلك، حتى عندما تظهر الشخصيات الأسطورية التقليدية في أوهام هذه المرحلة الفرويدية، فستكون مجرّد مجاز يعبّر عن صراعات نفسية؛ وكما لاحظ الدكتور غروف: "إن الصراع بين المشاعر أو النشاطات الجنسية والمحظورات الدينية، فضلاً عن التخيلات البدائية حول الشياطين والجحيم أو الملائكة والجنة، غالباً ما ترتبط بقصص الكبار أو تهديداتهم ووعودهم". لكن عندما تتحرر هذه الديناميات النفسية بشكل نشط، بالإضافة إلى الميزات العاطفية والحسية والمثالية المرتبطة بها، ستُحلّ "نقاط العقد" النفسية الخاصة بالوعي الشخصي بما يكفي للقيام بالرحلة الداخلية نحو الأعماق، للانتقال من البيوغرافيا الشخصية إلى إدراك مناسب ما وراء شخصي (بيولوجي أولاً، ومن ثم ميتافيزيقي- باطني).

ما لحظّه د. غروف هو أنه، مع "تخفف" المرضى في مرحلة التحليل النفسي الفرويدي ومرحلة "الديناميكية النفسية" المرافقة للعلاج بالعقاقير المخدرة- psycholytic"[114] من حالات التعلّق الأساسي- وبالتالي تحللهم من سطوتها- المرتبطة بالشعور والسلوك المتجذّر فيهم دون وعي

114 علاج يشمل جرعات منخفضة إلى متوسطة من الأدوية المخدرة، تُستخدم أساساً لعلاج المرضى الذين يعانون من اضطرابات عصبية نفسية. (م).

منهم، يبدؤون، لدى ترك مجال الذاكرة الشخصية هذا خلفهم، بإظهار أعراض نفسية وجسدية ذات طبيعة تختلف تماماً عن تجربة التحلل؛ أي أن تلك التجارب المتعلّقة بعذابات الولادة الفعلية: لحظة (بل ساعات بالتأكيد) الرعب اليائس المنفعل، عندما تبدأ تقلّصات الرحم وتستمرّ وقتاً طويلاً؛ أو المعاناة التي تنشط في المرحلة الثانية من الولادة، عندما ينفتح عنق الرحم وتبدأ عملية الدفع عبر قناة الولادة. تستمرّ [المرحلة الثانية] مع تكثيف متواصل من الرعب والعذاب الكاملين، إلى ذروة تقارب عملياً تجربة الفناء؛ عندما ينبثق الضوء بشكل مفاجئ! ثمة الألم الحاد الناجم عن قطع حبل السرّة، والاختناق إلى أن يجد مجرى الدم مساره إلى الرئتين، ومن ثم، الهواء والتنفّس، من قِبَل المرء ذاته! يتابع د. غروف: "كان المرضى يُمضون ساعات في ألم مبرّح، يلتقطون أنفاسهم، وتتغير ألوان وجوههم من لون شحوب الموت إلى الوردي القاتم. كانوا يتدحرجون على الأرض ويمزّغون توتراتهم العصبية بانقباضات عضلية، وتشنّجات وحركات التوائية معقّدة. وغالباً ما يتضاعف معدّل النبض، ويصبح ذا طبيعة خيطية؛ وغالباً ما يحدث شعور بالغثيان مترافق مع قيء عرضي وإفراط بالتعرّق.

ويتابع: "على المستوى الشخصي، كانت هذه التجارب ذات طبيعة ما وراء شخصية. وشملت نطاقاً أوسع بكثير من جسد وفترة حياة الفرد. كما كان المرضى الخاضعون للتجربة يتماهون مع أفراد عديدين، أو مع مجموعات أفراد في الوقت ذاته؛ وفي الحالات المتطرّفة جداً، شمل التماهي الجنس البشري المعذب برمته، في الماضي والحاضر والمستقبل". واستطرد: "الظاهرة التي نراها هنا ذات طبيعة أساسية، ولديها أبعاد تختلف كثيراً عن المرحلة الفرويدية". إنها في الواقع، من النسق الأسطوري ما وراء الشخصي، غير منحرفة وبذلك تُعزى إلى حوادث من حياة الفرد (كما في الحقل الفرويدي)، بل منفتحة على الخارج، وعلى الداخل أيضاً، وعلى ما أسماه جيمس جويس "الأساسي والثابت في معاناة الإنسان".

على سبيل المثال، عند معاناة التخفف في فترة العلاج النفسي، من كابوس المرحلة الأولى المرتبط بصدمة الولادة. أي عندما تبدأ تقلّصات الرحم، ويصحو وعي الطفل المُحتجز في الداخل، الطفل الذي يعاني الخوف المفاجئ والألم، وأنه عرضة للخطر. تهيمن على الذات -sub ject الخائفة إلى أقصى الحدود تجربةٌ عصيبة لكونه ضحية ألم مبرح. فيحفل الذهن بأخيلة عذابات قاسية، ومعاناة استثنائية ويأس وجودي: في تماهٍ مع صلب المسيح ("إلهي إلهي، لماذا تركتني؟")، أو مع تقييد بروميثيوس إلى الجبل، أو تثبيت أكسيون تحت العجلة الدوارة. هنا تصبح الصيغة الميثولوجية صيغةً بوذا، "كلّ الحياة مؤلمة": تولد في الخوف والألم، وتنتهي مع الخوف والألم، وهناك القليل بينهما مما يخلو من الخوف والألم. "*باطل الأباطيل، الكل باطل*"[115]. وهنا تصبح مسألة "المعنى" استحواذية، وإذا انتهت جلسة الـ LSD بهذه الملاحظة، سيبقى الإحساس بالحياة بشكل عام بغيضاً وفاقداً للمعنى، ومشبعاً بالكراهية وأشبه بجحيم كئيب، دون سبيل للخروج أو الدخول لا زمانياً ولا مكانياً، "لا مخرج". باستثناء الانتحار الذي، إذا التجأ المرء إليه، سيكون من النوع السلبي البائس الهادئ؛ كالانتحار غرقاً، أو بجرعة كبيرة من الحبوب المنوّمة، أو ما يشبه ذلك.

بالانتقال إلى مرحلة معاناة التخفّف المكثفة في المرحلة الثانية المتعلّقة بصدمة الولادة، وهي الصراع المؤلم في قناة الولادة، يُصبح المزاج والتخييل عنيفين، ولا تكون المعاناة السلبية هي التجربة المهيمنة هنا بل المعاناة النشطة، وحضور عناصر العدوانية والرغبة المادية المازوشية: الأوهام عن المعارك المروّعة، الصراع مع وحوش هائلة، الغرق بمياه المدّ والجزر، الآلهة الغاضبة، طقوس التضحية المرعبة، العربدة الجنسية، مشاهد المحاكمات، وما إلى ذلك. في هذه

115 هذه العبارة هي الجملة الأولى من سفر الجامعة في العهد القديم. والمعنى الأساسي لها هو عدم وجود جدوى من أي سلوك بشري. (م).

الصراعات تتماهى الذاتُ مع الضحايا ومع القوى المعتدية في آن معاً، ومع تصاعد حدة الألم الشامل، يصل المريض في النهاية عتبة الألم، ثم يتجاوزها إلى أزمة شديدة أطلق عليها الدكتور غروف اسم "النشوة البركانية". وفي هذه الحالة، تكون جميع أشكال الألم والفرح، الرعب والبهجة، الاعتداء الإجرامي والحب الشغوف، متحدة معاً ومتجاوزة الحدُ المألوف. ويرتبط التخييل الميثولوجي المرتبط بهذه الحالة بأديان تستمتع بالمعاناة والتضحية والشعور بالذنب: رؤى غضب الله، الطوفان الكوني، سدوم وعمورة، موسى والوصايا العشر، المسيح على الصليب، عربدات باخوس إله الخمر، أضحيات شعب الأزتك المرعبة، شيفا المدمّرة، رقصة كالي الرهيبة على الأرض المحروقة، وطقوس سيبيل Cybele القضيبية. ويكون الانتحار في هذا المزاج الديونيزوسي من النمط العنيف: تفجير الشخص لدماغه، القفز من ارتفاعات عالية، الوقوف أمام القطارات، وسوى ذلك. أو قد يُقدم المرء على ارتكاب جريمة قتل خرقاء. وقد يكون مهووساً بمشاعر توتر شديد ممزوج بتوقّع كارثة؛ أو شديد الانفعال، ولديه ميل لإثارة الصراعات. كما وينظر إلى العالم على أنه مليء بالتهديد والظلم. ثم هناك مهرجانات من الركلات البرّية، فرق هائجة وممارسات جنسية لا أخلاقية، عربدات كحولية ورقصات باخوسية، عنف من كافة الأنواع، مغامرات وحالات انفجار مدوّية تَسمُ أنماط الحياة المصدومة بضراوة التجربة في مرحلة الولادة. وفي سياق الجلسة العلاجية، ربما تنجم عن التراجع إلى هذا المستوى أزمةٌ بالغة الهول سببها الموت الفعلي لـ "أنا"، والفناء العميم على كافة المستويات، يلي ذلك إحساس هائل بالتحرر، وإعادة الولادة، والخلاص، وإحساس بانخفاض الضغط، واتساع الحيّز، ووجود مشعّ مبهر: رؤى سماوية زرقاء وذهبية، قاعات عملاقة فيها أعمدة وثريّات كريستالية، أحلام طاووسية، أطياف قوس قزح، وما يشبه ذلك. ومع شعور هؤلاء الأشخاص بالنقاء والطهارة، تراودهم حالة من

الحب الغامر للبشر جميعاً، وتقدير عالٍ للفنون والجمال الطبيعي، وشهيّة عظيمة للحياة وشعور بالتسامح والتصالح الرائعين، وإحساس برحابة الله في عليائه، وأن كل ما يمتّ بصلة إلى العالم على ما يرام.

وجد الدكتور غروف (وأنا أجد ذلك مثيراً جداً للاهتمام) أن تصورات الأديان العالمية المختلفة تنحو إلى الظهور لتساند مرضاه بطرق مختلفة خلال فترات علاجهم المتعاقبة. وفي ارتباط مباشر مع عذابات صدمة الولادة المَعيشة مرة أخرى، فإن التصور الاعتيادي الذي يخطر في البال هو التصور عن العهد القديم والجديد معاً بالإضافة إلى ما يشبهما (بين حين وآخر) من الإغريقية، أو المصرية أو الوثنية. وبكل الأحوال، عندما تنتهي المعاناة، واختبار التحرر من "الولادة" - في الواقع، الولادة "الثانية"، أو الولادة "الروحانية"، المنبثقة من مخاوف اللاوعي من حالة الشخصية الأسبق، "الولادة الواحدة" - سيتغيّر الترميز جذرياً. وبدلاً من الثيمات التوراتية والإغريقية والمسيحية على وجه الخصوص، ستشير المقارنة الآن إلى الشرق العظيم، والهند بشكل أساسي. يقول د. غروف: "إن مصدر هذه التجارب مبهم، وتشابهها مع التفسيرات الهندية مثير للدهشة". لقد شبّه أسلوبها بما هو موجود داخل الرحم قبل الولادة: الهناء، السلام، الحياد. وحالة الملاذ الرحميّ الأزليّ: مشاعر عميقة إيجابية من الغبطة والحب والتناغم، أو حتى الاتحاد مع الكون أو مع الله. ومقابل ذلك، ثمة هذه الحالة العصية عن الوصف وهي في الوقت ذاته حالة الحياد المطبق وحالة الاحتواء الكلّيّ والعدم أكثر مما هو الوجود، ليس هناك من "أنا" ولا مدى للنفس التي تحيط بالكون كله. وهنا أفكر بذلك النص في كتاب ألدوس هكسلي بعنوان "بوابات الإدراك"، حيث وصف الأحاسيس التي اختبرها في مغامرته الأولى مع مادة الميسكالين المخدرة التي فتحت ذهنه على مستويات من العجب لم يكن ليتخيّلها من قبل.

كتبَ هكسلي:

عندما أفكّر بتجربتي، أجد نفسي متفقاً مع الفيلسوف البارز في جامعة كامبريدج، الدكتور سي. دي. برود بأن "من الأفضل لنا أن نفكّر، وبشكل أكثر جدية مما كنا نعتقد حتى الآن، بتطبيق ما كنا عليه، ما كنا نميل إليه، إلى يومنا هذا، بتطبيق النظرية التي طرحها بيرغسون في التواصل مع الذاكرة والإدراك الحسي. الفكرة هي أن وظيفة الدماغ والجهاز العصبي تقوم على الإزالة وليست على الإنتاج. في لحظة معيّنة، حيث يكون كل شخص قادراً على تذكّر كل ما حدث معه، يستطيع أن يتصوّر كل ما يحدث في أي مكان في الكون. إن وظيفة الدماغ والجهاز العصبي هي الحماية من أن تغرقنا وتربكنا كتلة المعرفة الهائلة غير المفيدة وغير المجدية إلى حد كبير، وأن تحجبنا عما يجب علينا رؤيته وتذكّره في أية لحظة، ولا تترك لنا سوى خيارات صغيرة جداً وخاصة تلك التي لا يرجّح أن تكون مفيدة عملياً".

وفقاً لنظرية كهذه، فإنّ كلاً منّا عقلٌ مفتوح على اتساعه. لكن بقدر ما نحن حيوانات، يتركز اهتمامنا بنسبة كبيرة على النجاة والبقاء على قيد الحياة. ولجعل البقاء البيولوجي ممكناً، يجب تسريب الدماغ بتقليص الدماغ والجهاز العصبي. أما ما يخرج من الجهة الأخرى فهو قطرات تافهة لنوع من الوعي الذي يساعدنا على البقاء أحياءً على سطح هذا الكوكب المميز.... في أغلب الأحيان، لا يعرف معظم الناس سوى ما ينتج عن تقليص الصمام، وهو ما يُكرّس كشيء حقيقي جداً عبر اللغة المحلية. لكن على أية حال، يبدو أن هناك أشخاصاً معيّنين يولدون ولديهم "مسرب جانبي" يلتفّ حول "الصمام المقلّص". وقد يحصل الآخرون على ممرات جانبية مؤقتة،

إما تلقائياً أو نتيجة لتجارب روحية مدروسة، أو بالتنويم المغناطيسي أو المخدرات. عبر هذه الممرات الدائمة أو المؤقتة، لا يتدفّق تصوّر "كل ما يحدث في أي مكان من الكون، بل شيء أكثر من ذلك، شيء مختلف عن المادة النفسية المُختارة بعناية، والتي تعتبرها عقولنا البشرية الفردية الضيقة، صورة كاملة، أو كافية على الأقل، عن الواقع"[116].

ما يصدمني بشكل واضح خلال هذا كله أن تصوّرَ الأسطورة النابعَ من النفس والمرتدّ إليها، يتمثّل في تحوّلاتها المتعددة على شكل مراحل أو درجات مختلفة من انفتاح الوعي الذاتي على احتمال ما أطلق عليه ألدوس هكسلي "العقل في أقصاه". يبيّن أفلاطون في كتابه "طيماوس- محاورات أفلاطون" أن "هناك طريقة واحدة فحسب يمكن للنفس من خلالها أن تخدم نفساً أخرى، وهي بمنحها الغذاء والقدرة على الحركة: فالدلائل التي تشبه المبدأ الإلهي فينا هي أفكار الكون وثوراته. وأودّ القول إن تلك تحديداً هي المجسّدة في الأسطورة. كما هو واضح في مختلف أساطير شعوب العالم، فقد خُصصت المسلّمات في كل مكان للسياق السياسي- الاجتماعي المحلي. وكما اعتاد البروفيسور الكبير المختص في الأديان المقارنة في جامعة مينوخ أن يقول: "إن الدين بمعناه الذاتي، بالنسبة للبشر كافة، هو دين واحد. وبالمعنى الموضوعي، هناك أشكال مختلفة له".

أعتقد أن بإمكاننا القول الآن إنه في الماضي، خدمت الأشكالُ المختلفةُ الاهتمامات المختلفةَ وغالباً الصراعات المختلفةَ، للمجتمعات المتعددة، وقيّدت الأفراد إلى آفاق ومُثُل جماعاتهم المحلية، بينما تعلّمنا في الغرب في هذه الفترة أن نلاحظ التمايز بين المجالات والوظائف الخاصة

116 Ibid, pp. 22-24.

بالمجتمع، وبالأهداف الاقتصادية والسياسية، وهدف البقاء على قيد الحياة من جهة أولى، وبالقيم النفسية المطلقة (أو الروحانية كما اعتدنا أن نقول) من جهة أخرى. وبالعودة إلى دانتي مرة أخرى: هناك في المقالة الرابعة من كتاب *الوليمة*- *convito* مقطع تحدّث فيه عن الفصل المُنزل إلهياً ما بين الدولة والكنيسة كما رُمِّزَ تاريخياً وفق تواريخ متصلة رغم انفصالها عن روما وآورشليم، والإمبراطورية والبابوية. إنهما (الدولة والكنيسة) ذراعا الله، ليس الأمر مُريكاً؛ هو يوبّخ البابوية على تدخلاتها السياسية، وعلى أن سلطة الكنيسة ملائمة "ليس لهذا العالم" بل للروح، وهي جيدة وضرورية أيضاً. لكنّ الأمرين ليسا متشابهين- العلاقة التي تخصّ أهداف هذا العالم هي تماماً علاقة "العقل بالإطار الواسع" التي طرحها هكسلي لأهداف نفعية تتعلّق بالحفاظ على الحياة بيولوجياً.

نحن نعيش اليوم- والحمد لله!- في دولة علمانية، يديرها البشر (بكل أخطائهم التي لا مفرّ منها) بحسب مبادئ القانون التي لا تزال في طور النمو، والتي لم تنشأ في أورشليم بل في روما. والأهم من ذلك، أن مفهوم الدولة يخضع بشكل متسارع في هذا الزمن إلى مفهوم الإيكومين- ec-umene، المعمور، ويعني الأرض المأهولة كلها؛ وإذا لم يجمعنا شيء آخر، فسوف تجمعنا الكارثة البيئية. وبالتالي لم يعد هناك أدنى حاجة، أو إمكانية، لتلك الروابط المحلية، والحدود السياسية الاجتماعية، والأشكال الدينية المختلفة "بمعناها الموضوعي" والتي قسّمت البشر في الماضي، فـ دعْ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله'.

"الله هو مجال جليٌ ومركزه في كل مكان، ومحيطه في أي مكان". هذا ما قيل لنا في كتاب صغير يعود إلى القرن الثاني عشر، ويحمل عنوان "كتاب *الفلاسفة الأربعة والعشرين*". وبالتالي فإن كل فرد منا- أياً كان وأينما كان- هو عبارة عن مركز، ويوجد في داخله، سواء أكان يعرف أم لا، ذلك 'العقل في أقصاه'، ولا تشمل قوانينه قوانين العقول كلها فحسب بل قوانين الفضاء أيضاً. وكما أشرت مُسبقاً؛ بما أننا

أولاد هذا الكوكب الجميل الذي رأينا صوره مؤخراً بعد التقاطها من القمر. ونحن لم تُرسَل إليه من قِبَل إله معيّن، بل نشأنا منه. إننا عيونه وعقله، بصره وبصيرته، وهذه الأرض وشمسها، الضوءُ الذي تطير حوله كفراشة، قد نشأ من السديم، كما قيل لنا؛ ونشأ ذلك السديم بدوره من الفضاء. ولهذا، فنحن عقل الفضاء في نهاية المطاف. فليس غريباً إذاً أنّ قوانينه هي قوانيننا! كما أنّ أعماقنا هي أعماق الفضاء، حيث انبثقت كل تلك الآلهة التي أسقطها عقل الإنسان في الماضي على الحيوانات والكواكب، على الهضاب والأنهار، على النباتات في دوراتها، وعلى طقوسها الاجتماعية المتميزة.

وبالتالي، يجب أن تكون أساطيرنا الآن عن الفضاء اللامتناهي وضوئه، الخارجي كما الداخلي على حد سواء. إننا عالقون كالفراشات في جاذبيته، نطير إليه في الخارج، إلى القمر وما بعده، ونطير إليه نحو الداخل أيضاً. وعلى كوكبنا ذاته، تحطمت جميع الآفاق الفاصلة. لم نعد نستطيع أن نخفي حبّنا في المنزل ونُبرز عدوانيتنا في مكان آخر؛ لأنه، على هذا الكوكب الطائر "الأرض"، لم يعد هناك وجود "لمكان آخر". وليس هناك أسطورة تكمل الكلام السابق، أو تعلّمنا شيئاً عن "مكان آخر" أو "دخلاء" وتتفق مع متطلبات الراهن.

وهكذا نعود إلى سؤالنا المفتوح: ما هي، أو كيف يجب أن تكون، أساطيرنا الجديدة؟

إنها- وستبقى على الدوام، ما دام العرق البشري موجوداً- الأساطير القديمة الدائمة الأبدية "بمعناها الذاتي" المتجدد شاعرياً شرطَ ألا تكون ماضياً مُستعاداً ولا مستقبلاً مخططاً له؛ بل أن تختصّ بالحاضر: أي إنها لا تهدف إلى محاباة "الشعوب" بل إلى إيقاظ الأفراد في وعيهم أنفسَهم، ليس ببساطة كـ "أنوات egos" تصارع من أجل مكان على سطح هذا الكوكب الجميل، بل بالتساوي بما هم مراكز لـ "العقل في أقصاه"- كلٌ بطريقته على وفاق مع الجميع، دون أن تحدّهمُ الآفاق.

About the Joseph Campbell Foundation

The Joseph Campbell Foundation (JCF) is a not-for-profit organization incorporated to:

- preserve, protect, and perpetuate Joseph Campbell's pioneering work, catalogue and archive his papers and recordings, protect his intellectual property, create and license the Collected Works of Joseph Campbell in various media, and increase awareness of his scholarly contributions via JCF's web site (www.jcf.org).
- promote the study of mythology and comparative religion, support education programs and events that increase public awareness of these fields, and utilize www.jcf.org as a forum for relevant cross-cultural dialogue.
- enable individuals to enrich their lives through JCF's internet-based Associate Program and itse international network of locally-organized Mythological Roundtable® groups, and by periodically undertaking myth-ennobling activities.

For more information on the work of Joseph Campbell and JCF please contact:

Joseph Campbell Foundation
136 Waverly Place, #14D
New York, NY 10014-6823
United States of America
www.jcf.org

ما الأساطير التي تؤدي وظائفها على النحو الصحيح،
وما هي هذه الوظائف؟
أيمكن للأساطير أن تسهم في التخفيف من قلقنا المعاصر،
أم أنها سبب في تكثيف هذا القلق؟

في هذا الكتاب، يستكشف جوزيف كامبل ما تنطوي عليه أساطير العالم من طاقة متواصلة تؤثر في حياتنا اليومية ويتحرى سيرورتها من البدء وحتى وقتنا الراهن، فيرجع دائماً إلى المنبع الذي نشأت منه، وهو الخيال الثرّ الخلاق. يؤكد كامبل على أن الحدود الفاصلة للأرض قد امّحتْ؛ وعلى أن الأساطير والأديان قد اقتفتْ آثار أنماط بدئية أساسية معيّنة ولم تعد حكراً على شعب واحد أو منطقة محددة أو دين دون سواه. ويبيّن أن علينا استكناه قواسمها المشتركة واستثمارها لتحقيق الغايات البشرية العليا في كلّ مكان.

هذا الكتاب تحليل شامل وباهر لأساطير
العالم، بقلم جوزيف كامبل، مرجع
الأسطورة الأول في العالم.